زكي مبارك

الموازنة بين الشعراء

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

(88)

2002

88

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد : فهذا كتاب « الموازنة بين الشعراء » أقدمه مرة ثانية إلى المنصفين من أهل الأدب والبيان ، ولولا الشواغل لقدمت إليهم هذه الطبعة منذ سنين ، فقد طوقني القراء بالجميل حين أنفدوا نسخ الطبعة الأولى فى أقل من سنتين وحين دأبوا على استعجال الطبعة الثانية عدداً من السنين .

أقدم إلى القراء هذا الكتاب ، وما أنكر أنى به مفتون ، فقد أنشأت فصوله ، وأنا فى غاية من عافية الذوق ، وشباب القلب ، وعنفوان الروح . فجاء مجدول الحقائق ، مصقول الأضاليل ، وفى الأدب الحقّ هدًى وضلال وربما كان من الخير أن أنبه القارىء إلى أن فصول الطبعة الأولى أنشئت فى ربيع سنة ١٩٢٥ ، وأن ما أضيف إلى هذه الطبعة — وهو نحو مائتى صفحة — أنشىء فى ربيع سنة ١٩٣٦ فبين التليد والطريف من فصول هذا الكتاب عشر سنين ، ولست أدرى أى العنصرين أقوى وأجزل ، وإن كنت أعلم علم اليقين أنى كنت فى العهدين من أحرص الناس على الحق والصدق ، ومن أزهدهم فى اللغو والفضول .

هذا كتابى أقدمه بيمينى . وأنت يا رباه — تباركت وتعاليت — تعلم أنى خدمت به لغة القرآن . ولم يبق غيرك — يا رباه — مَنْ أنتظر منه حُسْنَ الجزاء .

(وكَفَى بالله وَلياً وكفى بالله نصيراً)

أكتوبر ١٩٣٦

محمد زكى عبد السلام مبارك

البحث الأول

أهواء النقاد

— ١ —

فُطِرَ الناس على حُبِّ المفاضَلة بين الوسائل التى ترمى إلى غرض واحد ، والموازنة بين الأنواع التى ترجع إلى أصل واحد ، وقد ظهرت هذه الفطرة واضحةً جليّة حين ظهر الشعر ، وتبَارَى فى قرضه الشعراء .

وليست الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد ، يتميز بها الردىء من الجيّد ، وتظهر بها وجوه القوة والضعف فى أساليب البيان : فهى تتطلب قوة فى الأدب ، وبصراً بمناحى العرب فى التعبير ، ومن هنا كان القدماء يتحاكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء ، فى سوق عكاظ ، إذ كان فى نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام .

وقد كَلِفَ الأدباء فى مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من الشعراء فى عصر واحد : فوازنوا بين امرىء القيس ، والنابغة ، وزهير ، والأعشى فى الجاهليّة ، وبين جرير ، والفرزدق ، والأخطل فى الدولة الأموية ، وبين أبى نوّاس ، ومُسلم ابن الوليد ، وأبى العتاهية ، وبين ابن المعتز وابن الرومى ، وبين أبى تمام والبُحتُرى فى الدولة العباسية ، وكذلك عُقِدَت الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول إلى العصر الذى نعيش فيه ، والعهد قريب بما كتب فى الموازنة بين شوقى وحافظ ومطران فى الجرائد المصرية والسورية ، ولا يزال الأدباء مختلفين فى حكمهم على من تقدّمهم ، أو عاصرهم من الشعراء .

***

ونريد أن نبين فى هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدّروا قديماً أو حديثاً

للموازنة بين شاعرين : جمع بينهما عصرٌ واحد ، أو اشتركا فى الإبانة عن غرضٍ واحد ، وأن نضع ميزاناً يُعتمد عليه فى وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات ليستطيع المتأدب الفصلَ بين شاعرين اختلَف من أجلهما الناس .

وسبيلنا إلى ذلك أن نحدد شخصية الناقد الذى يرشِّح نفسه للموازنة ، وأن نميز الوحدة الأدبية التى يرجع اليها الناقد فيما يُعنى به الشعراء من تحرير المعانى ، واختيار الألفاظ .

— ٢ —

يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عُليا فى فهم الأدب ، وأن يُصبح وله فى النقد حاسة فنيّة تنأى به عما يُفسد حكمه من الأهواء والأغراض التى تحمل القاصرين من طلاب الأدب على البعد عن جادّة الصواب ، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء . فقد نجد من الناس من يطرب للشعر ، لا لأنه شعر ، بل لأنه طرق موضوعاً يحبه ، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه ، وقد لايكون ما سمعه أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية ، أفيُعتبر هذا الإعجاب دليلاً على حُسن ما استَحْسَنَه هذا الذى تشبَّعت نفسه بغرضٍ خاص ؟

— ٣ —

ومن هنا نستطيع غضّ النظر عن أحكام المتأدبين الذين يفضِّلون القديم مطلقاً على الجديد ، بحيث يرون الجديد نوعاً من الهُراء ، أو يفضلون الجديد مطلقاً على القديم بحيث يرون القديم صورة من صور الجمود ، وإنما نغضّ النظر عن أحكام هؤلاء لأن التشيع للقديم أو الجديد صرَفهم عن الاستعداد للحاسة الفنية التى تَطْرب للجيد المُمتع من ثروة القدماء والمحدَثين .

وقد تنبه لهذا عبد العزيز الجرجانى حين قال : وما أكثر مانرى ونسمع عن حُفّاظ اللغة وجلّة الرواةَ ممن يَلْهَجُ بعيب المتأخرين ، أن أحدهم ينشَد البيت فيستحسنه ويَستجيده ويعجب منه ويختار ، فاذا نُسب لبعض أهل عصره وشعراء زمانه ، كذب نفسه ، ونقض قوله ، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً ، وأقل مَرزَأً من التسليم

بفضيلة لمُحْدث ، والإقرار بالإحسان لمُوَلَّد ، وحكى عن إسحاق الموصلى أنه قال : أنشدت الأصمعى :

هَلْ إِلَى نَظْرَةٍ إِلَيْكَ سَبِيل ... فَيُبَلَّ الصَّدَى وَيُشْفَى الْغَلِيل

إِنَّ مَاقَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِى ... وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقَلِيل

فقال : هذا والله الديباج الخسرَوانىّ ! ولمن تنشدنى ؟ فقلت إنهما لليلتهما . فقال : لاجَرَمَ ، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر ! !

ومن أجل هذا جاز ما ابتدعه خَلَفٌ الأحمر من الشعر باسم شعراء الجاهلية ، لأن غرام الناس إذ ذاك بالقديم جعلهم يُسيغون أكثر ماأضيف إلى القدماء من ألوان الكلام ! !

— ٤ —

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التى تَتَسّم بسِمَة الغَيرة على الجنس والدفاع عن النّوع : كالموازنة التى كانت تعقدها السيدة سُكَيَنة بين الشعراء ، وليس بصحيح ماذكره أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدى فى محاضراته بالجامعة المصرية : من أن السيدة سُكَيَنة كانت ترى فضل الشعر فى الصدق ، والرفق ، وجميل الأحدوثة ، استناداً إلى الحديث الذى نقله صاحب الأغانى ، فسيرى القارئ أن نقد السيدة سكينة متأثر بالعطف على المرأة ، بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية.

وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية ، ولكنه يظل قيّماً فى نظر الأديب الفنّان .

وأنا أشرِك القارئ فى الحكم على ذلك الحديث . ذكر صاحب الأغانى أنه اجتمع فى ضِيَافة السيدة سُكَيَنة جَرير والفَرَزْدَق وجَميل وكُثَيّر ونُصَيْب ، فمكثوا أياماً ، ثم أذِنَت لهم فدخلوا عليها ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم ، ثم أخرجت وصيفةً لها وَضِيئَةً قد رَوَت الأشعار والأحاديث ، فقالت: أيكم الفَرَزْدَق ؟ فقال ؛ هأنذا . فقالت : أنت القائل .

هُما دلَّتانى مِنْ ثَمانِين قامَةً
كَمَا انحَطَّ بازٌ أقْتَمُ الرِّيشِ كاسِرُهْ[1]

فلما استَوَتْ رِجْلاى بالأَرض قالتا
أحَيٌّ يُرَجَّى أم قتيلٌ نُحاذِرُهْ

فقلتُ ارفَعُوا الأَمْراسَ لا يَشْعُروا بنا
وأَقبلتُ فى أعجازِ ليلٍ أُبادِرُهْ[2]

أُبادِرُ بَوابَيْنِ قَدْ وُكِّلابِنا
وأحمرَ مِنْ ساجٍ تَبُصُّ مَسامِرُهْ[3]

قال : نعم ! قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك وعليها ؟ خُذ هذه الألف والحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت أيكم جرير ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

طرَقَتْكَ صائدةُ القلوب وَليْسَ ذا
وَقْتَ الزيارةِ فارْجِعِى بِسَلامِ

تُجْرِى السِّواكَ عَلَى أغَرَّ كأنَّهُ
بَرَدٌ تَحَدَّرَ من مُتُون غَمامِ

قال : نعم ! قالت : أولا أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيفٌ وفيك ضعف ! ! خذ هذه الألف والحق بأهلك ؟

---

(١) البازى : ضرب من الصقور .

(٢) الأمراس : الحبال . (٣) تبص : تلمع .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت أيكم كُثَيِّر؟ فقال : هأنذا ؛ فقالت : أنت القائل :

وَأَعْجَبَنِى يا عَزُّ مِنْكِ خَلَائِقُ كِرامٌ إذا عُدَّ الْخَلَائِقُ أَرْبَعُ
دُنُوُّكِ حَتى يَدْفَعَ الْجَاهِلَ الصِّبَا وَدَفْعُكِ أَسْبَابَ الْمُنَى حِينَ يَطْمَعُ
فَوَاللهِ مَا يَدْرِى كَرِيمٌ مُمَاطَلٌ أَيَنْسَاكِ إِذْ بَاعَدْتِ أَوْ يَتَصَدَّعُ

قال : نعم ! قالت : ملُحْتَ وشَكِلْتَ ! خذ هذه الألف والحق بأهلك

ثم دخلتْ على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نُصَيْب ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

وَلَوْلَا أَن يُقال صَبَا نُصَيْبٌ لَقُلْتُ بِنَفْسِيَ النشَأُ الصِّغَارُ
بِنَفْسِى كل مَهْضُومٍ حَشَاها إِذَا ظُلِمَتْ فَلَيْسَ لَهَاانْتِصَارُ

قال : نعم ، فقالت : ربيتنا صغاراً ، ومدحتنا كباراً ! خذ هذه الألف والحق بأهلك .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل ! مولاتى تُقْرِئكَ السلام وتقول لك : والله مازلت مشتاقةً لرؤيتك منذ سمعت قولك :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِوَادِى الْقُرَى إِنِّى إِذًا لَسَعِيدُ (١)
يَقُولُونَ جَاهِدْ يَاجَمِيلُ بِغَزْوَةٍ وَأَىُّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ

---

(١) وادى القرى : هو واد بين المدينة والشام أكثر من ذكره الشعراء .

جَعَلْتَ حديثنا بشاشةً وقتلانا شُهداء ! خذ هذه الألف والْحَق بأهلك .

وليس فى هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينة لم تهتمّ ولم تحرص إلا على أخلاق الأدباء ، وأنها ألقت عليهم درساً ما كان أحوجَهم إليه — كما ذكر أستاذنا المهدى — وإنما هو حديثٌ صريحٌ فى الإبانة عن حرص السيدة سكينة على نعيم المرأة بوجه خاص .

ألا ترى كيف عَقّبتْ على قول جرير :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا
وَقْتَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِى بِسَلَامِ

إنها قالت له : أولا أخذتَ بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف ، وفيك ضعف !

فالسيدة ترى أنه كان يجمل بالشاعر أن يأخذ بيدها ، وأن يقول لها ما يقال لمثلها فكان يقول بالطبع « ادخلى بسلام » ونحن نعلم إلى أين يؤخذ بيد المرأة حين تَطْرق عاشقَها بلَيْل !

ثم ما معنى هذه الجملة « أنت عفيف ، وفيك ضعف » أما والله إنى لأحب أن يُعفينى القارىء من شرح ما فى هذه الجملة من ألوان الفُتُون !

وقد رضيت السيدة سكينة عن تلك الفتاة اللّعُوب ، التى تدنو حتى يركب الجاهل رأسه ، ويُسَخَّر لصباه ، وتنفر حتى تتقطع بالغَوِىّ أسباب المنى والمطامع والتى لا تزال تلعب حتى يُغْلَب المحب على أمره ، فما يدرى أيضْنِف وينسى ، أم يُمسى وهو مُتَيَّمٌ مجروح الفؤاد .

وفى هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية ، فلم تذكر إلا أنه ملُحَ وشَكِل ،(١) وأنه بلغ بذلك غاية البيان .

وما الذى أعجبها فى شعر نُصَيْبٍ ؟ أعجبها أنه ربّاهُنّ صغاراً ، ومدحهنّ كباراً ! وهذا ما أردتُه من الغيرة على الجنس ، والدفاع عن النوع ، ولهذا أعجبها من جميل أنه جعل حديثهنّ بشاشة وقتلاهن شُهداء !

---

(١) شكل على وزن فرح : من الشكل بالكسر ، وهو رقة الغزل .

ويؤيد هذا الرأى ماذكر من أنها قالت مرة لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

أَلَا لَيْتَنِى أَعْمَى أَصَمُّ تَقُودُنِى ... بُثَيْنَةُ لَا يَخْفَى عَلَىَّ كَلَامُهَا

قال : نعم ! قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً فى شعره .

ألا تراها رَضِيَتْ بما رَضِىَ الشاعر لنفسه من العمى والصمم مع سلامة محبوبته ، وهى التى أنكرت على الفرزدق أن يفزع ويُروَّع حين فزعتْ ورُوِّعتْ من أجله صاحبتاه ؟

— ٥ —

ونستطيع أيضاً أن لانبالى بأحكام المتأدبين الذين يخضعون لغير الفكرة الأدبية : كالفقهاء والمتصوفة ، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس العُرف ، والمألوف ، والمستحسن من خصال الناس ، فقد قيل لعمْرو بن عُبَيْد : ما البلاغة ؟ فقال ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصّرك مواقع رشدك ، وعواقب غيك .

فهو يقيس جودة الكلام بمقياس الدعوة إلى الرشد ، والنهى عن الغىّ ، والتنفير من طاعة الهوى . مع أن من الكلام ما يهوى بصاحبه إلى أعماق الجحيم ، وهو فى الوقت نفسه يسمو به إلى أعلى مراتب البيان .

ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) ، ثم قال بلهجة جدّية : لاعيب فى هذا الكتاب إلا أنه لم يختم بفصلٍ فى النهى عن العبث بالنساء (!)

— ٦ —

وليس معنى هذا أن الشعر يفسد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية ، وأريد النزعة الدينية الصرفة التى تخلو من النفحة الشعرية ، ومن ذلك ماحدثوا أن بعض الشعراء أنشد المأمون فى مدحه :

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى المأمونُ مُشْتَغِلاً

بِالدِّينِ وَالنَّاسُ بِالدُّنْيَا مَشَاغِيلُ

فغضب الملك ولوَى وَجْهَه مع أن هذا البيت يُصوّر مطامع كثير من النفوس

التى يحسب أصحابها أن الإنسان لا يقرُب من ربه إلا إذا شغله دينه عن دنياه ، ولكن نفس المأمون الوثّابة الطمّاحة لم ترض عن هذه المنزلة ، ولم تشأ الزهد فى طيبات الحياة .

قلت لك : إن الشعر قد يُساير الأغراض الدينية ، وتبقى له حين تغلب فيه تلك النزعة قيمته الفنية ، وعندى لهذا شاهدٌ بديع ، وهو قول بعض الحجازيين فى ذم جماعة من عَبيد الراح :

لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ خَمْرًا يَوْمَ زُرْتُكُمُو
لَمْ يُنْكِرِ الْكَلْبُ أَنِّى صَاحِبُ الدَّار

لٰكِنْ أَتَيْتُ وَرُوحُ الْمِسْكِ يَفْغَمُنِى
وَعَنْبَرُ الهِنْدِ أُذْكِيهِ عَلَى النَّارِ

فَأَنْكَرَ الْكَلْبُ ريحى حِينَ أَبْصَرَنِى
وَكَانَ يَعْرِفُ رِيحَ الزِّقِّ وَالْقَارِ

فهذا نهىٌ عن الخمر ، ولكنك لا تستطيع أن تضع فى صفه قول ابن الوردى :

وَدَعِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى
كَيْفَ يَسْعَى فِى جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ

لأن هذا ينقصه ما يبنى عليه الشعر من رائع الخيال .

***

وأحب أن لاينسى القارىء أننا نتكلم فى الأدب لا فى الأخلاق ، فلا يبتئس بما نقول ، على أنى قد أعود إليه لأحدد معه أغراض الشعر الجيد والنثر البليغ ولأدرس معه نظرية « الفن للفن » لنعرف أكانت غاية الأدب تهذيب الأخلاق أم تربية الأذواق (١) .

---

(١) عرض المؤلف لهذه النظرية فى كتاب « النثر الفنى » .

البحث الثاني

عود إلى أهواء النقاد

بينت للقارىء فى الكلمة الماضية أنه يجب أن لايخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية ، وذكرت له بعض الآفات التى تذهب بقيمة النقد : كالتعصب للقديم أو الجديد ، والتشيع بالأفكار الدينية ، أو الصوفية ، والدفاع عن الجنس فى حكم بعض النساء بين الشعراء .

والآن أسير مع القارىء فى هذه السبيل لنعرف بقية الموانع التى تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء .

— ١ —

لا ينكر أحد أن ابن الرومى كان من الشعراء الفحول ، والشاعر أبصر بالشعر من سواه ، فلحكمه قيمة خاصة تفوق أحكام المتأدبين من رجال اللغة والرواية ، ومع هذا فأنا أستطيع أن أحكم بأن ابن الرومى حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر ، وكان فى حكمه من الخاطئين ، وإليك البيان :

كان ابن الرومى مُسرفاً فى التطير ، وكاد إسرافه فيه يصل به إلى الجنون ، فقد كان يلبس أثوا به كل يوم ويتعوّذ ، ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب فتقع على جار له كان نازلا بإزائه ، وكان أحدب ، يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر إليه رجع ، وخلع ثيابه ، وقال : لايُفتح الباب ! فكان بيته يظل مغلق الأبواب إلى أن يُشرف مَنْ فيه على الهلاك ! وعلم معاصروه بافراطه فى التطير ، فأقبل عليه أحدهم وأنشده :

وَلَمَّا رَأَيْتَ الْدهْرَ يُؤذِنُ صَرْفُهُ
بِتَفْرِيقِ مَابَيْنِى وَبَيْنَ الْحَبَائِبِ
رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِى فَوَطَّنْتُهَا عَلَى
رُكُوبِ جَمِيلِ الصَّبْرِ عِنْدَ النَّوَائِبِ
وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا عَلَى جَوْرِ حُكْمِهَا
فَأَيَّامُــهُ مَحْفُــوفَةٌ بِالْمَصَائِبِ
فَخُذْ خِلْسَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ تَعِيشُهُ
وَكُنْ حَذِرًا مِنْ كَامِنَاتِ الْعَوَاقِبِ
وَدَعْ عَنْكَ ذِكرَ الْفَأْلِ والزَّجْرِ وَاطَّرِحْ
تَطَيُّرَ جَارٍ أَوْ تَفَاؤُلَ صَاحِبِ

فبقى ابن الرومى باهتاً ينظر إليه ، ثم تبين الحاضرون أنه شغل قلبه بحفظ هذه الأبيات .

أفيحسب القارىء أن مثل هذه القطعة — وهى وَسَطٌ فى ألفاظها ومعانيها — كانت تشغل مثل ابن الرومى ، وتظفر باحتلال قلبه ، لولا بغضه للتطير ، وملله من تلك الوسوسة التى كدّرت عليه موارد الحياة ؟

إن الناقد مفروضٌ فيه البُرْء من جميع الأغراض ، لأن النقد نوع من القضاء ، فإذا سيطرتْ عليه فكرة خاصة صَيّرتْ حكمَهُ طُعْمة للظنون ، وسواء فى ذلك الأفكار الدينية ،والنزعات الجنسية،والاتجاهات العقلية التى تصبغ التفكير بلون خاص .

— ٢ —

إن الشعر الوَسطَ قد يؤثّر تأثير الشعر البديع حين تستعد له النفس ، ولكن هذا التأثير لايسمو بالشعر الوَسَط إلى منزلة الشعر الجيد ، ومن أمثلة ذلك ماروى من أن

بعض الأعراب تزوج جارية من رَهْطه وطمع في أن تلد له غلاماً ، فولدت له جارية ، فهجرها وهجر منزلها ، وصار يأوى إلى غير بيتها ، فمرّ بخبائها بعد حول ، وإذا هي تُرقص بنتها ، وهي تقول :

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لَا يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانَ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَنِينَا تَاللهِ مَا ذٰلِكَ فِي أَيْدِينَا
وإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا وَنَحْنُ كَالزَّرْعِ لِزَارِعِينَا
نُنْبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولج عليها الخباء ، فقبّلها وقبّل ابنتها ، وقال : ظلمتكما ورب الكعبة !

فأنت ترى أن هذه أبياتٌ عادية في ألفاظها ومعانيها ، ولكن لاتنس أن الرجل الذى نالت من نفسه ، وراضَتْه بعد جُمُوحه : رجلٌ ينزع قلبه بالرغم منه إلى زوجه وابْنته ، والشرارة الضئيلة كافيةٌ لاحراق الهشيم ! فليست تدل هذه الحادثة على قيمة أدبية لهذه الأبيات ، وإنما هي شاهدٌ « على ضرب من المعاملات ، وعلى أحوال الاجتماع ، وعلى ماللمرأة من لين الجانب ورقة الأخلاق » (١) .

وكذلك يجب درس حالة الناقد النفسية قبل الاعتداد بما أصدر من الأحكام لأن الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس ، وصُوَرِ العقول .

— ٣ —

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التى يخضع أصحابها لفكرة قومية ،أو حزبية ، فقد أسرف النقاد في الظلم حين تصدّروا للفصل بين شعراء الأحزاب ، وإنك لتجد أمثلة ذلك منثورةً هُنَا وهُنَاك : حين ترجع للعصور التى اصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية ، وحين تُراجع التنافس الذى كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد .

---

(١) كذلك قال الأستاذ الدكتور ضيف في مقدمته ص ٦٦

وهذا عبد الملك بن مروان كان منْ أبصَر أهل عصره بنقد الشعر ، فلما دخل عليه الأخطل وأنشده :

نَفْسِى فِداءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا
أَبْدَى النَّوَاجِذَ يَوْمٌ عَارِمٌ ذَكَرُ(١)

الْخَائِضُ الْغَمْرَةَ الميْمُونُ طَـائِرُهُ
خَلِيفَةُ اللهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ

فى نَبْعةٍ مِنْ قُرَيْش يَعْصِمُونَ بِهَا
مَا إِنْ يُوَازَى بِـأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ

حُشدٌ على الْحَقِّ عَيَّافُو الْخَنَا أُنُفٌ
إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مكروهَـةٌ صَبَرُوا

لَا يَسْتَقِلُّ ذَوُو الْأَضْغَانِ حَرْبَهُمُو
وَلَا يُبَيَّنُ فى عِيدَانِهِمْ خَوَرُ

شُمْسُ الْعدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ
وَأَوْسعُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا(٢)

هُمُ الَّذِينَ يُبَـارُونَ الرِّياحَ إِذَا
قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِينَ أَوْقَتَرُوا

بَنِى أُمَيَّةَ نُعْماكُمْ مُجَـلَّلَةٌ
تَمَّتْ فَلَا مِنَّةٌ فِيهَا وَلَا كَدَرُ

---

(١) العارم : الشديد ، والنواجذ : الأنياب . (٢) شمس : جمع شموس ، وهو الصعب المراس .

أقول : لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال : أأنادى فى الناس أنك أشعر العرب ؟ فقال الأخطل : حسبى شهادتك يا أمير المؤمنين !

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك ، فقد كان جَرير والفرزدَق فى الميدان ، ولكن عبد الملك خضع فى حكمه للمصلحة الذاتية لا الحاسة الفنية ، فقد كان الأخطل سليط اللسان ، خبيث الهجاء ، وكان عبد الملك قد استعان به على لَدْع من يُنَاوئه من رجال السياسة وشُعراء الأحزاب ، ومن هنا كانت دَالَّة الأخطل عليه ، وكان ما رَوَوْا من أنه كان يجيئه وعليه جبة خزّ ، وفى عنقه صليب ذهب ، وفى ملامحه نشوة الصهباء ، مع أن عبد الملك خليفة المسلمين ، والدين فى عنفوانه ، والناس على نصره حِراص ، ولكن السياسة ، وحاجة الملك إلى الدعاة من كُتَّاب وخطباء وشعراء ، والحرص على تحقير المعارضين ، كل أولئك أغرى عبد الملك بحب الأخطل ، والحكم بأنه أشعر الناس !

ولو أن ابن رشيق تنبَّه لهذا الغرض لما ظن أن المسلمين سكتوا عن الأخطل لجمال شعره ، ولما عجب من جهره بتحقير الفرائض الإسلامية حين قال :

وَلَسْتُ بِصَائمٍ رَمَضَانَ طَوْعاً ... وَلَسْتُ بِآكِلٍ لَحْمَ الأَضَاحِى
وَلَسْت بِزَاجِر عَنسًا بُكُورًا ... إلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ (١)
وَلَسْتُ مُنَادِيًا أَبدًا بِلَيْـلٍ ... كَمِثْلِ الْعَيْرِ حَىَّ عَلَى الْفَلاَحِ
وَلٰكِنِّى سَـأَشْرَبُهَا شَمُولاً ... وَأَسْجُدُ قَبْلَ مُنْبَلَج الصبَاحِ (٢)

ولكن ابن رشيق حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره ، وتقدمه على معاصريه ، ولذلك قال « ومن الفحول المتأخرين الأخطل ، واسمه غياث بن غوث ، وكان نصرانياً من تَغلِب ، بلغت به الحال فى الشعر إلى أن نادَمَ عبد الملك بن مروان وأركبه ظهر جرير بن عطية بن الخطفَى ، وهو تقىٌّ مسلم » . ثم قال : « وهجا

---

(١) العنس : الناقة الصلبة .
(٢) الشمول : هى الخمر التى تعصف بالعقل كما تعصف بالنبات ريح الشمال .

الأنصار ليزيد بن معاوية لما شبّب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبى سفيان ، وقيل بل بأخته هند بنت معاوية ، ولولا شعره لَقُتِـل دون أقلّ من ذلك ، وقد ردّ على جرير أقبح ردٍّ ، وتناول من أعراض المسلمين وأشرافهم ، مالاينجو مع مثله علوىٌّ فضلاً عن نصرانىّ » .

وقد بيّنت لك أن الشعر وحده لم يكن كافياً لنجاة الأخطل من أن يؤخذ بجرائره ، ولكنّ دفاعَه عن بنى أمية ، وهجاءه لخصومهم ، كانا سبباً فى تعصب الأمويين له حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء .

— ٤ —

وكما كان عبد الملك يؤثِرُ شعر الأخطل كان الرشيد يُؤْثِرُ شعر منصور النميرى ولكن لاتنس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر ، ولا العلم للعلم ، وإنما يتخذون الشعراءَ والعلماءَ مطايا لأغراضهم السياسية ، فمن البله أن نظن أن جودة الشعر هى التى أدنت النميرى من الرشيد ، أو أن اتصال النسب كان سبب تلك الحظوة كما توهم بعض مؤرّخى الآداب العربية ، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله إلى إمامة العباس وأهله ومنافرته لآل علىّ بن أبى طالب ، فقد ذكروا أنه قال فى تسفيههم هذه الأبيات :

بنى حَسَنٍ وَقُلْ لِبَنى حُسَيْنٍ ... عَلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ مِنَ الأُمُورِ
أَمِيطُوا عَنْكُمُو كَذِبَ الأَمَانِى ... وَأَحْلَامًا يَعِدْنَ عِدَاتِ زُورِ
تُسَمُّونَ النَّبِىَّ أَبًا وَيَأْبَى ... مِنَ الأَحْزَابِ سَطْرٌ فى سُطُورِ

يريد قوله تعالى فى سورة الأحزاب « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . ويذكرون أن الرشيد قال له : ماعَدَوْتَ مافى نفسى ، ثم أمره أن يدخل بيت المال فيأخذ ماأحب ، كما قال صاحب زهر الآداب ، مع أن للآية وجهاً غير هذا الوجه ، وتأويلا غير هذا التأويل .

ويؤيد ما أسلفناه أن الرشيد لما بلغه قوله :

آلُ النَّبِىِّ وَمَنْ يُحِبُّهُمُــو ... يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ (1)

(1) يتطامنون : يسكنون .

أَمِنَ النَصارَى وَالْيَهودُ وَمَنْ مِنْ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فِى أَزْلِ (١)
إِلَّا مَصــالِيتَ يَنْصُرُونَهُمُو بِظُبَا الصَّوارِمِ وَالْقَنَا الذُّبْلِ (٢)

لما بلغ الرشيدَ هذا القولُ أمر بقتله .فمضى الرسول فوجده قدمات . فقال الرشيد : لقد هَمَمْتُ أن أنبش عظامه فأحرقها !(٣)

وأنا أكتفى بهذين المثالين فى تعرض من يوازن بين الشعراء للظِّنّة حين تسيطر عليه حزبية ، أوقومية ، ولولا أنى أعرف فى شعراء العصر ضيقَ الصدر لذكرت لك نماذج من شعرهم فى مُسَايرَة الأحزاب ، خوفاً من النقد والموازنة تحت وَحْى الأغراض ، ولهم العذر فى هذا الدهاء ، فان الأمة التى تكاد تصدّق أكثر ما يقال ، إنما تحمل الشعراء على أن يحسبوا حساباً لما يكتب عنهم فى الصحف التى لا تعرف الفرق بين الشخصية الأدبية ، والشخصية السياسية ، فقد أكون عدوّك لأنك تناصر حزباً غير الحزب الذى أناصره ، وأكون فى الوقت نفسه نصيرك كعالم أو أديب ، أو فنّان .

---

(١) الأزل : الشدة .

(٢) المصاليت : جمع مصلت ، وهو المقدام ، والقنا الذبل : هى الظماء إلى الدم ، والمفرد ذابل ، ويجمع أيضاً على ذوابل .

(٣) فى كتاب : « المدائح النبوية فى الأدب العربى » . فصل مطول عن إخلاص بعض الشعراء فى حب أهل البيت .

البحث الثالث

أنفس الشعراء

— ١ —

قد رَأيْتَ أن الموازنة نوعٌ من النقد ، وهى كذلك نوع من الوصف ، فالذى يوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن من التحديد ، فمن واجب الناقد إذاً أن يتعمق فى دراسة حياة الشاعر الذى يضع شعره فى الميزان ، وأن يجتهد فى أن يرى الأشياء بعينه ، ويدركها بشعوره ، ليستطيع وزن مايقول ، فان الشاعر إنما يؤدى « رسالته » إلى جيل خاص فى قُطر خاص ، ومن التحكم أن تُطالبه بأن يرى الأشياء بعينك ، ويدركها ببصيرتك ، ويتذوقها بوجدانك ، مع أن بينك وبينه مئات الفروق ، وهو لم يعش معك ولا لك ، وإنما خضع فى شعوره لغير ما تخضع له من ظروف الزمان والمكان .

وقد رأيْتُ من الأدباء من يستنكر قول زهير فى دار محبوبته ، وقد نال منها العفـــاء :

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً
فَلأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ (١)

وهُوَ يرى أن هذا وَصْفٌ ضئيلٌ للدُّرُوس والعفاء ، وذلك غفلةٌ ظاهرة فإن منازل الأعراب تعفو وتَدْرُس فى أقلَّ من عشرين سنة ، فكيف يطلب لدروسها عشرات العقود ؟

---

(١) لأيا عرفتها ، وعرفتها بعد لأى : أى بعد مشقة ، وهو تعبير جاهلى لم يحيه فى العصر الحديث إلا المنفلوطى رحمه الله . والحجة بالكسر : السنة .

ورأيت من يستهجن ابتداء كعب بن زهير بقوله :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِى الْيَوْمَ مَتْبُولُ
مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُـولُ
وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا
إِلَّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

وذلك أن هذه القصيدة أنْشِدَتْ فى حضرة النبى عليه السلام ، فمن الأدب أن لا تبدأ بالنسيب ، وهذا أيضاً خطأ لأن بدء الشعر بالغزل كان من التقاليد العربية المستملحة ، ولم يكن أحد ينكرها إذ ذاك حتى يُنْسب كعبٌ إلى ماهو منه برآء .

— ٢ —

وكان الجاحظ يقول : لاأعرف شعراً يَفْضُل قول أبى نواس :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا
بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقَاقِ عَلَى الثَّرى
وَأَضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِىٌّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِى فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ
وَإِنِّى عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِى عَسْجَدِيَّةٍ
حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرارَتُهَا كِسْرَى وَفِى جَنَبَاتِهَا مَهًا تَدَّرِيهَا بالْقِسِىِّ الْفَوَارِسُ

فَلِلْخَمْرِ مازَرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا

وَلِلْمَاءِ مادارَتْ عَلَيْهِ الْقَلانِسُ

ثم جاء صاحب المثل السائر ، فقال « فصاحة هذا الشعر عندى هى الموصوفة لا هذا المعنى ، فانه لا كبير كُلْفَةٍ فيه لأن أبا نواس رأى كأساً من الذهب ذات تصاوير فحكاها فى شعره ، والذى عندى فى هذا أنه من المعانى المشاهدة ، فان هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيراً ، وكانت تستغرق صور هذه الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التى على رءوسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر » .

فانظر كيف صَغُرَتْ قيمة الشعر فى عين هذا الناقد حين كان: « حكاية حال مشاهدة البصر » . مع أنه إنما عظُم لذلك فى عين الجاحظ .

ورأيت من ينكر قول ابن الدمينة :

وَلَو أَنَّنِى أَستَغْفِرُ اللهَ كُلَّمَا

ذَكَرْتُكِ لَمْ تُكْتَبْ عَلَىَّ ذُنُوبُ (١)

واستند فى إنكاره إلى أن هذه (عبارة فقهية) وكان عليه أن يذكر أنّ روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية ، وأنه قال هذه الكلمة العذبة ، قبل أن يوجد التكلف فى الفقه ،وقبل أن تثقل أرواح الفقهاء !

ومن النقاد من فضَّلَ قول مسلم بن الوليد :

تَظَلَّمَ الْمَالُ وَالأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ

لَا زَالَ لِلْمَالِ وَالأَعْدَاءِ ظَلاَّمَا

واستقبح قول أبى نواس :

بُحَّ صَوْتُ الْمالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو ويَصِيحُ

---

(١) ابن الدمينة : شاعر رقيق النسيب ، وهو صاحب هذا البيت النفيس :

وإنى لأستحييك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيب

استناداً إلى أن المال لا صوت له . وهذا أيضاً خطأ : لأن أبا نواس قريب العهد بمال الأعراب ، ومال الأعراب ناطق ، وطالما اضطربت الإبل لسكّين الجزار عند قدوم الضِّيفان .

— ٣ —

فعلى الناقد أن يتبين العهد الذى عاش فيه الشاعر ، وأن يُعْنى فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر فى أذواق الشعراء .

فقد أنكروا على شوقى قوله :

ارْفعِى السِّتْرَ وَحيِّى بِالْجَبِينْ وَأَرِينَا فَلَقَ الصُّبْحِ الْمُبِينْ
وَقِفِى الهَوْدَجَ فِينَا سَاعَةً نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِ أُمِّ الْمُحْسِنِين
وَاتْرُكِى فَضْلَ زِمَامِيْهِ لَنَا نَتَنَاوَبْ نَحْنُ وَالرُّوحُ الْأَمِينْ

مع أن أم المحسنين إنما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض ، ولكن هكذا بقى الهودج فى ذهن شوقى ، لإمعانه فى دراسة الشعر القديم ...

وأنكروا عليه قوله فى سيارة الدكتور محجوب :

لَكُمْ فِى الْخُطِّ سَيَّارَهْ حَدِيثُ الْجَارِ وَالْجَارَهْ

واستخفّوا كلمة : « حديث الجار والجارة » . وفاتهم أن الدكتور محجوب يسكن فى حىّ قد لا يعرف أهله غير الخيل ، والبغال ، والحمير !

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم :

أَمْشِى يُرَنِّحُنِى الْأَسَى وَالْبُؤْسُ تَرْنِيحَ الشَّرَابْ

لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنّح السكران ، ولكن حافظاً يرى هذه المناظر فى الصباح والمساء (١) .

واستضعفوا قول مطران فى رثاء اسماعيل صبرى :

---

(١) عاتبنا حافظ رحمه الله على هذا التأويل .

شُهُبٌ تَبِينُ فَمَا تَؤُوبُ … فَكَأَنَّهَا حَبَبٌ يَذُوبُ
أَرَأَيْتَ فِي كَأْسِ الطِّلَا … دُرَرًا وَقَدْ صَعِدَتْ تَصُوبُ
هُوَ ذَاكَ فِي لُجِّ الدُّجَى … طَفْوُ الدَّرَارِي وَالرُّسُوبُ
لَا فَرْقَ بَيْنَ كَبِيرِهَا … وَصَغِيرِهَا فِيمَا يَنُوبُ

لأن مقام الرثاء يجل عن ذكر الحبَبِ والكأس ، وليس لك أن تشبه الشهاب حين يغيب ، بالحبَبِ حين يذوب ، ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران لنعرف قيمة هذا التشبيه فى نفسه المِمْراح .

وكذلك نقول فى توجيه كلمة شوقى فى رثاء محمد تيمور :

ضَرَبُوا الْقِبَابَ عَلَى الشَّبَابْ … وَثَوَوْا إِلَى يَوْمِ الْحِسَابْ
هَمَدُوا وَكُلُّ مُحَرِّكٍ … يَوْمًا سَيَسْكُنُ فِي التُّرَابْ
نَزَلُوا عَلَى ذِئْبِ الْبِلَى … فَتَضَيَّفُوا شَرَّ الذِّئَابْ
وَكَأَنَّهُمْ صَرْعَى كَرًى … بِالْقَاعِ أَوْ صَرْعَى شَرَابْ
فَإِذَا صَحَوْا وَتَنَبَّهُوا … فَاللهُ أَعْلَمُ بِالْمَآبْ

فإن تشبيه الموتى بصرعى الشراب لايدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال وإنما يشير بطرْف خَفِىّ إلى ما لحياته من شتى الألوان ، كما أفصح شعره عن ألوان حياته فى قوله من كلمة ثانية :

مَا أَنْتِ يَادُنْيَا أَرُؤْيَا نَائِمٍ ؟ … أَمْ لَيْلُ عُرْسٍ؟أَمْ بِسَاطُ سُلَافِ
نَعْمَاؤُكِ الرَّيْحَانُ إِلَّا أَنَّهُ … مَسَّتْ حَوَاشِيهِ نَقِيعَ زُعَافِ

وقال أحد أنصار ابن الرومى يلومه : لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز ؟ فقال أنشدنى من قوله الذى استعجزتنى عن مثله . فأنشده قوله فى الهلال :

أُذ رْ إليهِ كَزَوْرَق مِنْ فِضةٍ قَد أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عَنبَرِ

فقال له زدنى ، فأنشده :

كَأَن آذَرْيُونَهَا غِبَّ سَماءٍ هَامِيهْ
مَدَاهنٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بقَايا غَالِيَهْ

فصاح : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولى من الناس ، فهل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام :

وَقدْ نَشَرَتْ أَيْدِى الْجَنُوبِ مَطَارِفًا
مِنَ الْجَوِّ دُكْنًاوالْحَوَاشِى عَلَى الأَرْضِ
يُطرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَخْضَرَ
عَلَى أَحْمَرَ فِى أَصْفَرٍ إِثْرَ مُبْيَضِّ
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِى غَلَائِلٍ
مُصَبَّغَةٍ والْبَعْضُ أَقْصرُ مِنْ بَعْضِ

وقولى فى صانع الرِّقاق :

ما أَنْسَ لا أَنْسَ خَبَّازًا مَرَرْتُ بِهِ
يَدْحُو الرِّقَاقَةَ مِثْلَ اللَّمحِ لِلبَصر
مَا بينَ رُؤيَتِهَا فِى كَفِّـهِ كُرَةً
وبَيْنَ رُؤْيَتِهَا قَـوْرَاءَ كَالْقَمَر
إلَّا بِمِقْدَار مَا تَنْدَاحُ دَائِرَةٌ فِى لُجَّةِ الْماءِ يُلْقَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومى لأنه استطاع تشبيه الآذريون بعد

المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية ، وليس لك أن تقدّم ابن الرومى على ابن المعتز لأنه أجاد وصف الخباز ، وهو يدحو الرقاق ، فان السبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التى أتيحتْ لكل من الشاعرين ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق، وإنما يجب عليك أن تعمد إلى الشاعر وتَسْبُر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بماوصفه من الأشياء ، فقد يكون ابن الرومى فى وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز فى وصف الهلال .

— ٤ —

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف البدوية ، لأن الحضارة فى ذوقك أنضر من البداوة ، فقد يكون البدوىّ فى بداوته أشعر من الحضرىّ فى حضارته ، كما قال أستاذنا المهدى ، ومعنى ذلك أن البدوى قد يكون شعوره بالريح السَّموم فى مجاهل البيداء أقوى من شعور الحضرى بالنسيم العليل فى الروضة الغنّاء .

فليس قول خزيمة بن نهد فى ريق محبوبته :

فَتاةٌ كَأَنَّ رُضابَ الْعَبيرِ بِفِيهـا يُعَلُّ بِهِ الزَّنْجَبيلُ

بأقل من قول الشريف الرضىّ :

يَبْسِمْنَ عَنْ بَرَد الْغَمَامِ وبرْدِهِ
رَيَّانَ يُغْبَقُ بِالْمُدَامِ وَيُصبَحُ

ولا يفضلهما من قال : « كأنى ألتقط من فيها حبّ الرمان » . لأن الأمر فى ذلك يرجع إلى قوة إدراك الشاعر ، بغضّ النظر عن تفاوت الأوصاف ، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تُعطر به الأفواه فى البادية كما تكون الخمر ، أو حبّ الرمان ، أحلى ما تُعطر به الثنايا فى الحاضرة ، ولكل شعب وجهة فى تناول الأشياء .

ألم تر إلى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم فى مدحه :

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فى حِفَاظِكَ للودِّ
وَكَالتَّيْسِ فى قِرَاعِ الْخُطُوبِ

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر ، وإن كان جاسِيَ اللفظ بادِيَ الخيال ، لأنه أُعجبَ بما لَه من قوة الشاعرية ، وهى روُح البيان ، ثم أسكنه قصراً من قصور بغداد ، واستدعاه بعد ذلك ، وقد صقلته الحضارة ، فأنشده تلك الرائية البديعة التى يقول فى أولها :

عُيُـونُ الْمهَا بَيْنَ الرُّصافَةِ وَالْجِسْرِ
جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِى وَلَاأَدْرِى
أَعَدْنَ لِيَ الشَّوْق الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ
سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدْنَ جَمْرًا عَلَى جَمْر
سَلِمْنَ وأَسْلَمْنَ الْقُلُوبَ كَأَنَّمَا
تُشَكُّ بِأَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ (١)
خَلِيلَىّ مَا أَحْلَى الْهَوَى وَأَمَرَّهُ وَأَعْرَفَنى بالْحُلْوِ مِنْهُ وبِالْمُرِّ
بِمَا بَيْنَنَا مِنْ حُرْمَة هَلْ عَلِمْتُمَا
أَرَقَّ مِنَ الشَّكْوَى وَأَقْسَى مِنَ الْهَجْرِ

والخلاصة أن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية ، ويفاضل بين بصيرة وبصيرة ، ويقارن بين إدراك وإدراك ، بغضّ النظر عن الفروق الموضعية التى يقضى بها اختلاف الأقاليم ، والفوارق الزمنية التى يوجبها اختلاف العصور . وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة ، ولكنها ضرورية : يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته ، وأن يفنى فى شخصية الشاعر الذى يدرسه : بحيث يبصر بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويفقه بقلبه ، ليَسْبُر كما قلت أغوار نفسه ، وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء .

(١) المثقفة السمر : هى الرماح .

البحث الرابع

شعراء الأحزاب

— ١ —

ويجب على الناقد حين يُوازن بين شاعرين أن يعرف حياتهما بالتفصيل ، وأن يتثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف ، وعلى الأخص إذا مرّت حياتهما فى غمرة من الغمرات الدينية ،أو فتنة من الفتن السياسية ،فقد يكون أحد الشاعرين من الحزب الغالب ، وثانيهما من الحزب المغلوب ، ثم تعصف الفتن بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع ، وتُبقى العصبية الحزبية على ما ترك شاعر الأكثرية من الغثّ والسّمين ، والويل كل الويل للمغلوب !

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التى كاد يجمع عليها مؤرخو الآداب العربية : وهى أن الشعر كان فى خمود فى زمن البعثة والخلافة الراشدة ، استناداً إلى ندرة ما روى من شعر ذلك العهد ، وقلة مَنْ عُرِفَ فيه من الشعراء .

ولو تنبه الباحثون إلى تلك الحملة الشديدة التى وجهتها الشريعة إلى الشعر والشعراء لتريثوا فى الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس ، فقد كان الشعر فى زمن البعثة قوياً وغزيراً ، وكان الشعراء فى كثرة وعزة ، ولكن النبى عليه السلام رأى أكثرهم من معارضيه ، فعمد إلى إخفات صوتهم ، وكان ما أراد .

فإن كنت فى ريب من ذلك فحدّثنى عن سبب نزول هذه الآية :

« وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُونَ » .

ثم أذكر أن عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت قالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية ، وهو يعلم أننا شعراء ، هلكنا ! فأنزل الله :

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا » .

فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم (١) .

ومعنى ذلك أن الشعر لا يُذم إلاّ إن أعدّت به حَملة على النبوّة ، وإلاّ فقد روى أن النبى عليه السلام قال ليلةً وهو فى بعض أسفاره : أين حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك ! قال : احْدُ ! فجعل يُنْشِدُ ويُصغى إليه ، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من إنشاده ، فقال عليه السلام : لهذا أشدّ عليهم من وقع النَّبْل ، وروى أيضاً أنه قال له : اهجهم ! فوالله لهجاؤك أشد عليهم من وَقْع السهام ، فى غَلَس الظلام ! وكذلك كان حسان يقول لأهل مكة :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كَدَاءُ (٢)
يُنَازِعْنَ الْأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ (٣)
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ (٤)
فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا ... هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُها اللِّقَاءُ (٥)
لَنَا فِى كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

(١) راجع أسباب النزول . (٢) كداء بفتح الكاف بأعلى مكة عند المحصب .
(٣) الأسل : الرماح ، ومفردها أسلة ، والأعنة جمع عنان ، وهو اللجام .
(٤) متمطرات : مسرعات ، وتلطمهن النساء : تمسح ما عليهن من الغبار .
(٥) العرضة بالضم : الهمة .

فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِى مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
وَجِبْرِيلٌ أَمِينُ اللهِ فِينَـــا ... وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَـــاءُ
أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَــانَ عَنِّى ... مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ (١)
بِأَنَّ سُيُوفَنَــا تَرَكَتْكَ عَبْدًا ... وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَــاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِى ذَاكَ الْجَــزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُــفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

وإنما نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان لأنها تمثل خصومة ذلك العهد أصدق تمثيل ، فليس عندى شك فى أنه كان لقريش شعراء فحول يقارعون شعراء الرسول ، وليس عندى شك فى أنه كان لليهود شعراء يجمعون بين حُسْن القول وظُلْمة الارتياب ، وحسبك أن تعرف أنه كان فيهم من يقول :

فَلَوْ كَانَ مُوسَى صَادِقًا مَاظَهَرْتُمُو ... عَلَيْنَا وَلٰكِنْ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَذْهَبُ

ولكن رأى النبى أن يقضى قضاء مُبرماً على من عارضه من شعراء قريش ، وشعراء اليهود : لأن الدين فى نفسه أعزّ من أن يُهادن أعداءه أو يَفْتَرَ عن حرب خصومه من الشعراء ، وكذلك بادَ وانقرضَ ما ترك حزْب المعارضة لذلك العهد من الآثار الأدبية والفنية ، وما خلّف من الآراء الفلسفية والاجتماعية ، وأصبحنا لا نعرف من الحركة العقلية فى ذلك العصر غير ما رواه المسلمون ، وهم لا يروون بالطبع إلا ما فيه للاسلام نصر وتأييد ، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع لذلك العصر صورة صحيحة مضبوطة ، لم تلونها الأغراض والأهواء ، وأقول : الأغراض والأهواء لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة للأهواء الجامحة التى لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة الإسلام من الوجهة الروحية ، والعقلية والاجتماعية .

---

(١) المغلغلة : الرسالة تحمل من بلد إلى بلد .

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطّم الأركان ، مهدّم الجوانب ، وأن العقول كانت خلَتْ من روعة الإيمان ، ثم جاء الإسلام ، فلم يجد غير أنقاض من الهمم ، وأطلال من العزائم ، وخرائب من العقول والقلوب ؟

هيهات هيهات !

إن مجد الإسلام فى أن تثبت خطر العهد الذى نشأ فيه من الوجهة العقلية ، لترى كيف تقارعت الحجج ، وتصاولت البراهين ، ولترى كيف انتصر النبى على خصومه الأقوياء ، الذين وصفهم القرآن بقوة النطق حين قال :

« فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » . وبعنف الخصومة حين قال : « لِتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » . وبسحر البيان حين قال : « أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » . وبشدة المكر حين قال : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . وبرجاحة العقل حين قَالَ : « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ » .

— ٢ —

ونعود فنذكر أن الحملة التى وجهت إلى الشعر على أثر ما كان من لدَدِ شعراء اليهود ، وتوثُّبِ شعراء المشركين ، أثرت تأثيراً عميقاً فى حياة المسلمين من الوجهة الأدبية ، فرأيناهم يسرفون فى بُغْضِ الشعر ، والنيل من الشعراء ، وكان من ذلك أن قيل لسعيد بن المسيب : إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر ، فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً ! وسئل ابن سيرين فى المسجد عن رواية الشعر فى رمضان — وقد قال قوم : إنها تنقض الوضوء — فقال :

نُبِّئْتُ أَنَّ فَتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا
عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِى الطُّولِ

ثمّ قامَ فأمّ الناس !

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول ؟ فأنشد :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيَا

وقال : إنما الرفث عند النساء ، ثم أحرم للصلاة !

ثم جرى على ألسنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدّثين ، فرأيناهم يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أتقول الشعر فى فقهك وورعك ؟ فأجاب : لا بُدّ للمصدور أن ينفث !

وهذا الفقيه هو صاحب هذه الأبيات الرائعة :

شَقَقْتِ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتِ فيهِ هَوَاكِ فَلِيمَ فَالْتَأَمَ الفُطُورُ
تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمة فِى فُؤَادِى فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِى يَسِيرُ
تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ ولا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

ورأيناهم يزعمون أن الإمام الشافعى قال :

ولَوْلاَ الشِّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِى لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبيدِ

ولا يزال شيوخ الأزهر مختلفين فى بدء الشعر بالبسملة لأنه فيما يرون ليس من الأمور ذوات البال !

ولا أدل على هوان الشعر فى نظر الفقهاء من قول الغزالى : « وأما الشعر فكلام حَسَنه حسَنٌ وقبيحه قبيح » . وهذا كله من أثر الحملة التى وجهت إلى الشعر والشعراء .

ولكن الشعر من الفنون الفطرية التى كلف بها الإنسان منذ عهد بعيد ، والمسلمون ككل الأمم لم يكن لهم بُدٌّ من حياة الفنون ، وكذلك نهضوا داعين إلى رواية الشعر وإجازة الشعراء ، ولكنهم لم يَدْعوا إلى الشعر باعتبار أنه فن جميل ، وإنما دعَوْا إليه باسم الدين ، فقالوا : إن النبى كان يرتجز بقول ابن رواحة ، وقد أصيبتْ إصبعه فى إحدى المواقع :

هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصبَعٌ دَميتِ وَفِى سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ

وحبّروا الفصول الضافية فى أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء : فنسبوا لأبى بكر الصدّيق قصيدة طويلة مطلعها :

أَمِنْ طَيْفِ سَلْمَى بالرِّمَاحِ الدَّمَائِثِ
أَرِقْتَ أَوَامْرٍ فِى الْعَشِيرَةِ حَادِثِ

ونسبوا إلى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات ، ونسبوا إلى علىّ طائفة من القصائد ، ونقل الفيروزابادى عن المازنى وصوّبه الزمخشرى أنه لم يصح أن على بن أبى طالب تكلم بشىء من الشعر غير هذين البيتين :

تِلْكُمْ قُرَيْشُ تَمَنَّانِى لِتَقْتُلَنِى فَلاَ وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلاَ ظَفِرُوا
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتِى لَهُمُو بِذَاتِ وَدْقَيْنِ لاَ يَعْفُو لَهَا أَثَرُ

وقال ابن رشيق بعد أن ذكر طائفة من شعر الأئمة والقضاة :

« وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً ، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة . والغناء حُلة الشعر إن لم يلبسها طُويت ، ومحال أن يحرم الشعر من يحل الغناء به » .

وحسب الشعر هواناً أن تقول إنه مباح !

أفترى بعد هذا البيان أن فى مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلا وبين واحد ممن عاصروه من شعراء المشركين واليهود ؟ كيف ، وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب ، وبقى شعر حسان بفضل ما صاغ له رسول الله من عقود الثناء ؟ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء فى عصره ، ولكن هاتِ ما ترك أقرانه لنستطيع الموازنة ، ولنصل بها إلى علم اليقين ، فقلما تنفع الظنون .

وإنك لتجد ما يدعوك إلى الحذر إذا تخطيت عهد النبوة ، وانحدرت إلى عهد بنى أمية ، أو عصر بنى العباس : هناك ترحم نفسك من التوغل فى بيداء الضلال ، وهناك تجد شعراء العلويين فى عهد بنى أمية ، وشعراء الأمويين فى عصر بنى العباس ، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان العَنَت وصنوف الجهْد فى كتم ما يَنِمّ عن مشاربهم الإجتماعية ، ومنازعهم السياسية ، وأكتفى الآن بمثال واحد ، ولو شئت لضربت لك عشرات الأمثال :

ذكروا أن المتوكل على الله كان فى اجتيازه إلى دمشق قد وجد فى حائط من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة فيها هذه الأبيات :

أَيَا مَنْزِلاً بِالدَّيْرِ أَصْبَحَ خَالِيًا ... تَلاَعَبُ فِيهِ شَمْأَلٌ وَدَبُورُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْكُنْكَ بِيضٌ أَوَانِسٌ ... وَلَمْ تَتَبَخْتَرْ فِى فِنَائِكَ حُورُ
وَأَبْنَاءُ أَمْلاَكٍ عَبَاشِمُ سَادَةٌ ... صَغِيرُهُمُو عِنْدَ الْأَنَامِ كَبِيرُ
إِذَا لَبِسُوا أَدْرَاعَهُمْ فَعَنَابِسٌ ... وَإِنْ لَبِسُوا تِيجَانَهُمْ فَبُدُورُ(١)
عَلَى أَنَّهُمْ يَوْمَ اللِّقَاءِ ضَرَاغِمٌ ... وَأَنَّهُمُو يَوْمَ النَّوَالِ بُحُورُ
لَيَالِى هِشَامٌ بِالرُّصَافَةِ قَاطِنٌ ... وَفِيكَ ابْنُهُ يَادَيْرُ وَهْوَ أَمِيرُ
إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالْخِلاَفَةُ لَدْنَةٌ ... وَأَنْتَ طَرِيرٌ وَالزَّمَانُ غَرِيرُ
وَرَوْضُكَ مُرْتَاضٌ وَنَوْرُكَ نَيِّرٌ ... وَعَيْشُ بَنِى مَرْوَانَ فِيكَ نَضِيرُ
بَلَى فَسَقَاكَ اللهُ صَوْبَ سَحَائِبٍ ... عَلَيْكَ بِهَا بَعْدَ الرَّوَاحِ بُكُورُ

(١) العنابس : الأسود .

تَذَكَّرْتُ قَوْمِى خَالِيًا فَبَكَيْتُهُمْ   بِشَجْوٍ وَمِثْلِى بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ
لَعَلَّ زَمَانًا جَارَ يَوْمًا عَلَيْهِمُو   لَهُمْ بِالَّتِى تَهْوَى النُّفُوسُ يَدُورُ
فَيَفْرَحَ مَحْزُونٌ وَيَنْعَمَ بَائِسٌ   وَيُطْلَقَ مِنْ ضِيقِ الْوَثَاقِ أَسِيرُ
رُوَيْدَكَ إِنَّ الْيَوْمَ يَتْبَعُهُ غَدٌ   وَإِنَّ صُرُوفَ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قال ياقوت : فارتاع المتوكل عند قراءتها واستدعى الديرانى وسأله عنها ، فأنكر أن يكون علم مَن كتبها ، فتهمّ بقتله ، فسأله الندماء فيه، وقالوا : ليس ممن يتهم بميل إلى دولة دون دولة . فتركه . ثم بان أن الأبيات من شعر رجل من ولد روح ابن زنباع الجذامى من أخوال ولد هاشم بن عبد الملك .

وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الأحزاب ، وتهدمت صروح من الآداب بما ضاع من الشعر السياسى فيما خلا من العصور ، وكلنا يذكر ما لقى شعراء البرامكة من عنف الرشيد .

ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف ما أحاط بهما من مختلف الظروف ليكون فى حكمه قريباً من الصواب ، فقد رأينا كيف تطمس القوة معالم الشعر البليغ .

البحث الخامس

نفسية الناقد

— ١ —

قلت فيما سلف : إن الموازنة نوع من القضاء ، والآن نريد أن نبين أن الناقد كالقاضى ، فكما يجب على الحكم أن يُنَزّه نفسه عن جميع الأغراض حين يتقدم للحكم بين الناس ، كذلك يجب على الناقد أن يبرىء نفسه من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء .

فإذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك ، فإن رأيت فى نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تُسيطر عليه الحاسة الفنية ، فاعلم أنك فى ترجيحك متَّهم ظنين ، وإن رأيت نصرة الأدب والحق تغلب على جميع مالك من النوازع ، وآنست فى نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد — ولعالم الأدب أيضاً رسوم وتقاليد — فتقدم إلى الموازنة ، وثق أن الرغبة فى نصرة الحق حليفة الفوز المبين .

وأنا ذاكر لك من الشواهد على ما يفعل الغرض بالموازنة ما نقله صاحب زهر الآداب عن الحاتمى إذ قال :

جمعنى ورجلين من مشايخ البصرة ، ومن يؤبه إليه فى علم الشعر ، مجلس بعض الرؤساء ، وكان خبره قد سبق إلىّ فى عصبيته للبحترى ، وتفضيله إياه على أبى تمام ، ووجدت صاحب المجلس مُؤْثراً لاستماع كلامنا فى هذا المعنى ، فأنشأت قولاً أنحيت فيه على البحترى انحاءً أسرفت فيه ، واقتدحت زناد الرجل : فتكلم وتكلمت ، وخضنا فى أفانين من التفضيل والمماثلة ، غلوت فى جميعها غلواً شهده جميع من حضر ،

وخضنا فى أفانين فى المجلس ، وكانوا جِلّةَ الوقت وأعيان الفضل ، فاضْطُرَّ إلى أن قال : ما يحسن أبو تمام أن يبتدىء ، ولا أن يخرج ، ولا أن يختم ، ولو لم يكن للبحترى عليه من الفضل إلا حسن ابتدائه ، ولطف خروجه ، وسرعة انتهائه ، لوَجب أن يقع التسليم له ، فكيف بأوابده التى تزداد على التكرار غضاضة وجِدَّة ؟

ثم أقبل علىّ فقال : أين يُذْهَبُ بك عن ابتدائه :

عَارَضْنَنَا أُصُلاً فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ حَتَّى أَضَاءَ الْأُقْحُوَانُ الأَشْنَبُ(١)
وَٱخْضَرَّ مَوْشِيُّ الْبُرُودِ وَقَدْ بَدَا مِنْهُنَّ دِيبَاجُ الْخُدُودِ الْمُذْهَبُ

وأين لأبى تمام مثل خروجه حيث يقول :

أَدَارَهُمُ الْأُولَى بِدَارَةِ جُلْجُلٍ سَقَاكِ الْحَيَا رَيْحانُهُ وَبَوَاكِرُهْ
وَجَاءَكِ يَحكِى يُوسفَ بْنَ مُحَمَّد فَرَوَّتْكِ رَيَّاهُ وجَادَكِ مَاطِرُهْ

وأنّى لأبى تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول :

إِلَيْكَ الْقَوافِى نَازِعَاتٍ شَوَارِدًا يُسَيِّرُ ضَافِى وَشْيِهَا وَيُنَمْنَمُ
وَمُشْرِقَةً فِى النَّظْمِ غُرًّا يَزِيدُهَا بَهَاءً وَحُسْنًا أَنَّهَا لَكَ تُنْظَمُ

وقوله فى هذا المعنى :

أَلَسْتُ الْمُوالِيَ فِيكَ نَظْمَ قَصَائِد هِيَ الأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُما
ثَنَاءً تَخَالُ الرَّوْضَ فِيهِ مُنَوَّرًا ضُحًى وَتَخَالُ الْوَشْيَ فِيهِ مُنَمْنَمَا

ولقد تقدم البحترى الناس كلهم فى قوله :

لَوْ أَنَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِى وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمِنْبَرُ

---

(١) الأشنب : من الشنب بفتحتين ، وهو برد ورقة وعذوبة فى الأسنان .

هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاورة التى وضعت فى الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وقبل عرض الجزء الثانى نلفت نظر القارىء إلى اختبار « نفسية » الحاتمى صاحب هذا الحديث ، فانا نجده يذكر أنه كان يعلم عصبية مناظره للبحترى ، وتفضيله إياه على أبى تمام ، ويذكر أنه تعمد الإنحاء على البحترى ليقتدح زناد خصمه ، وأنه غلا فى المماثلة غلواً شهده جميع من حضر ، وأنه اضطرّ خصمه إلى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن الابتداء ، ولا الخروج ، ولا الانتهاء ، إلى آخر ما قال .

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة ، وهى مصحوبة بهذا العمد ، ومسبوقة بذلك الإصرار؟

ثم قال : « وكنت ساكتاً إلى أن استتم كلامه ، وكأن الجماعة أعجبهم ذلك عصبية علىّ لا على أبى تمام ، لأنى كنت كالشجا معترضاً فى لهواتهم ، وأسرّ كل واحد منهم إلى صاحبه سراً يومىء به إلى استيلاء الوجل علىّ ، فلما استتم كلامه ، وبرقتْ له بارقة طمع فى تسليمى له ابتدأت فقلت : لست ممن يُقَعْقَعُ له بالحصى ، أو تقرع له العصا ، لا إله إلا الله ! استنّت الفصال حتى القرْعى ! هل هذه إلاّ عوانٌ مفترعة ، قد تقدم أبو تمام إلى سَبْكِ نضارها ، وافتضاض أبكارها : وجرى البحترى على وتيرته فى انتزاع أمثالها وأتباعها » .

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين ، وإنما هى مُقارعة بين خصمين يريد كل منهما أن يقهر صاحبه ، وأن يفوز باعجاب الحاضرين ، ألاترى كيف فطن الحاتمى إلى رضا الجماعة عن فوز البحترى ، وأن ذلك كان عصبية عليه لا على أبى تمام ، وكيف أسرّ كل واحد منهم إلى صاحبه مشيراً إلى استيلاء الوجل عليه ، ثم انظر كيف غضب وكيف ثار : لترى أنه لم يغضب للحق ، وإنما غضب لنفسه ، ولم ينتصر للأدب ، وإنما انتصر لهواه .

ثم اندفع يذكر أن قول البحترى فى صفة الغيث مخاطباً الدار :

وَجَاءَكِ يَحْكِى يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوَّتْكِ رَيَّاهُ وَجَادَكِ مَاطِرُهْ

مأخوذ من قول أبى تمام :

وَبُيُوتُهَا فِى الْقَلْبِ نُؤْىٌ شَفَّهُ وَلَهٌ بِظَاعِنِهَا وَبِالْمُتَخَلِّفِ
وَكَأَنَّمَا آسْتَسْقَى لَهُنَّ مُحَمَّدٌ مِنْ سَوْمِهِنَّ مِنَ الْحَيَا فِى زُخْرُفِ

وأن البحترى أخذ قوله :

لَوْ أَنَّ مُشْتَاقًا تكَلَّفَ فَوْقَ مَـا ... فِى وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمِنْبَرُ

من قول أبى تمام الذى تقدم فيه كل أحد لفظاً رشيقاً ومعنى دقيقاً :

ديمةٌ سَمْحَةُ الْقِيَادِ سَكُـوبُ ... مُسْتَغِيثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ

لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لإِعْظَامِ نُعْمَى ... لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيبُ

وأن قوله فى صفة القوافى :

يُسَيَّرُ ضَافِى وَشْيِهَا وَيُنَمْنَمُ

وقوله فى صفتها :

ثَنَاءً تَخَالُ الرَّوْضَ فِيهِ مُنَوَّرًا ... ضُحًى وتَخَالُ الْوَشْىَ فِيهِ مُنَمْنَمَا

إنما أخذه من قول أبى تمام :

حَلُّوا بِهَا عُقَدَ النَّسِيمِ وَنَمْنَمُوا ... مِنْ وَشْيِهَا نَشْرًا لَهَا وَقَصِيدَا

ومن قوله الذى أبدع فيه :

وَواللهِ لاَ أَنْفَكُّ أُهْدِى شَوَارِدًا ... إِلَيْكَ تَحَمَّلْنَ الثَّنَاءَ الْمُبَجَّلاَ

تَخَالُ بِهِ بُرْدًا عَلَيْكَ مُحَبَّرًا ... وَتَحْسَبُهُ عِقْدًا عَلَيْكَ مُفَصَّلاَ

أَلَذَّ مِنَ السَّلْوَى وَأَطْيَبَ نَفْحَةً ... مِنَ الْمِسْكِ مَفْتُوتًا وأَيْسَرَ مَحْمَلاَ

أَخَفَّ عَلَى قَلْبِى وَأَثْقَلَ قِيمَةً ... وَأَقْصَرَ فِى قَلْبِ الْجَلِيسِ وَأَطْوَلاَ

وأن قول البحترى :

هِىَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا

مأخوذ من قول أبى تمام مقصراً عن استيفاء إحسانه حيث يقول :

أَصِخْ تَسْتَمِعْ حُرَّ الْقوافِى فإِنَّها كَوَاكِبُ إلاَّ أَنَّهنَّ سُعُودُ
ولا يُمْكِنُ الإِخْلاَقُ مِنْها فإِنَّما يَلَذُّ لِبَاسُ الْبُرْدِ وهْوَ جدِيدُ

وبعد بيان هذه المآخذ يذكر الحاتمى أنه قال لمناظره :

« فهذه خصال صاحبك فيما عدّدته من محاسنه التى هتكت بها ستر عواره ، ونشرت مطْوىّ أسراره . حتى استوضحت الجماعة أن إحسانه فيها عارية مرتجعة ، ووديعة منتزعة » .

والعناد ظاهر فى هذا الكلام .

ثم أخذ يسرد طائفة من ابتداءات أبى تمام وانتهاءاته ، ونماذج من حسن تخلصه ، ولطف اقتضابه ، وبراعة وصفه للقوافى ، فاستحسن ابتداءه إذ قال :

لا أَنْتِ أَنْتِ ولا الدِّيارُ دِيارُ خَفَّ الْهَوى وَتَقَضَّتِ الْأَوْطَارُ

وزعم أن لن يستطيع أحد أن يبتدىء بمثل ابتدائه حيث يقول :

طَلَلَ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدا وَكَفَى عَلَى رُزْئِى بِذَاكَ شَهِيدا
دِمَنٌ كأَنَّ الْبيْنَ أَصْبَحَ طَالِبًا دَيْنًا لَدَى آرَامِهَا وَحُقُودا

وحيث يقول :

مَافِى وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ تَقْضِى حُقُوقَ الْأَرْبُعِ الْأَدْرَاسِ
فَلَعَلَّ عَيْنَكَ أَنْ تَجُودَ بِدَمْعِهَا وَالدَّمْعُ مِنْهُ خَاذِلٌ وَمُوَاسِى

واستملح اقتضابه حين قال :

الْحَقُّ أَبْلجُ وَالسُّيُوفُ عَوارِ فَحَذار مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذار

واستجاد تخلصه إذ يقول :

إِنَّ الَّذِى خلق الْخلائِقَ قاتَهَا أَقْوَاتَهَا لِتصَرُّفِ الْأَحْرَاسِ

فالأرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قِرًى لها   وَبَنُو الرَّجَاءِ لهُمْ بَنُو الْعَبَّاسِ
الْقَوْمُ ظِلُّ اللهِ أَسْكَنَ دِينَهُ   فيهِمْ وَهُمْ جَبَلُ الْمُلُوكِ الرَّاسِي

وزعم أن أبا تمام هو الذى وصف القوافى بما لم يستطع أحد وصفها به فقال :

جَاءَتْكَ مِنْ نَظْمِ اللِّسَانِ قِلادَةٌ   سِمْطَانِ فِيها اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُون
إِنْسِيَّةٌ وَحْشِيَّةٌ كَثُرَتْ بِها   حَرَكَاتُ أَهْلِ الأَرْضِ وَهْيَ سُكُونُ
يَنْبُوعُها خَضِلٌ وَحَلْيُ قَرِيضِها   حَلْيُ الْهُدَى وَنَسِيجُها مَوْضُونُ
قَدْ حَاكَها صَنَعُ الضَّمِيرِ يَمُدُّهُ   حَسَبٌ إِذا نَضَبَ الْكلامَ مَعِينُ
أَمَّا الْمَعَانِى فَهِيَ أَبْكَارٌ إِذا   نُصَّتْ وَلٰكِنَّ الْقَوَافِيَ عُونُ

هذا أهم ما ورد فى حديث الحاتمى ، وهو طويل ذكره برمته صاحب زهر الآداب ، والذى يعنينى منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحترى والإصرار على كَبْتِ منافسه ، وظهوره عليه ، وظفره به ، وانظر كيف يقول فى ختام هذا الحديث : « هل يستطيع أحد أن ينسب هذا ، أو شيئاً منه إلى السرقة والاختلاس ؟ وهل يستطيع مماثلته بشىء من شعر البحترى ، أو أشعار المحدثين فى عصره ، ومن قبله ؟ فعيى عن الجواب قصوراً ، وأحجم عن المساجلة تقصيراً ، وحكمت الجماعة لى بالقهر ، وعليه بالنصر ، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبى تمام فى صنعة البديع واختراع المعانى على جميع المحدثين ، وكان يوماً مشهوداً » (١) .

— ٢ —

وهذا النوع من النقد لا قيمة له ، ولكنه مع الأسف ظاهر كل الظهور فى مناهج القدماء ، فقد كان بشار يقول : أنا أشعر الناس ، فإذا سُئل فى ذلك أجاب بأن له اثنى عشر ألف قصيدة لا تخلو واحدة منها عن بيت نادر ، ومن ندر له اثنا عشر ألف بيت

---

(١) ومع هذا التحامل كان الحاتمى من أئمة النقد الأدبى . انظر ما كتب عنه بالجزء الثانى : من كتاب « النثر الفنى » لترى قيمة هذا الناقد ، وتعرف ما له وما عليه .

فهو أشعر الناس . وكانوا يختلفون فى الموازنة بين جرير والفرزدق ؛ ثم يفضلون جريراً لأنه قال :

إِنَّ الَّذِينَ غدَوْا بِلُبِّكَ غادَرُوا وَشَلاً بِعَيْنِكَ مَا يَزالُ مَعِينا
غيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِى مَاذا لقِيتَ مِنَ الْهوَى وَلقِينا

فإذا سألتهم كيف سما جرير بهذين البيتين حتى بذّ الفرزدق ؟ أجابوك بأن الفرزدق فى فسوقه وفجوره، لم يُجِد التشبيب كما أجاده جرير فى تحرّجه وعفافه ، وقد يقولون : جرير أشعر لأن الفرزدق ماتت امرأته فلم يبكها إلاّ برائية جرير فى امرأته ، وهى القصيدة التى مطلعها :

لوْلا الْحَيَاءُ لهاجَنِى ٱسْتِعْبَارُ وَلزُرْتُ قبْرَكِ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

وكانوا إذا ذكر شعراء الجاهلية قدم فريقٌ منهم امرأ القيس لقوله :

قِفانبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ ٱلدَّخُولِ فحَوْمَلِ

وقالوا : إنه بكى وأستبكى وذكر الأحبة فى بيت واحد ! !

وقدم آخرون النابغة الذبيانى لقوله :

نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا قابُوسَ أَوْعَدَنِى وَلا قرَارَ عَلى زأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

أو لقوله :

فإِنَّكَ كاللَّيْلِ الَّذِى هُوَ مُدْرِكِى
وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتأَى عَنْكَ وَاسِعُ

ومنهم من زعم أن أغزل بيت قاله العرب قول بشار :

أَنا وَٱللهِ أَشْتَهِى سِحْرَ عَيْنَيْـ ـكِ وَأَخْشَى مَصَارِعَ الْعُشَّاقِ

وأن أحكم بيت قاله العرب قول أبى ذؤيب الهذلى :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إذا رَغَّبْتَهـا ... وَإذا تُرَدُّ إلى قَلِيلٍ تقْنَـعُ

— ٣ —

وكان يجدر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة ، لنقد الشعر والنثر غير ذلك المنهج الذى يرتكز على تأمل الشطرة فى نقد الشعر ، والفقرة فى نقد النثر ، ولكنهم نسجوا على منوال المتقدمين ، فتراهم يُعنَوْنَ حين يظهر كتاب جديد بالبحث عن مسلكه فى استعمال الألفاظ وربما رجعوا إلى معجم اللغة ليتبينوا الفرق بين الوضع القديم والوضع الجديد . وقد أذكر أن الأستاذ صادق عنبر نقد كتاب البؤساء ، فلم يجد وجهاً لتخطئة المترجم غير استعمال بعض الألفاظ ، فرد عليه الأستاذ علام سلامة يصحح استعمال تلك الألفاظ . فحافظ ابراهيم مخطىءٌ فى نظر صادق عنبر لبعده عن معجم اللغة ، وهو مصيب فى نظر علام سلامة لقربه من المعجم !

والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة ، والفقرة ، واللفظة ، لا يقدم ولا يؤخر فى الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء ، فلا يمكن أن تصبح الخطبة ، أو الرسالة ، أو القصيدة جيدة : لأن ألفاظها جميعاً مختارة ، ولا أن تمسى سقيمة ، لأن فيها ألفاظا نابية ، وإن كان تخير اللفظ من أهم ما يُعنى به الكاتب ، والشاعر ، والخطيب ، وسأعود إلى هذا البحث حين أشرح نظرية : « الصور الشعرية » . وحين أتكلم عن إعجاز القرآن .

وأرجو أن يكون القارىءُ اقتنع بما بينته من عقْم تلك الطريقة التى ترتكز على استقراء الأبيات المختارة فى الموازنة بين الشعراء ، فإن كان فى ريب مما أسلفناه فليُجب على هذا السؤال : أيرضيه أن أقول إن شوقى أشعر الناس لقوله :

وَطَنِى لوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ ... نازعَتْنِى إليْهِ فِى الْخُلْدِ نفْسِى

ومطران أشعر الناس لقوله :

بَناتِ الدَّهْرِ عُوجِى لا تهابى ... خلا الْوَادِى مِنَ الْأُسْدِ الْغِضَابِ

وحافظ أشعر الناس لقوله :

عَمِلْتُمْ عَلى عِزِّ الْجَمَادِ وَذُلِّنا　　فأَغْلَيْتُمُو طِينًا وَأَرْخَصْتُمُودَمَا

إنك أيها القارىء لا ترضى عن هذه الخطة المبهمة ، لأنها تبيح لمثلى أن يزعم أنه أشعر الناس لأنه يقول :

بَقِيَّةٌ مِنْ صِبَاكَ الْغَضِّ بَاقِيَةٌ　　وَجَذْوَةٌ مِنْ غرَامِي وَقْدُها بَاقى

تعَالَ نُحْيِي شهِيدَ اللَّهْوِ ثانِيَةً　　ونصْرَعِ الْهمَّ بَيْنَ الْكاسِ والسَّاقِى

البحث السادس

الحاسة الفنية

— ١ —

هذا تعبيرٌ حديث يقابل : « سلامة الذوق » . أو : « الذوق السليم » . فى عُرف المتقدمين ، والحاسة الفنية فى نظرى أدق من سلامة الذوق لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة مالا نجده فى التعبير القديم ، وهى ترجمة لكلمة sens التى يُراد بها فى هذا المقام أن تؤدى معنى ملكة التمييز ، أو قوة الإدراك ، ومع أنها أدق فهى تشمل سائر الفنون بخلاف كلمة : « الذوق » . فإنها قد تكون بمعنى الشعور بالحسْن ، وقد تكون عبارة عن الميل الخاص .

وقد بينا فى البحث الأول : أنه يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عليا فى فهم الأدب ، وأن يصبح وله فى النقد حاسة فنية تنأى به عن كل ما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض ، وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعر ، بل لأنه طرَق موضوعاً يحبه ، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه ، وقد لا يكون ما سمعه ، أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية ، ثم ضربنا لذلك الأمثال .

والآن نعود إلى « الحاسة الفنية » بشىء من التفصيل : فنذكر كيف عوّل عليها المتقدمون من رجال البيان ، ونبين الوسيلة إلى الظفر بهذه الموهبة العزيزة المنَال ، ثم نميط اللثام عن حقيقة هذه الحاسة ، التى لا تظهر ظهوراً جليّا إلا حين تمعن فى الخفاء .

— ٢ —

يرى صاحب المثل السائر « أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم ، الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وأن الدربة والإدمان أجدى على القارئ نفعاً ، وأهدى

بصراً وسمعاً ، وأنهما يُريانه الخير عياناً ، ويجعلان عسره من القول إمكاناً ، وكل جارحة منه قلباً ولساناً » . ويقول لقارىء كتابه « فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مَثَلى فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبَع سيفاً ، ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً ، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال »(١) .

ومعنى هذا أن كتب القواعد لاتُورث القاريء « الذوق » ولا تمنحه « الحاسة الفنية » . وإنما يكسب ذلك بالدربة والإدمان على مطالعة الكلام البليغ ، والقواعد لاتنفع من لا ذوْقَ له : كما لا ينفع السيف من لاقلب له .

وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الإِنْسَانُ طاقتهُ ... مَاكُلُّ مَاشِيةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلاَلُ(٢)

ولكن لا تحسب أن إدمان الاطلاع كاف لكسب الذوق ، بل يجب أن تكون المطالعات مصحوبة بالفهم ، والتذوق لجمال القول وسحر البيان . أما إذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والأمثال — كما يفعل رجال اللغة والرواية — فإنه يبعد أن يظفر القارىء بالحاسة الفنية ، وهذا أبو العباس المبرد كان فى علمه واطلاعه يذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من فَلْتة ، أو التماس حاجة ، فيجعل المعنى الذى قصده نصب عينيه ، ثم لا يجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان . . . . ولا سبب لذلك فيما نرى إلا أن المبرد لم يعْنَ بدرس أسرار البلاغة ، وإنما انصرفت همته إلى اللغة والرواية ، والنحو ، والتصريف . ومن هنا لم يحسن الإختيار .

قال الجاحظ : طلبت علم الشعر عندالأصمعى فوجدته لا يحسن إلاغريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلاما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتّاب كالحسن ابن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات .

ولم يبين الجاحظ سبب هذا ولا فسره ابن رشيق ، وقد بينت لك أن تقدم الكُتاب على الرواة فى فهم البلاغة إنما يرجع إلى كلف الكُتاب وشغفهم بالوقوف على سر البيان ، لأنهم يزاولون البلاغة من طريق الأداء ، لا من طريق النقل ، والفرق

---

(١) ص ٣ من المثل السائر. (٢) الشملال : الناقة الخفيفة .

بين الوجهتين بعيد ، ومن ثمّ كان الكُتاب : « أرق الناس فى الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيفاً ، وأحلاهم ألفاظاً وألطفهم معانى ، وأقدرهم على التصرف ، وأبعدهم من التكلف » . (١) وكانوا يرونهم دهاقين الكلام ، ويستملحون ما يجوّدون به من حين إلى حين ، كقول إبراهيم بن العباس الصُولى :

إبْتِـــــدَاءٌ بِالتجَنِّى ... وَٱقْتِضـــــاءٌ بِالتَّظنِّى
وَٱشْتِفاءٌ بِتجَنِّيـــــــــ ... ـكَ لِأَعْدَائِـــكَ مِنِّى
بأَبِى قُلْ لِى لِكَىْ أَعْ ... لمَ لِمْ أَعْرَضْتَ عَـــنِّى
قدْ تمَنَّى ذَاكَ أَعْدَا ... ئِى فقــدْ نالُوا التمَنِّى

وكقول محمد بن عبد الملك الزيات .

قامَ بِقلْبِى وَقعَـــــدْ ... لَمَّا نفَى عَنِّى الْجَلــدْ
يَاصَاحِبَ الْقصْرِ الَّــذِى ... أَسْهرَ عَيْنِى وَرَقـــــدْ
وَاعَطَشِى إلَى فـــمٍ ... يَمُجُّ خمْرًا مِنْ بَـرَدْ
إنْ قُسِمَ النَّاسُ فحَسْـ ... ـبِى بِكَ مِنْ كُلِّ أَحَدْ

وكقول ابن رشيق :

قدْ أَحْكمَتْ مِنِّى التَّجَـــا ... رِبُ كُلَّ شىْءٍ غيْرَ جُـودِى
أَبَدًا أَقُولُ لئِنْ كسَبْـ ... ـتُ لأَقْبِضنَّ يَدَىْ شدِيــدِ
حَتَّى إذا أَثْرَيْتُ عُـــدْ ... تُ إلى السَّمَاحَةِ مِنْ جَدِيدِ
إنَّ الْمُقامَ بِمِثْلِ حَـــا ... لِى لا يتِمُّ مَعَ الْقعُـــودِ
لابُدَّ لى مِنْ رِحْلـــةٍ ... تُدْنِى مِنَ الْأَمَلِ الْبَعِيـدِ

(١) عبارة صاحب « العمدة » فى أشعار الكتاب .

وكان أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدى يقول : « كما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح ، ولا يجول فى ميدان فسيح من المعانى ، ولا يقدر الأشياء قدرَها ، إلا بالمقارنات الكثيرة التى تمثّل فى النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكماً غير مزعزع ولا مدافَع » .

وما نسميه (الحاسة الفنية) كان يسميه (ملكة الأدب) ، وكانت السبيل عنده لتحصيل هذه الملكة هى المقابلة بين المعانى والألفاظ ، والمقارنة بين المفردات والأساليب ، وتعليل كل تحسين وتقبيح بما يقنع المتأدب ، ويدنيه من الفهم الصحيح .

— ٣ —

وأعود فأذكر أن الحاسة الفنية عزيزة المنال ، ومع هذا يدّعيها جميع الناس ، وإنما كانت عزيزة المنال ، لأننا نزن بها البيان ، والبيان كالجمال كثير التعقيد . ألا ترى أنك لا تَعْتَدّ برأى من يحسب البياض نصف الحسن ، ويرى تمام الصباحة فى الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين ؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان : معقد وبسيط ، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذى يدركه أكثر الناس ، والذى يُعرف بتناسب الأعضاء ، وهذا النوع فى سهولته وبساطته يشبه الألوان الأخّاذة التى يَهَشّ لها صغار الأحلام من النساء والأطفال . أما الجمال المعقد — وما أروع الجمال المعقد — فهو ذلك النوع الخطر الذى لا يفهمُه إلا أصحاب الأذواق ، وهذا النوع من الصباحة لا يرجع إلى فتنة الخدود ، وسحر العيون ، وإنما يرجع إلى ما هو أخطر من ذلك ، يرجع إلى دقائقَ من الحسن ، وغرائب من الملاحة ، لا يعرف تأويلها غير الراسخين فى علم الجمال .

حدّثنى بربّك كم فى هذه « الأعداد » التى تراها فى طريقك ممن يتذوّق جمال اللفتة ، والخطْرَة ، والمشية ؟ ، وكم فيهم ممن يتخطى سواد العين ، ثم يحاول فهم ما فى العين من رموز وألغاز ، وفى العين ما شئت وشاء السحر من اللبس والتعقيد ! !

وكم فيهم ممن يعذر أبا الأسود إذ يقول :

أَبَى الْقَلْبُ إلاَّ أُمَّ عَمْرٍو وَحُبَّها ... عَجُوزا وَمَنْ يُحْبِبْ عَجُوزاً يُفَنَّدِ
كبُرْدِ الْيَمَانِى قدْ تقادَمَ عَهْدُه ... وَرُقْعَتُهُ مَاشِئْتَ فِى الْعَيْنِ وَالْيَدِ

وهذا الجمال المعقّد هو الذى أسمعك صرخة الحكم الخضرى حين قال :

فوَاللهِ مَــا أَدْرِى أَزِيـــدَتْ مَــــلاحَةً
وحُسْنًا عَلى النِّسْوَانِ أَمْ لَيْسَ لِى عَقْـــلُ

وهو الذى صدق فى وصفه أبو نواس إذ يقول .

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًـــا اذا مَا زِدْتَهُ نظـــرَا

وكذلك البيان يا صاح فيه مُعقّد وبسيط . أما البيان البسيط فهو ذلك النوع السهل الذى يفهمه سواد الناس كقول طرَفة بن العبد :

سَتُبْـــدِى لكَ الْأَيَّـــامُ مَا كُنْتَ جَاهِـلاً
وَيَأْتِيكَ بِالأخْبَـــارِ مَنْ لم تُـــــــزوِّدِ

وكقول لَبيد :

أَلا كُلُّ شَىْءٍ مَا خـلا اللهَ بَاطِـــــلُ
وَكُلُّ نعِيمٍ لا مَحَالَــــةَ زائِــــــلُ

وكقول شوقى :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فإنْ هُمُو ذَهبَتْ أَخلاقُهُمْ ذهبُوا

ويكثر هذا النوع فى القرآن حين تمس الحاجة إلى ترغيب الجماهير ، كقوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كانتْ لهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلا خالِدِينَ فِيها لايَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً » : وكقوله عز شأنه : « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فمَنْ آمَنَ وَأَصْلحَ فلا خوْفٌ عَليْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزنُونَ وَالَّذِينَ كذَّبُوا بِآيَاتِنا يَمَسُّهم

الْعَذابُ بِمَا كانُوا يَفْسُقُونَ » . وكقوله تبارك اسمه : « قُلْ لا أَمْلِكُ لِنفْسِي نفْعًا وَلا ضَرًّا إلاَّ مَاشاءَ اللهُ وَلوْ كُنْتُ أَعْلمُ الْغيْبَ لاسْتكْثَرْتُ مِنَ الْخيْرِ وَمَامَسَّنِيَ السُّوءُ إنْ أَنا إلاَّ نذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

وهذا النوع من البيان هو المرجع فى المعاملات ، وقد تجب فيه البساطة المطلقة حين يُسْتَخْدَم فى تحرير الاتفاقات والمعاهدات والعقود ، وما إلى ذلك مما تُحَدَّد به العلاقات بين الأمم والأفراد ، وهذا النوع لا يحتاج إلى الحاسة الفنية ، وإنما يحتاج إليها البيان المعقد الذى قيل فيه : « إنّ مِنَ البيان لسحراً » . والذى قيل فيه : « شيئان لا نهاية لهما : البيان والجمال » . وفى الناس من يفتنه إشراق الديباجة ، وتخلبه رشاقة الأسلوب كما يسحره الجبين المشرق ، ويضله القدّ الرشيق .

والتعقيد الذى أعنيه غير التعقيد المعروف فى علم المعانى ، فلست أريد اللبس والغموض حين أتحدث عن البيان المعقد ، كما لا أريد الوجوه الملتوية حين أتكلم عن الجمال المعقد ، وإنما أصف البيان والحسن بالتعقيد حين يكون للوجه الوسيم ، والأسلوب الجميل ، قوةٌ فى التأثير يحار فى تعليلها اللبيب ، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحى الشياطين ، ومن أقدَر من الشيطان على العبث بالعقول ؟

والقصة المشهورة التى جاء فيها أن أحد أقيال اليمن قدم إلى دار الندوة فبصُر فيها بالنبى عليه السلام ، وهو إذ ذاك غلام مراهق ، فقال لمن حضر من القوم : إن هذا الغلام ينظر إليكم بعينَى لَبُؤة ، وتارة بعينَى عذراء خَفِرَة ، فلو أن نظرته الأولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً ، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيما لأنشرت أمواتكم ! هذه القصة فيها شىء من التعليل للجمال المعقد ، ولكن يظهر أننا انتقلنا إلى عالم النفس ، ويظهر أيضاً أن الجمال لا يُعقّد إلا حين تُعقّد النفس ، والنفس لا تعقد إلا حين تصبح كالبحر تصطخب فيه الأمواج ، أو كالميدان تشتجر فيه الرّماح أو كالقلب تقتتل فيه الأشجان ، ومن يُدرينا لعل جمال يوسف عليه السلام كان من هذا القبيل ... فما نظن أن صواحباته قطّعن أيديهن ، وعذرن فيه امرأة العزيز : لأسالة

خده ، وسواد شعره ، وإشراق جبينه ، وإنما نحسب أن تلك النفس النبوية التى تُضمر ما تضمر من دقائق الغيوب ، تلك النفس الجبارة السحّارة ، القهارة ، تلك النفس المفردَة فى عالم النفوس ، هى التى جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذى تقطعت به الأيدى بعد تمزيق القلوب . وسبحان من يعلم ما كان يجول بخاطر ذلك الغلام الجميل محمد بن عبد الله ، وهو فى دار النّدوة ، حتى حار ذلك القَبِيل فى أمره ، فلم يدْر أينظر بعينى لَبُؤَة ، أم بعينى عذراء خَفِرة ؟ وحسبنا أن نذكر أن الله كان يُعدّه لحمل الرسالة ، ويرشّحه لتبليغ تلك الدعوة التى لايزال صداها يَرِنّ فى أجواز الوجود .

وللبيان المعقد مثل هذا النصيب من بُعْد الغور ، ودقة المدلول ، فهو ذلك النوع المعجز الذى تسكن إليه القلوب ، وتحار فى تعليله العقول ، هو ذلك النوع الذى يقرؤه سواد الناس فيفهمونه ، ثم يقرؤه الخاصة فيُفتنون به ، ويحارون فى تعليل حُسْنِه ، ثم لا يُحسن واصفهم إلا أن يقول : هذا هو السحر الحلال .

— ٤ —

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البيان : فهو تارةً يرتكز على سمو الخيال ، كقول بعض الحكماء : « من غَمَس يده فى مال السلطان ، فقد مشى بقدمه على دمه » . فى هذه الكلمة من روعة التخييل ، وحسن التصوير ، ما يدهش العقول ، ويحيّر الألباب . وكقول أرْطاة بن سُهَيّةَ المُرّىّ :

فلوْ أَنَّ مَا نُعْطِى مِنَ الْمَالِ نبتَغِى
بِهِ الْحَمْدَ يُعْطِى مِثْلَهُ زاخِرُ الْبَحْرِ
لظلّتْ قَرَاقِيرٌ صِيَامًا بِظاهِرٍ
مِنَ الضَّحْلِ كانتْ قبْلُ فِى لُجَجٍ خُضْرِ (١)

---

(١) القراقير السفن : والمفرد قرقور على وزن عصفور ، وصيام السفن : ركودها . والضحل : الماء القليل لاعمق له ، واللجج الخضر : هى السود .

فقد صور لك البحر الذى عجزت عن حربه الليالى بصورة بَشعة مخيفة يهابها الوهم وتتحاماها الظنون ، فهو يذكر أن البحر الزاخر ، الذى يُجن مّا يُجنّ ، ويُظهر ما يُظهر ، والذى يروعك منظَره ، ويهولك مخبَره ، يذكر أن ذلك البحر لو بذل مثل ما يبذل قوم هذا الجواد فى سبيل الحمد لأصبحت السفن راكدة فوق صُبابات من الماء ، وقد كانت قبل فى لُجج رهيبة السواد ، وهذه الصورة هى التى بررت مبالغة الشاعر فى وصف قومه الأجواد ، وإن عزّ البحر عن النظائر ، وجلّ عن الأشباه .

ومن رائع الخيال قول أبى نواس :

أَلا لا أَرَى مِثْلِى ٱمْتَرَى الْيَوْمَ فى رَسْمِ
تَغَصّ بِهِ عَيْنِى وَيَلْفِظُهُ وهْمِى
أَتَتْ صُوَرُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِى وَبَيْنَهُ
فَظَنِّى كلا ظنٍّ وَعِلْمِى كَلا عِلْمِ

فأنت تراه ، وقد وقف أمام ذلك الرسم الذى نال منه العفاء ، وغيّره الدّروس حتى ارتاب فيه ، وغصت به عينه ، ولفظه وهمه ، ثم أغرقك فى بحر من التخيل حين قال :

أَتَتْ صُوَرُ الأَشْيَاءِ بَيْنِى وَبَيْنَهُ
فَظَنِّى كَلاَ ظنٍّ وَعِلْمِى كَلاَ عِلْمِ

وعليك أن تستوعب هذا المعنى ، فقد فتحت لك الباب .

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الغوانى :

إذا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤابَةَ شَاربٍ
تمَشَّتْ به مَشْىَ المُقَيَّدِ فى الْوَحْلِ

وكان يقول قاتله الله ! ما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله فى وحل ! وهذا كما ترى أبدع ما يُصوّر بهِ النشوان .

ولا تنس القرآن ، فإنه غاية الغايات فى روعة الخيال ، وانظر قوله تعالى :

« أَوْ كَظُلُمَاتٍ فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فوْقِهِ مَوْجٌ ، مِنْ فوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُها فوْق بَعْضٍ .

ولا يدرك هذا المعنى الفخم إلا من ذاق بأساء الحياة ، ورأى كيف يكون هوَج الريح ، وجنون الموج ، وعسف الظلام ، وكم فى الحياة من أهوال !

وقد يرتكز البيان المعقد على بساطة الأداء ، وهذا أحسن تأويل لكلمة : « المطمع الممتنع » فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك على مثله قدير ، حتى إذا حاولت أن تأتى بشىء من مثله عزّ عليك وامتنع ، وإليك قول ابن الدمينة يوصى حبيبته بالقسوة على الوشاة ، وبالصلابة حين يجور اللائمون :

وكُونِى عَلى الْوَاشِينَ لدَّاءَ شَغْبةً   كمَا أَنا بِالْوَاشِى أَلدُّ شغُوبُ
وَكُونِى إِذَا مَالُوا عَلَيْكِ صَلِيبَةً   كمَا أَنا إِنْ مَالُوا عَلَىَّ صَلِيبُ

فهذا كلامٌ سهل ، يسكن إليه القلب ، وتخلد إليه النفس ، ولكنه يعزّ على من يرومه ، ويطول على من يسمو إلى محاكاته . ومثله فى بساطته ودقته قول بعض الأعراب :

إِذَا اجْتَمَعَ الْجُوعُ الْمُبَرِّحُ وَالْهَوَى
عَلى الرَّجُلِ الْمِسْكِينِ كَادَ يَمُوتُ

وهى فكاهة رقيقة يبسم لها ثغر الحزين.

وأظرف منه قول الآخر ، وقد تمردت عليه امرأته وضَرِيَتْ على إيذائه :

أ يَارَبِّ إِنْ قَتلْتَهَا فعُدْ لَهَا   فَلَنْ تَمُوتَ أَوْ تُجِيدَ قتلَهَا

فقد مثّلها بالحية النضناض ، التى يُقتّلها المرء تقتيلا ، ثم لا تزال تبدو لعينيه وكأنها تسعى :

— ٥ —

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره إلى نفس المبين : من شاعر ، أو كاتب أو خطيب ، فإن هناك نفوساً خطرة قد تُضلّلك وقد تهديك حين يكتب أصحابها وحين يتكلمون . وانظر قول موسى بن جابر ، وقد رأى تجمّع الأعداء وتوثّبهم :

وَقُلْتُ لِزَيْـــــد لا تُتَرْتِـــــرْ فَإِنَّهُـمْ
يَرَوْنَ الْمَنايَا دُونَ قَتْلِكَ أَوْ قتْــــــلِى
فإِنْ وَضعُـــوا حَرْبًا فَضَعْهَـا وَإِنْ أَبَـوْا
فَعُرْضَـــةُ عَضِّ الحرْبِ مِثْلُكَ أَوْ مِثْـلِى
وَإِنْ رَفعُـــوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ الَّتى تَــرَى
فَشُبَّ وُقُودَ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَــزْلِ

فهذه النفس المعقّدة فى أغراضها ومراميها هى التى وقّفتْك موقف الحيرة أمام هذه الأبيات ، فأنت ترى فتًى شجاعًا مقداماً لم تنسه شجاعته ، ولا إقدامه ما يحيط به من عظائم الأخطار ، فهو ينصح لرفيقه ويوصيه بالحذر والرفق ، ويدعوه إلى وضع الحرب إن وضعها الأعداء ، وإلى شبّ وقودها بالحطب الجزْل إن أبوا إلا القتال ، وهذا هو الجمع بين الحزم والشجاعة ، وقلّ من يجمع بينهما من أفذاذ الرجال .

وانظر قول الآخر يتوجّع من الوحْدة والغُرْبة فى بلاد الأعداء :

وَقُلْتُ لِغَلاَّقٍ بِعِرْنَـــانَ مَاتَـــرَى
فَمَا كَادَ لِى عَنْ ظَهْرِ وَاضِحَـــةٍ يُبْـدِى

تَبَسَّمَ كَـرْهًا وَاسْتَبَنْتُ الَّذِى بِهِ
مِنَ الحَزَنِ الْبَادِى وَمِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ

إِذَا المَرْءُ أَعْرَاهُ الصَّدِيقُ بَدَتْ لَهُ
بِأَرْضِ الْأَعَادِى بَعْضُ أَلْوَانِهَا الرُّبْدِ

— ٦ —

وتلك أيها القارىءُ خواص يُرَاد بها التقريب لا التحديد ، فإن المرجع إلى الحاسة الفنية ، وهى قد تَدِقّ حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجيده من الكلام البليغ . والآمدى يضرب المثل بالفرَسَيْنِ السليمين من كل عيب ، وفيهما جميع علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية ، وبالجاريتين البارعتين فى الجمال السَّلِيمَتَيْن من كل عيب يفرق بينهما العالم بالرقيق حتى يجعل فى الثمن بينهما فضلاً كبيراً ، بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق ، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درْبته وطول ملابسته ، وكذلك الشعر كما يقول الآمدى ، قد يتقارب البيتان الجيّدَان النادران ، فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود : إن كان معناهما واحداً ، وأيهما أجود فى معناه إن كان معناهما مختلفاً (١) .

وحكى إسحاق الموصلى قال : سألنى محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما . فاخترت فقال : من أين فضلْت هذا على هذا ، وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكننى التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشىء تشهد به الطبيعة ولا يعبّر عنه اللسان .

والطبيعة فى كلام إسحاق هى ما نريده من الحاسة الفنية . وفى هذا القدر كفاية فقد طال بنا الحديث .

---

(١) انظر تفصيل رأى الآمدى فى الجزء الثانى من كتاب : « النثر الفنى » .

البحث السابع

خطر الإبهام والغموض

— ١ —

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسساً على قواعد واضحة صريحة لا إبهام فيها ولا غموض ، ليظفر الناقد باقتناع القارئ ، وليكون نقده مادة جديدة فى عالم البيان .

وأخطر ما يعرض للنقد والمماثلة أن يعمد الموازن إلى التعابير المصبوبة فى قوالب المجاز ، فإنها بئس الأداة فى الفصل بين الشعراء ، كأن يقول : « هذا شعر أبدت صدوره متونه ، وزهت فى وجوهه عيونه ، وانقادت كواهله لهواديه ، وأشبه الروض فى وشْى ألوانه وإشراق أنواره ، وابتهاج أنجاده وأغواره ، وأشبه الوشى فى اتفاق رقومه واتساع رسومه ، وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه ، وحكى العقد فى التئام فصوله وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدرّه ، وفريده بشَذْره ، قد كشف الإيجاز موارده وصقلت مداوس الدربة مناصله ، وشحذت مدارس الأدب فواصله » .

وهذه التعابير المجازية المبهمة مأخوذة من فصل لأبى العباس الناشئ فى وصف الشعر الجميل ، وهو صاحب هذه المنظومة :

الشِّعْرُ مَاقَوَّمْتَ زَيْغَ صُدُورِهِ ... وَشَدَدْتَ بالتَّهْذِيبِ أَسْرَمُتُونِهِ
وَرَأَبْتَ بِالْإِطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ ... وَفَتَحْتَ بِالإِيجَازِ غَوْرَ عُيُونِهِ
وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ ... وَوَصَلْتَ بَيْنَ مُجِمِّهِ وَمَعِينِهِ

وَعَهِدْتَ مِنْهُ لِكُلِّ أَمْرٍ يَقْتَضِى ... شَبَهًا بِهِ فَقَرَنْتَهُ بِقَرِينِهِ

وهى منظومة طويلة عنى بها المتقدمون ، كما عُنوا بمنظومته الأخرى التى يقول فيها :

إِنَّمَا الشِّعْرُ مَا تَنَاسَبَ فِى النَّظْـ ... ـمِ وَإِنْ كَانَ فِى الصِّفَاتِ فُنُونَا
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا ... قَدْ أَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ المُتُونَا
كُلُّ مَعْنًى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا ... تَتَمَنَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ ... كَادَ حُسْنًا يَبِينُ لِلنَّاظِرِينَا
فَكَأَنَّ الْأَلْفَاظَ فِيهِ وُجُوهٌ ... وَالمَعَانِى رُكِّبْنَ فِيهِ عُيُونَا

وعيب هذا الضرب من الوصف أنه لا يغنى فى تحديد الموصوف : بل يلقى عليه أستاراً من اللبس والغموض ، فإنه لاقيمة لمدح الشعر بتقويم زَيْغ صدوره ، وشَدّ أسر مُتُونه ، والجمع بين قريبه وبعيده ، والوصل بين مجمه ومعينه ، وما إلى ذلك من الصفات المبهمة التى يغرم بها المتكلفون .

— ٢ —

ومن أمثلة هذا النوع ماذكره بديع الزمان فى مقاماته إذ قال : « جلسنا يوماً نتذاكر الشعرَ والشعراء ، وتلقاءنا شابٌّ قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الكلام بنا ميله ، وجر الجدل فينا ذيله ، قال أصبتم عُذَيْقَهُ ، ووافيتم جُذَيْلَهُ ، ولو شئت للفظت ، ولو أردت لسردْت ، ولجلوت الحقَّ فى معرض بيان يسمع الصُّمَّ ، ويردى العُصم ، فقلت : يا فاضل ادن فقد منّيت ، وهات فقد أثنيت ، فدنا وقال : سلونى أجبكم ، واستمعوا أعجبكم .

قلنا : فما تقول فى امرىء القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى والطير فى وكُناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يُجد القول راغباً ، ففضل من تفتق للحيلة لسانُه ، وانتجع للرغبة بنانه .

قلنا : وما تقول فى النابغة ؟ قال : ينسب إذا عشق ، ويثلب إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، فلا يرمى إلا صائباً .

قلنا فما تقول فى طـَرَفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تطلق عتاق خزائنه .

قلنا : فما تقول فى جرير والفرزدق ؟ قال : جرير أرق شعراً ، وأغزر غـُدراً والفرزدق أمتن صخرا ، وأكثر فخراً ، وجرير أوجع هجواً ، وأشرف يوماً والفرزدق أكثر رَوْماً ، وأكرم قوماً ، وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا ثلب أردى وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا وصف أوفى ، وإذا احتقر أزرى .

قلنا : فما تقول فى المحدَثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : « المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر فى المعانى حظا ، والمتأخرون ألطف صـُنعاً ، وأرق نسجاً » .

ولو عـُدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التى تصلح لـَبوساً لكل موصوف ، فكل شاعر فيما أظن : « ينسب إذا عشق ، ويثلب إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب » . ومن اللـّبس أن تقول فى وصف شاعر : « هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافى ومدينتها » أو أن تقول : « إنه أمتن صخراً أو أكثر روما » . ومن المجازفة أن تقول : « المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر فى المعانى حظا » . وقد ظـَرُف من لاحظَ أن الاغتداء والطير فى وُكـُناتها من خواص اللصوص ، وهذا بالطبع لا يقدح فى سـُمـُوّ تلك العبارة إلاّ حين تـُرسل بلا تقييد ، وقد قيدها امرؤ القيس حين قال :

وَقَدْ أَغْتَدِى وَالطَّيْرُ فى وُكُنَاتِهَا ... بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

على أن هذا البيت لا يدل على أن : « صاحبه أول من اغتدى والطير فى وكناتها » . كما قال بديع الزمان :

— ٣ —

وقال ابن دريد : سألت أبا حاتم عن أبى نواس فقال : إن جدّ أحسن ، وإن هزل ظـَرف ، وإن وصف بالغ ، يلقى الكلام على عواهنه لا يبالى من أين أخذه .

قلت : فبشار بن برد ؟ قال : نظار غواص مطيل مجيد يصف مالم يره كأنه رآه ، على أن فى شعره خللاً كبيراً .

قلت : فمروان بن أبى حفصة ؟ قال : شاعر راض عن نفسه ، يستحسن كل ما جاء منه ، مُعْجب لايرى أن أحداً يتقدّمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ، ليس لشعره صنعة .

قلت : فمسلم بن الوليد ؟ قال : خَليجٌ صافٍ ينزع من بحر كدر ، كالزند، يورى تارة ، ويصلد أخرى.

قلت : فأبو العتاهية ؟ قال غثاء جم ، واقتدار سهل ، وشعر كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد .

قلت : فعباس بن الأحنف ؟ قال : يُلقى دلوه فى الدلاء ، فيغترف الصفو أحياناً والحمأة أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه .

قلت : فسَلْم الخاسر ؟ قال : مُقلٌ مداح ، شعره ديباج وعِهْن ، يموِّه الردىء حتى يُشْبِه الجيد .

قلت : فأبو الشَّيص ؟ قال : جدّه كلّه فيه حلاوةٌ وبشاعة ، كالسّدرة التى نفضت فيها المستعذب والمستبشع .

قلت : فعلىّ بن جَبلة ؟ قال : بحّاث عن الكلام الفَخْم ، والمعنى الرائع ، لاينال مرتبة القدماء ، ويجلّ عن منزلة النظراء .

قلت : فأبو تمام ؟ قال : مسيلٌ كثير الغثاء ، غزير الغمار ، جم النطاف ، فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال .

قلت : فعبد الصمد بن المعذّل ؟ قال : خرّاج ولاّج : يعتسف تارةً ويهتدى أخرى .

قلت : فعلىّ بن الجهم ؟ قال : كلامٌ رصين ، ومسلك وَعْر ، عقله أغلب على شعره من طبعه .

قلت : فبكر بن النطّاح ؟ قال : تشبّه بالأعراب فأفرط ، وتجاوز حد المولّدين فأسهب ، فهو الساقط بين القرينَيْن » .

ولا ننكر أن فى هذا الضرب من القول بياناً لبعض خصائص الشعراء ، ولكنا نستنكر أن تحدد شاعرية شاعر بأنه : « خرّاج ولاّج ، يعتسف تارةً ويهتدى أخرى » أو بأنه : « خليج صاف ينزع من بحر كدر » أو بأنه : « لا ينال مرتبة القدماء ويجل عن منزلة النظراء » .

ومما يؤسف له أن الميل إلى الإبهام كان يغلب على المتقدمين ، ولم يسلم منه الجاحظ على بَصَرِه بالبيان والتبيين ، فقد كان يصف شعر أبى العتاهية بأنه : « ملس المتون ليس له عيون » وهى عبارة مجازية لا تؤدى إلى معنى محدود .

— ٤ —

ويضاف إلى هذا إغفالهم ضرب الأمثال ، وإطلاقهم الحكم بلا بينة ولا دليل فى حين أن الموازنة لا يُراد بها غير التمييز والفصل بين ما قال الشعراء فى مختلف الأغراض

وقد سرت هذه العدوى إلى شعراء العصر وكُتّابه . فنجد مصطفى الرافعى يقول فى وصف الشعر : « لو كان طَيراً يُغَرِّد لكان الطبع لسانه ، والرأس عشه ، والقلب روضته ، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء » .

ونجد محمدا السباعى يصف شكسبير بأنه : « منحة الطبيعة وجائزة الدهر » .

ونجد حافظ إبراهيم يصف شعر فيكتور هيجو فتكون غايته أن يقول :

مَا ثُغُورُ الزَّهْرِ فى أَكمامِها ... ضَاحِكات مِنْ بُكاءِ السُّحُبِ
نَظَمَ الْوسْمِىُّ فِيهَا لُؤلُؤاً ... كثنايا الغِيدِ أَوْ كالْحَبَبِ
عِنْدَ مَنْ يَقْضِى بِأَبْهى مَنْظَرًا ... مِنْ مَعَانِيهِ الَّتى تَلْعبُ بى
بَسَمَتْ لِلذِّهْنِ فَاسْتَهوتْ نُهَى ... مُغرم الفَضْلِ وَصَبِّ الأَدبِ

ولا يزال الأدباء يذكرون قول المنفلوطى فى الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش : « لولا مقامه فى اللواء ، ومذهبه فى الهجاء ، لكان هو وفريد وجدى سواء » .

وقوله فى المرحوم قاسم أمين : « ما رأيت باطلاً أشبه بالحق من باطله » .

وتلك كلها عبارات مبهمة لا تقنع طلاّب البيان .

إنما يجب على الناقد الذى استوفى ما أسلفناه من الصفات :

١ — أن يذكر حياة من يُوازن بينهم من الشعراء ، وأن يُعيّن ما فى حياة كل شاعر من ألوان الشدّة ، أو صنوف الرخاء .

٢ — وأن يبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من الاعتلال .

٣ — وأن يقدر السن التى قيل فيها ما يُريد وَزْنَه ونقْده .

٤ — وأن يحدّد الصفات التى اشترك فيها من يُوازن بينهم ، والصفات التى انفرد بها كل واحد منهم ، ثم يتغلغل فى تحليل المعانى ، والألفاظ ، والأساليب ، ويوازن بين القصائد والمقطوعات ، والأبيات اليتيمة .

٥ — وأن يدقّق النظر فى تمييز المعانى المبتدعة من المعانى المسبوقة ، ويبين كيف تناول الشاعر المعنى الذى سُبق إليه ، وكيف هذّبه ، وكيف بَسَطه ، حين يَجُود أخذه ، وتلطّف سرقته ، وكم فى الشعراء من سارق لطيف !

٦ — وأن يعدّ ما برّز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع ، وما أجاد أخذه ، وما ابتكره وما انفرد بهِ ، فقد يبتكر الشاعر المعنى ، ثم يُغلَب عليه حين يقصر فى تأديته ، وقد يبتكر المعنى ، ثم ينفرد بهِ حين يبلغ الغاية فى الأداء .

٧ — وأن يبين الفرق بين الشاعرين حين يشتركان فى الإبانة عن غرض واحد وحين يختلفان فى ذلك .

٨ — وأن يبين أسباب السّبق ، وأسباب التخلّف ، مع التعمق فى استقراء ما لكل شاعر من خطرات النفس ، ولفتات القلب ، ونوازع الوجدان .

٩ — وأن يعدّ ما لكل شاعر من المعانى الموضعيّة ، التى اقتضاها زمانه ومكانه والمعانى الإنسانية ، التى تصلح لجميع الناس ، على تباين الأمكنة واختلاف العصور .

١٠— وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من : « الصور الشعرية » . وسنعود إلى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان .

البحث الثامن

الصور الشعرية

— ١ —

هذا فن جديد فى نقد الشعر والموازنة بين الشعراء . ألقيت عنه محاضرة فى الجامعة المصرية فى سنة ١٩٢١ ، ثم اخترته للمناقشة العلنية فى امتحان الدكتوراه ، فساعدنى ذلك على تحديده ، وضبط المراد منه ، وكشف ما يعتوره من الغموض ، وإلى القارىء البيان :

الصورة الشعرية هى أثر الشاعر المُفْلق الذى يصف « المرئيات » وصفاً يجعل قارىء شعره ما يدرى أيقرأ قصيدة مسطورة ، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود والذى يصف « الوجدانيات » وصفاً يخيل للقارىء أنه يناجى نفسه ، ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد .

والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف فليس منها قول أبى نواس فى وصف الراح :

صَهْباءُ تَبْنِى حَبَابًا كُلَّمامُزِجتْ كَأَنَّهُ لُؤلُؤ يَتْلُوهُ عِقْيانُ
كانتْ عَلَى عَهْدِ نُوح فِى سَفِينَتِهِ مِنْ حُرِّ شُحْنَتِهاوالأَرْضُ طُوفانُ
فَلَمْ تَزلْ تَعْجِمُ الدُّنْيا وتَعْجِمُهُا حَتى تَخَيَّرَها لِلْخَبْءِ دِهْقان
فَصَانَهَا فِى مَغارِ الأَرْضِ فاخْتلَفَتْ
عَلَى الدَّفِينَةِ أَزْمَانُ وَأَزْمَانُ

بِبَلْدةٍ لَمْ تَصِلْ كلْبٌ بِها طُنُبًا
وَلَا خِبَاءً وَلَا عبْسٌ وذُبْيَانُ

لَيْستْ لِذُهْلٍ ولَاشيْبَانِها وطنًا   لَكِنَّها لِبنى الْأَحْرارِأَوْطان

أَرْضٌ تَبنَّى بِها كِسْرى دساكِرهُ
فَما بِها مِنْ بنى الْأَعْرابِإِنْسانُ

وما بِها مِنْ هَشِيمِ الْعُرْبِ عَرْفَجةٌ
وَلَا بِها مِنْ غِذاءِ الْعُرْبِ خُطْبانُ

لٰكِنْ بِها جُلَّنارٌ قَدْ تَفرَّعهُ   آسٌ وكلَّلهُ ورْدٌ وسُوسانُ

ولو عُرِضتْ هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر ، أو لو أنها عُرِضت على رجل من الأدباء فى الأعصر الخالية لوصفت على الأقل بأنها رشيقة الأسلوب متينة التركيب ، ولكننا سنبين أنها قصيدة جوفاء ، لاحظ لها من الروعة ، ولا نصيب لها من الجمال .

أراد أبو نواس أن يصف الخمر ، ولكن هل وضع صورة شعرية تنتظم مع ما للخمر من اللون والعَبير ، وما لها من العبث بالعقول ، واللعب بالنفوس ؟ كلا ! لم يصنع شيئاً من ذلك ، ولكنه ذكر فقط أنها كلما مزجت تبنى حباباً كأنه لؤلؤ يتلوه عقيان ثم اندفع يذكر أنها عتيقة ، وأن عهدها بالوجود قديم ، وقد جره ذلك إلى الإغراب فى الكذب ، فذكر أنها كانت خير ما شحن فى سفينة نوح ، وأنها مازالت تغالب الدهر ، وتصانع الحدثان ، حتى ظفر بها دهقان ماكر دفنها فى مغار الأرض ، وأخفاها عن عينى الزمان ، ولم يكفه ذلك ، بل ذكر أن الأرض التى دفنت فيها هذه الخمر أرض كسروية ، لم ينصب فيها خباء لعبس ولا ذبيان ، ولم ينبت بها عرفج ولا خطبان بل زينها الجلنار ، والورد ، والآس والسوسان .

إذاً أخطأ أبو نواس حين غلا فى الإشادة بعتق الصهباء ، لأن عشاقها لايشعرون

بالحاجة إلى إقامة البينة على أنها من عهد الطوفان ، مهما أحبوا أن تكون قديمة العهد بالوجود . فقد يكفيهم أن توصف بالقدم ، وأن تكون لقدمها كما قال ابن الرومى :

لَطُفتْ فَقدْ كادتْ تَصِيرُ مُشاعةً
في الجوِّ مِثل شُعاعِها ونسِيمِها

أو كما قال ابن المعتز :

جَرتْ حركاتُ الدَّهْرِ فوق سُكُونِها
فَذابتْ كذوْبِ التِّبْرِ أَخْلصهُ السَّبْكُ
فَقدْ خَفِيتْ مِنْ صَفْوِها فَكأَنَّها
بَقايا يَقِينٍ كاد يُدْرِكُهُ الشَّكُّ

ويكاد القارىء لقصيدة أبى نواس يتوهم أنه يقرأ شيئاً غير وصف الخمر ويكاد يحسب أنه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية ، وما تنبت البلاد الفارسية إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من دساكر ، وما بأرض الفرس من ورد وآس ويسخر مما للعرب من طُنب وخباء ، وما بأرضهم من عرفج وخطبان .

ولو لم يضل فى بيداء هذا الفضول لكان للغلو فى وصف الخمر بالقدم شىء من الروعة . أو كان على الأقل مما تسيغه النفوس ، فما نظن أحداً يستنكر قول البحترى فى وصف الشَّمُول :

بِكْرٌ تَقدَّمتِ الزَّمانَ بِغرْسِها إنْ كان قَبْلَ الدَّهْرِ شَىءٌ يُغْرسُ

ولنفرض أن أبا نواس أجاد فى وصف الخمر بالقدم ، وأنه فى ذلك غير مسبوق أفيكفى أن يوصف الشىء من ناحية واحدة مهما كان وصفها سابغاً ليصبح الموصوف وهو ممثَّل من جميع الجوانب ؟ إن هذا لبعيد !

ولا ننكر أن الصفة الغالبة لشىء من الأشياء قد تصرف الشاعر عما عداها من

الصفات ، وليس قدم الخمر من ذلك فى كثير ولا قليل ، فقد تكون الراح جبّارة قهّارة ، وهى فى ميْعة الصبا وعنفوان الشباب ، وغيرى عنده الخبر اليقين .

— ٢ —

ولننظر قول أبى نواس من كلمة ثانية :

دعْ عنْك لَوْمِى فإنَّ اللَّوْمَ إغْراءُ
وَداوِنى بِالَّتى كانتْ هِى الدّاءُ

صفْراءُ لَاتنزِلُ الْأَحْزانُ سَاحتَها
لَوْ مسَّها حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

قَامتْ بِإِبْريقِها واللَّيْلُ مُعْتكرٌ
فَلَاحَ مِنْ وجْهها فى الْبيْتِ لَأْلَاءُ

فَأَرْسلتْ مِنْ فَمِ الْإِبْريق صَافِيةً
كأَنَّما أَخْذُها بِالْعيْنِ إغْفاءُ

جفَتْ عَنِ الْماءِ حتَّى مَايُلَائِمُها
لَطافَةً وجفا عَنْ شَكْلِها الْماءُ

فَلوْ مَزجْتَ بِها نُوراً لَمَازَجَهَا
حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوارٌ وأَضْواءُ

وهذه صورة شعرية للراح ، ألمّ فيها الشاعر بصفاتها المختلفة ، أو بأشهر ما لها من الصفات ، وقد ابتدأ ذلك بنبذ ملامة اللائمين ، بل جعل اللوم نوعا من الإغراء ، واستصرخ الساقى ليسعفه بالتى كانت الدواء ، لما أورثت من داء ، ثم اندفع يذكر أنها صفراء اللون ، وأن الحزن لا يحل لهاساحة ، وأن الحجر لو مسها مسته السراء ،

وأنها حين قامت بابريقها هتكت الظلماء ، بما لوجهها من لألاء ، وأنها حين أرسلت صافية من فم الإبريق أخذت تلعب بالعيون كأنها الإغفاء ، وأنها لطفت حتى ما تلائم الماء ، ولا يشاكلها الماء ، فلا سبيل إلى أن تشعشع بالعذب الفرات ، فإن عجز المصطبح أو المغتبق عن شربها صرفة فليمزجها بالنور ، فانه لها مزاج ، وهى له لباس ، ومنهما تتولد الأنوار والأضواء .

— ٣ —

وقد يُلاحظ أن هذا الوصف بعيد عن متناول العقول ، ونجيب بأنه لا جمال للشعر إلا إذا أضيف إلى الحقيقة شيء من الخيال ، وقد يكون هذا الخيال حقيقة ثانية لا فرق بينها وبين الأولى إلا أن احداهما فى الواصف وأخراهما فى الموصوف ، لأن الشاعر لا يصف شيئاً إلا متأثراً بحسنه أوقبحه ، فهو حين يذكر الشيء الدميم يذكر بجانبه نفرته من الدمامة ، وحين يصف الشيء الجميل يصف بجانبه غرامه بالجمال ، وربما خضع الشاعر لعاطفته ، فانتقل من وصف إلى وصف ، كأن يترك الحديث عن الراح وينحدر إلى وصف الساقى مثلا ، وهنا لامندوحة من أن ينتقل الناقد مع الشاعر ليعرف أقصّر فى وصف ما انتقل إليه أم أجاد ، وتكون الصورة الشعرية للموصوف الثانى ، مثال ذلك قول ابن عُنين

ومُدامةٍ لَمْ يُبْقِ طُولُ ثَوائِها   فى خِدْرِها إلَّا ومِيضَ شُعاعِ

مِنْ كفِّ مَصْقُولِ الْعوارِضِ آنِسٍ   يَرْنُو بِمُقْـــلةِ جُـــؤْذَرٍ مُرْتاعِ

وقفتْ عَوارِضُ صُدْغِهِ فى خَدِّهِ   حَيْرَى وباتتْ فى القُلوبِ سَواعِ

راضتْ خَلائِقَهُ الْعُقارُ وبدَّلتْ   نَزقَ الصِّبا بِمُوَقَّـــرٍ مِطْواعِ

وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة فى وصف الخمر ، وليست من ذلك فى شىء إنما هى تشبيب ، ومثلها قول البحترى ، وقد صرعت نديمة الصهباء :

وندِيمٍ حُلْوِ الشمائِلِ كالدِّينارِ مَحْضِ النِّجارِ عَذْبِ الْمصفّى
بِتُّ أَسْقِيهِ صَفْوَةَ الرَّاحِ حتى وَضَعَ الْكأْسَ مَائِلًا يَتَكَفّا
قُلْتُ عَبْدَ الْعزِيزِ تَفْدِيكَ نَفْسِى !
قَال لَبَّيْكَ ! قُلْتُ لبيّْكَ أَلْفَا !
هَاكها ! قَال هَاتِها ! قُلْتُ خُذْها
قَال : لَا أَسْتَطِيعُها ، ثُمَّ أَغْفى

وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة ، وليس جمال هذه الأبيات فى ترديد القول كما يظنون ، ولكن جمالها فى هذه الصورة الشعرية البديعة التى تمثّل لك رفق النديم ، وجناية الكأس عليه ، واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحوار الرقيق .

— ٤ —

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى فى نفس القارىء والسامع ، ألا ترى أن قول بعض الأندلسيين :

أَخافُ عَليْكَ مِنْ عَيْنَىْ رقِيبِى وَمِنْ عَيْنِى وعيْنِك والزَّمانِ
ولوْ أَنِّى وضعْتُك فى عُيُونِى إلَى يوْمِ الْقِيامةِ ما كفانِى

أقل تأثيراً فى النفس من قول ابن الرومى :

أُعانِقُهُ والنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إليْهِ وهلْ بَعْد العِناقِ تَدانِ
وأَلْثِمُ فَاهُ كىْ تَزُول حَرارَتِى فَيشْتَدُّ ما أَلْقَى مِن الْهَيَمانِ

وَلمْ يَكُ مِقْدارُ الَّذِى بِى مِن الجوى
لِيـرْوِيَـهُ ما تلْثمُ الشَّـفتانِ

كأَنَّ فُؤادِى لَيْس يَرْوِى غَلِـيلَهُ
سِوى أَنْ يَرى الرُّوحـيْنِ يَمْتَزِجانِ

لأن ابن الرومى وضع لكلفه صورة شعرية تامة الأجزاء ، وتنقّل بالقارىء والسامع من حال إلى حال ، وذكر أموراً فطرية يشعر بمثلها كل متيم مشغوف ، ثم علل شرهه فى صبوته بخطَرِ لوعته وفرط جواه ، وتحليل المعنى وتعليله من أقرب الوسائل إلى تمكينه فى النفوس ، وفى تحليل المعانى وتعليلها تتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء .

البحث
التاسع

أهمية الصور الشعرية

عرف القارئ شيئاً عما أريده من الصور الشعرية ، ولكنه شيء يسير لا يغنى فى إماطة اللثام عن هذا الفن الجديد ، وسأعود بعد قليل إلى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية ، والتمثيل المعروف فى علم البيان ، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هى الاستعارة التمثيلية ، وهو خطأ مبين .

والآن أرجع إلى توضيح ماذكرته فى الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى فى النفس ، لأن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هى التأثير ، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليله كافية فى تحقيق غاية البيان ، ولنضرب لذلك الأمثال :

— ١ —

من الحكم المأثورة قول أبى الدَّرداء : « مَنْ لَكَ بأخيك كله » . يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه ملكاً لأخيه . هذا هو أصل المعنى ، وتلك هى صورته الأصلية ، فلننظر كيف بَسَطه بَشّار بن برد حين قال :

إذا كُنْتَ فى كُلِّ الأُمُورِ مُعاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِى لَا تُعاتِبُهْ
فَعِشْ واحِدًا أَوْ صِلْ أَخاكَ فإنَّهُ مُقارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجانِبُـه
إذا أَنْتَ لَمْ تَشْربْ مِرارًا عَلَى الْقَذَى ظَمِئْتَ وَأَىُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشارِبُهْ

فإذا وازنت بين هذه الأبيات وبين كلمة أبى الدرداء رأيت أن كلمة : « من لك بأخيك كله » . كلمةٌ مُبْهَمَةٌ لا تقر فى النفس إلا بعد التأمل والترديد : ورأيت صاحب هذه الأبيات الثلاثة يخاطب عقلك ووجدانك ، إذ يذكر أنك إن عاتبت صديقك فى كل الأمور فلن تلقى الصديق الذى لا تعاتبه ، لأنه يندر أن يخلو صديق من العيوب ، وأنك مضطر إلى إحدى اثنتين : إما أن ترضى الوحدة ، وإما أن تصل أخاك ، فقد يقارف الذنب مرة ويجانبه مرة أخرى ، وإذا لم تشرب « مراراً » على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه فى هذا الوجود ؟!

فأنت ترى أن كلمة بشار أوقع فى النفس ، وأملأ للقلب ، من كلمة أبى الدرداء ، وإليك كلمة الشريف الرضىّ فى نفس المعنى :

وكَمْ صَاحِبٍ كالرُّمْحِ زَاغَتْ كُعُوبُه
أَبَى بَعْـدَ طُولِ الْغمْزِ أَن يَتَقَوَّما

تَقَبَّلْتُ مِنْـهُ ظَاهِرًا مُتبلِّجًا
وأَدْمَجَ دُونِى باطِنًـا مُتجَهِّما

فَأَبْدى كروْضِ الحَزْنِ رَقَّتْ فروعُهُ
وأَضْمَرَ كاللَّيْـلِ الْخِدارِىِّ مُظْلِما

ولوْ أَنَّنى كشَّفْتُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ
أَقمْتُ عَلَى ما بيْنَنا الْيوْمَ مأْتَما

فَلَا باسِطًا بِالسُّوءِ إنْ سَاءَنِى يَدًا
وَلَا فاغِرًا بِالذَّمِّ إِنْ رَابَنى فَما

كعُضْوٍ رَمَتْ فِيهِ اللَّيالِى بِقادِحٍ
وَمَنْ حَمل العُضْوَ الْأَلِيمَ تَألَّمَا

إذا أَمَرَ الطِّبُّ اللّبِيبُ بِقَطْعِهِ
أَقُولُ عَسَى ضنًّا بِهِ وَلعَلَّمَا

صَبَرْتُ عَلى إِيلامِهِ خوْفَ نَقْصِهِ
وَمَنْ لامَ مَنْ لايَرْعَوى كانَ أَلْوَمَا

هىَ الْكف مَض تركها بَعْدَ دائِها
وَإنْ قُطِعَتْ شانَتْ ذِرَاعًا وَمِعْصَمَا
أَرَاك عَلَى قلْبِى وَإنْ كُنْتَ عَاصِيًا
أعَزَّ مِن الْقلْبِ المطيعِ وَأكْرَمَا
حَمَلْتُكَ حَمْلَ الْعَيْنِ لَجَّ بها الْقذَى ... فَلاَ تَنْجَلى يَوْمًا وَلاتبْلُغُ الْعَمَى
دَعِ المرْءَ مَطْوِيًّا عَلى مَاذمَمْتَهُ ... وَلا تنْشُرِ الدَّاءَ الْعُضَالَ فتَنْدَمَا
إذَا الْعُضْوُ لمْ يُؤْلِمْك إلاَّ قَطَعْتَهُ ... عَلَى مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْمًا وَلاَدَمَا
وَمَنْ لَمْ يُوَطِّنْ لِلصَّغيرِ مِن الأَذَى
تعَرَّضَ أَنْ يَلْقَى أَجَلَّ وَأَعْظَمَا

فهذه صورة شعرية يندر أن تجد مثلها فى هذا المعنى لغير الشريف الرضىّ ، وانظر كيف حدثك عن صديقه الذى صبر عليه ، وكيف شبّهه بالرمح الذى زاغت كعوبه ، وأبى بعد طول الغمز أن يتقوم ، وكيف تقبل من ذلك الصديق ظاهره المتبلج ، وتغافل عن باطنه المتجهّم ، وكيف مثّل ما أبداه بروض الحزْن رقّت فروعه ، وما أضمره بظلمة الليل ، وانظر كيف راعك حين ذكر أنه لو كشّف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما مأتماً أىّ مأتم ، ومع ذلك لا يبسط يده بالسوء إن ساءه ، ولا يفتح فاه بالذم إن رابه ، ثم انظر كيْفَ صوّر هذا الصديق الذى كثر دغله وساءتْ طويته بصورة العضو الذى رمته الليالى بفادح ، والذى يؤلم حمله ، ولكنه مع هذا مرجو البرء مأمول الشفاء ، ومن ذا الذى يجهل أن داء الكف مضٌّ بغيض، ولكن من ذا الذى يرضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع ؟

ولم يقف الشريف الرضىّ عند ذلك ، بل مثّل صديقه بالعين لجّ بها القذى ، وهو أفضل من العمى على كل حال ، ثمّ أرسل هذه الحكمة الرائعة .

دَعِ المرءَ مَطْوِيًّا عَلَى مَا ذَمَمْتَهُ ... وَلَا تَنْشُرِ الدَّاءَ الْعُضَالَ فَتَنْدَمَا

إذا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلِمْكَ إِلَّا قَطَعْتَهُ ... عَلَى مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْمًا وَلَا دَمَا

وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة بشار أولاً ، وكلمة الشريف الرضى ثانياً ، أدعى لتمكين المعنى فى النفس من كلمة أبى الدرداء ، لما فيهما من تحليل المعنى وتعليله ، وذلك داعية التأثير ، وهو ثمرة الكلام البليغ ؟

— ٢ —

رثى مُوَيلك المزموم امرأته أمّ العلاء فقال :

أُمْرُرْ على الجَدَثِ الَّذِى حَلَّتْ بِهِ
أُمُّ الْعَلَاءِ فنادِها لَوْ تَسْمَعُ

أَنَّى حَلَلْتِ وَكُنْتِ جِدَّ فَرُوقَةٍ
بَلَدًا يَمُرُّ بِهِ الشُّجَاعُ فَيَفْزَعُ

صَلَّى عَلَيْكِ اللهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ ... إِذْ لا يُلائِمُكِ المَكانُ الْبَلْقَعُ

فَلَقَدْ تَرَكْتِ صَغِيرَةً مَرْحُومَةً ... لَمْ تَدْرِ مَاجَزَعٌ عَلَيْكِ فَتَجْزَعُ

فَقَدَتْ شَمَائِلَ مِنْ لِزامِكِ حُلْوَةً
فَتَبِيتُ تُسْهِرُ أَهْلَهَا وَتُفَجِّعُ

وَإِذا سَمِعْتُ أَنِينَها فى لَيْلِها ... طَفِقَتْ عَلَيْكِ شُئُونُ عَيْنِى تَدْمَعُ

وهذه قطعة مختارة فى بكاء المرأة تخلّى طفلها وتروح إلى عالم الفناء ، وهى بعد التحليل ترجع إلى فكرتين : الأولى التعجب من قرار هذه المرأة الهيوب فى ذلك المكان

البلقع . والثانية الأسف على ما لقيت طفلتها من فقد شمائلها الحلوة . وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من الجفاف ، وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الأولى شيئاً من الوضوح ، وأن يعمد في الفكرة الثانية إلى أن يشرك معه القارئ في حزنه وبثه، لأن الغرض من الشعر إنما هو التأثير .

وإلى القارئ ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزيات :

أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ المُفارِقَ أُمَّهُ ... بُعَيْدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ
رَأَى كلَّ أُمٍّ وَابْنَهَا غَيْرَ أُمِّهِ ... يَبِيتَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ
وَبَاتَ وَحِيدًا في الْفِرَاشِ تحُثُّهُ ... بَلَابِلُ قلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ
أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ ... مِنَ الدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قد شَفَيَانِي
فلَا تَلْحَيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فإنَّما ... أُداوِي بِهَذَا الدَّمْعِ ما تَرَيَانِ
وإِنَّ مَكَانًا فِي الثَّرَى خُطَّ لحْدُهُ ... لِمَنْ كَانَ في قلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ
أَحقُّ مَكَانٍ بِالزِّيارَةِ والْهَوَى ... فَهلْ أَنْتُمَا إِنْ عُجْتُ مُنْتَظِرَانِ
فَهَبْنِي عزَمْتُ الصَّبْرَ عنها لأَنَّنِي ... جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لِابْنِ ثَمَانِ
ضَعِيفِ الْقُوَى لا يَعْرِفُ الْأَجْرَ حِسْبَةً ... ولَا يأْتَسِي بِالنَّاسِ فِي الْحَدَثَانِ

أَلَا مَنْ أُمَنِّيهِ الْمُنَى فَأُعِدُّهُ ... لِعَثْرَةِ أَيَّامِي وَصَرْفِ زَمَانِي
أَلَا مَنْ إِذَا ما جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي ... وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حاطَنِي وَرَعَانِي

فَلَمْ أَرَ كَالأَقْدَارِ كَيْفَ يُصِبْنَنِى
وَلاَ مِثْلَ هَذَا الدَّهْرِ كَيْفَ رَمَانِى

فإذا وازنّا بين هذه القطعة وبين تلك وجدنا فى الأخيرة صورة شعرية بديعة، تمثل الطفل المفجّع فى أمه، والرجل المفجع فى زوجه. وانظر كيف صور الطفل اليتيم بقوله:

رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَابْنَهَا غَيْرَ أُمِّهِ يَبِيتَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ
وَبَاتَ وَحِيدًا فى الْفِرَاشِ تَحُثُّهُ بَلاَبِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ

وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه، وجهله بالأجر والتأسى، وتأمل كيف فهم قدر الحليلة، وكيف تغلغل فى وصف ما للحلائل من الرفق، وما للرجل من الأنس بزوجه حين يطارحها الأحاديث بالليل، وكيف اعتمد عليها فأعدها لعثرة أيامه وصرف زمانه، وكم فى الأيام من عثرات، وكم في الدهر من صروف!

وأى كلام أبلغ فى وصف الحليلة الرفيقة الأمينة من قوله فى تلك الفقيدة الغالية:

أَلاَ مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِى
وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حَاطَنِى وَرَعَانِى

وأحب لو أعاد القارئ النظر فى هذين البيتين:

وَإِنَّ مَكَانًا فِى الثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كَانَ فِى قَلْبِى بِكُلِّ مَكَانِ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَنْتُمَا إِنْ عُجْتُ مُنْتَظِرَانِ

فإنهما غاية فى تمثيل الحنوّ على القبر المأهول برفات الحبيب، وسقى الله كل بقعة من هذا القبيل!

— ٣ —

أراد الطغرائى أن يستعطف أحبابه، وأن يذكّرهم بأن فى صروف الدهر ما يغنى عن القطيعة، وذلك قوله:

وَيَا رُفْقَةً مَرَّتْ بِجَرْعَاءِ مالِكٍ   تَؤُمُّ الْحِمَى أَنْضاؤُها والْمطَالِيَا
نَشَدْتُكُمُو بِاللهِ إلَّا نَشَدْتُمُو   بِهِ شُعْبَةً أَضْلَلْتُهَا مِنْ فُؤَادِيَا
وقُلْتُمْ لِحيٍّ نازِلِينَ بِقُرْبِهِ   أَقامُوا بِهَا وٱسْتَبْدَلُوا بِجوارِيَا
رُوَيْدَكُمُو لَا تَسْبِقُوا بِقَطِيعَتِي   صُرُوفَ اللَّيالِي إِنَّ فِي ٱلدَّهْرِ كَافِيَا

وأصل هذا المعنى لإياس بن القائف إذ يقول :

فَأَكْرِمْ أَخَاكَ ٱلدَّهْرَ ماعِشْتُمامَعًا   كَفَى بِالْمَمَاتِ فُرْقَةً وتَنَائِيَا
إذا زُرْتُ أَرْضًا بَعْدَطُولِ ٱجْتِنابِها   فَقَدْتُ صَدِيقِي والْبِلَادُ كَمَاهِيَا

ولننظر كيف تناول سعيد بن حميد هذا المعنى حين قال :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فالْبَقَاءُ قَلِيلُ   وٱلدَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً ويَمِيلُ
لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ
إلَّا بَكَيْتُ عَلَيْهِ حِينَ يَزُولُ
ولِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ   ولِكُلِّ حَالٍ أَقْبلَتْ تَحْوِيلُ
والْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخاءِ جَمَاعَةٌ   إِنْ حُصِّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ
وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ والرَّدى   يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ
فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتَبْكِيَنَّ بِحَسْرَةٍ   وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ
وَلَتُفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ   حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ
وَلَئِنْ سَبَقْتَ ولا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ
مَنْ لَا يُشاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ ... وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَأْهُولُ
وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا ... صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ
وُدٌّ بَدَا لِذَوِى الْإِخَاءِ جَمَالُهُ ... وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْحَيَاةِ قَصِيرَةٌ ... فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وهذه غاية فى تحليل المعنى وتعليله : فانا نراه ابتدأ بشكوى الزمان ، ونصح صديقه بانتهاب الفرص السوانح ، ثم أخذ يقنع صديقه بأن الحرّ فى الدنيا قليل ، وبأن من الحزم ألا يتجنى المرء على صديق لاذنب له ، فقد تصدع بينهما أحداث المنية ، أوعاديات الليالى .

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه إن سبقه إلى الموت فسيكثر عويله عليه ، وستعظم فجيعته فيه ، وهذا اعترافٌ منه لصديقه بالوفاء ،وهذا الاعتراف نفسه نوع من التألف والاستعطاف . وانظر كيف دق ولطف فى قوله :

وَلَئِنْ سَبَقْتَ — وَلَا سَبَقْتَ — لَيَمْضِيَنْ
مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَىَّ خَلِيـــلُ

ولعل الجملة الاعتراضية لم تقع موقعاً أدق من هذا ولا أظرف . وهذه القصيدة من الصور الشعرية البديعة ، وهى بلا شك أوفى من أبيات ابن القائف ، وأبرع من أبيات الطغرائى ، وهى فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر إليه : من ردّ صديقه إلى شرعة الألفة ، وصرفه عن موارد الصدود .

— ٤ —

أراد العباس بن مِرْداس السُلَمىُّ أن ينصف أعداءه ، وهو يفخر بقومه ويذكر صبرهم على الجلاد ، وصدقهم فى اللقاء ، فقال :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْحَىِّ حَيًّا مُصَبَّحًا ... وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ الْتَقَيْنَا فَوَارِسَا

أَكَرَّ وَأَحْمَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمُو وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِسَا[1]

إذا مَا شَدَدْنَا شَدَّةً نَصَبُوا لَنَا
صُدُورَ الْمَذَاكِي وَالرِّمَاحَ الْمَدَاعِسَا[2]

إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيعٍ نَكُرُّهَا
عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعْنَ إِلاَّ عَوَابِسَا

ولهذه الأبيات قيمة أيّ قيمة : ولكن أتراها تبلغ فى تقرير المعنى ، وتمكينه فى النفس ، ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزّى الجُهْنى :

أَلاَ حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا نُحَيِّيهَا وإِنْ كَرُمَتْ عَلَيْنَا
رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنَا عَلَى أَضَمَاتِنَا وَقَدِ اخْتَوَيْنَا[3]
فَأَرْسَلْنَا أَبَا عَمْرو رَبِيئًا فَقَالَ أَلاَ انْعَمُوا بِالْقَوْمِ عَيْنَا
وَدَسُّوا فَارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءً فَلَمْ نَغْدِرْ بِفَارِسِهِمْ لَدَيْنَا
فَجَاءُوا عَارِضًا بَرِدًا وَجِئْنَا كَمِثْلِ السَّيْلِ نَرْكَبُ وازِعَيْنَا
تَنَادَوا يَالَبُهْثَةَ إِذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا أَحْسِنِى ضَرْبًا جُهَيْنَا
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلاً أَنَخْنَا لِلْكَلاَكِلِ فَارْتَمَيْنَا[4]
فَلَمَّا لَمْ نَدَعْ قَوْسًا وَسَهْمًا مَشَيْنَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا

---

(١) جمع قونس ، وهو أعلى الرأس . (٢) من الدعس ، وهو الطعن .
(٣) الأضمات : الأحقاد ، والاختواء : خلو الجوف من الطعام .
(٤) الكلاكل : الصدور .

تَلألُؤَ مُزْنة بَرَقَتْ لِأُخْرَى إذا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدَيْنَا[1]
شَدَدْنَا شَدةً فقتلتُ مِنْهمْ ثَلاثَةَ فِتْيَة وَقَتَلْتَ قَيْنَا
وَشَدُّوا شَدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا بِأَرْجُلِ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُوَيْنَا[2]
وكان أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفاظٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفِتْيَانِ زَيْنَا
فَآبُوا بِالرِّمَاحِ مُكسَّرات وَأُبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدِ انْحَنَيْنَا
وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أُحَاحٌ وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا الْكَلْمَى سَرَيْنَا

فهذه صورة شعرية مثّل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل . وإنك لتراه ينتقل من وصف إلى وصف فى سهولة ورفق ، وتراه فى الوقت نفسه صادقاً فيما يقول ، إذ لم يرد فى قصيدته ما يحمل القارئ على تكذيبه ، أو رميه بالغلوّ والإسراف ، وانظر كيف اكتفى فى رثاء أخيه حين صرع بهذا البيت السهل المقبول :

وَكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذا حِفاظٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفِتْيَان زَيْنا

وأى فتى لا يتمنى أن يرمى بنفسه فى سعير تلك الحرب التى يقول فيها هذا الفتى النبيل ، وهو فيما يقول غير ظنين :

تَنَادَوْا يَالَبُهْثَةَ إِذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا أَحْسِنِى ضَرْبًا جُهَيْنَا
سَمِعْنا دَعْوَةً عَنْ ظهرِ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلاً أَنَخْنَا لِلْكَلاكِلِ فَارْتَمَيْنَا
فَلَمَّا لَمْ نَدَعْ قَوْسًا وَسَهْمًا مَشَيْنَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا
تَلألُؤَ مُزْنَةٍ بَرَقَتْ لِأُخْرَى إذا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدَيْنا

---

(١) حجل : تريث فى مشيه على رجله ، وردى : أسرع .
(٢) جوين : هو أخو الشاعر وسيرثيه أشرف رثاء بالبيت التالى .

والشاعر الواحد قد يكلف بترديد معنى من المعانى فلا يزال يبدئ ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها إلى ما يريد ، كالعباس بن الأحنف فى ولوعه بكتمان الوجد ، وجحود الحب ، فقد افتنّ فى هذا المعنى ووضع له صوراً عديدة ، فتارة يعتذر عن هجره فيقول :

اللهُ يَعْلَمُ مَاأَرَدْتُ بِهجْرِكُمْ   إِلَّا مُصَانَعَةَ الْعَدُوِّ الْكاشِحِ

وَعَلِمْتُ أَنَّ تباعُدِى وَتَسَتُّرِى

أَدْنَى لِوَصْلِكِ مِنْ دُنُوٍّ فاضِحِ

وأحلى من هذا قوله فى تعيين نوع الصدود :

سَأَهْجُرُ إِلْفِى وَهِجْرَانُهَا   إِذَا مَا الْتَقَيْنَا صُدُودُ الْخُدُودْ

كِلانا مُحِبٌّ وَلكِنَّنَا   نُدَافِعُ عَنْ حُبِّنا بِالصُّدُودْ

وتارةً يُغَالِ الكتمان فيقول :

سَأَسْتُرُ والسَّتْرُ مِنْ شِيمَتِى   هَوَى مَنْ أُحِبُّ بِمَنْ لَاأُحِبْ

وَلَا بُدَّ مِنْ كَذِب فِى الْهَوَى   إِذا كَانَدَفْعُ الْأَذَى بِالْكَذِبْ

وحيناً يصف اضطراب الناس فى الحديث عن وجده فيقول :

قدْ سحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا

وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قوْلَهُمْ فِرَقَا

فجَاهِلٌ قدْ رَمَى بِالظَّنِّ غيْرَكُمُو   وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِى أَنَّهُ صَدَقَا

وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال :

كَذَبْتُ عَلى نَفْسِي فحَدَّثْتُ أنَّنِى
سَلَوْتُ لِكَيْمَا يُنْكِرُوا حِينَ أَصْدُقُ

وَمَا مِنْ قِلًى مِنِّى وَلَا عَنْ مَلَالَةٍ وَلكِنَّنى أُبْقِى عَلَيْكِ وَأُشْفِقُ
عَطفْتُ عَلَى أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتُهَا قَمِيصًا مِنَ الْكِتْمَانِ لَايَتَخَرَّقُ

وللقارئ أن يحلل هذا المعنى ، فقد مهّدت له السبيل (١).

---

(١) ارجع إلى هذه المعانى الوجدانية فى الطبعة الثانية من كتاب : (مدامع العشاق) .

البحث العاشر

اختلاف الصور الشعرية

— ١ —

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين لاختلاف العاطفة عند شاعرين ، فمن ذلك قول ابن الزيات فى برْذوْن أشهب كان المعتصم أخذه منه ، وكان أحمد بن خالد ذكره له ، ووشى به إليه :

قَالُوا جَزِعْتَ فقُلْتُ إنَّ مُصِيبَةً (١) جَلَّتْ رَزِيَّتُها وَضَاقَ المَذْهبُ
كيْفَ الْعَزاءُ وَقدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ عَنَّا فودَّعَنا الأَحَمُّ الأَشْهَبُ
دَبَّ الْوُشَاةُ فأَبْعَدُوهُ وَرُبَّمَا بَعُدَ الْفتى وَهُوَ الحَبِيبُ الأَقْرَبُ
للهِ يَوْمَ غَدَوْتَ عَنِّى ظَاعِنًا وَسُلِبْتُ قُرْبَكَ أَىّ عِلْقٍ أُسْلَبُ
الآنَ إذْ كَمُلَتْ أَدَاتُك كُلُّهَا وَدَعَا الْعُيُونَ إِلَيْكَ لَوْنٌ مُعْجِبُ
واُخْتِيرَ مِنْ سِرِّ الحَدَائِدِ خَيْرُهَا لَكَ خَالِصًا وَمِنَ الْحُلِىّ الأَغْرَبُ
وَغدَوْتَ طَنَّانَ اللجَامِ كَأَنما فى كُلِّ عُضْوٍ مِنْكَ صَنْجٌ يُضْرَبُ

---

(١) ان — هنا — حرف جواب بمعنى نعم ، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون.

وَكَأَنَّ سَرْجَكَ إِذْ عَلاَكَ غَمَامَةٌ   وَكَأَنَّمَا تَحْتَ الْغَمَامَةِ كَوْكَبُ
وَرَأَى عَلَى بِكَ الصَّدِيقُ مَهَابَةً   وَغَدَا الْعَدُوُّ وَصَدْرُهُ يَتَلَهَّبُ
أَنْسَاكَ؟ لاَ بَرِحَتْ إِذاً مَنْسِيَّةً   نَفْسِي وَلاَ زَالَتْ بِمِثْلِكَ تُنْكَبُ

وهذه صورة شعرية لجواد انتزع من صاحبه ، فلنذكر صورة شعرية لحصان لم يفجع صاحبه فيه ، كقول البحترى :

وَأَغَرَّ فِى الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ   قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرَّ مُحَجَّلِ
كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِىِّ إِلَّا أَنَّهُ   فِى الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِى هَيْكَلِ
وَافِى الضُّلُوعِ يَشُدُّ عَقْدَ حِزَامِهِ   يَوْمَ اللِّقَاءِ عَلَى مُعَمٍّ مُخْوَلِ
أَخْوَالُهُ لِلرُّسْتُمِينَ بِفَارِسٍ   وَجُدُودُهُ لِلتُّبَّعِينَ بِمَوْكِلِ (١)
يَهْوِى كَمَا تَهْوِى الْعُقَابُ وَقَدْ رَأَتْ
صَيْدًا وَيَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الْأَجْدَلِ
ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ الرِّشَاءُ يَذُبُّ عَنْ   عُرْفٍ، وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمُسْبَلِ
ذَهَبُ الأَعَالِى حَيْثُ تَذْهَبُ مُقْلَةٌ
فِيهِ بِنَاظِرِهَا حَدِيدُ الْأَسْفَلِ
صَافِى الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا عُنِيَتْ بِهِ   لِصَفَاءِ نُقْبَتِهِ مَدَاوِسُ صَيْقَلِ (٢)
وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِى الْغُبَارِ لَهِيبُهُ   لَوْنًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ

---

(١) موكل على وزن مقعد : جبل أو حصن ، وفرس ربيعة بن غزالة السكونى : « قاموس » .
(٢) الصيقل : شحاذ السيوف ، والمداوس جمع مدوس ، وهو المصقلة .

هَزِجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِى نَغمَاتِهِ ... نَبَرَاتِ مَعْبَدَ فِى الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ
مَلَكَ الْعُيُونَ فَإِنْ بَدَا أَعْطَيْنَهُ ... نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمُقْبِلِ

والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذى قيلت فيه القصيدة الأولى ، والسبب الذى قيلت فيه القصيدة الثانية ، ومتى عرفنا أن الشاعر الاول : وصف حصانه وهو جازعٌ محزون ، وأن الشاعر الثانى : وصف حصانه وهو فرح مختال ، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين القصيدتين من الفروق ، فقد ابتدأ ابن الزيات فشرح حُزْنه على ذلك الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مرثية لغلام نكب به ، وهذا الجزء من القصيدة اقتضته « ظروف » ابن الزيات ، فهو فى الوصف غير محسوب ثم انتقل إلى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هى أنموذج فى الرثاء ، ألا تراه يقول :

الْآنَ إِذْ كَمُلَتْ أَدَاتُكَ كُلُّهَا ... وَدَعَا الْعُيُونَ إِلَيْكَ لَوْنٌ مُعْجِبُ
وَاخْتِيرَ مِنْ سِرِّ الْحَدَائِدِ خَيْرُهَا ... لَكَ خَالِصًا وَمِنَ الْحُلِيِّ الْأَغْرَبُ
وَغَدَوْتَ طَنَّانَ اللِّجَامِ كَأَنَّمَا ... فِى كُلِّ عُضْوٍ مِنْكَ صَنْجٌ يُضْرَبُ

وهذا النمط فى التعبير كان شائعا فى الرثاء لذلك العهد ، ومنه قول بعض الشعراء :

الْآنَ لَمَّا صِرْتَ أَكْمَلَ مَنْ مَشَى
وَافْتَرَّ نَابُكَ عَنْ شَبَاةِ الْقَارِحِ
وَتَكَامَلَتْ فِيكَ الشَّمَائِلُ كُلُّهَا
وَغَدَوْتَ رَبَّ مَدَائِحٍ وَمَنَائِحِ

ويدلك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك تراه يُطنب فى وصف المظاهر الأخاذة التى تبهر الناظرين ، ليكشف عن سر النميمة التى رزأه بها ابن خالد عدوّه اللدود ، وإلا فما معنى قوله :

وَكَأَنَّ سَرْجَكَ إِذْ عَلاكَ غَمَامَةٌ
وَكَأَنَّمَا تَحْتَ الْغَمَامَةِ كَوْكَبُ

وَرَأَى عَلَىَّ بِكَ الصَّدِيقُ مَهَابَةً ... وَغَدَا الْعَدُوُّ وَصَدْرُهُ يَتَلَهَّبُ

وكان ذلك لأن ابن الزيات محنق مغيظ لا يفكر فى عتق فرسه أكثر مما يفكر فى نكبته بذلك العدو الذى سدّ عليه طريق الخيلاء حين أغرى المعتصم بأخذ برْذَوْنه الجميل .

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة ، وأنه يروق العيون ، وأنه اختار له من الحديد سره ، ومن الحلى أغربه ، وأنه طنّان اللجام ، وأن سرجه كالغمامة ، وهو من تحته كالكوكب ، وأنه يكبت العدو ، ويسر الصديق .

وهذه أوصاف لا تماثَل ولا توازَن بأوصاف البحترى لجواده ، فقد ذكر أنه أغر محجَّل ، وأنه فى تكوينه :

كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِىِّ إِلَّا أَنَّهُ ... فِى الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِى هَيْكَلِ

وأنه وافى الضلوع ، وأنه أصيل : أخواله فى بلاد الأكاسرة ، وأجداده فى بلاد التبابعة ، وأنه يهوى هُوِىّ العُقاب حين ترى الصيد ، ثم ينتصب انتصاب الأجدل ، وأنه برّاق الجوانب : تتوهم فى جبينه البدر ، وفى أرساغه الجوزاء ، وأن ذَنَبه لطوله كالرداء المسحوب ، وأنه صافى الأديم كأنما سهرت على لونه الصياقل ، وأنك تحسب بريق سنابكه فى الغبار ناراً يعلوها دخان ، وأنه هَزِج الصهيل حتى لتحسب فى نغماته نبرات معبد فى صوته الرخيم ، وأنه ملك العيون ، حتى لتنظر إليه نظر المحب إلى الحبيب المقبل .

وليس عجباً أن يجيد البحترى هذه الاجادة فى وصف جواد كان يهتك بغرّته ظُلمة الليل ، وينحدر به فى الفضاء ، كما تنحدر الصَّخْرة الصّماء عن القمّةِ الشّماء .
أما ابن الزيات فهو حَرِيب سليب ، لم يذكر من جواده غير شياته الظاهرة ، التى أججت فى صدر حسوده نار العداوة والبغضاء .

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية ، وفى مقدور الناقد أن يتبيّن الصورة الموحدة عند شاعرين ، ثم يوازن بين براعتهما فى التصوير ، ولنضرب المثل بوصف الحمامة الباكية ، فقد أكثر منه الشعراء ، فنجد قول أبى محلم الشيبانى من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين ، وقد كبرت سنه ، وطالت غربته :

وَأَرَّقَنِى بِالرَّىِّ نَوْحُ حَمَامَةٍ فَنُحْتُ وَذُو الشَّجْوِ الْغَرِيبُ يَنُوحُ
عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تُذْرِ دَمْعَةً وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَنَاحَتْ وَفَرْخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا
وَمِنْ دُونِ أَفْرَاخِى مَهَامِهُ فِيحُ[1]

وتجد قول ابن الدمينة :

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللِّوَى عُدْنَ عَوْدَةً
فَإِنِّى إِلَى أَصْوَاتِكُنَّ حَزِينُ
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِتْنَنِى وَكِدْتُ بِأَشْجَانِى لَهُنَّ أُبِينُ
فَلَمْ تَرَ عَينِى مِثْلَهُنَّ بَوَاكِيًا بَكَيْنَ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهُنَّ عُيُونُ

ونجد قول ديك الجن :

حَمَائِمُ وُرْقٌ فى حِمَى وَرَقٍ خُضْرِ
لَهَا مُقَلٌ تُجْرِى الدُّمُوعَ وَلَا تَجْرِى
تَكَلَّفْنَ إِسْعَادَ الْغَرِيبَةِ إِنْ بَكَتْ
وَإِنْ كُنَّ لَا يَدْرِينَ كَيفَ جَوَى الصَّدْرِ

---

(١) فيح : جمع أفيح ، وهو الواسع العريض .

لَهَا حُرَقٌ لَوْ أَنَّ خَنْسَاءَ أُعْوِلَتْ
بِهِنَّ لأَدَّتْ حَقَّ صَخْرٍ إِلَى صَخْرِ

فَقُلْتُ لِنَفْسِي هَاهُنَا طَلَبُ الأَسَى
وَمَعْدِنُهُ إِنْ فَاتَنِي طَلَبُ الصَّبْرِ

ونحن إذا تأملنا أبيات أبى محلم ، وأبيات ابن الدمينة ، وأبيات ديك الجن لم نجد فيها صورة شعرية، ويظهر الفرق واضحاً إذا قابلناها بقول الطغرائى من قصيدة طويلة :

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجْوًا عَلَى فَنَنٍ
فَأَشْعَلَتْ مَاخَبَا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي

نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ إِلْفًا وَلاَ فُجِعَتْ
فَذَكَّرَتْنِي أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي

طَلِيقَةٌ مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةٌ
أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ الْمُوثَقِ الْعَانِي

تَشَبَّهَتْ بِي فِي وَجْدِي وَفِي طَرَبِي
هَيْهَاتَ مَانَحْنُ فِي الْحَالَيْنِ سِيَّانِ

مَافِي حَشَاهَا وَلاَ فِي جَفْنِهَا أَثَرٌ
مِنْ نَارِ قَلْبِي وَلاَ مِنْ مَاءِ أَجْفَانِي

يَارَبَّةَ الْبَانَةِ الْغَنَّاءِ تَحْضُنُهَا خَضْرَاءُ تَلْتَفُّ أَغْصَاناً بِأَغْصَانِ

إنْ كَانَ نَوْحُكِ إسْعَادًا لِمُغْتَرِبٍ
نَاءٍ عَنِ الْأَهْلِ مَمْنُوٍّ بِهِجْرَانِ
فَقَارِضِينِى إذَا مَا اعْتَادَنِى طَرَبٌ
وَجْداً بِوَجْدٍ وَسُلْوَاناً بِسُلْوَانِ
أَوْلاَ فَقَصْرَكِ حَتَّى أَسْتَعِينَ بِمَنْ
يَعْنِيهِ شَأْنِى وَيَأْسُو كَلْمَ أَحْزَانِى
مَا أَنْتِ مِنِّى وَلاَ يَعْنِيكِ مَا أَخَذَتْ
مِنِّى الْهُمُومُ وَلاَ تَدْرِينَ مَا شَانِى
كِلِى إلَى الْغَيْمِ إسْعَادِى فَإنَّ لَهُ
دَمْعًا كَدَمْعِى وَإرْنَاناً كَإرْنَانِى

وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال الموجع الحزين ، وقد هاجته الحمامة الباكية ، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك الأيكيّة الساجعة موازنة دقيقة تروع القلب ، وتهيج الوجدان ، وانظر كيف يقول :

طَلِيقَةٌ مِنْ إسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةٌ
أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ الْمُوثَقِ الْعَانِى

وهذا غاية فى وصف الحزن ، واليأس من السلوان ، فان وصف الحمامة بالتصنع فى بثها وشجاها أدل على لوعة الشاعر وأساه ، ولا كذلك الاقتناع بحزن الحمائم الشاديات ، فان فيه شيئاً من الراحة لأنس الحزين بالحزين .

ولك أن تذكر أن هنا شيئاً من اختلاف الصورة ، فان أبا محلم يأسى لغربته ،

ويتفجع لبعد أطفاله ، فى حين أن الحمامة تبكى وقد جمع بينها وبين أفراخها غصن واحد ، فماذا تبغى وقد وقاها الله تبديد الشمل وفرقة الأحباب !

وابن الدمينة يراجع حمامات اللوى ، ويسألهن العودة ، ثم يذكر أنه كاد يفصح عن أسراره حين بكين بجانبه ، وإن لم تذرف لهن عيون ، وديك الجن يردد معنى قريباً من معنى ابن الدمينة ، أما الطغرائى فقد أتى بفكرة طريفة ، وسلك مسلكاً يدل على عنايته بتحديد ما يقول .

وأريد بهذا الفصل الوجيز أن ألفت نظر الناقد إلى مايجب عليه من اختبار الصور الشعرية وإدراك ما بينها من دقائق الاختلاف والائتلاف : فان الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق .

البحث الحادى عشر

الصور الشعرية فى القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعاً من الاستعارة التمثيلية ، وفى تصحيح ذلك الخطأ نسوق هذا الحديث .

— ١ —

الاستعارة التمثيلية هى ضرب من التشبيه يكون فيه المشبّه والمشبّه به هيئةً منتزعةً من عدّة أمور متحققّة أومُتَخيّلة ، ومن هذه الاستعارة يتكون أكثر الأمثال السائرة ، فيكون لبعضها موارد حقيقية ، ولأكثرها موارد خيالية .

وللأمثال — كما قال المرحوم أستاذنا المهدى — أربعة أضْرب :

الأول — ما له مورد حقيقى كمواعيد عُرقوب فى قول كعب بن زهير :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا
وَمَا مَوَاعِيدُهَا إلَّا الْأَبَاطِيلُ

الثانى — الخيالى الممكن ، وهو ما نُسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل كما جاء فى أمثال لقمان أن صبيا كان يستحم فى نهر ، ولم يكن يحسن السباحة ، فأشرف على الغرق ، فاستغاث برجل عابر فى الطريق ، فأقبل عليه ، وجعل يلومه على نزوله إلى النهر ، فقال الصبى : « يا هذا ! خلّصنى من الموت ثم لُمْنى ! » .

الثالث — الخيالى المستحيل ، وهو ما جاء على ألسنة الحيوان والجماد للاعتبار به ، كما فعل نصر بن منيع ، وكان خارجاً على المأمون ، فسيَّر اليه جيشاً ظفر به ،

فلما مَثَل بين يدى المأمون أمر بضرب عنقه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أتسمع مثلاً خَطَرَ على بالى ؟ فقال : قل ، فانشأ يقول :

زَعمُوا بأَنَّ الصَّقْرَ صادَفَ مَرَّةً   عُصفُورَ بَرٍّ ساقَهُ التَّقْدِيرُ

فتَكَلَّمَ الْعُصْفُورُ تحْتَ جَناحِهِ
والصَّقْرُ مُنْقَضٌّ عَلَيْهِ يَطِيرُ

إنِّى لِمِثْلِكَ لَا أُتَمِّمُ لُقْمَةً   وَلَئِنْ شُوِيتُ فَإِنَّنِى لَحَقِيرُ
فَتَهاوَنَ الصَّقْرُ الْمُدِلُّ بِصَيْدِهِ   كَرَمًا وَأَفْلَتَ ذٰلِكَ الْعُصْفُورُ

الرابع ــ الخيالى المختلط من الممكن والمستحيل ، وهو ما جمع بين الناطق وغيره ، كحديث الحية والأخوين : فقد زعموا أن أخوين هبطا بغنمهما وادياً فيه حية تحميه ، وبينما كان أحدهما يرعى غنمه إذ نهشته الحية فقتلته . فقال أخوه : والله ما فى الحياة خيرٌ بعده ، ولأطلبن الحية . فلما لقيها وهمّ بقتلها قالت : ألا ترى أنى قتلته وندمت على ما كان منى ! فهل لك فى الصلح ، فأدعك فى هذا الوادى آمناً ، وأعطيك دية أخيك كل يوم ديناراً ؟ فصالحها على ذلك ، وحلفت له وحلف لها ، وما زالت تعطيه حتى كثر ماله . فلما أحس الغنى قال : كيف ينفعنى هذا العيش ، وأنا أرى قاتل أخى ! فعمد إلى فأس فأحدّها ثم انتظر ، فلما مرت به ضربها فشجها وأخطأ مقتلها ، فقطعت عنه الدينار وتوعّدته فخاف شرها ، وقال : هل لك أن نتعاهد على المودّة كما كنا ؟ فقالت : ! لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك وجدت علىّ ، وكلما ذكرتُ الشجّة التى فى رأسى وجدت عليك ! وفى ذلك يقول النابغة الذبيانى من قصيدة يعاتب بها بنى مُرّة :

وَإِنِّى لَأَلْقَى مِنْ ذَوِى الضِّغْنِ مِنْهُمُو
وَمَا أَصْبَحَتْ تَشْكُو مِنَ الْوَجْدِ سَاهِرَهْ

كَمَا لَقِيَتْ ذَاتُ الصفَا مِنْ حَلِيفِهـــا
وَمَا انْفَكَّتِ الأَمْثَالُ فِى النَّاسِ سَائِرَهْ

فَقَالَتْ لَهُ أَدْعُوكَ لِلْعَقْلِ وَافِيـاً
وَلاَ تَغْشَيَنِّى مِنْكَ بِالظُّلْمِ بَادِرَه(١)

فَوَاثَقَهَا بِاللهِ حِينَ تَرَاضَيَا
فَكَانَتْ تَدِيهِ الْمَالَ غِبًّا وَظَاهِرَه

فَلَمَّـــا تَوَفَّى الْعَقْـــلُ إِلَّا أَقَلَّهُ
وَجَارَتْ بِهِ نَفْسٌ عَنِ الْحَقِّ جَائِرَهْ

تَذَكَّرَ أَنَّى يَجْعَلُ اللهُ فُرْصَةً
فَيُصْبِحَ ذَا مَالٍ وَيَقْتُلَ وَاتِرَهْ

فَلَمَّا رَأَى أَنْ ثَمَّرَ اللهُ مَالَهُ
وَأَثَّلَ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَفَاقِرَهْ

أَكَبَّ عَلَى فَأْسٍ يُحِدُّ غُرَابَهَا
مُذَكَّرَةٍ مِنَ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهْ

فَقَامَ لَهَا مِنْ فَوْقِ جُحْرٍ مُشَيَّـــدٍ
لِيَقْتُلَهَا أَوْ تُخْطِئَ الْكَفَّ بَادِرَهْ

فَلَمَّا وَقَاهَا اللهُ ضَرْبَةَ فَأْسِـــهِ
وَلِلْبِرِّ عَيْنٌ لَا تُغَمِّضُ نَاظِرَهْ

فَقَالَ تَعَالَىْ نَجْعَلِ اللهَ بَيْنَنَا
عَلَى مَالِنَا أَوْ تُنْجِزِى لِىَ آخِرَهْ

فَقَالَتْ يَمِينَ اللهِ افْعَلْ إِنَّنى
رَأَيْتُكَ غَـدَّارًا يَمِينُكَ فَاجِرَهْ

---

(١) العقل — هنا — هو الدية .

أَبَى لِىَ قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِى   وَضَرْبَةُ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِىَ فَاقِرَهْ

— ٢ —

وفى القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية ، من ذلك قوله تعالى :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أُولٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ . وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ »

فإن هذا تشبيهٌ وتمثيلٌ يراد به تصوير حال الأبرار والفجّار ، وما لهؤلاء من الخزى ، وما لأولئك من النعيم .

وأَصْرح من هذا قوله تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا »

فإنه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق ، وإنما المراد تصوير التكاليف وما فيها من المشقة ، وتصوير الإنسان وما يغلب عليه من الغرور والجهل بحقائق الأشياء .

وكذلك قوله عز شأنه : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »

فان الغرض تصوير القدرة الإلهية ، وما لها من السلطان المطلق فى الأرض والسماء .

وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا فى الآيات التى قُصِدَ بها الترغيب والترهيب كقوله تبارك اسمه :

« وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِىءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ » .

فإنك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع المخيف ، ثم تراه يتبع ذلك بقوله :

«وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ » .

هذا فى الترهيب ، ثم انظر قوله فى التشويق إلى دار النعيم :

« وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » .

قال صاحب الطراز : ومن التمثيل الرائق قوله تعالى :

« وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ .» وقوله : « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

فهُمْ لإعراضهم عن الدين ، وإصرارهم على المخالفة لما جاء به الرسول ، وبلوغ الغاية فى الصدّ والنكوص ، ممثّلون بحال من جُعل على قلبه كنان فهو لا يفقه ما يقال له ، ولا يرعوى لقبوله ، وبحال من ضرب بينه وبين مراده بسد من بين يديه ومن خلفه فهو لا يهتدى إليه ، ولا يمكنه الوصول إلى بغيته بحال .

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى :

« مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا »

فإن الشبه كما قال عبد القاهر الجرجانى منتزع من أحوال الحمار ، وهو أنه يحمل الأسفار التى هى أوعية العلوم ، ومستودَع ثمر العقول ، ثم لايحس بما فيها ،ولايشعر بمضمونها ، ولايفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شىء ، ولامن الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظٌ سوى أنه يثقل عليه ، ويكد جبينه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ،ونتيجة لأشياء ألفت ، وقرن بعضها إلى بعض (١)

ولعلماء البيان كلام كثير فى الفرق بين الاستعارة والكناية والتمثيل وإنما يعنينى أن يعرف القارئ أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التى أسلفت عنها الحديث ، وإن كان فى ذاته نوعاً من التصوير لما فيه من روعة الخيال .

— ٣ —

ويمكن أن يقال إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى ، أما الصورة الشعريه فهى مثال للغرض ، فقوله تعالى : « وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » تمثيلٌ يراد به تقرير معنى خاص : هو قدرة الله . أما تصوير الغرض بصورة شعرية فكقوله تعالى فى آخر سورة المائدة :

« وَإِذْ قَالَ اللهُ : يَا عِيسٰى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَاقُلْتُ

(١) راجع أسرار البلاغة .

لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

فانه لاشك فى أن هذا تصوير للغرض ، لا للمعنى ، والمعنى جزء من الغرض ، فإن هذا الحوار البديع الذى جرى بين رب العزة وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام يمثّل غرضاً كلياً يشتمل على طائفة من المعانى الجزئية ، فتصوير المعنى الجزئى هو الاستعارة أو التمثيل ، وتصوير الغرض الكلى هو الصورة الشعرية التى يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من التأثير الذى هو غاية البيان .

— ٤ —

ومن الصور الشعرية قوله تعالى فى تحديد موقف المسلمين أمام أعدائهم من المشركين :

« وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ

إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ . وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجره
حتى يسمع كلامَ اللهِ ثمَّ أبلغه مأمنه ذلك بأنَّهم قومٌ لا يعلمون
كيف يكون للمشركين عهدٌ عند اللهِ وعند رسوله إلَّا الذين
عاهدتم عند المسجدِ الحرامِ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم
إنَّ اللهَ يحبُّ المتقين. كيف وإنْ يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم
إلاً ولا ذمَّةً يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون .
اشتروا بآياتِ اللهِ ثمناً قليلاً فصدُّوا عن سبيله إنَّهم ساء
ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمنٍ إلاً ولا ذمَّةً وأولئك
هم المعتدون . فإنْ تابوا وأقاموا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة فإخوانكم
في الدين ونفصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمون . وإنْ نكثوا أيمانهم
من بعدِ عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفرِ إنَّهم
لا أيمان لهم لعلَّهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم
وهمُّوا بإخراج الرَّسول وهم بدءوكم أوَّل مرَّةٍ أتخشونهم فاللهُ
أحقُّ أنْ تخشوه إنْ كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذِّبهم اللهُ
بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفِ صدور قومٍ مؤمنين
ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب اللهُ على مَن يشاءُ واللهُ عليمٌ حكيمٌ .
أم حسبتم أنْ تتركوا ولمَّا يعلمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم

يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ ولَا رَسُولِه ولَا الْمُؤمِنِينَ وَلِيجَةً واللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ » .

وأحب أن يذكر القارئ أنى أتكلم عن القرآن من الوجهة الأدبية بغضّ النظر عما فى مثل هذه الآيات من أحكام القتال ، وما قد ينظر فيه الفقيه من وجوه النسخ وضروب التأويل ، وأقرر أن هذه الصورة تكاد تكون خطبة فى الدعوة إلى الجهاد .

وتمتاز الصور الشعرية فى القرآن بتثبيت المعنى وتأكيده حين يقتضى المقام ذلك والقرآن لايرى غضاضةً فى التكرار حين يحتاج إليه ، بل يراه واجباً محتوم الأداء وانك لتجده فى هذه الآيات يُبدئ ويعيد فى لَعْنِ المشركين وتحقيرهم ، والدعوة إلى تعذيبهم ، وإذلالهم . وتقتيلهم ، إذ كان ذلك من أغراضه الأساسية . ألا تراه يوصى بالرفق حين يقول :

« وإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ استَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبلِغْهُ مأمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ » . ثم يصرخ صرخة الغضب تتفجَّر من جوانبه الدماء ، فيقول :

« كَيفَ يكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وعِنْد رَسُولِه إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُمْ عِنْدَ المسْجِدِ الحرامِ فَما اسْتقَامُوا لَكُمْ فَاسْتقِيمُوا لَهمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ . كَيْفَ وإِنْ يظْهرُوا عَليْكُمْ لَا يرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا ولَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ » . ثم لا يكفيه هذا بل يقول : « اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ماكانُوا يَعمَلُونَ » . ثم لا يكفيه هذا بل يقول : « لَا يرْقُبُونَ فى مُؤمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً

وأُولٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ » . ثم يعود فيقول : « أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيمانهُمْ وهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّة أَتَخْشَوْنَهُمْ فاللهُ أَحقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . ثم يثور فيقول : « قَاتِلُوهُمْ يُعذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ويُخْزِهِمْ ويَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ويَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . ويُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ويَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

وأودّ أن يذكر القارىء أن العهد الذى نزل فيه القرآن كان عهد فتنة وعماية وضلال ، وكانت هذه الغضبة التى تفيض بها جوانب القرآن غضبة طبيعية ، لا إثم فيها ولا عُدوان. أقول ذلك ليعرف القارىء السر فى أنى أجعل من القرآن صوراً شعرية ، وإن لم يكن النبى عليه الصلاة والسلام من الشعراء ، فليس القرآن من الكتب التى يراد بها التشريع المحض ، وإنما هو يذكر القوانين فى بساطة وسهولة ، ثم يدعو إلى تأييدها وتنفيذها بالقوة والجبروت .

— ٥ —

ومن الصور الشعرية البديعة التى وردت فى القرآن قوله عزّ شأنه :

« واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ إِبْرَاهِيمَ : إذ قَالَ لِأَبِيهِ وقَوْمِه ما تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُأَصْنامًا فَنَظَلُّ لَهَا عاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بلْ وجَدْنَا آباءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعلونَ . قَالَ أَفرأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وآباؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلَّا ربَّ الْعالَمِينَ . الَّذِى خَلقَنى فَهوَ

يَهْدِينِ . والَّذِى هُو يُطْعِمُنى ويسْقِينِ . وإِذَا مَرِضت فَهُوَ يَشْفِينِ . والَّذِى يُمِيتُنى ثُمَّ يُحْيِينِ . والَّذِى أَطْمعُ أَنْ يَغْفرَلِى خَطِيئتى يوْمَ الدِّينِ . ربِّ هَبْ لِى حُكْمًا وأَلْحِقْنى بِالصَّالِحِين . واْجْعلْ لِى لِسانَ صِدْقٍ فى الْآخِرِينَ . واجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . واغْفِرْ لأَبى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالِّينَ . وَلَاتُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعثُونَ . يوْمَ لَا يَنْفَعُ مالٌ ولَا بنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقلْبٍ سَلِيمٍ » .

اتْلُ هذا أيها القارىء مرة وثانية وثالثة ، وحدثنى أتجد أعذب من هذا الحديث الممتع ؟ وهل تجد أخف منه على السمع ، وأحب منه إلى القلب ،وأرفق منه بالنفس؟ ألا ترى الحسن يجرى فى هذا الحديث كما يجرى السحر فى الطرف الكحيل ، ويتغلغل الإيمان فى قلب قارئه كما يتغلغل الحب فى صدر الوالد يرفق به ابنه الوحيد ؟؟

— ٦ —

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه :

« كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخوهُم هُودٌ أَلَا تتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ . وما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ربِّ الْعالَمِينَ . أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيةً تَعْبَثُونَ . وتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جبَّارِينَ . فاتَّقُــوا اللهَ وأَطِيعُونِ . واتَّقُــوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلمُونَ . أَمدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وبنِينَ . وجنَّاتٍ وعُيُونٍ .

إنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالوا سَواءٌ عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لم تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ. إنْ هٰذَا إلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ . وما نَحْنُ بِمُعذَّبِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إنَّ فِى ذٰلِكَ لآيَةً وما كانَ أَكثَرُهُمْ مُؤمِنينَ . وإنَّ ربَّكَ لَهُوَ العزِيزُ الرَّحِيمُ » .

***

وأنا أستطيع إيراد المئات من الصور الشعرية فى القرآن ، لو سمح الوقت ، ولكن هيهات ! فليكتف القارىء بذلك ، وليعلم أن فى هذا المنهج غَنَاء أىّ غَنَاء ، لمن يريد الموازنة بين الكتاب والخطباء ، فإن التأثير يرتكز على ما فى الخطب والرسائل من الصور الشعرية التى تفعل ما تفعل بالعقول والقلوب . وكم فى خطب علىّ بن أبى طالب ورسائل الجاحظ من الصور الفتانة ، التى تسكن إليها شوارد النفوس !

البحث الثانى عشر

المعانى والأغراض

قد رأيتَ حين حدثناك عن الصور الشعرية فى القرآن أننا فرقنا بين المعنى والغرض . والآن نعود إلى إيضاح هذا الرأى ، الذى نرجو أن يكون له شىء من النفع فى عالم البيان.

— ١ —

كان النقد يرتكز على وحدة البيت عند نقد الشعر ، وعلى وحدة الفقرة عند نقد النثر ، بغض النظر عن وحدة الغرض الذى سيق من أجله الكلام ، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت : لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس !

ونحن فى تعويلنا على « الصور الشعرية » التى تُمـَثل الأغراض ، لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة ، والأخيلة الرائعة ، التى تأتى فى تضاعيف المنظوم والمنثور فتمثل المعانى أصدق تمثيل .

أما اللفظ المختار فكقول كُثيِّر :

بِأَبِى وأُمِّى أَنْتِ مِنْ مَظْلُومَةٍ   طَبِنَ الْعَدُوُّ لَهَا فَغَيَّرَ حَالَهَا[1]

لَوْ أَنَّ عَزَّةَ خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى   فى الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا

وَسَعَى إِلَىَّ بِصَرْمِ عَزَّةَ نِسْوَةٌ   جَعَلَ الْمَلِيكُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا

(١) طبن بمعنى فطن ، وهو طبن : عالم . وطبنت النار : دفنتها لئلا تطفأ فى الطابون ، وهو مدفنها . وأهل مصر يسمون المخبز : « الطابونة » ولذلك أصل فصيح .

وهذه أبيات عادية ، ولكن كلمة « موفَّق » فى قوله :

لَو أَنَّ عَزَّةَ خَاصَمتْ شمْس الضُّحَى
فى الحُسْنِ عِنْد مُوفَّقٍ لَقَضَى لَهَا

كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل ، لأنه يريد أن يخيّل إليك أن عزة كالشمس فى الحسن والإشراق ، وأنها لو خاصمت الشمس فى الحسن لاشتبه الأمر على من يفصل فى هذه الخصومة ، وأنه لابُدّ من التوفيق ليحكم بتفوّق هذه المحبوبة على الشمس ، ولا يحتاج الحكم إلى التوفيق إلاّ حين يلتبس الحق ، ويتعذر الفصل وحسب هذه الحسناء أن تفتن الناظر ، وأن تكون فى نفس المنصف أولى من الشمس بالجمال .

وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبيانى فى وصف الليل :

تَطَاولَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ
ولَيْس الَّذِى يَرْعَى النُّجُومَ بِآئِبِ

فقد صور النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح فى أديم السماء ، وصوّر الصبح بالراعى الغائب الذى يخشى أنلا يئوب ، وفى أوبته صرْف هذه النُجوم .

أذكر هذا ثم تعال ننظر : أهذا هو الغرض الذى سيق من أجله الحديث ؟ كلا ! فإن الغرض أوسع من ذلك ، وغرض النابغة أن يشكو إلى محبوبته هجوم الهم على صدره فى ظلمة الليل ، وقد أفصح عن هذا الغرض فى هذه الأبيات :

كِلِينِى لِهَمٍّ يا أُميْمة نَاصِبِ ولَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطِيءِ الْكَواكِبِ
تَطَاولَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ
ولَيْس الَّذِى يَرْعَى النُّجُوم بِآئِبِ
وصدْرٍ أَراحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ
تَضَاعفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وهذه صورة شعرية لتمثيل الغرض الذى قصد إليه الشاعر فى مطلع قصيدته فقد تحدث عن همه الممضّ الموجع ، وليله الذى طال بطوله بثه وشجاه ، وصدره الذى أراح الليل ما عزب من همه ، وهذا أيضاً خيال رائع : فقد صوّر الهموم بصورة الإبل تسرح نهاراً ، ثم تُراح ليلاً إلى الحظيرة ، وكذلك يُشغل المرء عن همومه بالنهار فإذا انقطعت شواغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلّته من جديد .

وهذا المعنى أروع من قول امرىء القيس :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِ
بِصُبْحٍ وما الْإِصْباحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

وإن قال العتبى بغير ذلك فى الحديث الذى ذكَرَه صاحب زهر الآداب (١) .

وفى مثل هذا الغرض الذى أفصح عنه النابغة يقول حندج بن حندج المرىّ .

فى لَيْلِ صُولٍ تَنَاهَى الْعَرْضُ والطُّولُ
كَأَنَّما لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مَوْصُولَ

لَا فَارقَ الصُّبْح كَفِّى إنْ ظَفِرْتُ بِهِ
وإنْ بَدتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وتَحْجِيل

لِساهِرٍ طَالَ فى صولٍ تَملْمُلُهُ
كَأَنَّهُ حَيَّةٌ بِالسَّوْطِ مَقْتُولُ

مَتى أَرى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخايِلُهُ
واللَّيْل قَدْ مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرابِيلُ

لَيْلٌ تَحيَّرَ ما ينْحَطُّ فى جِهَةٍ
كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولَ

---

(١) ص ١٦٦ ج ٣ من الطبعة الأولى .

نُجُومُهُ رُكَّدٌ لَيْستْ بِزَائِلَةٍ كَأَنَّما هُنَّ فى الجوِّ الْقَنَادِيلُ
مَا أَقْــدَرَ اللهَ أَنْ يُدْنِى عَلَى شَــحَطٍ
مَنْ دارُهُ الحزْنُ مِمَّنْ دارُهُ صُــــول
اللهُ يَطْوِى بِساطَ الأَرْضِ بَيْنَهُمَـــا
حَتى يُرَى الرَّبْعُ مِنْهُ وهُوَ مأْهُول

وفى هذه القصيدة يظهر الفرق واضحاً بين المعنى والغرض ، ففى كل بيت معنى خاص ، ومن مجموع هذه المعانى يتكون الغرض ، فليس هناك ريبٌ فى أن قوله :

لَا فَارقَ الصُّبْح كَفِّى إنْ ظَفِرْتُ بِهِ
وإنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وتَحْجِيـــل

فيه معنى جميل ، وخيالٌ رائع ، ولكنه لا يمثل الغرض الذى قيلت من أجله القصيدة . وكذلك قوله :

لَيلٌ تَحيَّر ما ينْحطُّ فى جِهَـــة
كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتنِ الأَرْضِ مَشْــكُول

فيه خيال يَخْلِب العقول ،وأىّ خيال أروع من حيرة الليل ، وتقييده فوق متن الأرض بِشكال ! ولكن هب الشاعر قال هذا البيت مفرداً لا سابق له ولا لا حق ، فأى تأثير يكون له فى النفس وهو فى ذلة اليتيم !

وكذلك قول أشجع بن عمرو السُلَمى فى رثاء محمد بن منصور بن زياد :

أَنْعى فَتى الْجُودِ إلَى الْجُودِ مَا مِثْلُ مَنْ أَنْعى بِمَوْجُودِ
أَنْعى فَتًى مَصَّ الثرى بَعْدَهُ بَقِيَّةَ الْمـاءِ مِنَ الْعُـودِ
وانْثَـلَم الْمجْـدُ بِهِ ثُلْمَةً جَانِبُهَـا لَيْس بِمسْـدُودِ

فَالآنَ تُخْشَى عَثَرَاتُ النَّدَى وصَوْلَةُ الْبُخْلِ عَلَى الجُودِ

فى كل بيت معنى جميل ، وفى كل بيت خيالٌ رائع ، ولكن الصورة الشعرية لا تتم إلا بضم هذه المعانى بعضها إلى بعض ، ومنها يتكون الغرض ، وهو ذَهاب المجد بفقد هذا الجواد .

— ٢ —

على أن الغرض قد يتشعَّب حين يوجد ما يقتضى ذلك ، فقد ذهب الثكل برشد طريف بن أبي وهب العبسى ، فقال يرثى ابنه بهذه الكلمات الموجعات التى أصبحت لذهوله كثيرة الأغراض :

أرابعُ مَهْلاً بَعْضَ هٰذَا وأَجْملِي فَفِى الْيأْسِ نَاهٍ والْعزَاءُ جَمِيلُ
فَإِنَّ الَّذِى تَبْكِينَ قَدْ حالَ دُونَهُ
تُرابٌ وزَوْرَاءُ المقَامِ دَحُولُ (١)
نَحاهُ لِلَحْدٍ زِبْرقَانٌ وخَالِدٌ وفى الْأَرْضِ لِلأَقْوامِ قَبْلَكِ غُولُ
وأَىُّ فَتى واروْهُ ثُمَّتَ أَقبلَتْ أَكُفُّهُو تَحْثُو مَعًا وَتَهِيلُ
وَظَلَّتْ بِىَ الْأَرْضُ الْفَضَاءُ كَأَنَّمَا تَصَعَّدُ بِى أَرْكَانُهَا وَتَجُولُ
وَشَدَّ إِلَىَّ الطَّرفَ مَنْ كَانَ طَرْفُهُ لِعَهْدِ عُبَيْدِ اللهِ وَهُوَ كَلِيلُ
لَئِنْ كَانَ عَبْدُ اللهِ خَلَّى مَكَانَهُ عَلَى حِين شَيْبِى بِالشَّبَابِ بَدِيلُ
لَقَدْ بَقِيتْ مِنِّى قَنَاةٌ صَلِيبَةٌ
وإِنْ مَسَّ جِلْدِى نَهْكَةٌ وَذُبُول

(١) الدخول : هى الحفرة الغامضة .

وما حَالَةٌ إلَّا سَتُصْرَفُ حَالُهَا

إلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَـــزُولُ

فقد تَنَقَّلَ الشاعر من معنى إلى معنى ، ومن غرض إلى غرض ، تحت وطأة الحزن الذى مشى به من العزاء إلى الجزع ، ومن الجزع إلى العزاء ، فإنك تراه يروض نفسه على الصبر حين يقول :

أَرابعُ مَهْلاً بَعْضَ هذا وَأَجْمِلِى فَفِى الْيَأْسِ نَاهٍ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ

ثم تراه يغرى بنفسه ثائرة الحزن حين يقول :

وَشدَّ إلَى الطَّرْفَ مَنْ كَانَ طَرْفُهُ

لِعَهْــدِ عُبَيْــدِ اللهِ وَهوَ كَلِيلُ

ثم يعود فيقول :

وما حَالَةٌ إلَّا سَتُصْرَفُ حَالُهَا

إلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَزُولُ

وكذلك يطرب المحزون فلا يستقر على حال .

— ٣ —

والنثر كالشعر فى المعانى والأغراض ، وعندنا كتاب بديع الزمان الهمذانى (١) إلى القاضى أبى القاسم علىّ بن أحمد فى شكوى أبى بكر الحيرى ، وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الأغراض ، وانظر قوله فى وصف العلم :

« والعلم أطال الله بقاء القاضى شىء كما تعرفه بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى فى المنام ، ولا يضبط باللجام ، ولا يورث عن الأعمام ولا يكتب للئام ، وزرع لا يزكو فى كل أرض حتى يصادف من الحرص ثرًى طيباً

(١) راجع مذاهب بديع الزمان الإنشائية فى الجزء الأول والثانى من كتاب (النثر الفنى) .

ومن التوفيق مطراً صيّبا ، ومن الطبع جوّا صافيا ، ومن الجهد روحا دائما ، ومن الصبر سقيا نافعا ، والعلم علقٌ لا يباع ممن زاد ، وصيد لا يألف الأوغاد ، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح ، وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدَر ، واستناد الحجر ، وردّ الضّجر ، وركوب الخطر ، وإدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكرَ ، ثم هو معتاص على من زكا زرعه ، وكرم أصله وفرعه ، ووعى بصره وسمعه ، وصفا ذهنه وطبعه . فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء ، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالغناء ، وأفرغ جده على الكيس وهزله على الكاس ؟ والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس ولا يغرس إلا فى النفس ، وصيد لا يقع إلا فى البذر ، ثم لا ينشب إلا فى الصدر وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ ، ثم لا يعقله إلا شَرَك الحفظ ، وبحرٌ لا يخوضه الملاّح ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبل لا يُتَسَنّم إلاّ بخُطا الفكر ، وسماء لا تُصعد إلا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس إلا بيد المجدّ ، أيكنى أن يصبح المرء بين الزق والعود ، ويمسى بين موجبات الحدود ، حتى يتم شبابه ، ويشيب أترابه ، ثم يلبس دنّيته ، ليخلع دينيته ، ويسوّى طيلسانه ، ليحرف يده ولسانه ، ويقصر سباله ، ليطيل حباله ، ويبدى شقاشقه ، ليغطى مخارقه ، ويبيّض لحيته ليسوّد صحيفته ، ويظهر ورعه ، ليخفى طمعه ، ويغشى محرابه ، يملأ جرابه ، ويكثر دعاءه ، ليحشو وعاءه ، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً ، ويقعد حاكماً ! هذا إذا المجد كالوه بقفزان ! » .

فهذه طائفة من المعانى ترجع إلى غرض واحد : هو أن العلم شيء عزيز لا يناله بعد الجهد إلا كرام النفوس (١) .

ويمكن للناقد أن يجد فى بعض هذه المعانى شيئاً من الضعف ، ولكنه لن ينكر على الكاتب أنه أفصح عن غرضه ، وبلّغ دعوته ، بل وصل بها إلى قرار القلوب . وأهمية الصور الشعرية كما أسلفنا القول ترجع إلى تمكين المعانى فى النفس ، والوصول إلى التأثير الذى هو غاية البيان .

وانظر قول بديع الزمان فى وصف هذا القاضى ووصف قومه :

« وأقسم لو أن اليتيم وقع فى أنياب الأسُود ، بل الحيات السُّود ، لكانت سلامته

(١) وهذا لا ينافى أن غرض الكاتب هو التحريض على كبت عدوه الحيرى .

منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضى وأقاربه ، وما ظنك بقوم يحملون الأمانة على متونهم ، ويأكلون النار فى بطونهم ، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى ، وتسمن أكفالهم من مال الأيامى ؟ وما ظنك بدارٍ عمارتها خراب الدُّور وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من الكسوة والقوت ؟ وما قولك فى رجل يعادى الله فى الفَلْس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، ومن حاكم يبرز فى ظاهر أهل السمت وباطن أصحاب السبت ، فعلُه الظلم البحت ، وأكلُه الحرام السحت ؟ وما رأيك فى سوس لايقع إلا فى صُوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولصّ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردىّ لا يُغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عبَاد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود؟! وما زلت أبغض حال القضاء طبعاً وجبلّة ، حتى أبغضتهم ديناً وملة ، وألعنهم درْبة حتى لعنتهم قُربة ، بما شاهدت من هذا الحيرىّ وقاسيت ، وعانيت من خَطْبه وخبطه ما عانيت » .

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة فى جميع الأقطار ، وفى جميع العُصور ، لأن نزعات الإنسانية واحدة ، أوْ كأنها واحدة فى الخير والشر . والوصف الصادق يعذب ويُستملَح فى كل قطر وفى كل جيل .

— ٤ —

ولك أن تتخطى النثر المحبّر إلى الكلمات المأثورة التى جاءت بها البديهة ، لترى كيف تكون المعانى والأغراض .

فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن تمنّى يزيد الرقاشى وقد تمنّى بحضرته قومٌ فقال : أتمنى كما تمنيتم ؟ قالوا : تمنّهْ ! قال « ليتنا لم نُخْلَقْ ، وليتنا إذ خُلقْنَا لم نعص ، وليتنا إذ عصينا لم نمتْ ، وليتنا إذ متنا لم نبعث ، وليتنا إذ بعثنا لم نُحاسب ، وليتنا إذ حُوسبنا لم نعذّبْ ، وليتنا إذ عُذّبنا لم نخلد » .

وفى مثل هذا المعنى يقول الحجاج « ليت الله إذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا فرفع عنا الهمّ بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح ، أو ليته إذ أوقعنا فى هذه الدار كفانا أمر الآخرة ، فرفع عنا الاهتمام بما ينجى من عذابه » .

وفى هاتين الأمنيتين وصفٌ دقيقٌ لحيرة النفس الإنسانية التى ما زالت تكد وتكدح فى استكناه أسرار الغيب ، ثم سَقَطَتْ صريعة الإعياء ، بعد مرارة الإخفاق !

وأحب أن لا يغفل القارىء عن دقة الترتيب فى هذه الصورة الشعرية ، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس ، فقد أبتدأ الرقاشى بهذه الصرخة « ليتنا لم نخلق ! » وهى أول نفثة يجود بها المكروب ، ثم أخذ يُجيل نظر الحيرة ، ويتمنى إذ خُلق لو وقاه الله المعصية ، ويتمنى إذ عصا لو نجا من الموت ، إلى آخر ما قال .

وقيل لبعض العرب : أى شىءٌ تتمنىّ ، وأى شىء أحب إليك ؟ فقال : لواءٌ منشور ، والجلوس على السرير ، والسلام عليك أيها الأمير !

وهذه صورة يبسم لها القارىء ، ولكنها على ذلك صورة صادقة لكثير من النفوس. وأدق منها قول الآخر ، وقد قيل له ، أجزعت من الموت ؟ وقد صلى ركعتين فأطال ، وكان أمر بقتله . فأجاب « إن أجزع فقد أرَى كفناً منشوراً ، وسيفاً مشهوراً ، وقبراً محفوراً » .

وهذه صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب !

وقال إعرابى لسليمان بن عبد الملك : إنى أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه . قال هاته يا أعرابى فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبته ، ولا نرجو نصيحته ، وأنت المأمون غيباً ، الناصح جيباً . قال : فإنى سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسُن تأديةً لحق الله تعالى : إنه قد اكتنفك رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للآخرة وسَلْم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً . وأنت مسئول عما اجترموا وليسوا مسئولين عما اجترمت . فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك : فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره . فقال سليمان : أما أنت يا أعرابى ، فقد سللت لسانك وهو سيفك . قال : أجلْ يا أمير المؤمنين لك لا عليك !

وفى هذا الحوار كما يرى القارىء طائفة من المعانى يتكون منها غرضٌ واحد . وكذلك نستطيع حين نوازن بين الكتاب والخطباء والشعراء أن نفرق بين المعانى والأغراض .

. . .

وأرجو أن أوفق الأبحاث الآتية إلى مراعاة ما وضعته من القواعد الأصول (١) .

(١) كل ما سلف من الفصول كان مقدمة لشرح قواعد النقد كما يفهمه المؤلف ، وهى فصول كتبت أول مرة سنة ١٩٢٥ ومن المؤكد أن القارئ كان ينتظر أن يضيف المؤلف إلى هذه الطبعة ماجد له من الآراء فى مدى عشر سنين . ولكنا اكتفينا بما أثبتناه فى الطبعة الأولى : لأن كتاب « النثر الفنى » انتهب كل ما وفقنا إليه بعد ذلك من الأفكار النقدية ، وليس من الحزم أن ننقل هنا ما سجلناه هناك .

البحث الثالث عشر

الحُصْرى وشوقى

بينا فى الأبحاث الماضية ما يجب أن يتوفر فى الناقد المُوازن من الشروط ، وبسطنا القول فى نظرية الصور الشعرية التى نعتمد عليها فى النقد بعد مراعاة ما عُنِىَ به الأقدمون من اختيار الألفاظ والأساليب ، والآن ندخل فى بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل : هو الموازنة بين القصائد المشهورة التى جرت مجرى المعارضة والمماثلة كما فعل ابن المعتز فى معارضة الحسين بن الضحاك ، وابن عبد ربه فى معارضة مسلم بن الوليد ، وابن درّاج فى معارضة أبى نواس ، والبارودى فى معارضة أبى فراس ، الخ .

ولهذا البحث أهمية كبيرة ، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة ، وسيرينا كيف تتصاول العقول ، وكيف تتسابق القرائح ، إذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعاً من السباق فى عالم البيان .

ولنبدأ بالموازنة بين دالية الحُصرى « ياليل الصب متى غده » ودالية شوقى « مضناك جفاه مرقده » فإن لهاتين القصيدتين أثراً فى أندية الأدب ومجالس الغناء ، ومن الخير أن نُميطَ اللثام عما فيهما من مواطن الحسن ، ومظانّ الضعف ، وأن نبين أى الشاعرين أبرع لفظاً ، وأشرف معنىً ، وأسمى خيالا .

والحصرى (١) — بضم الحاء المهملة ، وسكون الصاد المهملة ، وبعدها راء مهملة هو أبو الحسن على بن عبد الغنى الفهرى المقرىء الضرير القيروانى ، وهو ابن خالة أبى إسحاق الحصرى صاحب كتاب زهر الآداب ، وقد ذكر ابن بسام فى الذخيرة أن أبا الحسن الحصرى كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، وأنه طرأ على

descend,

veil

---

(١) ذكر ابن خلكان أنه منسوب إلى الحصر التى تفرش ، وقد حدثنا السيد حسنى عبد الوهاب أنه منسوب إلى « الحصر » وهى قرية قديمة بالقرب من القيروان .

الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان ، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق ، معمور الطريق ، فتهاداه ملوك الطوائف تهادى الرياض بالنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم .

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك ، فاحتمل على مضض بين زمانه ، وبُعد قُطره ، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف ، وتوفى بها رحمه الله ، سنة ٤٨٨

وله قصيدة طويلة فى قراءات نافع ، وله ديوان شعر (١) ، وهو القائل :

أَقُولُ لَهُ وَقَدْ حَيَّا بِكَأْسٍ ... لَهَا مِنْ مِسْكِ رِقَّتِهِ خِتَامُ

أَمِنْ خَدَّيْكَ تُعْصَرُ قَالَ كَلَّا ... مَتَى عُصِرَتْ مِنَ الْوَرْدِ الْمُدَامُ

ويقول ابن بسام فى وصفه « على أنه كان فيما بلغنى ضيّق العطَن ، مشهور اللّسَن ، يتلفّت إلى الهجاء ، تلفّت الظمآن إلى الماء » .

وكنا نودّ لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد ، فإن كلمة ابن بسّام لا تفيد غير الظن ، وأين الظن من اليقين .

ويمكن الحكم بأنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية ، فإن التأليف فى علم القراءات يدل على ذلك ، ويمكن الحكم أيضاً بأنه كان بصيراً بشئون الحياة ، فإن فى الاغتراب وصحبة الملوك عوناً على فهم دقائق الوجود

أما شوقى فشاعر معروف فى مصر والشرق ، وله كَلَف بمعارضة القدماء ، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية ، وبصيرٌ بشئون الحياة ، وهو كالحصرى افتتح قصيدته بالنسيب ، واختتمها بالمديح ولكنى سأقتصر فى الموازنة على صدر القصيدتين ، إذ كان النسيب هو السبب فيما يرجى لهما من الخلود ، إن كان لهذا العالم حظ من الخلود (٢) .

قصيدة الحصرى

يَا لَيْلُ الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ ... أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

---

(١) راجع وفيات الأعيان .

(٢) للشاعر شوقى حظ عظيم من عناية المؤلف ، وقد كتب عنه فصولا أخرى نقد بها مذاهبه الشعرية والاجتماعية ، ويمكن الرجوع إليها فى الجزء الأول والثانى من كتاب (البدائع) .

رَقَدَ السُّمَّارُ وَأَرَّقَهُ أَسَفٌ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ
فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْصُدُهُ
كَلِفٌ بِغَزَالٍ ذِي هَيَفٍ خَوْفُ الْوَاشِينَ يُشَرِّدُهُ
نَصَبَتْ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكًا فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصَيُّدُهُ
وَكَفَى عَجَبًا أَنِّي قَنِصٌ لِلسِّرْبِ سَبَانِي أَغْيَدُهُ
صَنَمٌ لِلْفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ أَهْوَاهُ وَلَا أَتَعَبَّدُهُ (١)
صَاحٍ وَالْخَمْرُ جَنَى فَمِهِ سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعَرْبِدُهُ
يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا وَكَأَنَّ نُعَاسًا يُغْمِدُهُ
فَيُرِيقُ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّدُهُ
كَلَّا لَا ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ

* * *

يَامَنْ جَحَدَتْ عَيْنَاهُ دَمِي وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرُّدُهُ
خَدَّاكَ قَدِ اعْتَرَفَا بِدَمِي فَعَلَامَ جُفُونُكَ تَجْحَدُهُ
إِنِّي لَأُعِيذُكَ مِنْ قَتْلِي وَأَظُنُّكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ
بِاللهِ هَبِ الْمُشْتَاقَ كَرًى فَلَعَلَّ خَيَالَكَ يُسْعِدُهُ
مَا ضَرَّكَ لَوْ دَاوَيْتَ ضَنَى صَبٍّ يُدْنِيكَ وَتُبْعِدُهُ

(١) الصنم : هو التمثال ، ولا تزال هذه الكلمة على ألسنة أهل المغرب ، وإن كانت في مصر مما ينكر الذوق .

لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا فَلْيَبْكِ عَلَيْهِ عُوَّدُهُ
وغدًا يقْضِى أَوْ بعْد غدٍ هلْ مِنْ نَظَرٍ يتزوَّدُهُ
يا أَهْلَ الشَّوْقِ لَنَا شَرَقٌ بِالدَّمْعِ يفِيضُ مُورِدُهُ
يَهْوَى المُشْتَاقُ لِقَاءَكُمُو وصُرُوفُ الدَّهْرِ تبعِّدُهُ

* * *

ما أَحْلَى الْوَصْلَ وأَعْذَبَهُ لَوْلَا الْأَيَّامُ تُنَكِّدُهُ
بِالْبَيْنِ وبِالْهجْرانِ فَيا لَفُؤَادِى كَيْف تَجلُّدُهُ

قصيدة شوقى

مُضْنَاكَ جفَاهُ مرْقَدُهُ وبكَاهُ ورحَّمَ عُوَّدُهُ
حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذَّبُهُ مقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهَّدُهُ
أَوْدَى حُرَقًا إِلَّا رَمَقًا يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وتُنْفِدُهُ
يسْتَهْوِى الْوُرْقَ تَأَوُّهُهُ ويُذِيبُ الصَّخْرَ تَنَهُّدُهُ
ويُنَاجِى النَّجْمَ ويَتْبَعُهُ ويُقِيمُ اللَّيْلَ ويُقْعِدُهُ
ويُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ شَجنًا فى الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ
كَمْ مدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرَكٍ وتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ
فَعَسَاكَ بِغَمْضٍ مُسْعِفُهُ ولَعلَّ خَيالَكَ مُسْعِدُهُ
الحُسْنُ حَلَفْتُ بِيُوسُفِهِ وَالسُّورَةِ أَنَّكَ مُفْرَدُهُ

قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسًا   حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقَطِّعَةٍ   يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تَشْهَدُهُ
جَحَدَتْ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي   أَكَذَلِكَ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا   فَأَشَرْتَ لِخَدِّكَ أُشْهِدُهُ
وَهَمَمْتُ بِجِيدِكَ أُشْرِكُهُ   فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ أَصْيَدُهُ
وَهَزَزْتُ قَوَامَكَ أَعْطِفُهُ   فَنَبَا وَتَمَنَّعَ أَمْلَدُهُ
سَبَبٌ لِرِضَاكَ أُمَهِّدُهُ   مَا بَالُ الْخَصْرِ يُعَقِّدُهُ
بَيْنِي فِي الْحُبِّ وَبَيْنَكَ مَا   لَا يَقْدِرُ وَاشٍ يُفْسِدُهُ
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي   بَابَ السُّلْوَانِ وَأُوصِدُهُ
وَيَقُولُ تَكَادُ تُجَنُّ بِهِ   فَأَقُولُ وَأُوشِكُ أَعْبُدُهُ
مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ   قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمَتْ يَدُهُ
نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ   وَحَنَايَا الْأَضْلُعِ مَعْبَدُهُ
حُسَّادِي فِيهِ أُعَذِّرُهُمْ   وَأَحَقُّ بِعُذْرِي حُسَّدُهُ
قَسَمًا بِثَنَايَا لُؤْلُئِهَا   قَسَمَ الْيَاقُوتَ مُنَضَّدُهُ
وَرُضَابٍ يُوعَدُ كَوْثَرُهُ   مَقْتُولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ
وَبِخَالٍ كَادَ يُحَجُّ لَهُ   لَوْ كَانَ يُقَبَّلُ أَسْوَدُهُ
وَقَوَامٍ يَرْوِي الْغُصْنُ لَهُ   نَسَبًا وَالرُّمْحُ يُفَنِّدُهُ

وبِخَصْرٍ أَوْهَنَ مِنْ جَلَدِى   وعَوادِى الْهَجْرِ تُبدِّدُهُ
ماخُنْتُ هَواكَ ولاخَطَرتْ   سلْوَى بِالْقلْبِ تُبرِّدُهُ

الموازنة

ولنذكر أولا ما فى القصيدتين من الأغراض ، وإنّا لنجد الحصرى تكلم عن طول الليل ، وطيف الخيال ، وخمر الرّضاب ، وسيف المقْلة ، وجناية العين ، وحمرة الخد ، واستعطاف الحبيب ، وفناء المحب . ونجد شوقى تكلم عن لوعة المضنى ، وطيف الخيال ، وجمال المحبوب ، وجناية العين ، وحسن القدّ والجيد ، ودقة الخصر ، والصبر على الوشاة ، وتفدية الحبيب ، والرفق بالحساد ، والحرص على الحب ، والبراءة من السلوان ، فقصيدة شوقى إذاً أحفل بالأغراض .

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع ، وإنا لنجد الحصرى يقول :

يالَيْل الصَّبّ متى غَدُهُ   أَقِيامُ السَّاعةِ موْعِدُهُ
رقَد السُّمَّارُ وأَرَّقَهُ   أَسَفٌ لِلْبيْنِ يُردِّدُهُ
فَبكَاهُ النَّجْمُ ورقَّ لَهُ   مِمَّا يرْعاهُ ويرْصُدُهُ

ونجد شوقى يقول :

مُضْنَاكَ جفَاهُ مرْقَدُهُ   وبكاهُ ورحَّم عُوَّدُهُ
حيْرانُ الْقَلْبِ مُعذَّبُهُ   مقْرُوحُ الجفْنِ مُسهَّدُهُ
أَوْدَى حُرقًا إلَّا رمقًا   يُبْقِيهِ علَيْكَ وتُنْفِدُهُ
يسْتَهْوِى الْوُرْقَ تَأَوُّهُهُ   وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنَهُّدُهُ

وَيُنَاجِى النَّجْمَ وَيَتْبَعُهُ ... وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ

وَيُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ ... شَجَنًا فِى الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ

والمطلع فى رأينا هو أول صورة شعرية ، لا أول بيت ، ومطلع شوقى أوفى وأروع من مطلع الحصرى ، وخطاب الحبيب فى قول شوقى :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ ... وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عُوَّدُهُ

أرقّ من خطاب الليل فى قول الحصرى :

يَالَيْلُ الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ ... أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

وقول شوقى فى حيرة المحب وعذابه وفنائه :

حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذَّبُهُ ... مَقْرُوحُ الجَفْنِ مُسَهَّدُهُ

أَوْدَى حُرَقًا إِلَّا رَمَقًا ... يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُنْفِدُهُ

يَسْتَهْوِى الْوُرْقَ تَأَوُّهُهُ ... وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنَهُّدُهُ

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصرى :

رَقَدَ السُّمَّارُ وَأَرَّقَهُ ... أَسَفٌ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقول شوقى :

وَيُنَاجِى النَّجْمَ وَيَتْبَعُهُ ... وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ

أقرب فى صدقه إلى الواقع من قول الحصرى :

فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ ... مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْصُدُهُ

وقول الحصرى فى تصيُّد الطيف :

نَصَبَتْ عَيْنَاىَ لَهُ شَرَكًا ... فِى النَّوْمِ فَعَزَّ تَصَيُّدُهُ

وَكَفَى عَجَبًا أَنِّى قَنَصٌ ... لِلسِّرْبِ سَبَانِى أَغْيَدُهُ

أبرع من قول شوقى :

كَمْ مَدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرَكٍ ... وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ
فَعَسَاكَ بِغَمْضٍ مُسْعِفُهُ ... ولَعَلَّ خَيَالَكَ مُسْعِدُهُ

لأن الحصرى حدثنا عن حقيقة صادقة ، وهى تمنعُ الطيف : فليس فى طوق المحب أن يظفر بطيف حبيبه كلما مدّ له الأشراك .

ولا يعجبنى تأدب شوقى فى قوله :

كَمْ مَدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرَكٍ ... وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ

لأن التأدب هنا ضعف ، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيّده لحمدنا له هيبة الحسن ، وإن الحسن لَمهيب الجناب (١) .

ويروقنى قول شوقى :

مَوْلَاىَ ورُوحِى فى يَدِهِ ... قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمَتْ يَدُهُ
نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ ... وَحَنَايَا الْأَضْلُعِ مَعْبَدُهُ
حُسَّادِى فِيهِ أَعْذِرُهُمْ ... وَأَحَقُّ بِعُذْرِى حُسَّدُهُ

فإن فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويَحْنُو عليه ، فى ظلمه وعُدوانه ، ولم يعرض الحصرى لمثل هذا المعنى البديع ، وأخلقْ بهذه الأبيات أن تكون صلاةً للحسن ، إن قَضَى الله أن نصلّى له ، كما يصلى فريق للشمس عند الشروق ، والهوى — كما قيل — إله معبود .

وما أرفق شوقى وأرقّه حين يقول :

قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسًا ... حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ

---

(١) هذه اللفتة تذكر بقول الشاعر :

حمى نفسه الحسن أضعاف ما ... حمى نفسه الجمر لما التهب

فإن الحسن لا يُعبد بأرقّ من هذا الوصف ، وهل العبادة إلا وصف المعبود بالتفرد والجلال .

وقول الحصرى :

صَاحٍ والخَمْرُ جَنَى فَمِهِ ... سَكْرَانُ الَّلحْظِ مُعَرْبِدُهُ

أروع وأبدع من قول شوقى :

وَرُضَابٍ يُوعَدُ كَوْثَرُهُ ... مقْتُولُ الْعِشْقِ وَمُشْهِدُهُ

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين ، فإن بيت الحصرى بيت فذّ نادر المثال ، وفيه وحده صورة شعْرية رائعة ، وما ردّدته إلاّ فُتِنْتُ به فتنة جديدة وظهر لى منه معنى جديد ، كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه ، ولا حدّ لقدرته على تصريف القلوب .

ولك أن تتأمل كلمة « جنى » فى قوله :

صَاحٍ والخَمْرُ جَنَى فَمِهِ ... سَكْرَانُ الَّلحْظِ مُعَرْبِدُهُ

وما هذه العربدة يا صاح ؟ إنها الأشْرَاك التى يقيدك بها اللحْظ ، وأنت تنهل من وِرْدِه العذب الجميل !

وقول شوقى :

جَحَدَتْ عَيْنَاكَ زَكِىَّ دَمِى ... أَكَذَلِكَ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عزَّ شُهُودِى إذْ رَمَتَا ... فَأَشَرْتُ لِخَدِّكَ أُشْهِدُهُ

أرق من قول الحصرى :

يامَنْ جحَدَتْ عيْنَاهُ دَمِى ... وعلَى خدَّيْهِ تَوَرُّدُهُ
خَدَّاكَ قَدِ اعْتَرَفَا بِدَمِى ... فَعلَامَ جُفُونُكَ تَجْحَدُهُ

لأن الاستفهام فى قول شوقى أعطى المعنى شيئاً من الحسن ، وزاده تمكيناً فى النفس ، على ما فيه من الابتذال .

وقد أجاد الحصرى فى استعطاف الحبيب إذ يقول :

لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا ... فَلْيَبْكِ عَلَيْهِ عُوَّدُهُ

وَغَدًا يَقْضِى أَوْ بَعْدَ غَدٍ ... هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَتَزَوَّدُهُ

ولا نجد هذه النغمة المحزنة فى قصيدة شوقى . وإنها لتذكرنا بهذا البيت الحزين :

وَأَرَى الأَيَّامَ لَاتُدْنِى الَّذِى ... أَرْتَجِى مِنْكِ وتُدْنِى أَجَلِى

مظانّ الضعف

وإنى لأستثقل الصنم المنتصب فى قول الحصرى :

صَنَمٌ لِلْفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ ... أَهْوَاهُ وَلَا أَتَعَبَّدُهُ

لأن كلمة « الصنم » كلمة غير شعرية (١) . والعرب تستملح « الدمية » فى وصف المرأة الجميلة . والدمية هى الصورة المنقّشة من الرخام ، والجمع دُمًى ، قال بعض الأعراب :

وَإِنِّى لَأُهْدَى بالأَوَانِسِ كَالدُّمَى ... وَإِنِّى بِأَطْرَافِ الْقَنَا لَلَعُوبُ

وَإِنِّى عَلَى مَا كانَ مِنْ عُنْجُهِيَّتِى ... وَلَوْثَةِ أَعْرَابِيَّتِى لَأَدِيبُ

وكذلك أستضعف قول الحصرى :

مَا أَحْلَى الْوَصْلَ وَأَعْذَبَهُ ... لَوْلَا الأَيَّامُ تُنَكِّدُهُ

بِالْبَيْنِ وَبِالْهِجْرَانِ فَيَا ... لَفُؤَادِى كَيْفَ تَجَلُّدُهُ

وأضعف منه قول شوقى :

بَيْنِى فى الحُبِّ وَبَيْنَكَ مَا ... لَا يَقْدِرُ وَاشٍ يُفْسِدُهُ

---

(١) لكثرة ماورد فى ذم الأصنام ، وقد أشرنا فى هامش سلف إلى أن هذه الكلمة لا تزال حية على ألسنة أهل المغرب ، وهم يقولون « صنم » حينما يشيرون إلى التمثال .

مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِى ... بابَ السُّلْوَانِ وَأُوصِدُهُ

ولا أدرى ما قيمة التعجب فى البيت الثانى من هذين البيتين ، و هو لا يزيد شيئاً عن الصوت العامى المشهور « كـيد العواذل كايدْنى بسّ اسمعْ شوف » ؟

وكذلك لا قيمة لقوله :

وَبِخَصْرٍ أَوْهَنَ مِنْ جَلَدِى ... وَعَوَادِى الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ

وهى مبالغة مردودة ، لأن الذى يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادى الصدود .

وقد ظلم شوقى نفسه حين قال :

وقَوَام يَرْوِى الْغُصْنُ لَهُ ... نَسَبًا وَالرُّمْحُ يُفَنِّدُهُ

كما أساء الحصرى إلى شعره إذ قال :

إِنِّى لَأُعِيذُكَ مِنْ قَتْلِى ... وَأَظُنُّكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ

فإن هذا خيال فقهاء ، لا خيال شعراء !

روعة الخيال

وإنه ليجمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصرى وشوقى من الخيال الرائع ، وإنّا لنستجيد قول الحصرى :

يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا ... وَكَأَنَّ نُعَاسًا يُغْمِدُهُ
فَيُرِيقُ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ ... وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّدُهُ
كَلاَّ لَاذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ ... عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَـدُهُ

وإن البيت الأول لمَـيْنٌ وتَبَـاتُ الخيال ، وفى البيت الثانى ضعف ، والثالث مع ضعفه مستملَـح مقبول .

ونستجيد كذلك قول شوقى :

نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ   وَحَنَايَا الأَضْلُعِ مَعْبَدُهُ

وللقارئ أن يلومنا فى استجادة هذا البيت ، وأن يذكر أن هذا أيضاً خيال فقهاء ، لا خيال شعراء . ولنا أن نذكّر القارئ بأن المعابد والنواقيس من الألفاظ التى استملحها العرب ، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو ، وملاعب الشباب ، ولهم فى الأديار شعر ممتع عُنيت بتفصيله فى غير هذا الحديث (١) ، وكذلك ظرف شوقى حين تحدث عن المعبد والناقوس ، وكان خياله قريباً فى الحسن من خيال الحصرى ، إذ توهم اللحظ سيفاً يكاد يُغمده النعاس ، وإنى لمفتون بهذا الخيال .

البراعة فى تناول المعانى

وإنا لنرى شوقى أبرع من الحصرى فى تناول المعانى ، ومن السهل أن نعلل هذا : فإن الحصرى لم يَجْرِ فى قصيدته إلا على الفطرة ، وكان من ذلك أنْ رَضِيَ بعفو الخاطر . أما شوقى فمعارض من همه أن يظفر بالسبق ، وكان من ذلك أن عُنِيَ بترتيب المعانى ، واختيار الألفاظ ، وتنوُّع الأغراض . على أن هذا التكلف لم يمض بلا عيوب ، فإنه لا معنى لقول شوقى :

وَبِخَالٍ كَادَ يُحَجُّ لَهُ   لَوْ كَانَ يُقَبَّلُ أَسْوَدُهُ

ولا رونق لقوله :

وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقَطِّعَةٍ   يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تَشْهَدُهُ

الحكم

وللقارئ — إن شاء الحكم — أن يرجع إلى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن ، ومظانِّ الضعف ، ومواقع الخيال : ليرى أىّ الشاعرين أولى بالسبق ، وأيهما أرجح فى الميزان . وحسبه أنْ دللناه على مافى القصيدتين من المحاسن والعيوب ، فإننا لا نُعنَى بالأشخاص ، وإنما يعنينا أن ندرس الشعر ، وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف ، والحسن والقبح . وكذلك ندرس البيان ، ونحن نوازن بين الشعراء .

(١) تجد هذا البحث فى كتاب « أثر الشعر فى ربط الشعوب » .

البحث الرابع عشر

البحترى وشوقى

قلنا إن لشوقى كلَفاً بمعارضة المتقدمين من الشعراء ، ووازنّا بين داليّته وداليّة الحصرى فى الكلمة السابقة ، والآن نوازن بينه وبين البحترى ، فقد عارض سينيته ُ فى وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء . ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة ، ومن الخير أن نوازن بينَهما موازنة دقيقة ، ليقف القارئ على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان .

ولنذكر أولا أن شوقى يتأثر البحترى منذ زمن بعيد ، ويودّ لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية ، التى ضربت بها الأمثال :

ولننظر كيف يقول فى خطاب « أم المحسنين » :

النِّيلُ فَجَّرَ مَشْرَعَيْنِ وَعَيْلَمًا ... وَتَفَجَّرَتْ يُمْنَاكِ خَمْسَةَ أَبْحُرِ
أَحْيَيْتِ فى فَضْلِ المُلُوكِ وَعِزِّهِمْ ... مَامَاتَ مِنْ أُمِّ الْخَلِيفَةِ جَعْفَرِ
إِنَّ الَّذِى قَدْ رَدَّهَا وَأَعَادَهَا ... فى بُرْدَتَيْكِ أَعادَ فِيَّ الْبُحْتُرِى

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء :

وَعَظَ الْبُحْتُرِىَّ إِيوَانُ كِسْرَى ... وَشَفَتْنِى الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

حياة البحترى

ولد أبو عُبادة الوليد بن عبيد البحترى فى سنة ٢٠٦ بِمَنْبِج بين حلب والفرات . ومنبج – بالفتح ، ثم السكون ، وباء موحدة مكسورة وجيم – بلد قديم طيب

الهواء . وُلد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم : البُحترى، وأبو فراس . ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذى قال له الرشيد لما دخل منبج : أهذا منزلك ؟ قال : هو لك ، ولى بك يا أمير المؤمنين . قال : كيف بناؤه ؟ قال : دون منازل أهلى ، وفوق منازل الناس .

وقال وكيف ذلك ، وقدرك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلُق أمير المؤمنين أتأسى به ، وأقفو أثره ، وأحذو حذوه .

قال : فكيف طيب منبج ؟ قال عذبة الماء ، طيبة الهواء ، قليلة الأدواء

قال : فكيف ليلها ؟ قال : سَحَرٌ كلُّه !

وفى التشوق إلى منبج يقول إبراهيم بن المدبِّر ، وقد خلى بها شُعْبَةً من فؤاده :

وَلَيْلَةَ عَيْنِ المَرْجِ زَارَ خيَالُهُ ... فَهَيَّجَ لِى شَوْقًا وَجَدَّدَ أَحْزَانِى
فَأَشْرَفْتُ أَعْلَى ٱلدَّيْرِ أَنْظُرُ طَامِحًا ... بِأَلْمَحِ آمَاقٍ وَأَنْظَر إِنْسَانِ
لعَلِّى أَرَى أَبْيَاتَ مَنْبِجَ رُؤْيَةً ... تُسَكِّنُ مِنْ وَجْدِى وَتكْشِفُ أَشْجَانِى
فَقَصَّرَ طَرْفِى وٱسْتَهَلَّ بِعَبْرَةٍ ... وفَدَّيْتُ مَنْ لَوْ كانَ يَدْرِى لَفَدَّانِى
ومَثَّلَهُ شَوْقِى إِلَيْهِ مُقَابِلِى ... وَنَاجَاهُ عَنِّى بِالضَّمِيرِ وَنَاجَانِى

وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لتدرك بعض السر فى رقة البحترى ، وجمال شعره ، فان للبلد الطيب الهواء ، العذب الماء ، القليل الأدواء ، أثراً كبيراً فى تكوين نفس الشاعر ، والكاتب ، والخطيب (١) ، ولأن البحترى كان كثير الحنين إلى منبج ، وكان كثيراً ما يشيد بها فى شعره ولننظر كيْف يقول فى خطابِ أبى جعفر محمد بن حميد الطوسى :

لَا أَنْسَيَنْ زَمَنًا لَدَيْكَ مُهَذَّبًا ... وَظِلَالَ عَيْشٍ كَانَ عِنْدَكَ سَجْسَجِ
فى نِعْمَةٍ اوطِنْتُهَا وَسَكَنْتُ فى ... أَفْيَائِهَا فَكَأَنَّنِى فى مَنْبِجِ

(١) انظر تفصيل هذا المعنى فى الكلام عن أبى الحسن الجرجانى فى الجزء الثانى من كتاب : « النثر الفنى ».

بداية حياته

شبَّ البحترى وترعرع فى منبج . وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب البصل والباذنجان !!

قالوا « وكان منه ما كان فى عَلْوَةَ التى شببَ بها فى كثير من أشعاره ، وهى بنت زريقة الحلبية ، وزريقة أمها » ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم علوة كان لها شأن فى عالم الجمال ، وأن البحترى حين أغرم بعلوة لم يرم فؤادهُ إلا بين يدى فتاة لعوب ، نشأت فى مهد المرح ، وتقلبت فوق أعطاف الدلال . ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير لخلّفوا لنا دُميةً لعلوة ، وأرونا كيف كانت هذه الفتاة التى أضرمت نار الوجد فى صدر الوليد ، وعلّمته كيف تكون الشكوى ، وكيف يكون الأنين ! وإن الشعر لمدين لهذه الإلهة التى أوحت إلى البحترى أن يقول بعد أن خلاَّها بالشام ، وسكن العراق :

أَعِيدِى فِىَّ نَظْرَةَ مُسْتَثِيبٍ ... تَوَخَّى الأَجْرَ أَوْ كَرِهَ الأَثَامَا

تَرَىْ كَبِدًا مُحَرَّقَةً وَعَيْنًا ... مُؤَرَّقَةً وَقَلْبًا مُسْتَهامَا

أُلاَمُ عَلَى هَوَاكِ وَلَيْسَ عَدْلاً ... إِذَا أَحْبَبْتُ مِثْلَكِ أَنْ أُلاَمَا

لَقَدْ حَرَّمْتِ مِنْ وَصْلِى حَلاَلاً ... وَقَدْ حَلَّلْتِ مِنْ هَجْرِى حَرَامَا

تَنَاءَتْ دَارُ عَلْوَةَ بَعْدَ قُرْبٍ ... فَهَلْ رَكْبٌ يُبَلِّغُهَا السَّلاَمَا

وَجَدَّدَ طَيْفُهَا عَتْبًا عَلَيْنَا ... فَمَا يَعْتَادُنَا إِلَّا لِمَامَا

وَرُبَّتَ لَيْلَةٍ قَدْ بِتُّ أُسْقَى ... بِعَيْنَيْهَا وَكَفَّيْهَا الْمُدَامَا

قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَثْمًا وَٱعْتِنَاقًا ... وَأَفْنَيْنَاهُ ضَمًّا وَالْتِزَامَا

لَئِنْ أَضْحَتْ مَحِلَّتُنَا عِرَاقًا ... مُشَرِّقَةً وَحِلَّتُهَا شَآمَا

فَلَمْ أُحْدِثْ لَهَا إِلَّا وِدَادًا ... وَلَمْ أَزْدَدْ بِهَا إِلَّا غَرَامَا

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحترى سلطان . ومن الوقار أن لا نعرض لها فى هذا الحديث ، وقد بسطنا عنها القول فى كتاب « مدامع العشاق » ويكفى أن نذكر أنموذجاً من شعره فى وصف تلك النفس ، وإنه ليقول :

هَلْ لى سَبِيلٌ إِلَى الظَّهْرَانِ مِنْ حَلَبٍ ... وَنَشْوَةٍ بَيْنَ ذَاكَ الْوَرْدِ وَالْآسِ
أَمُدُّ كَفِّى لِأَخْذِ الْكَاسِ مِنْ رَشَإٍ ... وَحَاجَتِى كُلُّهَا فى حَامِلِ الْكَاسِ
دَنَا فَقَرَّبَهَا مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِى ... بِقُرْبِ أَنْفَاسِهِ أَشْفِى الْغَلِيلَ إِذَا

اتصاله بأبى تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحترى من عهد إلى عهد هو اتصاله بأبى تمام أمير الشعراء فى ذلك الحين ، فقد صار إليه وهو بحمْص ، وعرض عليه شعره . وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده ، وعرض عليه شعره . فلما سمع شعر البحترى أقبل عليه وترك سائر الناس . فلما تفرقوا قال له : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه خَلّة ، فكتب إلى أهل مَعَرّة النعمان يشهد له بالحذق ويوصيهم بإكرامه ، قال البحترى « فأكرمونى بكتابه ، ووظفوا لى أربعة آلاف درهم ، فكانت أول مال أصبته » وقال البحترى : أنشدت أبا تمام شيئاً من شعرى ، فأنشدنى بيت أوْس ابن حَجَر :

إذا مُقْرَمٌ مِنَّا ذَرَى حَدُّ نَابِه ... تخمَّط فِينَا نَابُ آخَرَ مُقْرَمِ (١)

وقال : نعيتَ إلىَّ نفسى ! فقلت : أعيذك بالله من هذا ! فقال إن عمرى ليس يطول وقد نشأ لِطَيِّىء مثلك . أما علمت أن خالد بن صفوان المِنْقَرِى رأى شبيب ابن شبّة وهو يتكلم ، وهو من رهطه ، فقال يابنى : نعى نفسى إلىَّ إحسانك فى كلامك ، لأنّا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات مَنْ قبله . قال : فماتَ أبو تمام بعد سنة من هذا .

(١) الفحل المقرم هو الذى أقرمه صاحبه : تركه عن الركوب والعمل وودعه للفحلة وقرمه ، وتخمط الفحل : هدر . ومن المجاز : تخمط الرجل : تغضب وثار . والمراد هنا من تخمط الناب ظهوره وارتفاعه .

وهذه بالطبع وسوسة من أبى تمام ، ولكنها شاهد على حسن رأيه فى شعر البحترى ، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر ، حتى قالوا إنه فى اختياره أبلغ منه فى شعره .

وقال البحترى : أنشدت أبا تمام شعراً لى فى بعض بنى حميد وصلت به إلى مال له خطر ، فقال لى «أحسنت ، أنت أمير الشعراء» بعدى فكان قوله أحب إلىّ من جميع ما حويته .

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبى تمام للبحترى ، فقد نوّه بها ابن رشيق ، وساقها صاحب زهر الآداب ، وهى تدلنا على رأى أبى تمام فى نظم الشعر وذوقه فى اختيار الأوقات ، وتدلنا كذلك على أسلوب البحترى فى حياته الأدبية ، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه . وفيها أيضاً نوع من التربية نحب أن نسجّله فى هذا الحديث .

قال البحترى : كنت فى حداثتى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طبعى ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه ، حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عُبَادَةَ ، تخيّر الأوقات ، وأنت قليل الهموم ، صِفْرٌ من الغموم . واعلم أن العادة جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أوحفظه فى وقت السَّحَر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجّع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، فإذا أخذت فى مديح سيد ذى أياد ، فاشهَرْ مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه وشرف مقامه ، ونضّد المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه : فإن الشهوة نِعْم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين : فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

قال البحترى : فأعملت نفسى فيما قال فوقفت على السياسة (١)

ولهذه الوصية أغراض ، يرجع بعضها إلى رياضة النفس تأهباً للقريض ، ويرجع

---

(١) السياسة هنا حسن التدبير .

بعضها إلى جوهر الفن ، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء ، أوصوا باختيار الأوقات التى تصفو فيها النفس ويلطف الحس ، ويستيقظ الوجدان ، ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية ، والرياض الحالية ، والأماكن الخالية . إلا أن أبا تمام — مع أنه مسبوق — وُفِّق كل التوفيق حين قال «واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين » وهذه كلمة فاصلة فى حياة الفنانين على الإطلاق ، سواء أكانوا شعراء أم كتاباً ، أم مصورين ، أم مثّالين ، لأن الإجادة فى الفنون تتوقف على الشهوة ، وأكاد أحكم بأن الفنان لايبدع ولا يجيد ، إلا إن كان له من فنه معبود جديد .

وأما فيما يرجع إلى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمديح ، وسكت عن بقية الأغراض التى يهتم بها الشعراء ، فلم يتكلم عن الرثاء ، ولا الهجاء ، ولا الفخر ، ولا الوصف . مع أن الوصف من أهم ما يعنى به الشعراء ، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التى تنطبق على كل موضوع إذ قال « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » وهى كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال .

ولا يحسبنّ القارىء أن فى إقبال البحترى على ما أوصاه به أستاذه دليلاً على أن شعر أبى تمام وشعر البحترى من نمط واحد .. كلا ! فان أبا تمام فى وصيته يمثل الأستاذ ، ولا يمثل الشاعر ، لأنا لو حاكمنا شعره إلى وصيته لراعنا ما بين المنزعين من الفرق البعيد ، ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب ، فان أبا تمام لم يتغن بالحسن إلا قليلاً ، وحظه من صدق اللوعة ضئيل .

شخصية شوقى

ومهما يكن من شىء ، فان فى عناية البحترى بوصية أستاذه بياناً لأسلوبه فى رياضة نفسه ، وتهذيب شعره ، فلننظر بهذه المناسبة ، كيف يروض شوقى نفسه ، وكيف يهذب شعره ، وكيف يتناول ما يقصد إلى نظمه من شتى الأغراض ، فقد صحبنا شوقى وعاصرناه ، وهو بحمد الله يعيش معنا فى مدينة واحدة ، وقد نقرأ عليه سينيته فى قصر الحمراء قبل أن نضعها فى الميزان ، وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم .

صاحبْ شوقى إن شئت ، فستراه قليل الحديث ، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع ، لهذا الرجل الصموت ، وقد تصفهُ بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدبين ، ولكنى وقد عرفت شوقى ، أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليلى ، وليلاه هى الشعر ، وهو بالشعر مجنون ، لامغرم ولا مفتون ، فان الغرام والفتنة من أيسر مايعرض لأرباب القلوب .

يحدثك شوقى حديثاً عادياً لا روعة له ، ولكنه لاينفك يدور بنظرته الحائرة وكأنه يبحث عن شىء فى لفائف قلبه ، وحنايا نفسه ، وأعماق ضميره — دخلت عليه ، وهو يتأهب لرثاء عبد اللطيف الصوفانى ، فأخذ يحدثنى عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد ، ثم بغتنى بهذه الكلمة : « الصوفانى بك معضلة من المعضلات ، هو تمثال إخلاص ، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء ؟ » فعرفت أن الرجل فى واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية وأن قلبه ، ونفسه ، وحسه ، ووجدانه فى شغل بما يعدّه لرثاء الصوفانى بك « تمثال الإخلاص » وعرفت أنه لابد أن يقول شيئاً فى تحديد تلك الشخصية ، ثم انتظرت يوم التأبين ، فاذا هو يقول عن أثر الفقيد فى المجالس النيابية :

مَا كَانَ قُسًّا وَلَا زِيَادًا وَلَا بِسِحْرِ البيان جَاءَ
لٰكِنْ إِذَا قَامَ قَالَ صِدْقًا وَجَانَبَ الزُّورَ وَالرِّيَاءَ

وقد وصفهُ الأستاذ خليل مطران وصفاً صادقاً حين قال :

« ينظم بين أصحابه فيكون معهم ، وليس معهم ، وينظم فى المركبة ، وفى السكة الحديدية ، وفى المجتمع الرسمى ، وحين يشاء وحيث يشاء ، ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظريه ، وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بصُرَ به ، وقد رفع يده إلى جبينه ، وأمرَّها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة — فاذا قوطع فى خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه ، جميل البادرة ، كعادته فى الحديث — ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهراً ما تم منه حافظاً لبقية المعنى الذى يضمره ، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما

تمّت ونسيها شهراً ، ثم ذكرها فكتبها فى جلسة واحدة — يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين ، ولا يندر عليه أن يبزهم — ولا يجهد فكره ولا يكده فى معنى أو مبنى ، فأما المعنى فيجيئه على مرامه ، أو على أبعد من مرامه ، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوّار الذكاء ، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب فى لغات الافرنج والأعراب وفلسفة الحقوق ، وحقائق التاريخ ، وغرائب السِّيَر التى يحفظ منها غير يسير ، إلى مشاركات علمية ، وتنبيهات فنية ، استقاها من مطالعته فى صنوف الكتب ، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته فى جولاته بين بلاد الشرق والغرب . وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول : ترى فيه من نسج البحترى ، ومن صياغة أبى تمام ، ومن وثبات المتنبى ، ومن مفاجآت الشريف ، ومن مسلسلات مهيار ، وفى المجموع تجد صفة عامة للنظم ، وهى أنهُ نظم شوقى : ذلك شعر العبقرية والتفوق »

ملامح وصفية

وإذا ذكرنا عادة البحترى وشوقى فى قرض الشعر فلنذكر كذلك أنهما يشتركان فى العناية بالآداب العربية ، فقد ترك البحترى كتاباً سماه «معانى الشعر(١) » وترك كتاباً آخر فى الحماسة كالذى تركه أبو تمام ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات . وشوقى — وإن لم يصنف كتباً فى الآداب — يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف ، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب . ويختلفان فى إنشاد الشعر والإشادة به ، فقد كان البحترى يحتفى بإنشاد شعره ، ويسلك فى ذلك مسلك التلحين والتطريب ، كان يطيل النظر فى وجوه الحاضرين ، ليرى مبلغ إعجابهم به ، وإكبارهم له ، حتى نفر الناس منه ، وعبث به أهل السفه ، وأصحاب المجون . أما شوقى : فقلّما يتحدث عن شعره ، وقلما ينشده ، وإنما يوكل بانشاده من يتوسم فيه حسن الفهم وحسن الأداء . وهذا المسلك ، مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم ، غير مأمون العواقب ، وكثيراً ما آذى الشاعر ، وعاد عليه بالضرر البليغ .

وفاءُ البحترى وشوقى

ولقد كانت الشاعرية ، ولا تزال ، دالة على سموّ النفس ، ويقظة الوجدان

(١) قد يظن أن هذا كتاب فى النقد ، ولكنا نرجح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة على حسب المعانى .

والحوادث هى التى تميز عناصر النفوس ، وقد وقع للبحترى وشوقى من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس ، ومتانة الخلق وكرم العنصر ، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقى ! فلنكتف بهذا التلميح ، ولنذكر ما صيَّر البحترى مثلاً فى الوفاء .

كان المتوكل – كما ذكر صاحب زهر الآداب – عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد ، ثم تغير على المنتصر دون أخويه ، وكان يسميه المنتظر ويقول له : أنت تتمنّى موتى ، وتنتظر وقتى ! ويأمر الندماء أن يعبثوا به إلى أن أوغر صدره ، وأقلّ صبره ، فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ، كان المتوكل يشرب مع الفتح فى قصره المعروف بالجعفرى ومعه جماعة من الندماء والمغنين ، وكان المنتصر معهم ، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل ، قال لزرافة التركى : ألا تسمعنى ساعة حتى أشكو إليك ما يمرُّ بى ؟ قال بلى ، وجعل يماطله ويطاوله ، وغلّق بُغا الشرابى الأبواب كلها إلا باب الماء ، ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل ، وقد ضربوه ضربة قُطع بها حبل عاتقه ، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه ، فقتلا جميعاً ، وبويع المنتصر من ساعته . قال الحصرى « وكانت مدة المنتصر فى الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر » – وللظالم الويل .

كانت هذه القتلة الشنيعة التى تردّى بها خليفة من خلفاء المسلمين ، وكان هذا الخليفة ولى نعمة البحترى ، وكان استبداد المنتصر إذ ذاك كافياً فى ردعه عن رثاء مولاه ، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله : « ما قيلت هاشمية أحسن منها ! وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب » وفيها يقول :

تَغَيَّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِىِّ وَأُنْسُه ... وَقُوِّضَ بَادِى الجَعْفَرِىِّ وَحَاضِرُهْ
تَحَمَّلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً ... فَعَادَتْ سَوَاءً دُورُهُ وَمَقَابِرُهْ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ القَصْرِ إِذْ رِيعَ سِرْبُهُ ... وَإِذْ ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَآذِرُهْ
وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهُتِّكَتْ ... عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهْ

إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الأَسَى وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَبْهَجُ زَائِرُهُ
فَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِى كُلِّ نَوْبَةٍ تَنُوبُ وَنَاهِى ٱلدَّهْرِ فِيهِمْ وَآمِرُهُ
تَخَفَّى لَهُ مُغْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةٍ وَأَوْلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ يُجَاهِرُهْ
صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ حُشَاشَةً يَجُودُ بِهَا وَالمَوْتُ حُمْرٌ أَظَافِرُهْ
حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى
دَمًا بِدَمٍ يَجْرِى عَلَى الأَرْضِ مَائِرُهْ
وَهَلْ يُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ ٱلدَّمَ طَالِبٌ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَالمَوْتُورُ بِالدَّمِ وَاتِرُهْ
فَلاَ مُلِّىَ الْبَاقِى تُرَاثَ الَّذِى مَضَى وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهْ

ونظرةٌ واحدة إلى ما كان يجرى فى تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك أن البحترى كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة ، على أنه لم يقف عند هذا الحد ، بل كان يرتاح فى كثير من شعره إلى ذكر المتوكل والفتح بن خاقان ، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يمدحه :

تَدَارَكَنِى الإِحْسَانُ مِنْكَ وَنَالَنِى عَلَى فَاقَةٍ ذَاكَ النَّدَى وَالتَّطَوُّلُ
وَدَافَعْتَ عَنِّى حِينَ لَا الْفَتْحُ يُرْتَجَى لِدَفْعِ الأَذَى عَنِّى وَلَا الْمُتَوَكِّلُ

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية :

مَضَى جَعْفَرٌ وَالْفَتْحُ بَيْنَ مُوَسَّدٍ وَبَيْنَ قَتِيلٍ فِى ٱلدِّمَاءِ مُضَرَّجِ
أَأَطْلُبُ أَنْصَارًا عَلَى ٱلدَّهْرِ بَعْدَ مَا
ثَوَى مِنْهُمَا فِى التُّرْبِ أَوْسِىٌّ وَخَزْرَجِى

وانظر كيف يقول ، وقد بان بعض من يهوى :

عَسَى آيِسٌ مِنْ رَجْعَةِ الْوَصْلِ يُوصَلُ
وَدَهْرٌ تَوَلَّى بِالأَحِبَّةِ يُقْبِلُ

أَيَا سَكَنًا فَاتَ الْفِرَاقَ بِنَفْسِهِ ... وَحالَ التَّعَادِى دُونَهُ وَالتَّزَيُّلُ
أَتَعْجَبُ لَمَّا لَمْ يَغُلْ جِسْمِىَ الضَّنَى ... وَلَمْ يَخْتَرِمْ نَفْسِى الْحِمَامُ المُعَجَّلُ
فَقَبْلَكَ بَانَ الْفَتْحُ عَنِّى مُوَدِّعًا ... وَفَارَقَنِى شَفْعًا لَهُ الْمُتَوَكِّلُ
فَمَا بَلَغَ الدَّمْعُ الَّذِى كُنْتُ أَرْتَجِى ... وَلَا فَعَلَ الْوَجْدُ الَّذِى خِلْتُ يَفْعَلُ
وَمَا كُلُّ نِيرَانِ الجَوَى تَقْتُلُ الحَشَا ... وَمَا كُلُّ أَدْوَاءِ الصَّبَابَةِ تَقْتُلُ

تلك هى نفس البحترى ، الذى عذبته عَلْوَةُ فى بداية حياته ، وصهَرَهُ الحزن على المتوكل فى أخريات أيامه . وقد عرف القارىء عنه شيئاً فيه بعض الغَنَاء ، وعرف كذلك ما بينه وبين شوقى من الاختلاف والائتلاف ، ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين فى بكاء الممالك ، والتفجع لنكبات الشعوب ، قبل أن يرى كيف وصف البحترى إيوان كسرى ، وكيف وصف شوقى قصر الحمراء .

البحث الخامس عشر

بكاء الممالك عند البحترى وشوقى

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية ، لا اجتماعية ، فكان الشاعر يبكى وجده ونعيمه ، وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول ، ولم يهتمّ العرب ببكاء الممالك ، والتفجع للشعوب ، إذ كانوا فى بداية الحياة ، وكان الرجل منهم قلما يُعنى بغير نفسه ، وأهله ، وذويه ، فكانوا فى شغل بأنفسهم عن بلايا الإنسانية التى تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون .

ثم جاء القرآن فسلك فى الحديث عن الممالك البائدة مسلك التخويف والترهيب ، فلم يعطف عليها بكلمة ، ولم يَسْتُرْ لها عَوْرَة ، لأن القرآن لم يكن كتاب شعر ، يرمى إلى روعة الفن وجمال الخيال ، وإنما كان كتاب حكمة ومَوْعظة ، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة :

« أَوَلَمْ يسِيرُوا فى الْأَرْضِ فَينْظُرُوا كَيْفَ كَان عاقِبَةُ الَّذِين كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثَارًا فى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمْ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وما كَان لَهُمْ مِن اللهِ مِنْ واقٍ : ذٰلِك بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمْ اللهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية ، لكان له شأن غير هذا الشأن ، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس ، ومن إليهم من الجبابرة والطغاة ، فقد

جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة ، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يغيض لو كان القرآن كتاب فنّ وكتاب خيال .

على ان العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة ، ولم يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية ، وإن شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو ، والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب ، فمن ذلك قول الأسْود بن يَعْفُر النّهشلى :

نَامَ الْخَلِيُّ وما أُحِسُّ رُقَادِى ... والْهَمُّ مُحْتَضِرٌ لَدَىَّ وِسَادِى
مِنْ غَيْرِ ما سَقَمٍ ولٰكِنْ شَفَّنِى ... هَمٌّ أَرَاهُ قَدْ أَصابَ فُؤَادِى
ومِنَ الْحَوادِثِ لاَ أَبالَكَ أَنَّنِى ... ضُرِبَتْ علَىَّ الْأَرْضُ بِالْأَسْدادِ
لاَ أَهْتَدِى فِيها لِموضِعِ تَلعَةٍ ... بَيْنَ الْعِراقِ وبيْنَ أَرْضِ مُرادِ
ولَقَدْ عَلِمْتُ سِوى الَّذِى نَبَّأْتَنِى ... أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِى الْأَعْوادِ
إِنَّ المنِيَّةَ والْحُتُوفَ كِلاَهُما ... يُوفِى المَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوادِى
لَنْ يَرْضَيَا مِنِّى وفَاءَ رَهِينَةٍ ... مِنْ دُونِ نَفْسِى طَارِفِى وتِلاَدِى

ثم يقول فى بكاء من ساد من الذاهبين :

ماذَا أُؤَمِّلُ بعْدَ آلِ مُحرِّق ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وبَعْدَ إِيَادِ
أَهْلِ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وبارِق ... والْقَصْرِ ذِى الشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدادِ
أَرْضٌ تَخَيَّرَها لِطِيبِ مَقِيلِهَا ... كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وٱبْنُ أُمِّ دُوَاد
جَرَتِ الرِّياحُ علَى مكَانِ دِيارِهِمْ ... فَكَأَنَّما كَانُوا علَى مِيعادِ
ولَقَدْ غَنوا فِيها بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ ... فى ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

نَزَلُوا بِأَنْقِرةٍ يَسِيلُ علَيْهِمُو ... ماءُ الْفُراتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوادِ
فَإِذَا النَّعِيمُ وكُلُّ مايُلْهَى بِهِ ... يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بِلًى ونَفادِ

ثم عاد إلى بكاء شبابه فقال :

إِمَّا تَرَيْنِى قَدْ بَلِيتُ وغَاضَنِى ... مانِيلَ مِنْ بَصَرِى ومِنْ أَجْلَادِى (١)
وعَصَيْتُ أَصْحابَ الصَّبَابَةِ والصِّبَا ... وأَطَعْتُ عاذِلَتِى ولَانَ قِيَادِى
فَلَقَدْ أَرُوحُ علَى التِّجارِ مُرَجَّلاً ... مَذِلاً بِمالِى لَيِّنًا أَجْيادِى
ولَقَدْ لَهَوْتُ ولِلشَّبابِ لَذَاذَةٌ ... بِسُلافَةٍ مُزِجتْ بِماءِ غَوَادِ
مِن خَمْرِ ذِى نَطَفٍ أَغَنَّ مُنَطَّقٍ ... وافَى بِهَا لِدراهِمِ الأَمْجادِ
يَسْعَى بِهَا ذُو تُومَتَيْنِ مُشَمِّرٌ ... قَنَأَتْ أَنامِلُهُ مِن الْفِرْصادِ
والْبِيضُ يرمِينَ الْقُلُوبَ كَأَنَّهَا ... أُدْحِىُّ بيْنَ صَرِيمةٍ وجمادِ
يَنْطِقْنَ مَعْرُوفًا وهُنَّ نَواعِمٌ ... بِيضُ الْوُجُوهِ رَقِيقَةُ الأَكْبادِ

ونحا هذا المنحى مُتَمِّم بن نُوَيْرة فى عينيته التى يقول فيها :

ولَقَدْ عَلِمْتُ ولاَ محالَةَ أَنَّنِى ... لِلْحادِثَاتِ فَهَلْ تَرَيْنِى أَجْزَعُ
أَفْنَيْن عاداً ثُم آلَ مُحرِّقٍ ... فَتَرَكْنَهُمْ بَدَدًا وما قَدْ جمَّعُوا
ولَهُنَّ كَانَ الحارِثَانِ كِلاَهُما ... ولَهُنَّ كَانَ أَخُو المصَانِعِ تُبَّعُ (٢)

---

(١) الأجلاد : جمع جلد بالتحريك ، وهو القوة .
(٢) المصانع : القصور .

لَابُدَّ مِنْ تَلَفٍ مُصِيبٍ فَانْتَظِرْ ... أَبِأَرْضِ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى تُصْرَعُ
وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرَّةً ... يُبْكَى عَلَيْكَ مُقَنَّعاً لَاتَسْمَعُ

وكذلك نجد فى خطب العرب وأشعارهم شذرات فى التوجع لما انقرض من الممالك والشعوب ، ولكنها لاتمثل الوقفات الفنية التى تُشدُّ إليها الرِّحال ، كوقفة البحترىّ عند رسُوم الإيوان ، ووقفة شوقى عند أطلال الحمراء .

إيوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن إيوان كسرى ، الذى استلم البحترى أحجاره ، وطاف بأركانه ، كان مضرب المثل عند الأعراب ، فقد قيل لأعرابى : كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار ، وانتَعَل كل شئ ظله ؟ فأجاب : وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشى أحدنا ميلاً فَيَرْفَضُّ عَرَقاً كأنه الجمان ، ثم ينصب عصاه ، ويلقى عليها كساءه ، وتقبل الرياح من كل جانب ، فكأنه فى إيوان كسرى.

وقد حُكِىَ فيما نَقَل ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن بَرْمَك فى هَدم الإيوان وإدخال آلته فى عمارة بغداد ، فقال له : لاتفعل يا أمير المؤمنين ! فقال : أبيت إلا التعصب للفرس ! فقال ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين ، ولكنه أثر عظيم يدل على أنملّة وديناً وقوماً أذهبوا مُلك بانية لدينٌ ومُلكٌ عظيمٌ ، فلم يصغ إلى رأيه وأمر بهدمه ، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه فتركه ، فقال خالد : الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه ، لئلا يقال إنك عجزت عن خراب ما عمره غيرك ، ومعلومٌ ما بين الخراب والعمارة !

وقد تكون هذه الحكاية صحيحة ، وقد تكون خُرافة تناقلها الناسُ ، ولكنها على كل حال دليل على منزلة الايوان فى صدور العرب لذلك العهد .

أما قصر الحمراء الذى بكاه شوقى فهو من قصور الأندلس ، والأندلس هى الفردوس المفقود ، الذى يبكيه المسلمون ، ولننتظر فسيحدثنا شوقى عنه أصدق الحديث.

وأريد بنفيسة البحترى ذلك الخاطر الذى استولى عليه حين همّ بوصف الإيوان ، وقد رأيناه يذكر لذلك علتين : إحداهما فى بداية القصيدة ، والثانية فى النهاية ، أما الأولى فهى الهرب من الهموم ، ومن ظلم الأقارب ، بالفزع إلى طُلُول الايوان ، ينسى فى أكنافها حزنه وبثه ، ويستودعها أساه وشَجاه ، وذلك حيث يقول :

صُنْتُ نَفْسِى عمَّا يُدنِّسُ نَفْسِى ... وتَرفَّعْتُ عنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ (١)

وتَماسكْتُ حيْثُ زَعْزَعنِى ٱلدَّهْـ ... ـرُ الْتِماسًا مِنْهُ لِتَعْسِى ونَكْسِى

بُلَغٌ مِنْ صُبابةِ الْعيْشِ عِنْدِى ... طَفَّفَتْهَا الْأَيَّامُ تَطْفِيفَ بخْسِ

وبعِيدٌ ما بيْنَ وارِدِ رِفْــه ... علَلٌ شُرْبُهُ ووارِدِ خِمْسِ (٢)

وكَأَنَّ الزَّمانَ أَصْبَحَ محْمُو ... لاً هَواهُ مع الْأَخَسِّ الْأَخَسِّ

وٱشْتِرائِى الْعِراقَ خُطَّةَ غَبْنٍ ... بعْد بيْعِى الشَّآم بيْعَةَ وكْسِ

لاَ ترُزْنِى مُزَاوِلاً لاخْتِبارى ... عِنْدَ هَذِى الْبَلْوَى فتُنْكِر مَسِّى (٣)

وقَدِيمًا عهِدْتَنِى ذَا هَنَــاتٍ ... آبِياتٍ علَى ٱلدَّنِيئَاتِ شُمْسِ

ولَقَدْ رَابنِى نُبُوُّ ٱبْنِ عمِّى ... بعْد لِينٍ مِنْ جانِبيْهِ وأُنْسِ

وإِذَا ما جُفِيتُ كُنْتُ حرِيًّا ... أَنْ أُرى غَيْرَ مُصْبِحٍ حيْثُ أُمْسِى

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة فقال :

حَضَرَتْ رحْلِىَ الْهُمُومُ فَوجَّهْـ ... ـتُ إِلَى أَبْيضِ المَدائِنِ عَنْسِى

---

(١) الجبس : هو الدنىء الجبان .

(٢) الخمس : شر الأظماء . (٣) لا ترزنى : لا تمتحنى .

أَتَسلَّى عنِ الحُظوظِ وآسَى ... لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ ساسانَ درْسِ
ذَكَّرَ تْنِيهُمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي ... وَلَقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ وتُنْسِي

ونراه فى نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الايوان ، وليست الدار داره ولا الجنس جنسه ، لأن لأهله نُعْمى عند أهله ، ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قُواه ، بما أمدوهم به من الكتائب فى أيام القتال ، وذلك حيث يقول :

عُمِّرَتْ لِلسُّرُور دهْرًا وصارتْ ... لِلتَّعزِّى رِباعُهُمْ والتَّأَسِّى
فَلَهَا أَنْ أُعِينَهَا بِدُمُوعٍ ... مُوقَفَاتٍ علَى الصَّبابةِ حُبْسِ
ذَاكَ عِنْدِي ولَيْستِ الدَّارُ دارى ... بِاقْتِرابٍ مِنْهَا ولَا الْجِنْسُ جِنْسِي
غَيْرَ نُعْمَى لِأَهْلِها عِنْد أَهْلِى ... غَرَسُوا مِنْ ذَكَائِهَا خَيْرَ غَرْسِ
أَيَّدُوا مُلْكَنَا وشَدُّوا قُواهُ ... بِكُماةٍ تَحْتَ السَّنَوَّرِ حُمْسِ (١)
وأَعانُوا علَى كَتَائِبِ أَرْيا ... طِ بِطَعْنٍ علَى النُّحُورِ ودعْسِ
وأَرانِى مِنْ بعْدُ أَكْلَفُ بِالْأَشْرافِ ... طُرًّا مِنْ كُلِّ سِنْخٍ وأُسِّ (٢)

وفى هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالأشراف من كل جنس ، ويبكى المجد الذاهب ، وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب .

نفسية شوقى

أما شوقى فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء ، فترك لنا قطعة منثورة تصف حسه ووجدانه ، وهو يطوف بذلك البيت ، وقد سلك شوقى هذا المسلك غير مرة ، فانا نراه قدم قصيدته فى وصف رومة برسالة بعث بها إلى أستاذنا الخليل إسماعيل بك رأفت ، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للأستاذ مرجليوث قصيدته فى وصف النيل ، وإلى القارىء كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون :

---

(١) السنور : السلاح . (٢) السنخ : الأصل والجنس .

« لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها ، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها ، ورَمّ لهم ربوع السلم وجدد مزارها ، أصبحت وإذا العوادى مقصرة ، والدواعى غير مقصرة ، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب ، والنفس بحق زيارته أطْلب ، فقصدته من برشلونة ، وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجدّ ، والبخار المشتد ، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط ، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط ، فبلغت النفس بمرآه الأرب ، وكحلت العين فى ثراه بآثار العرب ، وإنها لشتى المواقع ، متفرقة المطالع ، فى ذلك الفَلك الجامع ، يسرى زائرها من حَرَم إلى حرم ، كمن يمسى بالكَرْنك ويصبح بالهَرَم ، فلا تقارب غير العتْق والكرم ، طُلَيْطلة تُطل على جسرها البالى ، وأشبيلية تشبل على قصرها الخالى ، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء ، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء ، وكان البحترى رحمه الله رفيقى فى هذا الترحال ، وسميرى فى الرحال ، والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فانه أبلغ من جَلّى الأثر ، وحيَّا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبرَ ، ومن قام فى مأتم على الدول الكُبَر ، والملوك البهَاليل الغُرَر ، عطف على الجعفرىّ حين تحمل عنه الملا ، وعطّل من الحلى ، ووكل بعد المتوكل للبلى ، فرفع قواعده فى السّيَر ، وبنى ركنه فى الخبر ، وجمع معالمه فى الفكر ، حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وإن خلا البَصر ، وتكفل بعد ذلك لكسرى بايوانه ، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه ، وسينيته المشهورة فى وصفه ليست دونه ، وهو تحت كسرى فى رصه ورصفه ، وهى تريك حسن قيام الشعر على الآثار ، وكيف تتجدد الديار فى بيوته بعد الاندثار . قال صاحب (الفيح القسّى فى الفتح القدسى) بعد كلام : « فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحترى فى وصفه ، تجدوا الايوان قد خرت شعَفَاته ، وعُفّرتْ شُرفاته ، وتجدوا سينية البحترى قد بقى بها كسرى فى ديوانه ، أضعاف ما بقى شخصه فى إيوانه » . وهذه السينية هى التى يقول فى مطلعها :

صُنْتُ نَفْسِى عمَّا يُدنِّسُ نَفْسِى ‌‌ ‌‌ ‌‌ ‌‌ وتَرفَّعْتُ عن جَدَا كُلِّ جِبْسِ

والتى اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله :

والمَنَايا مواثِلٌ وأنُـــوشِرْ ‌‌ ‌‌ ‌‌ ‌‌ وانَ يُزْجِى الصُفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ (١)

(١) الدرفس : العلم ، وهى كلمة فارسية ، ومنها جاءت الكلمة الفرنسية :

فكنت كلما وقفت بحجر ، أو طُفْت بأثر ، تمثلت بأبياتها ، واسترحت من مواثل العبر إلى آياتها ، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي :

وعظَ الْبُحْتُرِىَّ إيوانُ كِسْرى ... وشَفتْنِى الْقُصُورُ مِنْ عبْدِشَمْسِ

« ثم جعلت أروض القول على هذا الروىّ ، وأعالجه على هذا الوزن ، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة ، وأتممت هذه الكلمة الريّضة ، وأنا أعرضها على القراء ، راجياً أن يلحظوها بعين الرضاء ، ويسحبوا على عيوبها ذيل الإغضاء » .

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقى ، فهو يسجع ولا يكاد يُبين(١) ، غير أنه قد يوفّق إلى تشابيه مبتكرة تسير مسير الأمثال ، كقوله فى وصف آثار العرب فى بلاد الأسبان :

« يسرى زائرها من حَرَم إلى حَرَم ، كمن يمسى بالكرنك ويصبح بالهرم » .

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل .

وهى كذلك تمثل رأيه فى شعر البحترى : فهو عنده « أبلغ من جَلّى الأثر ، وحيّا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر » وتصور لنا تلك الكلمة ما كان يجول فى نفس شوقى ، وكيف كان روح البحترى يُطيف به وهو يطوف بالحمراء .

ولا ندرى من هم الذين يذكر شوقى أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد من قصيدة البحترى هو قوله :

والمنَايا مواثِــــلٌ وأنُــوشِرْ ... وانَ يُزْجِى الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرفْسِ

وكنا نحب لو تنبه لقوله فى وصف الإيوان :

لَيْس يُدْرَى أَصُنْعُ إنْسٍ لِجِنٍّ ... سكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإِنسِ

وقوله فى بكائه :

لَوْ تَراهُ علِمْتَ أَنَّ اللَّيــالِى ... جَعَلَتْ فِيهِ مأْتَمًا بعْدَ عُرْسِ

ولشوقى رأيه ، فقد يختلف النقد أحياناً باختلاف الأذواق .

---

(١) غضب شوقى رحمه الله من هذه الكلمة ، وكان يرى نفسه أكتب الناس ، ونحن لا نؤمن بقوته الكتابية ، ولكنا مع ذلك نراه بلغ الغاية فى رسالته عن قناة السويس .

البحث السادس عشر

حنين شوقى إلى مصر

قد رأيت فى الكلمة الماضية أن البحترى ابتدأ سينيته بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان ، والتنكر لظلم الأقربين ، وكان ذلك لأن نزعته لم تكن اجتماعية ، وإنما كانت فردية . أما شوقى فقد ابتدأ سينيته بقطعة وجدانية ، تفيض بالحنين إلى مصر ، وتزخر بالشوق إلى النيل ، وهو كأنما يتكلم عن نفسه ، ويحدث الناس عن شجونه ، ولكنه فى الواقع يتوجع لما يعانى وطنه من وطأة الظلم ، ويتفجع لما تقاسى بلاده من قسوة الاضطهاد ، وإنه ليبكى ملاعب شبابه ، وعهود صباه ؛ حين يقول فى مطلع هذه السينية :

اخْتِلافُ النَّهارِ واللَّيْلِ يُنْسِى ... فاذْكُرا لِى الصِّبا وأَيَّامَ أُنْسِى
وصِفَا لِى مُلاوَةً مِنْ شَبابٍ ... صُوِّرَتْ مِنْ تَصوُّراتٍ ومَسِّ
عَصَفَتْ كالصَّبا اللَّعُوبِ ومَرَّتْ ... سِنَةً حُلْوةً ولَذَّةَ خَلْسِ

ثم يأخذ فى الحديث عن مصر فيقول :

وَسَلا مِصْرَ هلْ سلا الْقَلْبُ عنْهَا ... أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمانُ الْمُؤَسِّى
كُلَّما مَرَّتْ اللَّيالِى علَيْهِ ... رقَّ والْعهْدُ فى اللَّيالِى تُقَسِّى
مُسْتَطَارٌ إذا الْبواخِرُ رنَّتْ ... أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عوَتْ بعْد جَرْسِ

ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقى للباخرة قبل أن أنبه القارىء إلى روعة الحسن فى قوله :

وسلا مِصْر هَلْ سلا الْقَلْبُ عنْها ... أَوْ أَسا جُرْحَهُ الزَّمانُ المُؤَسِّى

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالى ، وجعل جرحه فى هوى مصر أعضل من أن يطب له الزمان ، وانظر كيف وصف قلبه حين قال :

كُلَّما مَرَّتِ اللَّيَالِى علَيْـهِ ... رقَّ والْعهْدُ فى الليالِى تُقَسِّى

مُسْتَطَارٌ إِذَا الْبواخِرُ رنَّـتْ ... أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوَتْ بعْدَ جَرْسِ

وهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق ، أو هبّ النسيم ، كما كان يتحدث الأعراب ، وإنما يصف ما يحسه الغريب على شواطىء المحيط . وأين وميض البرق ، وهبوب الريح ، من أصوات البواخر فى غسق الليل ؟ ! — ثم قال :

يا ابْنَةَ الْيمِّ ما أَبوكِ بخِيلٌ ... مالَهُ مُولَعًا بِمنْعٍ وحبْسِ

أَحرامٌ علَى بلابِلِـهِ الدَّوْ ... حُ حلاَلٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

كُلُّ دارٍ أَحقُّ بِالْأَهْلِ إِلاَّ ... فى خَبِيثٍ مِن المذَاهِبِ رِجْسِ

والقارىء يتلقى هذه الأبيات الآن بشىء من الطمأنينة ، أما الذين قرءوها يوم قالها شوقى فلهم فيها رأى ، ومن كان فى ريب من هذا فليذكر الأحكام العرفية ، لا قدّر الله لها رجعة ، ولا كتب لها أوبة ، فقد كنا نتغنى بقول شوقى :

أَحرامٌ علَى بلابِلِهِ الدَّوْ ... حُ حلاَلٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

ثم نتمثل مصر فى صورة الشجرة الوريقة ، نُفرت عنها البلابل المغردة ، ثم صارت مأوى للبوم ، ومقيلاً للغربان ، وكذلك كانت مصر فى ذلك الحين ، فكان شهيد الحرية محمد بك فريد ، يرسل الأمانىّ عساها تقبّل ثرى مصر ، وتنهل من سلسبيل النيل ، ثم لا تجاب له طلبة ، ولا يدنو منه مأمول ، فى حين أن بلاد الفراعنة كانت مفتحة الأبواب لكل أثيم القلب ، وقاح الوجه ، خبيث اللسان ! ! وسيظل قول شوقى :

أَحرامٌ علَى بلاَبِلِهِ ٱلـــدَّوْ حُ حلاَلٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

سيظل هذا البيت مثاراً للشجى والأسى ، حتى تغدو تلك الشجرة ذات الظلال والأفنان ، وهى للبلابل مأوى وللطواويس مقيل . أما قوله :

كُلُّ دارٍ أَحقُّ بِالْأَهْلِ إِلاَّ فى خَبيث مِن المذَاهِبِ رِجْسِ

فهو رمية مسدَّدة فى صدر الظلم ، ونحر الاستبداد ، وسيظل غصة يشجى بها بعض الحلوق ـ ثم قال فى خطاب الباخرة :

نَفَسِى مِرْجَلٌ وقَلْبى شِراعٌ بِهِمَا فى ٱلدُّمُوعِ سِيرِى وأَرْسِى
وٱجْعلِى وجْهَكِ «الْفَنَارَ» ومجْرا كِ يَدَ «الثَّغْرِ» بيْنَ رمْلٍ ومكْسِ
وطَنِى لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عنْهُ نَازَعَتْنى إِلَيْهِ فى الْخُلْدِ نَفْسِى
وهَفَا بِالْفُؤَادِ فى سلْسبِيلٍ ظَمأٌ لِلسَّوادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسِ
شَهِدَ اللهُ لَمْ يَغِبْ عنْ جُفُونِى شَخْصُهُ ساعةً ولَمْ يخْلُ حِسِّى
يُصْبِحُ الفِكْرُ والْمسلَّةُ نَادِيـ ـهِ وبِالسَّرْحة الزَّكِيَّةِ يُمْسِى

وأىّ نفس يمثلها شوقى فى هذا الشعر البديع ، إنه والله يمثل النفس المصرية ، وحسبى أن أقول : النفس المصرية ، وهل فى الدنيا ـ ولولا التقى لأضفت إليها الآخرة ـ وطن خليق بأن يعذَّب فى سبيله أبناؤه مثل وادى النيل ؟

إن الذى يعيش فى مصر ، وله ذوق شوقى وإحساسه ، ليس بكثير عليه أن يقول :

وطَنِى لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْد عنْهُ نَازَعَتْنِى إِلَيْهِ فى الْخُلْدِ نَفْسِى
وهَفاَ بِالْفُؤَادِ فى سلْسبِيلٍ ظَمَأٌ لِلسَّوادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسِ
شَهِد اللهُ لَمْ يغِبْ عن جُفُونِى شَخْصُهُ ساعةً ولَمْ يخْلُ حِسِّى

ولقد كانت مصر ، ولا تزال ، باباً من الفتنة لكل من يمسى وله فيها رأى مُطاع ، وبفضلها يقول فرعون :

« أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ »

ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده ، وهو يشاهد الأهرام : « أبهذه كفر فرعون بربه ! » . فقال له أحد وزرائه : يا أمير المؤمنين إن الله يقول :

« وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ » .

فاذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر إن غلب عليه الضلال .

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة ، وتغرس فيهم من الجبروت ، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك ، ويحبّب إليه العدوان . وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطاً من أسباب الفتنة فى هذه البلاد !

ثم يقول شوقى وهو يتمثل الجزيرة والنيل :

وكَأَنِّى أَرَى الجزيرةَ أيْكًا ... نَغَمَتْ طيرُهُ بأرْخَمِ جَرْسِ

هِىَ بَلْقِيسُ فى الخمائِلِ صرحٌ ... مِنْ عُبَابٍ وَصَاحِبٌ غَيْرُ نِكْسِ

حَسْبُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنِّيلِ عِرْسًا ... قَلْبُهَا لَمْ يُجَنَّ يومًا بِعِرْسِ

لَبِسَتْ بِالأَصِيلِ حُلَّةَ وَشْيٍ ... بَيْنَ صَنْعَاءَ فى الثِّيابِ وقَسِّ (١)

قَدَّهَا النِّيلُ فَاسْتَحَتْ فَتَوارتْ ... مِنْهُ بِالْجِسْرِ بينَ عُرْىٍ ولُبْسِ

وأَرَى النِّيلَ كَالْعَقِيقِ بِوادِيـ ... ـهِ وإِنْ كَانَ كَوْثَرَ الْمُتَحَسِّى

ابْنُ ماءِ السَّماءِ ذُو الموْكِبِ الْفَخْمِ ... الَّذِى يَحْسِرُ الْعُيُونَ ويُخْسِى

لاَ تَرَى فى رِكَابِهِ غَيْرَ مُثْنٍ ... بِجَمِيلٍ أَوْ شَاكِرٍ فَضْلَ غَرْسِ

---

(١) قس : بالفتح موضع بين العريش والفرما من أرض مصر تنسب إليه الثياب القسية .

وهذا خيال وادع جميل ، ولكن شوقى لم يصبر عليه ، بل عاد إلى هجّيراه من النوح على مجد خوفو ورمسيس ، وأخذ يقول :

وأرى الْجِيزَةَ الحزِينَةَ ثَكْلَى ... لَمْ تُفِقْ بَعْدُ مِنْ مَنَاحَةِ رَمْسِى (١)
أَكْثَرَتْ ضَجَّةَ السَّوَاقِى عَلَيْهِ ... وَسُؤَالَ الْيَرَاعِ عَنْهُ بِهَمْسِ
وَقِيَامَ النَّخِيلِ ضَفَّرْنَ شَعْرًا ... وَتَجَرَّدْنَ غَيْرَ طَوْقٍ وَسَلْسِ (٢)
وَكَأَنَّ الْأَهْرَامَ مِيزَانُ فِرْعَوْ ... نَ بِيَوْمٍ عَلَى الْجَبَابِرِ نَحْسِ
أَوْ قَنَاطِيرُهُ تَأَنَّقَ فِيهَا ... أَلْفُ جَابٍ وَأَلْفُ صَاحِبِ مَكْسِ
رَوْعَةٌ فِى الضُّحَى مَلَاعِبُ جِنٍّ ... حِينَ يَغْشَى الدُّجَى حِمَاهَا وَيُغْسِى

وكذلك يحسب شوقى ، وهو يندب مجد الفراعنة ، أن ما فى الطبيعة من ماء ونبات وجماد يبكى معه ذلك الملك الذى بطش به القدر وعدا عليه القضاء . والشاعر حين يرضى يحسب الكون يبتسم لابتسامه ؛ وحين يغضب يحسب الكون يكتئب لاكتئابه ، ولعل هذه السذاجة هى أظرف ما فى الشعراء ؛ إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة ، وكم فى الطفولة من معان تسكن إليها شوارد النفوس .

ثم انتقل شوقى إلى الحديث عن أبى الهول فقال :

وَرَهِينُ الرِّمَالِ أَفْطَسُ إِلَّا ... أَنَّهُ صُنْعُ جِنَّةٍ غَيْرِ فُطْسِ
تَتَجَلَّى حَقِيقَةُ النَّاسِ فِيهِ ... سَبُعُ الْخَلْقِ فِى أَسَارِيرِ إِنْسِى
لَعِبَ الدَّهْرُ فى ثَرَاهُ صَبِيًّا ... وَاللَّيَالِى كَوَاعِبًا غَيْرَ عُنْسِ (٣)
رَكِبَتْ صِيدُ الْمَقَادِيرِ عَيْنَيْهِ ... لِنَقْدٍ وَمِخْلَبَيْهِ لِفَرْسِ

(١) يريد رمسيس . (٢) السلس : من قولهم سلسلت النخلة إذا ذهبت منها أصول السعف.

(٣) عنس : جمع عانس ، وهى الفتاة يطول مكثها فى دار أبيها بعد إدراكها حتى تخرج من عداد الأبكار.

فَأَصَابَتْ بِهِ المَمَالِكَ كِسْرى ... وَهِرَقْلاً والْعبْقَرِىَّ الْفرنْسِى

وهذا أيضاً خيال شعراء ، فهو يتوهم أن المقادير ركبت عينى أبى الهول لنقد الحوادث ، وأعدت مخلبيه لافتراس الطغاة ، ولكن هيهات لما يظن هيهات ، والويل لأمة تنتظر فى خمود حتى يثأر لها قعيد الصحراء !

على أن من الحق أن نبين أن شوقى لم يسق هذه الخرافة ، وهو يحسبها حقيقة ، إنما هو الفن يقضى على صاحبه باستغلال موارد الخيال ، وأبو الهول — رضى الله عنه إن كان ولياً ، وجل جلاله إن كان إلها — معبود قديم طالما قُدِّمت له القرابين ، ولا يزال المصريون يتيمنون بما كان يتيمن به آباؤهم من قبل ، ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه ، كما لا يزال العرب يحسبون حساب السانح والبارح ، أسوة بما كان يفعل آباؤهم الأقدمون ، ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من أساطير الأولين ترينا كيف كان « هداة الأمم » يثيرون ما ركد فيها من العواطف بالإشادة بما عرف لهم من المعبودات ، وعلى هذا المنهج جرى شوقى فسبح بحمد أبى الهول فى جملة من قصائده الطوال ، والشاعر كالخطيب لا تهمه العقول إذا ظفر بالقلوب .

ثم عاد شوقى إلى قلبه ، وقد غمره الحزن ، فأخذ يناجيه بهذا الترجيع الحزين ، وانظر كيف يقول :

يا فُؤَادِى ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرارٌ ... فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجلِى بَعْدَ لَبْسِ

عقلَتْ لُجَّةُ الْأُمُورِ عُقُولاً ... كَانَتِ الحُوتَ طُولَ سبْحٍ وغَسِّ (١)

غَرِقَتْ حيْثُ لا يُصاحُ بِطَافٍ ... أَوْ غَرِيقٍ ولاَ يُصاخُ لِحِسِّ

فَلَكٌ يكْسِفُ الشُّمُوسَ نَهارًا ... ويَسُومُ الْبُدُور لَيْلَةَ وكْسِ

ومواقِيتُ لِلْأُمُورِ إذَا مـا ... بلَغَتْهَا الْأُمُورُ صَارَتْ لِعكْسِ

دُوَلٌ كَالرِّجالِ مُرْتَهَنَــاتٌ ... بِقِيَامٍ مِنَ الجُدُودِ وتَعْسِ

---

(١) الغس : مرادف للسبح .

وَلَيالٍ مِنْ كل ذَاتِ سِوارٍ لطَمَتْ كل رَبِّ رُومٍ وفُرْسِ

سَدَّدَتْ بِالْهِلاَلِ قَوْسًا وَسَلَّتْ خِنْجرًا يَنْفُذانِ مِنْ كلِّ تُرْسِ

حَكَّمَتْ فِى الْقُرُونِ خوفو ودارا وَعفَتْ وَائِلاً وَأَلْوَتْ بِعَبْسِ

أَيْنَ مرْوَانُ فى المَشَارِقِ عَرْشٌ أُمَوِىٌّ وَفى المغَارِبِ كرسِى

وقفة قصيرة

لاحظنا أن شوقى تحدث عن نفسه قليلا فى بداية القصيدة ، ثم اندفع فى الحديث عن شوقه إلى مصر ، وتفجعه لما تقاسى من عاديات الخطوب ، فرأيناه يصور الجزيرة ويمثِّل استحياءها حين قدّها النيل ، ثم رأيناه يذكر أن الجيزة لا تزال فى أثواب الحداد على رمسيس ، وأن السواقى لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والأنين ، وأن النخيل تجردت فى الحزن عليه ، فلم يبق عليها غير الشعور والاطواق ، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبى الهول وعن الأهرام ، ويتخيل أبا الهول قارعة عتيدة لإهلاك الطغاة ، ثم رأيناه وقد عاوده القلق على مصر ولم يقنعه السكون إلى الخيال ، فأخذ يزفر من جديد ويقول :

يافُؤَادِى ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَـرَارٌ فِيهِ يَبْدُو وينْجَلِى بَعْدَ لَبْسِ

وأين هذا القرار ، يا بلبل النيل ! هاته ، هاته ، وخذ من أوراحنا ما تشاء !

ثم شرع يصف القدرَ بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول :

عَقَلَتْ لُجَّةُ الْأُمُورِ عُقُـولاً كَانَتِ الحُوتَ طُولَ سَبْحٍ وغَسِّ

غَرِقَتْ حيْثُ لاَ يُصاحُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيقٍ ولاَ يُصاخُ لِحِسِّ

فَلَكٌ يَكْسِفُ الشُّمُوسَ نَهارًا وَيَسُومُ الْبُدُورَ لَيْلَةَ وَكْسِ

ولم تظفر النفس الإنسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء ، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة ، وهى على جبروتها ألعوبة القدر وأضحوكة القضاء ، ومن ذا الذى وقف على القبر الذى ثوت فيه آمال الأمم المعذبة ، ثمّ جاد عليها بمثل

هذه الدمعة الغالية ، يذرفها مثل شوقى على تلك العقول التى عقلتها لجة الخطوب ، والتى غرقت حيث لا يصاخ لحس ، ولا يصاح بطافٍ أو غريق .

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء ، فقد مهد شوقى لوقفته على أطلالها تمهيداً هو غاية الغايات فى إعداد النفس لبكاء المجد الذاهب ، والملك السليب . والنفس المصرية يذكّرها مجد الفراعنة بمجد العرب ، كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة ، والشجى يبعث الشجى ، وهذا كله قبرُ مالك ، لو يعلم اللائمون !

ولم يصنع البحترى هذا الصنيع ، وإنما حدثنا عما طففت الأيام من صُبابة عيشه ، وما كان من غبنه حين باع الشام واشترى العراق ، وكيف رابه نُبُوُّ ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر ، لين الجانبين ، ثم قال :

حَضَرَتْ رَحْلِىَ الهُمُومُ فَوَجَّهْتُ إِلَى أَبْيَضِ المَــــدائِنِ عَنْسِى

أَتَسَلَّى عَنِ الحُظُوظِ وآسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرْسِ

وهذا هو عين الاقتضاب ، ولا يبعد عندى أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة ، وإن لم يوجد ما يرجّح هذا الظن ، فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة ، ولكن المريب هو أن يزهد البحترى فى حسن التخلص وهو يحبرّ قصيدة من أروع قصائده إن لم تكن أجمل ما قال . وكان من عادته كذلك أن يتخير للبداية ما يمتّ بصلة وثيقة إلى ما سينتقل إليه ، وأشهر ما له فى هذا الأسلوب قصيدته الميمية فى عتاب الفتح بن خاقان ، فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هى أيضاً عتاب ، وذلك حيث يقول :

يَهُونُ عَلَيْهَا أَن أَبِيتَ مُتَيَّمَا أُعَالِجُ شَوْقًا فى الضَّمِيرِ مُكَتَّمَا

وقَدْ جَاوزَت أَرْضَ الْعِـــراقِ وأَصْبَحتْ

حِمَى وَصْلِهَا مُذْ جَاوَرَتْ أَبْرَقَ الْحِمَـى

بَكَتْ حُـرْقَةً عِنْـدَ الْفِـراقِ وأَرْدَفَتْ

سُلُـوًّا نَهَى الْأَحْشَـاءَ أَنْ تَتَضَرَّمَـا

فَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَعْرُوفِهَا غَيْرُ طَائِفٍ
يُلِمُّ بِنَا وَهْنًا إِذَا الرَّكْبُ هَوَّمَا

وفى هذه القصيدة يقول :

وَلَمْ أَعْرِفِ الذَّنْبَ الَّذِى سُؤْتَنِى لَهُ
فَأَقْتُلَ نَفْسِى حَسْرَةً وَتَنَدُّمَا

وَلَوْ كَانَ مَا خُبِّرْتَهُ أَوْ ظَنَنْتَهُ
لَمَا كَانَ غَرْوًا أَنْ أَلُومَ وَتَكْرُمَا

أُذَكِّرُكَ الْعَهْدَ الَّذِى لَيْسَ سُؤْدُدًا
تَنَاسِيهِ وَالْوُدَّ الصَّحِيحَ الْمُسَلَّمَا

أَقِرُّ بِمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَنَصِّلًا إِلَيْكَ عَلَى أَنِّى إِخَالُكَ أَلْوَمَا

لِىَ الذَّنْبُ مَعْرُوفًا وَإِنْ كُنْتُ جَاهِلًا
بِهِ وَلَكَ الْعُتْبَى عَلَىَّ وَأَنْعِمَا

وَمِثْلُكَ إِنْ أَبْدَى الْفَعَالَ أَعَادَهُ وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَّمَا

نقول : إن البحترى لم يؤثر التخلص فى قصيدته السينية ، وإنما آثر الاقتضاب ، ولا كذلك شوقى ، فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك ونكبات الشعوب ، ثم دخل فى الموضوع برفق وهو يقول :

أَيْنَ مَرْوَانُ فِى الْمَشَارِقِ عَرْشٌ أُمَوِىٌّ وَفِى الْمَغَارِبِ كُرْسِى
سَقِمَتْ شَمْسُهُمْ فَرَدَّ عَلَيْهَا نُورَهَا كُلُّ ثَاقِبِ الرَّأْىِ نَطْسِ
ثُمَّ غَابَتْ وَكُلُّ شَمْسٍ سِوَى هَاتِيكَ تَبْلَى وَتَنْطَوِى تَحْتَ رَمْسِ
وَعَظَ الْبُحْتُرِىَّ إِيوَانُ كِسْرَى وَشَفَتْنِى الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

نقرر هذا ، ثم نذكر أن البحترى لا لوم عليه فى أن خلت قصيدته من مثل المقدمة الممتعة التى افتُتحتْ بها قصيدة شوقى ، لأن ظروف البحترى ، وقد ضاق به عيشه ، وظلمه أهله ، غير ظروف شوقى وهو يحاول العودة إلى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان ، وأصلاه أهله نار العقوق ، وهو قد خلّف فى هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه ، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة ، ثم هو لا يدرى إذا عاد أيقرّ قراره فيلقى عصا التسيار ، أم تعصف به وشاية جديدة ، تحمله إلى المنفى من جديد ... ولو كان للبحترى مثل هذا القلب المشرد ، وهو يشد رحاله إلى الإيوان ، لكان له شأن آخر ، ولكانت شكواه مضرب الأمثال ، ولكن الشاعر له « رسالة » يؤديها إلى أهل عصره ، ولا مفر له من أدائها ما دام له قلب ووجدان ، وكانت « رسالة » شوقى حين قال سينيته أن يصف ما يلاقى أهل مصر من الكمد ، وهم يودعون كل يوم فريقاً من أبنائهم الأحرار ، ويستقبلون بالرغم منهم ما يُلقى إليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار ، وكان له فى ذلك هذا البيت الذى يصلح لكل أمة ولكل جيل

أَحَرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ ٱلدَّوْ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

وفى مقابله يقول البحترى ، وهو يتحدث عن نفسه :

وَٱشْتِرَائِى الْعِرَاقَ خُطَّةُ غَبْنٍ بَعْدَ بَيْعِى الشَّآمَ بَيْعَةَ وَكْسِ

ولكن أين هذا من ذاك ؟! وأين قول البحترى فى عنف الدهر وجوره :

وَكَأَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُو لاً هَوَاهُ مَعَ الْأَخَسِّ الْأَخَسِّ

من قول شوقى فى المعنى نفسه :

عَقَلَتْ لُجَّةُ الْأُمُورِ عُقُولاً كَانَتِ الحُوتَ طُولَ سَبْحٍ وَغَسِّ

غَرِقَتْ حَيْثُ لَا يُصَاحُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيقٍ وَلَا يُصَاخُ لِحِسِّ

فإن هذه صورة شعرية نادرة المثال .

ومطلع البحترى :

صُنْتُ نَفْسِى عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِى وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

فيه ضعف وانحلال ، وليس بقاطع الدلالة على الإباء ، وخير منه مطلع شوقى :

اخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِى ... فَاذْكُرَا لِي الصِّبَا وَأَيَّامَ أُنْسِى

وإن كنا لا ندرى بمن يستنجد ، وقد نسى أيام صباه ، ورحم الله ابن الأحنف إذ يقول :

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكِ فَاسْتَعِرْ ... عَيْنًا لِغَيْرِكَ دَمْعُهَا مِدْرَارُ

مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِى بِهَا ... أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلدُّمُوعِ تُعَارُ

ويذكرون أن لُورد كرومر حضر عرساً مصرياً وسمع المغنّى يقول : « حبيبى غاب ، هاتوه لى يا ناس » فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت ووقف على مدلوله قال : « إن المصرى لكسول ، وإنه ليطلب حتى من يعينه على رد محبوبه الغائب » . وكذلك يطلب شوقى من يحدثه عن أيام الأنس فى عهد الشباب ، وإنه لمطاب عجيب !

البحث السابع عشر

بين البحترى وشوقى

ولقد أخذ البحترى : بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن إيوان كسرى ، ويتحدث عن بُناته ، ويعرِّض بسكان القفار من الأعراب ، فيقول :

أَتَسَلَّى عَنِ الْحُظُوظِ وَآسَى ... لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرْسِ
ذَكَّرَتْنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِى ... وَلَقَدْ تُذْكِرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِى
وَهُمُو خَافِضُونَ فِى ظِلِّ عَالٍ ... مُشْرِفٍ يَحْسِرُ الْعُيُونَ وَيُخْسِى
مُغْلَقٌ بَابُهُ عَلَى جَبَلِ الْقَبْـ ... ـقِ إِلَى دَارَتَىْ خِلَاطٍ وَمَكْسِ
حِلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالِ سُعْدَى ... فِى قِفَارٍ مِنَ الْبَسَابِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْلَا الْمُحَابَاةُ مِنِّى ... لَمْ تُطِقْهَا مَسْعَاةُ عُنْسٍ وَعُبْسِ
نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجِـ ... ـدَّةِ حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ
فَكَأَنَّ الْجِرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الْأُنْـ ... ـسِ وَإِخْلَاقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِى ... جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسِ
وَهُوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ ... لَا يُشَابُ الْبَيَانُ فِيهِمْ بِلَبْسِ

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما فى الإيوان من النقوش والتهاويل ،

ولنا إليه عودة ، فلنلاحظ الآن أن البحترى يتحبّس ، وهو يبين عن أثر الإيوان فى نفسه ، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى الفروق ، وترجع هذه الحبسة إلى اتقاء الفتنة ، وكبح ما يجمح عن هذه المقارنة من شهوة التنافر وإثارة الأحقاد ، ولهذا يقول فى هدوء :

حِلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالِ سُعْدَى ... فى قِفَارٍ مِنَ الْبَسَابِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْلَا الْمُحَابَاةُ مِنِّى ... لَمْ تُطِقْهَا مَسْعَاةُ عُنْسٍ وَعُبْسِ

وقد صدق ، وإن جرح الإيوان ، وإلا فما هى أطلال سعدى ، ورسوم ليلى ونُؤى عفراء ! ولم يجد شوقى ما يضطره إلى مثل هذه المواربة ، إذ كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب ، فى بلاد إسلامية مجموعة الأهواء ، ومن هنا نراه يقول فى وضوح وجلاء :

رُبَّ لَيْلٍ سَرَيْتُ وَالْبَرْقُ طِرْفِى ... وَبِسَاطٍ طَوَيْتُ وَالرِّيحُ عَنْسِى
أَنْظِمُ الشَّرْقَ فى (الْجَزِيرَةِ) بِالْغَرْ ... بِ وَأَطْوِى الْبِلَادَ حَزْنًا لِدَهْسِ
فى دِيَارٍ مِنَ الْخَلَائِفِ دَرْسٍ ... وَمَنَارٍ مِنَ الطَّوَائِفِ طَمْسِ
وَرُبًا كَالْجِنَانِ فى كَنَفِ الزَّيْـ ... ـتُونِ خُضْرٍ وَفى ذُرَا الْكَرْمِ طُلْسِ
لَمْ يَرُعْنِى سِوَى ثَرًى قُرْطُبِىٍّ ... لَمَسَتْ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِى
يَا وَقَى اللّٰهُ مَا أُصَبِّحُ مِنْهُ ... وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمَسِّى
قَرْيَةٌ لَا تُعَدُّ فى الْأَرْضِ كَانَتْ ... تُمْسِكُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ وَتُرْسِى
غَشِيَتْ سَاحِلَ الْمُحِيطِ وَغَطَّتْ ... لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شِرَاعٍ وَقَلْسِ
رَكِبَ الدَّهْرُ خَاطِرِى فى ثَرَاهَا ... فَأَتَى ذَلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَدْسِ
فَتَجَلَّتْ لِىَ الْقُصُورُ وَمَنْ فِيـ ... ـهَا مِنَ الْعِزِّ فى مَنَازِلَ قُعْسِ

مَاضَفَتْ قَطُّ فِي المُلُوكِ عَلَى نَذْ   لِ المَعَالِي وَلَا تَرَدَّتْ بِنَجْسِ

ومن الخير أن ندل على الأبيات المختارة هنا وهناك . ونحن نستجيد قول البحترى :

ذَكَّرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي   وَلَقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ وَتُنْسِي

ولِعَجُز هذا البيت مغزى بديع ، ونستجيد كذلك قوله :

نَقَلَ ٱلدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجِـــدَّةِ حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ

فَكَأَنَّ الْجِرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الأُنْـسِ وَإِخْلَاقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ

وفى هذين البيتين دقة وخيال ، وللقارئ أن يتأمل كيف صارت هذه الحلل : « أنضاء لبس » وكيف أمسى الجرماز وكأنه : « بنية رمس » . فأما قوله :

لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي   جَعَلَتْ فيه مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسِ

فهو غاية الغايات فى بكاء المغانى ، يتحكّم فيها البلى ، وتبطش بها أيدى العفاء . ونستجيد قول شوقى :

لَمْ يَرُعْنِي سِوَى ثَرًى قُرْطُبِيٍّ   لَمَسَتْ فيه عِبْرَةَ ٱلدَّهْرِ خَمْسِي

ولمس العبرة من المعانى الدقيقة . وقد بلغ غاية الرفق ، وهو يقول فى تحية هذا الثرى :

يَاوَقَى ٱللهُ مَا أُصَبِّحُ مِنْهُ   وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَاأُمَسِّي

ونستجيد كذلك قوله :

رَكِبَ ٱلدَّهْرَ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا   فَأَتَى ذَلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَدْسِ

يصف تلك البقعة بالدروس ، ويذكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن ركب خاطره الدهر ، ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحدس ، وتلك وثبة من وثبات الخيال .

ثم أخذ البحترى يصف ما فى الإيوان من صور المعارك فقال :

فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا   كِيَّةَ ٱرْتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسِ

وَالْمَنَايَا مَوَاثِلٌ وَأَنُوشِرْ وَانَ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ
فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلَى أَصْفَرَ يَخْتَالُ فِي صَبِيغَةِ وَرْسِ
وَعِرَاكُ الرِّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي خُفُوتٍ مِنْهُمْ وَإِغْمَاضِ جَرْسِ
مِنْ مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلِ رُمْحٍ وَمُلِيحٍ مِنَ السِّنَانِ بِتُرْسِ
تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ءٍ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسِ
يَغْتَلِي فِيهِمُ ارْتِيَابِيَ حَتَّى تَتَقَرَّاهُمُو يَدَايَ بِلَمْسِ

وهذه القطعة من أدق ما قيل فى الوصف ، يذكر أنه شهد فى الإيوان صورة كسرى ، وهو يحاصر أنطاكية وأنك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة الفرس على الروم ، وكيف يرتاع المرء ، وهو يشاهد صورة على الحائط ؟ هذا هو وجه الحسن فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة ، لا يخطر ببالك أنها صورة ، وإنما تحسب لصدق التصوير أنك فى ميدان القتال ، والمنايا مواثل أمامك ، وأنوشروان يزجى الصفوف تحت اللواء . ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثبات ، وما هم عليه من إيثار الخفوت ، بين مُشيح بالرمح ، ومُليح بالسنان ، وانظر كيف يقول :

تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ءٍ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسِ
يَغْتَلِي فِيهِمُ ارْتِيَابِيَ حَتَّى تَتَقَرَّاهُمُو يَدَايَ بِلَمْسِ

فهو يراهم جدّ أحياء ، وإن لم يُسمع لهم صوت ، لأن فى سماتهم ما يدل على اكتفائهم بالإشارة كما يكتفى الخرس ، ثم يعود إلى نفسه فيذكر أنه أمام صورة ، ثم يُغلب على حسه فيرتاب فيما يراه : فيلمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هى أم خيال ! ، والمصور الحاذق هو الذى يُسبغ على صوره أثوابَ الحياة . ولقد أذكر أنى شهدت فى أطلال الفراعنة بالأقصر صورة سمكة ، ولم أكد أملأ منها عينى حتى خلتها تتقلّب ، وكذلك يسحر الفن الجميل .

ولقد نحا شوقى منحى البحترى فى الوصف ، وإن اختلف الموصوف ، فقال وقد تجلت له تلك القصور :

وَكَأَنِّى بَلَغْتُ لِلْعِلْمِ بَيْتًا ... فيه مَالُ الْعُقُولِ من كُلِّ دَرْسِ
قُدُسًا فِى الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا ... حَجَّهُ الْقَوْمُ مِنْ فَقِيهٍ وَقَسِّ
وَعَلَى الْجُمْعَةِ الجَلَالَةُ وَ (النَّا ... صِرُ) نُورُ الخَمِيسِ تَحْتَ الدِّرَفْسِ
يُنْزِلُ التَّاجَ عَنْ مَفَارِقِ (دُونٍ) ... وَيُحَلَّى بِهِ جَبِينَ (الْبرْنِسِ)
سِنَةٌ مِنْ كَرًى وَطَيْفُ أَمَانٍ ... وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجْسِ
وَإِذَا ٱلدَّارُ مَابِهَا مِنْ أَنِيسٍ ... وَإِذَا الْقَوْمُ مَالَهُمْ مِنْ مُحِسِّ
ورَقِيقٍ مِنَ الْبُيُوتِ عَتِيقٍ ... جَاوَزَ الْأَلْفَ غَيْرَ مَذْمُومِ حَرْسِ
أَثَرٌ مِنْ (مُحَمَّدٍ) وَتُرَاثٌ ... صَارَ (لِلرُّوحِ) ذِى الْوَلَاءِ الْأَمَسِّ
بَلَغَ النَّجْمَ ذِرْوَةً وَتَنَاهَى ... بَيْنَ (ثَهْلَانَ) فِى الْأَسَاسِ و (قُدْسِ)
مَرْمَرٌ تَسْبَحُ النَّوَاظِرُ فيــه ... وَيَطُولُ الْمَدَى عَلَيْهَا فَتُرْسِى
وَسَوَارٍ كَأَنَّهَــا فِى ٱسْتِوَاءٍ ... أَلِفَاتُ الْوَزِيرِ فِى عَرْضِ طِرْسِ
فَتْرَةُ ٱلدَّهْرِ قَدْ كَسَتْ سَطْرَيْهَا ... مَا ٱكْتَسَى الْهُدْبُ مِنْ فُتُورٍ وَنَعْسِ
وَيْحَهَا كَمْ تَزَيَّنَتْ لِعَلِيمٍ ... وَاحِدِ الدَّهْرِ وَاسْتَعَدَّتْ لِخَمْسِ
وَكَأَنَّ الرَّفِيفَ فِى مَسْرَحِ الْعَيْـ ... ـنِ مُلَاءٌ مُدَنَّرَاتُ الدِّمَقْسِ
وَكَأَنَّ الآيَاتِ فِى جَانِبَيْهِ ... يَتَنَزَّلْنَ مِنْ مَعَارِجِ قُدْسِ
مِنْبَرٌ تَحْتَ (مُنْذِرٍ) مِنْ جَلَالٍ ... لَمْ يَزَلْ يَكْتَسِيهِ أَوْ تَحْتَ قُسِّ

وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُغْرِيكَ رَيَّا ... وَرْدِهِ غَائِباً فَتَدْنُو لِلَمْسِ

وهذه القطعة على طولها لا تسمو إلى ما وصلت إليه تلك النفثة البحترية من فتنة القلب والوجدان ، ولعل السر فى هذا أن البحترى وجد فى الإيوان صورة الحرب بين الفُرس والروم ، وصورة الحرب تهز النفس ، وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة . أما شوقى فقد وجد بالقصر آيات من القرآن ، لم يذكر أكانت فى وصف الجنة ، أم فى الدعوة إلى القتال ؟ والفن الذى يستمد قوته من الأصول الدينية ، الوادعة الهادئة ، لا يصلح إلا للكهول ، والويل للأمم إذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية ، ولم يستبدّ بها ما فى الشباب من نشاط وجنون .

وما أبعد الفرق بين قول البحترى :

وَالمَنَـايَا مَـوَاثِلٌ وَأَنُوشِرْ ... وَانُ يُزْجِى الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْس

وبين قول شوقى :

وَعَلَى الْجُمْعَةِ الْجَلَالَةُ والنَّا ... صِرُنُورُ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدِّرَفْسِ

وشوقى يصف ما رآه ، فلا لوم عليه ولا تثريب ، وصدق من قال :

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِى أَنْطَقَتْنى رِمَاحُهُمْ ... نَطَقْتُ وَلٰكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

وقد لانجد فى هذا العصر من يسمح بأن توضع فى المساجد والمعابد صور المعارك والحروب . ولم يظلم أحدٌ أهل الشرق ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون : فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية إلى الآخرة ، كما بينا ذلك فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب ، وحيّا الله أولئك الشياطين ، فهم ملائكة هذا الجيل ، وإن رذائل القوة لخير من فضائل الضعف ، لو يعلم الشرقيون .

ولشوقى أن يذكر أن جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة

الملك ،ولم تكن صورة رسمية يستبق إليها طلاب الرزق ، وللرزق أبواب ! ! يدل على هذا قوله :

سِنَةٌ مِنْ كَرًى وَطَيْفُ أَمَانٍ
وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجْسِ

وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنِيسٍ وَإِذَا الْقَوْمُ مَالَهُمْ مِنْ مُحِسِّ

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك ، وما فيه من آثار العقول ، ليس إلا سنة من الكرى ، وطيفاً من الأمانى .

ويعجبنى قوله فى وصف القصر :

مَرْمَرٌ تَسْبَحُ النَّوَاظِرُ فِيهِ وَيَطُولُ المَدَى عَلَيْهَا فَتُرْسِى

وَسَوَارٍ كَأَنَّهَا فى اسْتِوَاءٍ أَلِفَاتُ الْوَزِيرِ فى عَرْضِ طِرْسِ

وإن كان تشبيه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شىء من الضعف إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن إلى الجلال ، والفرق بعيد بين الحسن الفاتن ، والجمال الرائع ، فجمال النهر فى الليالى المقمرة فيه حسنٌ وفتنة ، وفيه أيام السِّرَار ، روعةٌ وجلال .

وقول شوقى :

وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُغْرِيكَ رَيَّا وِرْدِهِ غَائِباً فَتَدْنُو لِلَمْسِ

مأخوذ من قول البحترى :

يَغْتَلِى فِيهِمُ ارْتِيَابِى حَتَّى تَتَقَرَّاهُمُو يَدَاىَ بِلَمْسِ

وبيت البحترى أجود فى معناه ، وهو كذلك يقتضيه السياق ، أما بيت شوقى فهو فى مكانه غريب .

وقول شوقى بعد ذلك الوصف :

صَنْعَةَ (الدَّاخِلِ) المُبَارَكِ فى الْغَرْ بِ وَآلٍ لَهُ مَيَامِينَ شُمْسِ

فيه ضعف ، وكأنه لم يقله إلا على سبيل التكملة ،وما أغنى الشعر عن مثل هذا التذييل ! !

البحث الثامن عشر

الفصل بين البحترى وشوقى

رأينا كيف وصف البحترى ما رآه فى الإيوان من رسم الموقعة بين الفرس والروم ، ونذكر الآن أنه انتقل من ذلك الوصف إلى الحديث عن تلك الكأس الروية التى اصطبح بها فى الإيوان ، فقال :

قَدْ سَقَانِى وَلَمْ يُصَرِّدْ أَبُوالْغَوْ
ثِ عَلَى الْعَسْكَرَيْنِ شَرْبَةَ خلْسِ
مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِىَ نَجْمٌ أَضْوَأَ اللَّيْل، أَوْ مُجَاجَةُ شَمْسِ
وَتَرَاهَا إِذَا أَجَدَّتْ سُرُورًا وَارْتِيَاحًا لِلشَّارِبِ الْمتَحَسِّى
أُفْرِغَتْ فى الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ
فَهِىَ مَحْبُوبَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْسِ
وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى إِبَرْوِيزَ مُعَاطِىَّ وَالْبَلَهْبَذُ أُنْسِى
حُلُمٌ مُطْبِقٌ عَلَى الشَّكِّ عَيْنِى أَمْ أَمَانٍ غَيَّرْنَ ظَنِّى وَحَدْسِى

وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها فى سينية شوقى ، لأن صاحب الشوقيات لم يزر أطلال الحمراء ليغرق همومه هناك فى أكواب الشمول ، كما فعل البحترى وهو يزور الإيوان ،

فكان لنا أن ندرس هذه الأبيات على سبيل الاستطراد ، إذ لا تقتضيها الموازنة ، ولا يدعو إليها التفضيل ، ونحن نستملح قوله :

مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِىَ نَجْمٌ
أَضْوَأَ اللَّيْلِ أَوْ مُجَاجَةُ شَمْسِ

ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شىء من روعة الخيال ، وعجز هذا البيت يشفع لصدره ، وقد تدخل اللفظة فى شفاعة اللفظات ، ويمر البيت فى خلال الأبيات ، كما يقول صاحب زهر الآداب ، وكذلك نستجيد قوله فى وصف تلك الصهباء :

وَتَرَاهَا إِذَا أَجَدَّتْ سُرُورًا ... وَٱرْتِيَاحًا لِلشَّارِبِ الْمُتَحَسِّى
أُفْرِغَتْ فِى الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ
فَهِىَ مَحْبُوبَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْسِ

ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسى إلى المدام ، ثم يخالها أفرغت فى الزجاج من كل قلب ! ولا تنس أنه يقول (من كل قلب) وأنها لذلك (محبوبة إلى كل نفس) فإن لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب الأذواق من علماء المعانى . وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحترى فتوهم — ومن ذا الذى لا يتوهم وهو فى مثل حاله ! — أن كسرى نديمه ، والبلهبذ أنيسه ، وكيف ثاب إلى رشده ، وأخذ يفكر أهو فى حلم أطبق عينيه على الشك ، أم هى أمانٍ غيّرن ظنه وحدسه ! وفى هذا الترديد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب فى رأس المتعقل النشوان .

ثم عاد إلى وصف الإيوان فقال :

وَكَأَنَّ الْإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْـ ... ـعَةِ جَوْبٌ فِى جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ
يَتَظَنَّى مِنَ الْكَآبَةِ أَنْ يَبْـ ... ـدُو لِعَيْنَىْ مُصَبِّحٍ أَوْ مُمَسِّى
مُزْعَجًا بِالْفِرَاقِ عَنْ أُنْسِ إِلْفٍ ... عَزَّ أَوْ مُرْهَقًا بِتَطْلِيقِ عِرْسِ

عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِى وَبَاتَ الْـ مُشْتَرِى فِيهِ وَهْوَ كَوْكَبُ نَحْسِ

فَهْـوَ يُبْدِى تَجَـلُّدًا وَعَلَيْهِ كَلْكَلٌ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِى

لَمْ يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدِّيـ بَاجِ وَاسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدِّمَقْسِ

مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَـهُ شُرُفَاتٌ رُفِعَتْ فِى رُءُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

لَابِسَاتٌ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبْـ صِرُ مِنْهَا إِلَّا فَلَائِلَ بُرْسِ

لَيْسَ يُدْرَى أَصُنْعُ إِنْسٍ لِجِنٍّ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسِ

غَيْرَ أَنِّى أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ يَكُ بَانِيهِ فِى الْمُلُوكِ بِنِكْسِ

وفى هذه القطعة نجد البحترى يتمثل الإيوان فى صورة المحب أترعت الليالى كأسه بأنس أليفه ، ثم أزعجته بالفراق ، والعروس أصفاه الدهر حلاوة الوصل ، ثم أرهقه بالطلاق ، ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعينى من يطالعه عند الصباح ، أو عند المساء ، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليالى ، فأصبح مثار الشجى ، ومبعث الأسى ، بعد أن كان من مرابع الغزلان ، وملاعب الحور الحسان ! ! وانظر كيف يقول :

فَهْـوَ يُبْدِى تَجَـلُّدًا وَعَلَيْهِ كَلْكَلٌ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِى

وفى هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذى صوره البحترى « كائناً حياً » أناخ الدهر عليه بكلكله ، وأراه كيف تكون مضاضة الذل بعد نضارة العزّ ، وكيف يكون العدم بعد الوجود . وللشاعر فى الديار الخالية وقفات تبعث ميت الوجد ، وتثير دفين الإحساس ، فإن كنت فى ريب من ذلك فحدثنى أىّ شيطان ، أو أى ملاك ،

أوحى إلى البحترى : أن الإيوان أصبح – وقد استُلت منه ستور الدمقس وبسط الديباج – شبيهاً بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك من الثياب ، فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حيناً وتغريك بالفتون أحياناً ؟ ونحن نعيذ القارىء أن يرمينا بالغلو والإسراف ، فهذا والله ما نفهمه من قول البحترى :

لَمْ يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدِّيـ
بَاجِ وَاسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدِّمَقْسِ

وكذلك نزع الدهر ما كان بالإيوان من عارض التهاويل ، وخلاّه كالغادة المتجردة لا تدرى أكان تجردها من قسوة الفقر ، أم من سكر الدلال ... وما نريد أن نزيد ! وللقارىء أن يتأمل حسن الأداء فى قوله :

عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِى وَبَاتَ الْـ مُشْتَرِى فِيهِ وهْوَ كَوْكَبُ نَحْسِ

فإنه لم يقل : « بات المشترى فيه كوكب نحس » وإنما قال : « بات المشترى فيه ، وهو كوكب نحس » . وكلمة : « وهو » لها ما لها من الفضل فى تأكيد المعنى وتقريره ، عند علماء المعانى ... وكذلك قوله فيما صارت إليه شرفات الإيوان :

لَابِسَاتٌ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبْـ صِرُ مِنْهَا إِلَّا فَلَائِلَ بِرْسِ

فإن كلمة « من » لها هنا موقع جميل ، وهى أدل على التقليل من التنوين ! ... أما قوله :

لَيْسَ يُدْرَى أَصُنْعُ إِنْسٍ لِجِنٍّ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسِ

فهو من عيون هذه القصيدة ، والعرب ينسبون إلى الجن صنع كل عجيب ، وهى خرافة قديمة ، تزخر بها الأساطير ، وهى كذلك مورد من موارد الخيال – وكان من المستهجن أن يعقب البحترى هذا البيت الفرد بقوله :

غَيْرَ أَنِّى أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ يَكُ بَانِيهِ فِى الْمُلُوكِ بِنِكْسِ

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد ... وقد عاد إلى وصف ما فى الإيوان فقال :

فَكَأَنِّى أَرَى المَرَاتِبَ وَالْقَوْ   مَ إِذَا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّى
وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى   مِنْ وُقُوفٍ خَلْفَ الزِّحَامِ وَخُنْسِ
وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسْطَ المَقَاصِيـ   ـرِ يُرَجِّحْنَ بَيْنَ حُوٍّ وَلُعْسِ
وَكَأَنَّ اللِّقَـاءَ أَوَّلُ مِنْ أَمْـ   ـسِ وَوَشْكُ الْفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسِ
وَكَأَنَّ الَّذِى يُرِيدُ اتِّبَاعًا   طَامِعٌ فِى لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ
عُمِرَتْ لِلسُّرُورِ دَهْرًا وَصَارَتْ   لِلتَّعَزِّى رِبَاعُهُمْ وَالتَّأَسِّى
فَلَهَا أَنْ أُعِينَهَا بِدُمُوعٍ   مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد البحترى فى أعطاف الإيوان . والبحترى بهذا الوصف فنان ، يقول على علم ويعرف ما يعنى ، ولك أن تتأمل كلمة « كأن » وموقعها الجميل فى قوله :

وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى   مِنْ وُقُوفٍ خَلْفَ الزِّحَامِ وَخُنْسِ

وقوله :

وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسْطَ المَقَاصِيـ   ـرِ يُرَجِّحْنَ بَيْنَ حُوٍّ وَلُعْسِ

وقوله :

وَكَأَنَّ اللِّقَـاءَ أَوَّلُ مِنْ أَمْـ   ـسِ وَوَشْكُ الْفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسِ

وقد دللت القارىء على مواطن الحسن فى هذه القصيدة ، فلينهل بعد ذلك من رحيقها كما يشاء .

نفثة شوقى

أما شوقى فقد أخذ يبكى الحمراء بعد وصفها فقال :

مَنْ لِحمْرَاءَ جُلِّلَتْ بِغُبَارِ الدهْـ ـرِ كَالْجُرْحِ بَيْنَ بُرْءٍ وَنُكْسِ
كَسَنَا البَرْقِ لَوْ مَحَا الضَّوْءُ لَحْظًا لَمَحَتْهَا الْعُيُونُ مِنْ طُولِ قَبْسِ
حِصْنُ غِرْنَاطَة وَدَارُ بَنِى الْأَحْـ ـمَرِ مِنْ غَافِلٍ وَيَقْظَانَ نَدْسِ
جَلَلَ الثَّلْجُ دُونَهَا رَأْسَ شِيرى فَبَدَا مِنْهُ فِى عَصَائِبِ بِرْسِ
سَرْمَدٌ شَيْبُهُ وَلَمْ أَرَ شَيْبًا قَبْلَهُ يُرْجِىءُ الْبَقَاءَ وَيُنْسِى
مَشَتِ الحَادِثَاتُ فِى غُرَفِ الْحَمْـ ـرَاءِ مَشْىَ النَّعِىِّ فِى دَارِ عُرْسِ
هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ سُدَّةَ البَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأُنْسِ
عَرَصَاتٌ تَخَلَّتِ الْخَيْلُ عَنْهَا وَاسْتَرَاحَتْ مِنَ احْتِرَاسٍ وَعَسِّ
وَمَغَانٍ عَلَى اللَّيَالِى وِضَاءٌ لَمْ تَجِدْ لِلْعَشِىِّ تَكْرَارَ مَسِّ
لَا تَرَى غَيْرَ وَافِدِينَ عَلَى التَّا رِيخِ سَاعِينَ فِى خُشُوعٍ وَنَكْسِ
نَقَلُوا الطَّرْفَ فِى نَضَارَةِ آسٍ مِنْ نُقُوشٍ وَفِى عُصَارَةِ وَرْسِ
وَقِبَابٍ مِنْ لَازَوَرْدٍ وَتِبْرٍ كَالرُّبَا الشُّمِّ بَيْنَ ظِلٍّ وَشَمْسِ
وَخُطُوطٍ تَكَفَّلَتْ لِلْمَعَانِى وَلِأَلْفَاظِهَا بِأَزْيَنِ لُبْسِ
وَتَرَى مَجْلِسَ السِّبَاعِ خَلَاءً مُقْفِرَ الْقَاعِ مِنْ ظِبَاءٍ وَخُنْسِ
لَا الثُّرَيَّا وَلَا جَوَارِى الثُّرَيَّا يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارَ أُنْسِ

مَرْمَرٌ قَامَتِ الأُسُودُ عَلَيْهِ   كَلَّةَ الظُّفْرِ لَيِّنَاتِ الْمَجَسِّ

تَنْثُرُ المَاءَ فِى الْحِيَاضِ جُمَانًا   يَتَنَزَّى عَلَى تَرَائِبَ مُلْسِ

وفى هذه الكلمة نرى شوقى يتمثل الحمراء ، وهى مجللة بغبار الدهر ، وهذا خيال رائع ، ولكنه ليس بكثير على شوقى ، فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود ، وكلف منذ بعيد بالابانة عن عدوان الحوادث ، والإفصاح عن عسف الخطوب ، ويكاد يستنطق الموت ، وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق .. وانظر كيف يذكر أن الحمراء أصبحت كالجرح بين برء ونكس ، وهذا أصدق تصوير لذلك الأثر الذى يحج إليه أحفاد بُناته ، فيعُدونه ويمنُّونه ، لو تنفع الأمانى ، أو تصدق الوعود ، ومن ذا الذى لم يفكر فى نكبة الحمراء ، ولم يتمنَّ لو يصبح وهو خليفة ابن زياد ؟ ولكن أين فتوة العرب ، وأين شباب الزمان ؟

وللقارىء أن يتصور كيف مشت الحادثات فى غرف الحمراء مشى النعى فى دار عرس ، فهذا أيضاً خيال رائع ، وهو مأخوذ من قول أبى نواس :

فَتَمَشَّتْ فِى مَفَاصِلِهِمْ   كَتَمَشِّى الْبُرْءِ فِى السَّقَمِ

ما لنا ولهذا التكلف ؟ فقد ذكر النقّاد أن أبا نواس كذلك مسبوق ، على أن تشبيه هتك الحوادث لأستار الحمراء بهتك النعى لدار العرس ، أروع من تشبيه أثر الخمر فى مفاصل الندامى بأثر البرء فى جسم السقيم ، وقول شوقى :

مَشَتِ الحَادِثَاتُ فِى غُرَفِ الْحَمْ   رَاءِ مَشْىَ النَّعِىِّ فِى دَارِ عُرْسِ

هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ   سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأُنْسِ

فيه روعة ، وفيه جلال ، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء ، ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان ... أما قوله :

وَتَرَى مَجْلِسَ السِّبَاعِ خَلَاءً   مُقْفِرَ الْقَاعِ مِنْ ظِبَاءٍ وَخُنْسِ

لَا الثُّرَيَّا وَلَا جَوَارِى الثُّرَيَّا يَتَنَزَّلْنَ فِيــهِ أَقْمَارَ أُنْسِ

فهو وصف انفرد به ، ولم يعرض لمثله البحترى ، وكان عجباً أن يغفل عن إيراده ، فإن القصور الخالية تذكّر الإنسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها ويلعب ، من كل ممشوقة القدّ ، مجدولة الخلق ، مصقولة الجبين .

خروج العرب من الجنة

وقد انفرد شوقى كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة ، ولا أعبر بغير ذلك ، فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلك الفردوس ، ويرونه حسبهم من نعيم الآخرة والأولى ، ولقد نظر شوقى إلى خروجهم نظرة مماوءة بالدمع حين قال :

آخِرَ الْعَهْدِ بِالْجَزِيرَةِ كَانَتْ بَعْدَ عَرْكٍ مِنَ الزَّمَانِ وَضَرْسِ
فَتَرَاهَا تَقُولُ : رَايَةُ جَيْشٍ بَادَ بِالْأَمْسِ بَيْنَ أَسْرٍ وَحَسِّ
وَمَفَاتِيحُهَا مَقَالِيــدُ مُلْكٍ بَاعَهَا الْوَارِثُ الْمُضِيعُ بِبَخْسِ
خَرَجَ الْقَوْمُ فِى كَتَائِبَ صُمٍّ
عَنْ حِفَاظٍ كَمَوْكِبِ الدَّفْنِ خُرْسِ
رَكِبُوا بِالْبِحَارِ نَعْشًا وَكَانَتْ تَحْتَ آبَائِهِمْ هِىَ الْعَرْشَ أَمْسِ
رُبَّ بَانٍ لِهَــادِمٍ وَجَمُوعٍ لِمُشِتٍّ وَمُحْسِنٍ لِمُخِسِّ
إِمْرَةُ النَّاسِ هِمَّــةٌ لَا تَأَتَّى لِجَبَانٍ وَلَا تَسَنَّى لِجِبْسِ
وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَــوْمٍ وَهْىُ خُلْقٍ فَإِنَّهُ وَهْىُ أُسِّ

ومع أن شوقى أشار كما ترى فى هذه الأبيات إلى أن ضعف العرب فى أخريات أيامهم كان السبب فى خروجهم من تلك البلاد إذ كانت إمرة الناس لاتتسنى لجبس ، ولا تتأتى لجبان ، فقد أشار كذلك برفق إلى أن عهدهم لم ينقض إلا بعد عَرْك من الزمان

وضَرْس . والحق أن فتح العرب للاندلس كان من الأحداث الخطيرة ، وكان من الطبيعى أن تدور عليهم الدائرة ، وأن يحل بهم ما حل بالفرس والروم . ولا تذكر ما شبّ فى صدورهم من نار العداوة والبغضاء ، ولا ماشجر بينهم على الملك من خلاف ، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات ، ولكن أذكر أنهم كانوا يحتلون بلاداً لايزال أهلها يفكرون فى الحرية ويحلمون بالاستقلال ، والأمة الضعيفة لاتضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الآبدين ، كما يتوهم الفاتحون ، وإنما يظل ضعفها يفتك بالغاصبين فى خفاء ، كما تفتك على ضعفها الجراثيم ، ثم ينتفض هذا الضعف فجأة ، فإذا هو قوة جارفة تسقط من بأسها الممالك ، وتَطيح من هولها العروش . فان كنت فى ريب من ذلك فحدثنى ماذا صنع العرب بالشعوب التى ملكوها باسم الدين ! ألم تثأر تلك الشعوب لنفسها من الدين ؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوساوس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيروه كالخرقة البالية لاتصلح لزينة ، ولا ستر ، ولا وقاية؟ اسمع يا صاح ! القوة هى كل شىء فى الوجود ، والقوة فوق الحق . فإن أردت أن تحيا فتسلّح لهذه الحياة ، والقوة هى السلاح ، ومن قال بغير ذلك فهو فى حاجة إلى استشارة الطبيب !

وكذلك كان العرب ، فقد ركبوا البحر وهم أقوياء ، فكان عرشاً ، وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشاً ، وما تغير البحر ، ولكن تغير الناس ، ركبوه أول مرة وهم فاتحون ، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون ، وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار !

ثم قال شوقى فى توديع تلك الديار :

يَادِيَارًا نَزَلْتُ كَالْخُلْدِ ظِلًّا ... وَجَنًى دَانيًا وَسَلْسَالَ أُنْسِ

مُحْسِنَاتُ الْفُصُولِ لَانَاجِرُ فيهَا ... بِقَيْظٍ وَلَا جُمَادَى بِقَرْسِ

لَا تُحِسّ الْعُيُونُ فَوْقَ رُبَاهَا ... غَيْرَ حُورٍ حُوِّ المَرَاشِفِ لُعْسِ

كُسِيَتْ أَفْرُخِى بِظِلِّكِ رِيشًا ... وَرَبَا فى رُبَاكِ وَٱشْتَدَّ غَرْسِى

هُمْ بَنُو مِصْرَ لَا الجَمِيلُ لَدَيْهِمْ ... بِمُضَاعٍ وَلَا الصَّنِيعُ بِمَنْسِى

مِنْ لِسَانٍ عَلَى ثَنَائِكَ وَقْفٍ ... وَجَنَانٍ عَلَى وَلَائِكَ حَبْسِ

حَسْبُهُمْ هٰذِهِ الطُّلُولُ عِظَاتٍ ... مِنْ جَدِيدٍ عَلَى الدُّهُورِ وَدَرْسِ

وَإِذَا فَاتَكَ الْتِفَاتٌ إِلَى المَا ... ضِى فَقَدْ غَابَ عَنْكَ وَجْهُ التَّأَسِّى

وما أريد الخوض فى تحليل هذه الأبيات ، فقد طال الحديث ، إنما أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقى فى الأندلس . وغنمنا معها « قطعة خشب » من قصر الحمراء تجدها فى متحف الشاب المهذب حسين شوقى . وياليتنا نحرص على ما بقى فى أيدينا من ملك العرب والمسلمين .. !

. . .

وسيذكر القارئ بعد هذا كله أنى أوازن بين البحترى وشوقى ، وسيسأل أيهما أشعر ؟ وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء .

أما أنا فقد حكمت ، والسلام (١) .

---

(١) بمناسبة سينية البحترى يحسن أن نشير إلى أن الشاعر محمد الهراوى وضع قصيدة سينية عن : « ابى الهول » كان فيها معنى المعارضة للبحترى ، وإن لم يقل ذلك ، وهى قصيدة جيدة ، نختار منها قوله :

نبىء الناس يا أبا الهول أنا ... أمة كالحديد صلب المجس

لم يعبنا أنا بلتنا شعوب ... وبلونا الشعوب من كل جنس

كل من ساءنا أذقناه سوءاً ... بيد الله كل كأس بكأس

فاسألوا الروم مادها الروم فينا ... واسألوا الفرس عن مصاب الفرس

أم تلك ذات ناب وضرس ... قد مضغنا ما بين ناب وضرس

فنيت كلها ونحن بقينا ... من حمى الله فى حظيرة قدس

وللهراوى قصيدة أخرى سينية هى بلا شك من وحى البحترى ، وهى قصيدته التى وقف بها على دار الشيخ محمد عبده فى عين شمس ، وكان من الحتم أن نشير إلى ذلك لنبين كيف سرت أنفاس البحترى إلى شعراء هذا الجيل .

البحث التاسع عشر

البوصيرى وشوقى

للبوصيرى قصيدة مشهورة تسمى « البردة » عارضها شوقى بقصيدة سماها « نهج البردة » وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيرى وشوقى من العلم بأسرار الإسلام ، فقد عُنِيَ هذان الشاعران بدرس الشريعة لإظهار ما فيها من المحاسن ، ودرء مايُوجَّه إليها من الشبهات ، وسيكون موقفنا فى درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ ، وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرَّخ الأشخاص . وحسبنا أن ندل القارئ على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة إسلامية ، وللقارئ بعد ذلك رأيه ، فإن شاء مضى فى البحث والتنقيب ، وإن شاء رضى واكتفى بما عليه عامة الناس ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

حياة البوصيرى

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج . كان أحد أبويه من (أبوصير) ، والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبة ، وقيل : (الدلاصيرى) لكنه اشتهر بالبوصيرى ، وكان يعانى صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببلبيس (١) .

والبوصيرى شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع تجرى فى شعره النكت المستملحة . وله فى شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لاتخلو من ذكاء ، وفى شعره وصف للحالة الاجتماعية فى عصره ، وأحسبه من الصادقين ، فهو يذكر أن الموظفين كانوا يسرقون الغلال ، وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمور ،

---

(١) توفى البوصيرى سنة ٦٩٥ هـ ، وله قبر مشهور فى الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية .

وأن من الكتّاب طائفة تنسكت وعُدّت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت ، وتأكل مال الأيتام ، ويذكر أن القضاة خانوا الأمانة ، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث ، ويذكر أن المسلمين والأقباط كانوا مختلفين ، فكان المسلمون يقولون : لنا بمصر حقوق ، ونحن أولى الآخذين ، وكان القبط يقولون : نحن ملوك مصر ، ومَن سوانا هم الغاصبون ، وكان اليهود يستحلّون مال الطوائف أجمعين . وفى ذلك يقول :

نَقَدْتُ طَوائفَ المُسْتَخْدَمينَا ... فَلَمْ أَرَ فِيهِمُو حُرًّا أَمينا

فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فيهِمْ ... مَعَ التَّجْرِيبِ مِنْ عُمْرِى سِنينَا

فَكُتَّابُ الشِّمَالِ هُمُو جَميعًا ... فَلَا صَحِبَتْ شِمَالُهُمُ الْيَمينَا

فَكَمْ سَرَقُوا الغِلَالَ وَمَا عَرَفْنَا ... بِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ سَرَقُوا الْعُيُونَا

وَلَوْلَا ذَاكَ مَا لَبِسُوا حَرِيرًا ... وَلَا شَرِبُوا خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

وَلَا رَبَّوْا مِنَ المُرْدَانِ مُرْدًا ... كَأَغْصَانٍ يَمِلْنَ وَيَنْحَنِينَا

وَقَدْ طَلَعَتْ لِبَعْضِهِمُو ذُقُونٌ ... وَلٰكِنْ بَعْدَ مَا حَلَقُوا ذُقُونَا

وَأَقْلامُ الجَمَاعَةِ جَائِلَاتٌ ... كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِى لَاعِبِينَا

وَقَدْ سَاوَمْتُهُمْ حَرْفًا بِحَرْفٍ ... وَكُلَّ اسْمٍ يَخُطُّوا مِنْهُ سِينَا

أَمَوْلَاىَ الْوَزِيرَ غَفَلْتَ عَمَّا ... يَتِمُّ مِنَ اللِّئَامِ الْكَاتِبِينَا

تَنَسَّكَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وَعُدُّوا ... مِنَ الزُّهَّادِ وَالْمُتَوَرِّعِينَا

وَقِيلَ لَهُمْ دُعَاءٌ مُسْتَجَابٌ ... وَقَدْ مَلَئُوا مِنَ السُّحْتِ الْبُطُونَا

تَفَقَّهَتِ الْقُضَاةُ فَخَانَ كُلٌّ ... أَمَانَتَهُ وَسَمَّوْهُ الأَمِينَا

وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالِ مِصْرٍ سِوَى مِنْ مَعْشَرٍ يَتَأَوَّلُونَا
يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَنَا حُقُوقٌ بِهَا وَلَنَحْنُ أَوْلَى الآخذِينَا
وَقَالَ الْقِبْطُ نَحْنُ مُلُوكُ مِصْرٍ وَإِنَّ سِوَاهُمُو هُمْ غَاصِبُونَا
وَحَلَّلَتِ الْيَهُودُ بِحِفْظِ سَبْتٍ لَهُمْ مَالَ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينَا
وَمَا ابْنُ قُطَيْبَةٍ إِلَّا شَرِيكٌ لَهُمْ فِى كُلِّ مَا يَتَخَطَّفُونَا
أَغَارَ عَلَى قُرَى (فَاقُوسَ) مِنْهُ بِجَوْرٍ يَمْنَعُ النَّوْمَ الْجُفُونَا
وَصَيَّرَ عَيْنَهَا حِملًا وَلٰكِنْ لِمَنْزِلِه وَغَلَّتَهَا خَزِينَا
وَأَصْبَحَ شُغْلُهُ تَحْصِيلَ تِبْرٍ وَكَانَتْ رَاوُهُ مِنْ قَبْلُ نُونَا
وَقَدَّمَهُ الَّذِينَ لَهُمْ وُصُولٌ فَتَمَّمَ نَقْصَهُ صِلَةُ الَّذِينَا
وَفِى دَارِ الْوِكَالَةِ أَىُّ نَهْبٍ فَلَيْتَكَ لَوْ نَهَبْتَ النَّاهِبِينَا
فَقَامَ بِهَا يَهُودِىٌّ خَبِيثٌ يَسُومُ الْمُسْلِمِينَ أَذًى وَهُونَا
إِذَا أَلْقَى بِهَا مُوسَى عَصَاهُ تَلَقَّفَتِ الْقَوَافِلَ وَالسَّفِينَا
وَشَاهِدُهُمْ إِذَا اتُّهِمُوا يُؤَدِّى عَنِ الْكُلِّ الشَّهَادَةَ وَالْيَمِينَا

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة يذكر أنها كانت مشهورة ، وشهرتها فيما نرى لاترجع إلى قيمتها الأدبية لأنها قصيدة ضعيفة يغلب عليها الابتذال ، وإنما ترجع شهرتها إلى ما فيها من التنديد بالموظفين ، والناس يبغضون الموظفين حين يعرفون بالطمع والاستبداد . ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية ، فهى شاهد على اختلاف الطوائف فى مصر وعلى ما كان يجرى إذ ذاك بين المسلمين والنصارى واليهود ، وهى كذلك شاهد على عيوب الادارة فى ذلك الحين .

ومن شعر البوصيرى فيما يجرى مجرى الدعابة قوله فى الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف :

أَهوَى وَالمَشيبُ قَدْ حَالَ دُونَهْ ... وَالتَّصابى بَعْدَ المَشيبِ رُعُونَهْ
أَبَت النَّفْسُ أَنْ تُطيعَ وَقَالَتْ ... إِنَّ حُبِّى لَا يَدْخُل القِنِّينَهْ
كَيْفَ أَعْصِى الْهَوَى وَطِينَةُ قَلْبِى ... بِالْهَوَى قَبْلَ آدَمٍ مَعْجُونَهْ
سَلَبَتْهُ الرُّقَادَ بَيْضَــةُ خِدْرٍ ... ذَاتُ حُسْنٍ كَالدُّرَّةِ المَكْنُونَهْ
سُمْتُهَا قُبْلَةً تُسَرُّ بِهَا النَّفْـ ... ـسُ فَقَالَتْ كَذَا أَكُونُ حَزِينَهْ
قُلْتُ لَابُدَّ أَنْ تَسيرِى إِلَى الدَّا ... رِ فَقَالَتْ عَسَى! أَنَا مَجْنُونَهْ!
قُلْتُ سيرِى فَإِنَّنِى لَكِ خَيْرٌ ... مِنْ أَبٍ رَاحِمٍ وأُمٍّ حَنُونَهْ
أَنَا نِعْمَ الْقَرِينُ إِنْ كُنْت تَبْغِيـ ... ـنَ حَلَالًا وَأَنْتِ نِعْمَ القَرِينَهْ
قَالَتِ اضْرِبْ عَنْ وَصْلِ مِثْلِى صَفْحًا ... وَاضْرِبِ الخَــلَّ أَوْ يَصــيرَ طَحِينَهْ
لَا أَرَى أَنْ تَمَسَّنِى يَدُ شَيْخٍ ... كَيْفَ أَرْضَى بِهِ لِطَشْتِى مِشينَهْ
قُلْتُ إِنِّى كَثيرُ مَالٍ فَقَالَتْ ... هَبْكَ أَنْتَ المُبَارِزُ الْقَارُونَهْ

وهذا أيضاً شعر ضعيف ، ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات مولانا الشيخ رضى الله عنه وأرضاه !

وأظرف من هذه القطعة أبياته التى بعث بها إلى ناظر الشرقية ، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته ، فكتب على لسانها إليه :

يا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِى شَهِدَتْ أَخْلَاقُهُ لِى بِأَنَّهُ فَاضِلْ
مَا كَانَ ظَنِّى يَبِيعُنِى أَحَدٌ قَطُّ وَلَكِنْ صَاحِبِى جَاهِلْ
لَوْ جَرَّسُوهُ عَلَىَّ مِنْ سَفَهٍ لَقُلْتُ غَيْظًا عَلَيْهِ يَسْتَاهِلْ
أَقْصَى مُرَادِى لَوْ كُنْتُ فِى بَلَدِى أَرْعَى بِهَا فِى جَوَانِبِ السَّاحِلْ
وَبَعْدَ هٰذَا فَمَا يَحِلُّ لَكُمْ أَخْذِى لِأَنِّى مِنْ سَيِّدِى حَامِلْ

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات ، وردّ إليه الحمارة ، ولم يكن فيها من الزاهدين !

ونحن نستملح كذلك قصيدته التى بعث بها إلى أحد الوزراء فى شكوى حاله ، وهى قصيدة طريفة ، يذكر فيها أنه فقير ، وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون ، وأنهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد ، وأن امرأته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال ، فأشارت عليها بضربه ، ونتف ذقنه شعرة شعرة . وفى تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير :

إِلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّنَا حَاشَاكَ مِنْ قَوْمٍ أُولِى عُسْرَهْ
فِى قِلَّةٍ نَحْنُ وَلٰكِنْ لَنَا عَائِلَةٌ فِى غَايَةِ الْكَثْرَهْ
أُحَدِّثُ الْمَوْلَى الْحَدِيثَ الَّذِى جَرَى لَهُمْ بِالْخَيْطِ وَالإِبْرَهْ
صَامُوا مَعَ النَّاسِ وَلٰكِنَّهُمْ كَانُوا لِمَنْ أَبْصَرَهُمْ عِبْرَهْ
إِن شَرِبُوا فَالْبِئْرُ زِيرٌ لَهُمْ مَا بَرِحَتْ وَالشَّرْبَةُ الْجَرَّهْ
لَهُمْ مِنَ الْخُبْزِ مَسْلُوقَةٌ فِى كُلِّ يَوْمٍ تُشْبِهُ النَّشْرَهْ
أَقُولُ مَهْمَا اجْتَمَعُوا حَوْلَهَا تَنَزَّهُوا فِى الْمَاءِ وَالْخُضْرَهْ

وَأَقْبَلَ الْعِيدُ وَمَا عِنْدَهُمْ قَمْحٌ وَلَا خُبْزٌ وَلَا فُطْرَهْ
فَارْحَمْهُمُو إِنْ عَايَنُوا كَعْكَةً فِي كَفِّ طِفْلٍ أَوْ رَأَوْا تَمْرَهْ
تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمُو نَحْوَهَا بِشَهْقَةٍ تَتْبَعُهَا زَفْرَهْ
كَمْ قَائِلٍ يَا أَبَتَا مِنْهُمُو قَطَعْتَ عَنَّا الْخُبْزَ فِي كَرَّهْ
مَا صِرْتَ تَأْتِينَا بِفَلْسٍ وَلَا بِدِرْهَمٍ وَرِقٍ وَلَا نُقْرَهْ
وَأَنْتَ فِي خِدْمَةِ قَوْمٍ فَهَلْ تَخْدُمُهُمْ يَا أَبَتِ سُخْرَهْ
وَيَوْمَ زَارَتْ أُمَّهُمْ أُخْتُهَا وَالْأُخْتُ فِي الْغَيْرَةِ كَالضَّرَّهْ
وَأَقْبَلَتْ تَشْكُو لَهَا حَالَهَا وَصَبْرَهَا مِنِّي عَلَى الْعِشْرَهْ
قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النِّسَا كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا عُرَّهْ!
قُومِي اطْلُبِي حَقَّكِ مِنْهُ بِلَا تَخَلُّفٍ مِنْكِ وَلَا فَتْرَهْ
وَإِنْ تَأَبَّى فَخُذِي ذَقْنَهُ أَوِ انْتِفِيهَا شَعْرَةً شَعْرَهْ
قَالَتْ لَهَا مَا هٰكَذَا عَادَتِي فَإِنَّ زَوْجِي عِنْدَهُ ضَجْرَهْ
أَخَافُ إِنْ كَلَّمْتُهُ كِلْمَةً طَلَّقَنِي قَالَتْ لَهَا بَعْرَهْ
وَهَوَّنَتْ قَدْرِي فِي نَفْسِهَا فَجَاءَتِ الزَّوْجَةُ مُجْتَرَّهْ
فَقَاتَلَتْنِي فَتَهَدَّدْتُهَا فَاسْتَقْبَلَتْ رَأْسِي بِآجُرَّهْ
وَحَقُّ مَنْ حَالَتُهُ هٰذِهِ أَنْ يَنْظُرَ الْمَوْلَى لَهُ أَمْرَهْ

وفى هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ، ولا تزال بقاياها موجودة فى بلبيس (١) :

قصيدة البردة

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيّمة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء ، والبوصيرى هو الذى ابتكر هذا النوع ، أو هو الذى بسطه وأطال فيه القصيد ، فان قصائد الكميت بن زيد فى مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذى أكثر منه المولّدون ، وقد مُدح الرسول فى حياته ،مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التى يقول فى أولها :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِى الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ
وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا ... إِلَّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

ومدحه الأعشى بداليته التى يقول فيها :

فَأَقْسَمْتُ لا أَرْثِى لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ ... وَلَا مِنْ وَجًى حَتَّى تُلَاقِى مُحَمَّدَا
نَبِىٌّ يَرَى مَالَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ ... أَغَارَ لَعَمْرِى فِى الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا

ويرتاب الدكتور طه حسين فى قصيدة الأعشى ، ويظنها من وضع الرواة ، وهى على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية ، وكذلك بانت سعاد ، لأن المدح الذى جرى على لسان كعب والأعشى لايزيد شيئاً عن غيره من المدح الذى جرى فى ذلك العهد موجهاً إلى الملوك . أما المدائح النبوية فتمتاز بعدّ شمائل النبى وسرد ما فى الرسالة من المحاسن الباقية ، ودفع ما وصم به الرسول من النقائص والعيوب . وهى فوق هذا كله تقال وتنشد تقرباً إلى الله ، وهى عند الصوفية من جملة الأوراد .

---

(١) ما كتب هنا عن البوصيرى هو أصل ما فى كتاب : « المدائح النبوية ، فى الأدب العربى » . والمؤلف يفلس أحيانا فينقل معانيه من كتاب إلى كتاب ، وهى ليست بسرقة ، لأنها تشبه نقل الدنانير من جيب إلى جيب فى الثوب الواحد ، أليس كذلك ؟ بلى ، أيها المؤلف !

وقد حدثنا البوصيرى عن سبب وضعه للبردة ، فقال : « كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما كان اقترحه على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى فالج أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه فعملتها ، واستشفعت بها إلى الله تعالى فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت . ونمت فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فمسح على وجهى بيده المباركة ، وألقى علىّ بردة فانتبهت ووجدت فىّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ولم أكن أعلمت بذلك أحداً ، فلقينى بعض الفقراء فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت أيها ؟ فقال : التى أنشأتها فى مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بردة . فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام » .

وفى هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيرى ، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة ، كأكثر الصوفية ، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها . أو قصيدة ينشدها ، كما برىء البوصيرى بقصيدته ، ولو مرض مفتى الديار المصرية — لاسمح الله — ما استغنى بالبردة عن الطبيب ! ولعل حكاية البوصيرى هذه هى سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات ، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة ، فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون ! وهذا النوع من الغفلة قديم ، فقد كان الزمخشرى يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن ... ونلاحظ كذلك أن البوصيرى كرر عبارة « صلى الله عليه وسلم » خمس مرات فى هذه الفقرة الصغيرة . وتكرار الصلاة على النبى كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين ، وقد زاد البوصيرى على ذلك فى القصيدة المضرية : فهو يدعو الله أن يصلى على النبى وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر ، وعدد نجم السماء ونبات الأرض ، وعدد وزن مثاقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر ، وما حوت الأشجار من ورق ، وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة وعدد الوحش والطير والأسماك والأنعام ، وعدد الجن والإنس والأملاك ، وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر ، وعدد ما أحاط به العلم المحيط

وما جرى به القلم والقدر ، وعدد نعم الله على الخلائق مذ كانوا ومذ حشروا ، وعدد ما كان فى الأكوان وما يكون إلى يوم البعث . وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد :

فِى كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ يَطْرِفُونَ بِهَا أَهْلُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرَضِينَ أَوْ يَذَرُوا
مِلْءَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرَضِينَ مَعَ جَبَلٍ وَالْفَرْشِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِى وَمَا حَصَرُوا
مَا أَعْدَمَ اللهُ مَوْجُودًا وَأَوْجَدَ مَعْ دُومًا صَلَاةً دَوَامًا لَيْسَ تَنْحَصِرُ
تَسْتَغْرِقُ الْعَدَّ مَعْ جَمْعِ الدُّهُورِ كَمَا تُحِيطُ بِالْحَدِّ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ

وهذا النمط من الصلاة على النبى لم يكن معروفا فى صدر الاسلام وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب « دلائل الخيرات » .

والبردة بعد هذا كله مشهورة فى جميع الأقطار الإسلامية ، وقد كانت جزءاً من الهدية التى قدمها ابن خلدون إلى تيمورلنك ، ولهذه الهدية قيمتها فى تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين .

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقى تذكاراً لحج الخديو السابق سنة ١٣٢٧هـ وقدمها إليه بكلمة صغيرة ، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشرى شرحاً وجيزاً بيناً ، قال فى نهايته : « ولو أن الكاتب عمد إلى كلّ بيت ففسر غريبه ، وفصل مجمله ، وأفشى معناه ، ونزل عند مغازيه ، وعرض على وجوه العربية مفرده ومركبه ، وأرسل الاشارة إلى كلّ ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطالب القصة التى يومأ إليها فيه ، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام ، وغير ذلك مما يجرى فى شرح الكلام ويدخل فى أبواب نقده وتفسيره ، لطال القول وتجاوز القصد » .

وكنا نسمع فى مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشرى لم يشرح نهج البردة ، وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز البشرى ، وهذا كلام نقوله لأهميته فى تاريخ الآداب ، فان شاء الشيخ عبد العزيز أيده وإن شاء نفاه (١) . ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحى ، وهى مقدمة تتناسب مع ما كتبت له ، فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، وأتعب نفسه فى التفرقة بين الشعر وبين القرآن ، ووصل إلى « أن القرآن ليس بشعر ، وما هو من الشعر فى شىء ، وأين هو من الشعر ؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدلّ على معنى ، فأين الوزن ، وأين التقفية ، وأين المعانى التى ينتحيها الشعراء من معانيه ، وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟» ، ثم قال : « فاذن لامناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت » ، وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام فى تحريم الشعر وإباحته مما ينبو عنه الذوق فى القرن العشرين ! !

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيداً للموازنة بين البردة ونهج البردة ، وإنا لنرجو أن يكون فى هذا التمهيد بعض الغَنَاء .

---

(١) غضب الأستاذ عبد العزيز البشرى من هذا الكلام ، وساجلنا فى جريدة البلاغ ، وهو يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح ، ونحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذى كتب ذلك الشرح ، وكان الشيخ سليم رحمه الله غنياً بفضله الحق عن مثل هذا الفضل المفتعل ، ولكن هذا ما وقع . وليت شعرى كيف نطمئن إلى الأخبار الأدبية إذا عز علينا أن نحقق خبراً قامت الشواهد على صحته ، ونحن شهود العصر الذى وقع فيه .

ولهذه القصة تفاصيل يراها القارىء فى كتاب : « أكواب الشهد والعلقم » فليرجع إليها هناك .

البحث العشرون

بين البوصيرى وشوقى والبارودى

ابتدأ البوصيرى قصيدته بالتشبيب ، ونحا شوقى منحاه ، وتلك عادة عربية قديمة ، لم يفكر الشعراء فى تركها إلا فى هذا الجيل ، وإن كان من قدمائهم من نالها بملام ، كالمتنبى إذ يقول :

إذا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ ... أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْراً مُتَيَّمُ ؟

وكان للصوفية شىء من الغزل المستملح المقبول ، فكان مريدوهم يؤولونه ويرونه موجهاً إلى الذات الإلهية ، أو الحضرة النبوية ، ولهم فى ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين ، فليرجع إليها من شاء فى كتب التوحيد ، ليقف على شىء من تصورات أولئك الناس ، فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم من المجون ، وجعلوه نوعا من الرمز والتمثيل ، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية ، وألحقوا ما يجرى بين عشاق الأرواح بما يجرى بين عشاق الأشباح ، إلى آخر ما لهم فى هذا الباب من لطف الاحتيال .

وهذا كله أثر تلك العادة : وهى افتتاح الشعر بالنسيب ، وهى عادة لم يقلع عنها شوقى إلى الآن ، وأظرف ما وقع له فى هذا المسلك قصيدته فى « مشروع ملنر » فقد افتتحها بهذه الأبيات :

اُثْنِ عِنَانَ الْقَلْبِ وَاسْلَمْ بِهِ ... مِنْ رَبْرَبِ الرَّمْلِ وَمِنْ سِرْبِهِ
وَمِنْ تَثَنِّى الْغِيدِ عَنْ بَانِهِ ... مُرْتَجَّةَ الْأَرْدَافِ عَنْ كُثْبِهِ

ظِبَاؤُهُ الْمُنْكَسِرَاتُ الظُّبَا ... يَغْلِبْنَ ذَا اللُّبِّ عَلَى لُبِّهِ

بِيضٌ رِقَاقُ الْحُسْنِ فِى لَمْحَةٍ ... مِنْ نَاعِمِ الدُّرِّ وَمِنْ رَطْبِهِ

ذَوَابِلُ النَّرْجِسِ فِى أَصْلِهِ ... يَوَانِعُ الْوَرْدِ عَلَى قُضْبِهِ

زِنَّ عَلَى الْأَرْضِ سَمَاءَ الدُّجَى ... وَزِدْنَ فِى الْحُسْنِ عَلَى شُهْبِهِ

يَمْشِينَ أَسْرَابًا عَلَى هِينَةٍ ... مَشْىَ الْقَطَا الآمِنِ فِى سِرْبِهِ

مِنْ كُلِّ وَسْنَانَ بِغَيْرِ الْكَرَى ... تَنْتَبِهُ الآجَالُ مِنْ هُدْبِهِ

وهى قصيدة طويلة ، ثلثها فى النسيب . ويذكر شوقى أنه قالها كارها ، ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءاً من المنحة التى اجتداها أنصار المشروع إذ ذاك ! ! وقد رأيت من شعراء العصر مَن يعجب من الحملة التى وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعاً من الرياضة لقرائح الشعراء ، وأذكر أنى رأيت فى كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى ، فقد كان منهم من يرى التوفيق إلى إجادة التشبيب باباً للتوفيق إلى الاجادة فى سائر القصيد . ومهما يكن من شىء فقد سار البوصيرى وشوقى على أثر من تقدمهم من الشعراء ، ولا تقل كان الأدب يقضى بتجنب هذا المنهج فى المدائح النبوية ، فقد شبب كعب بن زهير بمحبوبته وهو فى حضرة الرسول ، فما لامه النبى ، ولا أنكرها عليه أصحابه ، ولا آخذه بها مؤرخو الآداب .

ولنا أن نلاحظ أن البوصيرى جرى فى تشبيبه مجرى المحاكاة والتقليد ، فإنا نراه يقول فى مطلع البردة :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمٍ ... مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ ... وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِى الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

وذو سلم : واد ينحدر عن الذنائب فى أرض بنى البكّاء على طريق البصرة إلى مكة كما ذكر ياقوت ، وفيه يقول كثير :

أَمِن آلِ سَلْمَى دِمْنَةٌ بِالذَّنائِبِ … إلَى المَيْثِ مِنْ رَيْعَانِ ذَاتِ المطَارِبِ
يَلُوحُ بِأَطْرَافِ الأَجِدَّةِ رَسْمُهَا … بِذِى سَلَمٍ أطْلالُهَا كالذَّوَاهِبِ

وكاظمة: جوّ على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة، وفيه يقول بعض الشعراء :

ياحبَّذَا الْبَرْقُ مِنْ أَكْنَافِ كَاظِمَةٍ … يَسْعَى عَلَى قَصَرَاتِ المرْخِ وَالْعُشَرِ
لله دَرُّ بُيُوتٍ كَانَ يَعْشَقُهَا … قَلْبِى وَيَأْلَفُهَا أَنْ طُيِّبَتْ بَصَرِى
فَقَدْتُهَا فَقْدَ ظَمْآنٍ إدَاوَتَهُ … وَالْقَيْظُ يَقْذِفُ وَجْهَ الأَرْضِ بِالشَّرَرِ
أُمْنِيَّةُ النَّفْسِ أَنْ تزْدَارَ ثَانِيَةً … وَحَالُنَا وَالأَمَانِى حُلْوَةُ الثَّمَرِ

وإضم: واد بجبال تهامة، وهو الوادى الذى فيه المدينة، وفيه يقول سلامة ابن جندل :

يَا دَارَ أَسْمَاءَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ إِضَمٍ … بَيْنَ الدَّكادِكِ مِنْ قَوٍّ فَمَعْصُوبِ
كَانَتْ لَهَا مَرَّةً دَارًا فَغَيَّرَهَا … مَرُّ الرِّيَاحِ بِسَافِى التُّرْبِ مَجْلُوبِ

وذكر البوصيرى لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها، ينافى مصريته، وكان له أن يتشوق إلى أحبابه فى بلبيس أو فاقوس، كما يتشوق بعض الناس إلى أحبابه فى سنتريس وأسيوط، ولكن يظهر أن المغانى العربية كانت احتلت رءوس الشعراء، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد، وسلع، وأروند، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق، ولذلك نجد التكلف ظاهراً فى حديث البوصيرى عن جيرانه بذى سلم، ونحسبه اختارها للقافية، كما اختار «إضم» لهذا الغرض، وأين هذا الوجد المتكلّف من قول مَن شُغل عن أروند ببغداد :

وَقَالَتْ نِسَاءُ الحَىِّ أَيْنَ ابْنُ أُخْتِنَا … أَلاَ خَبِّرُونَا عَنْهُ حُيِّيتُمُو وَفْدَا

رَعَاهُ ضَمَانُ اللهِ هَلْ فِى بِلادِكُمْ ... أَخُو كَرَمٍ يَرْعَى لِذِى حَسَبٍ عَهْدَا

فَإِنَّ الَّذِى خَلَّفْتُمُوهُ بِأَرْضِكُمْ ... فَتًى مَلأَ الأَحْشَاءَ هِجْرَانُهُ وَجْدَا

أَبَغْدَادُكُمْ تُنْسِيهِ أَرْوَنْدَ مَرْبَعًا ... أَلَا خَابَ مَنْ يَشْرِى بِبَغْدَادَ أَرْوَنْدَا

فَدَتْهُنَّ نَفْسِى الوَسْمِعْنَ بِمَا أَرَى ... رَمَى كُلَّ جِيدٍ مِنْ تَنَهُّدِهِ عِقْدَا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق إلى تلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول ، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة وتقليداً ، ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية ، وحن إلى مغنى من مغانى النيل (١) ، ... ولم يتقيّد شوقى بهذا القيد حين قال :

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ ... أَحَلَّ سَفْكَ دَمِى فى الأَشْهُرِ الحُرُمِ

وإنما أطلق نفسه من ربقة التقليد ، فلم يتحدث عن نجد ، ولا عن تهامة ، وإن غلبت عليه بعض الأخيلة العربية ، فان سفك الدم فى الأشهر الحُرم بقية من خيال الأعراب ، فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف ، ويظلون لا عاصم لهم من فتاك العيون .

ولم يوفَّق البوصيرى إلى حسن الأداء حين قال :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمِ ... مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

فان قوله : « جرى من مقلة » حشو لا قيمة له ، ولا وجه لما يقوله بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد ، فانه لم يشكّ أحد فى أن الدم يجرى من العين .

ومن رجال الأدب من لا تروقه كلمة « على القاع » فى قول شوقى :

« ريم على القاع بين البان والعلم »

---

(١) فى كتاب (المدائح النبوية) توجيه لكلام البوصيرى فارجع إليه هناك .

أما قوله :

« أَحل سفك دمى فى الأَشهر الحرم »

ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع ، وفيه براعة استهلال ، وهو كذلك غاية فى حسن الأداء .

وقول البوصيرى :

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ ٱكْفُفَا هَمَتَا ... وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ ٱسْتَفِقْ يَهِمِ

فيه ضعف وابتذال ، وهو غير موصول بسابقيه ، وقد انتقل قبل أن يتم المعنى فقال :

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ ... مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمِ

لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ ... وَلَا أَرِقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ

وقد حار الشرّاح فى ربط هذه الأبيات .

وقد يُستجاد قوله :

فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدَتْ ... بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ

وَأَثْبَتَ الْوَجْدُ خَطَّىْ عَبْرَةٍ وَضَنًى ... مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالْعَنَمِ

وشوقى أبرع من البوصيرى فى الحديث عن طيف الخيال . فانا نجد البوصيرى يقول :

نَعَمْ سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِى ... وَالحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالأَلَمِ

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى . أما شوقى فقد أفصح عن مراده حين قال :

يَا نَاعِسَ الطَّرْفِ لَا ذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا

أَسْهَرْتَ مُضْنَاكَ فى حِفْظِ الْهَوَى فَنَمِ

أَفْدِيكَ أَلْفًا وَلَا آلُو الْخَيَالَ فِدًى
أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ

سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَامِيًا فَأَسَا ‏ ‏ وَرُبَّ فَضْلٍ عَلَى الْعُشَّاقِ لِلْحُلُمِ

والفرق بعيد بين قول البوصيرى :

« نعم سرى طيف من أهوى فَأَرَّقَنِى »

وبين قول شوقى :

« سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دامِيًا فأسا »

وشوقى يجيد هذا النوع من الترتيب ، وهو صاحب هذا البيت البديع :

نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ ‏ ‏ فكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ (١)

وقول شوقى « ورب فضل على العشاق للحلم » أرفق من قول البوصيرى :
« والحب يعترض اللذات بالألم » — أما قول شوقى :

يَا نَاعِسَ الطَّرْفِ لَاذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا
أَسْهَرْتَ مُضْنَاكَ فى حِفْظِ الْهَوَى فَنَمِ

فهو عندى أغزل بيت قاله المحدثون ... وفى قوله :

أَفْدِيكَ أَلْفًا وَلَا آلُو الْخَيَالَ فِدًى ‏ ‏ أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ

صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب : فهو يغرى المحبوب بالبخل ، ويغرى طيفه بالجود ، وسماحة الطيف باب إلى اضطرام الفؤاد .

---

(١) نقدنا هذا البيت فى بعض مؤلفاتنا فقلنا : انه نظرة سينمائية ، ولكن قد يتفق أحياناً أن تتلاقى القلوب بأسرع من ذلك ، وللقلوب وثبات أسرع من البرق .

ويقول البوصيرى فى مدافعة اللائمين :

يَالَائِمِى فى الْهَوَى الْعُذْرِىّ مَعْذِرَةً ... مِنِّى إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

ويقول شوقى :

يَالَائِمِى فى هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدَرٌ ... لَوْ شَفَّكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلُمِ

وبيت شوقى أجمل ، وقوله : « الهوى قدر » من أبدع ما قيل فى دفع العذل والملام(١) .

أما قوله : « لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم » فهو أجود فى معناه من قول الشريف الرضىّ :

أَقُولُ لِلَائِمِ الْمُهْدِى مَلَامَتَهُ ... ذُقِ الْهَوَى وَإِنِ اسْطَعْتَ الْمَلَامَ لُمِ

ومن قول ابن الفارض :

دَعْ عَنْكَ تَعْنِيفِى وَذُقْ طَعْمَ الْهَوَى ... فَإِذَا عَشِقْتَ فَبَعْدَ ذٰلِكَ عَنِّفِ

ولكن البوصيرىّ كان أرقّ ، وهو يحاور اللائم بقوله :

عَدَتْكَ حَالِىَ لَا سِرِّى بِمُسْتَتِرٍ ... عَنِ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِى بِمُنْحَسِمِ

أما شوقى فقد غلبت عليه الحكمة ، وهو يقول فى حوار لائمه :

لَقَدْ أَنَلْتُكَ أُذْنًا غَيْرَ وَاعِيَةٍ ... وَرُبَّ مُنْتَصِتٍ وَالْقَلْبُ فى صَمَمِ

وشوقى يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة ، وتلك إحدى سماته ، ولكنها قد تزحزحه عن إصابة الغرض فى بعض الأحيان ، على أن من الحق أن نذكر أن شوقى

---

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال إن هذا المعنى مسروق من الأغنية البلدية :

« وعد ومكتوب على ومقدر عالجبين »

ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقى « والهوى قدر » .

يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه ، فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل أذناً غير واعية ، وقلباً غير سميع ، ولا كذلك البوصيرى فقد جعل الوجد داء تُرجَى منه السلامة ، ووصف لائمه بنصح الحبيب حين قال :

مَحَّضْتَنِى النُّصْحَ لٰكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ
إِنَّ المُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فى صَمَمِ

إلى هنا فرغ البوصيرى من النسيب ، فلنقف قليلا عند المعانى التى انفرد بها شوقى ، وإنا لنستجيد قوله :

رَمَى الْقَضَاءُ بِعَيْنَىْ جُوذَرٍ أَسَدًا   ياساكِنَ الْقَاعِ أَدْرِكْ ساكِنَ الأَجَمِ

وهذا معنى قديم ، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمى به القضاء ، فهو لا يذكر أن الجؤذر رماه ، وإنما يذكر أن القضاء رماه بعينى جؤذر ، والقضاء خبير بأنواع النصال !

وقد بلغ غاية الرفق فى قوله :

لَمَّا رَنا حَدَّثَتْنى النَّفْسُ قَائِلَةً
يَاوَيْحَ جَنْبِك بِالسَّهْمِ المُصِيبِ رمى

جَحَدْتُها وَكَتَمْتُ السَّهْمَ فِى كَبِدِى
جُرْحُ الأَحِبَّةِ عِنْدِى غَيْرُ ذِى أَلَمِ

رُزِقْتَ أَسْمَحَ مَا فى النَّاسِ مِنْ خُلُقٍ
إذا رُزقت الْتِمَاسَ الْعُذْرِ فى الشِّيَمِ

والبيت الأخير يمتّ إلى ماقبله بصلة ضعيفة ، لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن

تُعد من جملة الذنوب ، والذى يكتم جرح الحب لايصفح لمحبوبه عن جناية ، فما هذا المن على الجمال !

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبى :

إن كان سَرَّكُمُو مَاقَالَ حَاسِدُنا
فَمَا لِجُرْحٍ إذا أَرْضاكُمُو أَلمُ

ثم أخذ شوقى يصف هذا السرب الذى صحب حبيبته فقال :

مِنَ المَوَائِسِ بانًا بِالرُّبَا وَقنًا
اللَّاعِبَاتِ بِرُوحِى السَّافِحَاتِ دَمِى

السَّافِرَاتِ كأَمْثالِ الْبُدُورِ ضُحًى
يُغِرْنَ شَمْسَ الضُّحَى بِالْحَلْىِ وَالْعِصَمِ

الْقَاتِلَاتِ بِأَجْفَانٍ بِهَا سَقَمٌ
وَلِلْمَنِيَّةِ أَسْبَابٌ مِنَ السَّقَمِ

الْعَاثِرَاتِ بِأَلْبَابِ الرِّجَالِ وَمَا
أُقِلْنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فى الرَّسَمِ

المُضْرِمَاتِ خُدُودًا أَسْفَرَتْ وَجَلَتْ
عَنْ فِتْنَةٍ تُسْلِمُ الْأَكْبَادَ لِلضَّرَمِ

الحَامِلَاتِ لِوَاءَ الحُسْنِ مُخْتَلِفًا
أَشْكَالُهُ وَهُوَ فَرْدٌ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

مِنْ كُلِّ بَيْضَاءَ أَوْ سَمْرَاءَ زُيِّنَتَا
لِلْعَيْنِ وَالحُسْنُ فى الآرَامِ كَالْعِصَمِ

يُرَعْنَ لِلْبَصَرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبٍ
إِذَا أَشَرْنَ أَسَرْنَ اللَّيْثَ بِالْعَنَمِ

وَضَعْتُ خَدِّي وَقَسَّمْتُ الْفُؤَادَ رُبًا
يَرْتَعْنَ فِي كُنُسٍ مِنْهُ وَفِي أَكَمِ

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل ، وأستملح منها قوله :

الْعَاثِرَاتِ بِأَلْبَابِ الرِّجَالِ وَمَا أُقِلْنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ

فقد جعلهن يمشين على القلوب ، فيعثرن بقلب بعد قلب ، وإن لم يسلمن من عثرات الدلال ، وهن يتخطرن فى الضحى ، وعند الأصيل ...

وأستجيد كذلك قوله :

يُرَعْنَ لِلْبَصَرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبٍ
إِذَا أَشَرْنَ أَسَرْنَ اللَّيْثَ بِالْعَنَمِ

فقد وصفهن بالخفر والحياء ، وذكر أنهن يُرَعْنَ حين تسمو إليهن العين ، والسحر كل السحر فى الحسن الحذِرِ الهيُوب ، وكان من العجب أن يأسر هؤلاء الخفرات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب ... وما أروع قوله بعد ذلك فى خطاب محبوبته :

يَابِنْتَ ذِي اللِّبَدِ الْمَحْمِيِّ جَانِبُهُ
أَلْقَاكِ فِي الْغَابِ أَمْ أَلْقَاكِ فِي الْأُطُمِ

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنَّ مَسْكَنُهُ
أَنَّ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخِيَمِ (١)

---

(١) يرى الدكتور طه حسين أن أخيلة شوقى خلت من الصبغة المصرية وهو يتكلم عن البان والعلم ، ومضرب الخيم ، وأن قوله « يابنت ذى اللبد » يذكرنا بقول ابن هانىء :

يا بنت ذى السيف الطويل نجاده أكذا يجوز الحكم فى ناديك

مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرٍ
وَأَخْرَجَ الرِّيمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرِمِ

بَيْنِي وبَيْنَكِ مِنْ سُمْرِ الْقَنَا حُجُبٌ
وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عُذْرِيَّةُ الْعِصَمِ

لَمْ أَغْشَ مَغْنَاكِ إلَّا فِي غُضُونِ كَرًى
مَغْنَاكِ أَبْعَدُ لِلْمُشْتَاقِ مِنْ إِرَمِ

وفى هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذى تحوكه الطبيعة ، وإنها لصناع ! ومن ذا الذى لم يفكر فى الرجل يقطر من جوانبه البأس ، وتعبس الدنيا حين يعبس ، ويثور الوجود حين يثور ، وفى بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها وحيائها ظبيةً تثنى أو غُصْناً يَميد .

وقول شوقى :

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنَّ مَسْكَنُهُ
أَنَّ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخِيَمِ

مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرٍ
وَأَخْرَجَ الرِّيمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرِمِ

أجود فى معناه من قول الطغرائى :

إِنِّى أُرِيدُ طُرُوقَ الحَىِّ مِنْ إِضَمٍ
وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاةٌ مِنْ بَنِى ثُعَلِ

يَحْمُونَ بِالْبِيضِ وَالسُّمْرِ اللِّدَانِ بِهِ
سُود الْغَدَائِرِ حُمْرَ الحَلْى وَالْحُلَلِ

وإنما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التى سجل بها شوقى عجبه من أن يَنْبُتَ الغصن من السيف الذكر ، ويخرج الريم من الضرغامة القرم !

وقول شوقى :

بَيْنِى وَبَيْنَكِ مِنْ سُمْرِ الْقَنَا حُجُبٌ
وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عُذْرِيَّةُ الْعِصَمِ

لَمْ أَغْشَ مَغْنَاكِ إِلَّا فِى غُضُونِ كَرًى
مَغْنَاكِ أَبْعَدُ لِلْمُشْتَاقِ مِنْ إِرَمِ

أصرح فى معناه وأجود من قول الطغرائى :

نَؤُمُّ نَاشِئَةً بِالْجَزْعِ قَدْ سُقِيَتْ
نِصَالُهَا بِمِيَاهِ الْغُنْجِ وَالْكَحَلِ (١)

قَدْ زَادَ طِيبَ أَحَادِيثِ الْكِرَامِ بِهَا
مَا بِالْكَرَائِمِ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ بُخْلِ

تَبِيتُ نَارُ الْهَوَى مِنْهُنَّ فِى كَبِدٍ
حَرَّى وَنَارُ الْقِرَى مِنْهُمْ عَلَى الْقُلَلِ

يَقْتُلْنَ أَنْضَاءَ حُبٍّ لَا حَرَاكَ بِهِمْ
وَيَنْحَرُونَ كِرَامَ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ

(١) الغنج : حلاوة العينين .

قصيدة البارودى

ونريد أن نُلِمَّ إلمامة قصيرة بقصيدة البارودى التى سماها « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » وهى ميمية طويلة ضمنها سيرة النبى عليه الصلاة والسلام من حين مولده إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه ، وبناها كما قال على سيرة ابن هشام . والبارودى شاعر فحل ، يعتز به تاريخ الأدب فى مصر ، وقد نوازن بينه وبين أبى فراس . ولم نفكر فى الموازنة بينه وبين البوصيرى لأنا لم نتأكد من أنه رمى إلى معارضته ، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارىء نماذج من قصيدة (كشف الغمة) فى المواطن التى يعرض لمثلها البوصيرى وشوقى ، ليكون الموضوع أوفى ، وليجد القارىء فى تعدد الصور الشعرية مجالاً للنقد والتمييز . . . فلنذكر الآن ما بدأ به البارودى قصيدته من النسيب قال :

يارَائِدَ البَرْقِ يَمِّمْ دَارَةَ الْعَلَمِ
وَاحْدُ الْغَمَامَ إِلَى حَىٍّ بِذِى سَلَمِ

وَإِنْ مَرَرْتَ عَلَى الرَّوْحَاءِ فَامْرِ لَهَا
أَخْلَافَ سَارِيَةٍ هَتَّانَةِ الدِّيَمِ

مِنَ الْغِزَارِ اللَّوَاتِى فى حَوَالِبِهَا
رِىُّ النَّوَاهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمِ

إِذَا اسْتَهَلَّتْ بِأَرْضٍ نَمْنَمَتْ يَدُهَا
بُرْدًا مِنَ النَّوْرِ يَكْسُو عَارِىَ الْأَكَمِ

تَرَى النَّبَاتَ بِهَا خُضْرًا سَنَابِلُهُ
يَخْتَالُ فى حُلَّةٍ مَوْشِيَّةِ الْعَلَمِ

أَدْعُو إِلَى الدَّارِ بِالسُّقْيَا وَبِي ظَمَأٌ
أَحَقُّ بِالرِّيِّ لٰكِنِّي أَخُو كَرَمِ

مَنَازِلٌ لِهَوَاهَا بَيْنَ جَانِحَتِي   وَدِيعَةٌ سِرُّهَا لَمْ يَتَّصِلْ بِفَمِي

إِذَا تَنَسَّمْتُ مِنْهَا نَفْحَةً لَعِبَتْ
بِيَ الصَّبَابَةُ لِعْبَ الرِّيحِ بِالْعَلَمِ

أَدِرْ عَلَى السَّمْعِ ذِكْرَاهَا فَإِنَّ لَهَا
فِي الْقَلْبِ مَنْزِلَةً مَرْعِيَّةَ الذِّمَمِ

عَهْدٌ تَوَلَّى وَأَبْقَى فِي الْفُؤَادِ لَهُ
شَوْقًا يَفُلُّ شَبَاةَ الرَّأْيِ وَالْهِمَمِ

إِذَا تَذَكَّرْتُهُ لَاحَتْ مَخَايِلُهُ   لِلْعَيْنِ حَتَّى كَأَنِّي مِنْهُ فِي حُلُمِ

فَمَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ رَقَّتْ شَمَائِلُهُ
فَعَادَ بِالْوَصْلِ أَوْ أَلْقَى يَدَ السَّلَمِ

تَكَاءَدَتْنِي خُطُوبٌ لَوْ رَمَيْتَ بِهَا
مَنَاكِبَ الْأَرْضِ لَمْ تَثْبُتْ عَلَى قَدَمِ

فِي بَلْدَةٍ مِثْلِ جَوْفِ الْعَيْرِ لَسْتُ أَرَى
فِيهَا سِوَى أُمَمٍ تَحْنُو عَلَى صَنَمِ

لَا أَسْتَقِرُّ بِهَا إِلَّا عَلَى قَلَقٍ
وَلَا أَلَذُّ بِهَا إِلَّا عَلَى أَلَمِ

إِذَا تَلَفَّتُّ حَوْلِى لَمْ أَجِدْ أَثَرًا
إِلَّا خَيَالِى وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى كَلِمِى
فَمَنْ يَرُدُّ عَلَى نَفْسِى لُبَانَتَهَا
أَوْ مَنْ يُجِيرُ فُؤَادِى مِنْ يَدِ السَّقَمِ

وهذا شعر جزل رصين ، تغلب عليه سمة الجاهلية فى المنْحى وفى الأسلوب ، فهو يستسقى للروحاء وما إليها من المغانى العربية ، ويجمع بين شتى الأغراض فى الموضوع الواحد ، ويعرض له المعنى تبعاً فيتحول إليه حتى لتحسبه نسى المعنى الأصيل. ألا ترى كيف استسقى للروحاء ، وهذا هو الغرض الأول ، ثم مضى فى وصف السارية الهتّانة الديمِ ، فقال :

مِنَ الْغِزَارِ اللَّوَاتِى فِى حَوَالِبِهَا
رِىُّ النَّوَاهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمِ
إِذَا اسْتَهَلَّتْ بِأَرْضٍ نَمْنَمَتْ يَدُهَا
بُرْدًا مِنَ النَّوْرِ يَكْسُو عَارِىَ الْأَكَمِ
تَرَى النَّبَاتَ بِهَا خُضْرًا سَنَابِلُهُ
يَخْتَالُ فِى حُلَّةٍ مَوْشِيَّةِ الْعَلَمِ

وكان يتمنى لو رقّت شمائل الدهر فعاد بالوصْل ، أو ألقى يد السلمِ ، فانتقل من هذا الغرض إلى وصف ما تكاءده من الخطوب ، وما مُنِى به من الاقامة فى بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام ، لايستقر به إلا على قلق ، ولا يلذُّ به إلا على ألم ، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله ، ولم يسمع غير أصداء .

وهذا بحث مجمل ، نرجو أن نعود إليه فى الكلمة الآتية بشىء من التفصيل .

البحث الحادى والعشرون

أسلوب البارودى

قلت فى الكلمة الماضية : إن شعر البارودى تغلب عليه سمة الجاهلية فى المنحى وفى الأسلوب ، وذكرت فى تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطارىء حتى لنحسبه نسى المعنى الأصيل ، وهذا الأسلوب معروف فى أشعار الجاهليين والمخضرمين ، ومن نحا نحوهم من شعراء الأعصر الخالية ، فانا نرى طرفة بن العبد يشبّه قباب محبوبته بخلايا السفين ، ثم يترك المشبه ويمضى فى الحديث عن المشبه به فيقول :

كَأَنَّ حُمُولَ المَالِكِيَّةِ غُدْوَةً خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ

عَدَوْلِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابنِ يَامِنٍ
يَجُورُ بِهَا المَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِى

يَشُقُّ عُبَابَ المَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا
كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ المُفَائِلُ بِالْيَدِ

وتراه يهمّ بالحديث عن نفسه فيقول :

وَإِنِّى لَأُمْضِى الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ
بِهَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِى

ثم يندفع فى وصف الناقة حتى لايشك القارىء فى أنه قال من أجلها هذه القصيدة ، إذ يصفها فى أكثر من ثلاثين بيتاً ، ثم يعود بعد لأى إلى الحديث عن نفسه فيقول :

وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التِّلَاعِ مَخَافَةً
وَلٰكِنْ مَتى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ

وكذلك تجد كعب بن زهير يقول فى ثغر محبوبته سعاد :

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِى ظَلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ
كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

ثم يمضى فى وصف ما مُزجت به هذه الراح فيقول :

شُجَّتْ بِذِى شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ
صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مَشْمُولُ
تَنْفِى الرِّيَاحُ الْقَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ
مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٌ يَعَالِيلُ

وتراه يقول فى بُعد محبوبته :

أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُبَلِّغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَاسِيلُ

وكان هذا كافياً فى الابانة عن بعد الشقة ، ولكنه وصف الناقة التى تبلغه تلك الأرض بنحو عشرين بيتاً . ثم عاد بعد هذا كله إلى ما رمى إليه من استعطاف الرسول فقال :

تَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَنْبَيْهَا وَقَوْلُهُمُو
إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِى سُلْمَى لَمَقْتُولُ

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ آمُلُهُ	لَا أُلْهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ

فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَالَكُمُو

فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ

يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي	وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ

قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَرْتِيلُ

لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ

أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِيَّ الْأَقَاوِيلُ

وقد سلك البارودى هذا المسلك فى قصيدته (كشف الغمة) فقد رأينا كيف أفاض فى وصف السحب وهو يستسقى للروحاء ، وكيف انتقل من الحديث عن وجده إلى الحديث عن غربته . ولنذكر الآن شاهداً آخر نؤيد به اختياره لهذا الأسلوب :

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذى آوى إليه النبى صلى الله عليه وسلم مع الصِّدِّيق وصفاً لا زُخرف فيه إذ قال : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا » .

ووصفه أبو بكر رضى الله عنه على هذا النحو فقال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الغار فرأيت آثار المشركين . قلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا ، قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! » .

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت : « ولما كان ليلة بات النبى صلى الله عليه وسلم فى الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت فى وجه الغار ، وأمر حمامتين وَحْشِيَّتَيْنِ فوقفتا على وجه الغار ، وأتى المشركون من كل بَطْنٍ حتى إذا كانوا من النبى صلى الله عليه وسلم عَلى قدر أربعين ذراعاً مَعَهُمْ قسيّهُمْ وَعصيهُمْ تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار ، فقال لأصحابه : ليس فى الغار شىء ، رأيت حمامتين على فَمِ الغار فعرفت أنْ ليس فيه أحدٌ ، وقال رجل آخر : الغار ! فقال أمية بن خلف : ما أَرَبُكُمْ فيه ، وعليه من نَسْج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يُولد محمد(١) » .

فأمامنا الآن حقيقة ثابتة « هى أن النبى كان مع رفيقه فى الغار ، وأن الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وصفت هذه الحقيقة فى القرآن وفى كلام الصديق وصفاً يرجع فى جوهره إلى الاشادة بفضل الله ورحمته ، ووصفت فى كلام عائشة وصفاً فيه شىء من الزخرف والخيال : إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت — ولنا فى حديث عائشة رأى لا يسمح به ظرف الزمان — فلنذكر كيف تناول البوصيرى وشوقى والبارودى هذه الحادثة ، وكيف نحا البارودى فى وصفها منحى شعراء الجاهلية :

أما البوصيرى فقد قال :

فَالصِّدْقُ فِى الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا
وَهُمْ يَقُولُونَ مَا فِى الْغَارِ مِنْ أَرَمِ (٢)

ظَنُّوا الحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسِجْ وَلَمْ تَحُمِ

(١) راجع وضح النهج .
(٢) أى لا أثر فيه .

وِقَايَةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ
مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ

وهذا وصف لم يخرج عما ورد فى القرآن من وقاية الله لنبيه وإنزاله السكينة عليه ولم يَعْدُ ما حدثتْ به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت .

أما شوقى فقد قال :

سَلْ عُصْبَةَ الشِّرْكِ حَوْلَ الْغَارِ حَائِمَةً
لَوْلَا مُطَارَدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ تَحُمِ

هَلْ أَبْصَرُوا الأَثَرَ الْوَضَّاءَ أَمْ سَمِعُوا
هَمْسَ التَّسَابِيحِ وَالْقُرْآنِ مِنْ أَمَمِ (1)

وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ لَهُمْ
كَالْغَابِ وَالحَائِمَاتُ الزُّغْبُ كالرَّخَمِ

فَأَدْبَرُوا وَوُجُوهُ الأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ
كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الحَقِّ مُنْهَزِمِ

لَوْلَا يَدُ اللهِ بِالجَارَيْنِ مَا سَلِمَا
وَعَيْنُهُ حَوْلَ رُكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقُمِ

تَوَارَيَا بِجَنَاحِ اللهِ وَاسْتَتَرَا
وَمَنْ يَضُمّ جَنَاحُ اللهِ لَا يُضَمِ

وفى هذه القطعة يسخر شوقى من المشركين ، ويهزأ بهم ، ويمثّل ضلالهم وإخفاقهم

---

(1) من قرب .

تمثيلاً بَشعاً مُخيفاً يَخزَى له وجه الشرك وَيُرْغَمُ به أنف الجحود ، وللقارئ أن يتأمل قوله :

فَأَدْبَروا وَوُجُوهُ الأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ ... كَبَاطِلٍ مِنْ جَلاَلِ الحَقِّ مُنْهَزِمِ

فإنه من أجمل ما شُبه فيه المحسوس بالمعقول . أما البارودى فقد قال :

وَجَاءَهُ الْوَحْىُ إِيذَانًا بِهِجْرَتِهِ ... فَيَمَّمَ الْغَارَ بِالصِّدِّيقِ فِى الْغَسَمِ (١)

فَمَا ٱسْتَقَرَّ بِهِ حَتَّى تَبَوَّأَهُ ... مِنَ الحَمَائِمِ زَوْجٌ بَارِعُ الرَّنَمِ

بَنَى بِهِ عُشَّهُ وَٱحْتَلَّهُ سَكَنًا ... يَأْوِى إِلَيْهِ غَدَاةَ الرِّيحِ وَالرِّهَمِ

إِلْفَانِ مَا جَمَعَ الْمِقْدَارُ بَيْنَهُمَا ... إِلَّا لِسِرٍّ بِصَدْرِ الْغَارِ مُكْتَتَمِ

كِلاَهُمَا دَيْدَبَانٌ فَوْقَ مَرْبَأَةٍ ... يَرْعَى الْمَسَالِكَ مِنْ بُعْدٍ وَلَمْ يَنَمِ

إِنْ حَنَّ هٰذَا غَرَامًا أَوْ دَعَا طَرَبًا ... بِاسْمِ الهَدِيلِ أَجَابَتْ تِلْكَ بِالنَّغَمِ

يَخَالُهَا مَنْ يَرَاهَا وَهِىَ جَاثِمَةٌ ... فِى وَكْرِهَا كُرَةً مَلْسَاءَ مِنْ أَدَمِ (٢)

إِن رَفْرَفَتْ سَكَنَتْ ظِلاًّ وَإِنْ هَبَطَتْ
رَوَتْ غَلِيلَ الصَّدَى مِنْ حَائِرٍ شَبِمِ

مَرْقُومَةُ الْجِيدِ مِنْ مِسْكٍ وَغَالِيَةٍ ... مَخْضُوبَةُ السَّاقِ وَالْكَفَّيْنِ بِالْعَنَمِ

كَأَنَّمَا شَرَعَتْ فِى قَانِئٍ سَرِبٍ ... مِنْ أَدْمُعِى فَغَدَتْ مُحْمَرَّةَ الْقَدَمِ

وَسَجَّفَ الْعَنْكَبُوتُ الْغَارَ مُخْتَفِيًا ... بِخَيْمَةٍ حَاكَهَا مِنْ أَبْدَعِ الْخِيَمِ

---

(١) فى الظـلام . (٢) من جلـد .

قَدْ شَدَّ أَطْرَافَهَا فَاسْتَحْكَمَتْ وَرَسَتْ
بالأَرْضِ لٰكِنَّهَا قَامَتْ بِلاَ دَعَمِ

كَأَنَّهَا سَابِرِيٌّ حَاكَهُ لَبِقٌ ... بِأَرْضِ سَابُورَ فِي بُحْبُوحَةِ الْعَجَمِ

وَارَاتْ فَمَ الْغَارِ عَنْ عَيْنٍ تُلِمُّ بِهِ ... فَصَارَ يَحْكِي خَفَاءً وَجْهَ مُلْتَثِمِ

فَيَالَهُ مِنْ سِتَارٍ دُونَهُ قَمَرٌ ... يَجْلُو الْبَصَائِرَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلَمِ

فَظَلَّ فِيهِ رَسُولُ اللهِ مُعْتَكِفًا
كَالدُّرِّ فِي الْبَحْرِ أَوْ كَالشَّمْسِ فِي النَّسَمِ

حَتَّى إِذَا سَكَنَ الإِرْجَافُ وَاحْتَرَقَتْ
أَكْبَادُ قَوْمٍ بِنَارِ الْيَأْسِ وَالْوَغَمِ

أَوْحَى الرَّسُولُ بِإِعْدَادِ الرَّحِيلِ إِلَى
مَنْ عِنْدَهُ السِّرُّ مِنْ خِلٍّ وَمِنْ حَشَمِ

وَسَارَ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ مَبَاتَتِهِ ... يَوْمُ طَيْبَةَ مَأْوَى كُلِّ مُعْتَصِمِ

وفى هذه القطعة انتقل البارودى من سرد القصة النبوية إلى الإفاضة فى وصف الحمامتين والعنكبوت ، فتحدث عن بناء العُش" والغرض من سُكناه ، وتكلم عن حراسة الحمامتين ، ورعايتهما للمسالك البعيدة ، وهجرهما النوم ، وتغنّيهما باسم الهديل ، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين ، وكيف كانت مَرْقُومة الجيد ، وكيف كانت محمّرة القدم كأنما شرعتْ فى دموعه الحمراء ، وتكلم عن الخيمة التى شد أطنابها العنكبوت ووصفها بجودة النسج حتى ليحسبها الرائى حلة سابرية ، إلى آخر ما قال .

وهذا كله خروج عن الموضوع ، واستسلام إلى الخيال ، وكذلك كان يفعل الأقدمون .

النظم فى قصيدة البارودى

وتمتاز قصيدة البارودى بالترتيب ، لأنه ساير الحوادث وِفْقاً لما قصه ابن هشام ، ولا كذلك شوقى والبوصيرى ، فقد أطاعا الخواطر الطارئة ، وقدّما بعض الحوادث على بعض ، وتكلما عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن معجزاته مثلاً قبل أن يذكرا الميلاد .

ولكن مزية الترتيب التى انفرد بها البارودى كانت باباً لفقد الشعر فى أكثر القصيدة ، فأصبحت بذلك « منظومة » كتلك المنظومات التى تعرف بالمتون ، وإلى القارئ أنموذجاً يرى به غلبة النظم فى ميميمة البارودى إذ قال :

وَأَمَّ طَيْبَةَ مَسْرُورًا بِعَوْدَتِهِ … يَطْوِى المَنَازِلَ بِالْوَخَّادَةِ الرُّسُمِ

ثُمَّ اسْتَهَلَّتْ وُفُودُ النَّاسِ قَاطِبَةً … إِلَى حِمَاهُ فَلاَقَتْ وَافِرَ الْكَرَمِ

فَكَانَ عَامَ وُفُودٍ كُلَّمَا انْصَرَفَتْ … عِصَابَةٌ أَقْبَلَتْ أُخْرَى عَلَى قَدَمِ

وَأَرْسَلَ الرُّسْلَ تَتْرَى لِلْمُلُوكِ بِمَا … فِيهِ بَلاَغٌ لِأَهْلِ الذِّكْرِ وَالْفَهَمِ

وَأَمَّ غَالِبُ أَكنافِ الْكَدِيدِ إِلَى … بَنِى المُلَوَّحِ فَاسْتَوْلَى عَلَى النَّعَمِ

وَحِينَ خَانَتْ جُذَامٌ فَلَّ شَوْكَتَهَا … زَيْدٌ بِجَمْعٍ لِرَهْطِ الشِّرْكِ مُقْتَثِمِ

وَسَارَ مُنْتَحِيًا وَادِى الْقُرَى فَمَحَا … بَنِى فَزَارَةَ أَصْلَ اللُّؤْمِ وَالْقَزَمِ

وَأَمَّ خَيْبَرَ عَبْدُ اللهِ فى نَفَرٍ … إِلَى الْيَسِيرِ فَأَرْدَاهُ بِلاَ أَتَمِ

وَيَمَّمَ ابْنُ أُنَيْسٍ عَرْضَ نَخْلَةَ إِذْ … طَغَا ابْنُ ثَوْرٍ فَأَصْمَاهُ وَلَمْ يَخِمِ

ثُمَّ اسْتَقَلَّ ابْنُ حِصْنٍ فَاحْتَوَتْ يَدُهُ
عَلَى بَنِى الْعَنبَرِ الطُّرَّارِ وَالشُّجُمِ

وَسَارَ عَمْرُو إلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ فى
جَمْعٍ لُهَامٍ لِجَيْشِ الشِّرْكِ مُصْطَلِمِ

وَغَزْوَتَانِ لِعَبْدِ اللهِ وَاحِدَةٌ إلَى رِفَاعَةَ وَالْأُخْرَى إلَى إضَمِ

وهذا الأسلوب ظاهر غالب فى هذه القصيدة ، وقد يصل أحياناً إلى الغموض ، ولا ترجع الشاعرية إلى البارودى إلا حين يذكر نفسه وبلواه ، وانظر كيف يقول ، وهو يتحدث عن رجائه فى نصرة النبي له يوم المعاد :

إنِّى وَإنْ مالَ بِى دَهْرِى وَبَرَّحَ بِى
ضَيْمٌ أَشَاطَ عَلَى جَمْرِ النَّوَى أَدَمِى

لَثَابِتُ الْعَهْدِ لَمَ يخْلُلْ قُوَى أَمَلِى
يَأْسٌ وَلَمْ تخطُ بِى فى سَلْوَةٍ قَدَمِى

لَمْ يتْرُكِ الدَّهْرُ لِى ما أَسْتَعِينُ بهِ
عَلَى التَّجَمُّلِ إلاَّ سَاعِدِى وَفَمِى

هٰذَا يُحبِّرُ مَدْحِى فى الرَّسُولِ وَذَا
يَتْلُو عَلَى النَّاسِ مَا أُزْجِيهِ مِنْ كَلِمِى

وفى هذه الأبيات الأربعة لونان من التعبير ، أولهما مملوءٌ بالحرارة لأنه يمثل أمنية دفنتها الحوادث فى صدر الشاعر ، وثانيهما فيه ضعف وفتور لأنه عاد إلى القَصَص من جديد ، ولعل أغرب ما وقع له من « النظم » اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال فى تقديمها للرسول :

فَهَاكَهَا يَا رَسُولَ ٱللهِ زَاهِرَةً — تُهْدِى إِلَى النَفْسِ رَيَّا الآسِ وَالْبَرَمِ

وَسَمْتُهَا بِٱسْمِكَ الْعَالِى فَأَلْبَسَهَا — ثَوْبًا مِنَ الْفَخْرِ لَا يَبْلَى عَلَى الْقِدَمِ

غَرِيبَةٌ فِى إِسَارِ الْبَيْنِ لَوْ أَنِسَتْ — بِنَظْرَةٍ مِنْكَ لَاسْتَغْنَتْ عَنِ النَّسَمِ

لَمْ أَلْتَزِمْ نَظْمَ حَبَّاتِ الْبَدِيعِ بِهَا — إِذْ كَانَ صَوْغُ المَعَانِى الْغُرِّ مُلْتَزِمِى

وَإِنَّمَا هِىَ أَبْيَاتٌ رَجَوْتُ بِهَا — نَيْلَ الْمُنَى يَوْمَ تَحْيَا بَذَّةُ الرِّمَمِ

نَثَرْتُ فِيهَا فَرِيدَ المَدْحِ فَانْتَظَمَتْ — أَحْسِنْ بِمُنْتَثِرٍ فِيهَا وَمُنْتَظِمِ

صَدَّرْتُهَا بِنَسِيبٍ شَفَّ بَاطِنُهُ — عَنْ عِفَّةٍ لَمْ يَشِنْهَا قَوْلُ مُتَّهِمِ

لَمْ أَتَّخِذْهُ جُزَافًا بَلْ سَلَكْتُ بِهِ — فِى الْقَوْلِ مَسْلَكَ أَقْوَامٍ ذَوِى قَدَمِ

تَابَعْتُ كَعْبًا وَحَسَّانًا وَلِى بِهِمَا — فِى الْقَوْلِ أُسْوَةُ بَرٍّ غَيْرِ مُتَّهَمِ

وَالشِّعْرُ مَعْرِضُ أَلْبَابٍ يَرُوجُ بِهِ — مَا نَمَّقَتْهُ يَدُ الآدَابِ وَالْحِكَمِ

فَلَا يَلُمْنِى عَلَى التَّشْبِيبِ ذُو عَنَتٍ — فَبُلْبُلُ الرَّوْضِ مَطْبُوعٌ عَلَى النَّغَمِ

ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودى يغلب فيها النظم عند سرد الحوادث ، ويغلب فيها الشعر عند الوصف ، وعند مناجاة الوجدان .

سميّك يا رسول الله

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيرى والبارودى وشوقى فى التسمى باسم النبى عليه الصلاة والسلام ، وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمى باسمه فنجد البوصيرى يقول :

إنْ آتِ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ ... مِنَ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ

فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي ... مُحَمَّدًا وَهوَ أَوْفَى الخَلْقِ بِالذِّمَمِ

ونجد شوقى يقول :

يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ لِي جَاهٌ بِتَسْمِيَتِي ... وَكَيْفَ لَا يَتَسَامَى بِالرَّسُولِ سَمِي

ونجد البارودى يقول :

خَدَمْتُهُ بِمَدِيحِي فَاعْتَلَيْتُ عَلَى ... هَامِ السِّمَاكِ وَصَارَ السَّعْدُ مِنْ خَدَمِي

وَكَيْفَ أَرْهَبُ ضَيْمًا بَعْدَ خِدْمَتِهِ ... وَخَادِمُ السَّادَةِ الْأَجْوَادِ لَمْ يُضَمِ

أَمْ كَيْفَ يَخْذُلُنِي مِنْ بَعْدِ تَسْمِيَتِي ... بِٱسْمٍ لَهُ فِي سَمَاءِ الْعَرْشِ مُحْتَرَمِ

والبوصيرى هو صاحب الفكرة ، وقد تبعه البارودى ، ولحقهما شوقى ، وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون !

البحث الثالث والعشرون

التخلص والاقتضاب

التخلص هو انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة ، ويقابله الاقتضاب ، ويكثر التخلص فى شعر المحدثين ، كما يكثر الاقتضاب فى شعر القدماء . قال ابن رشيق : وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ماتخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ، ثم عاد إلى الأول وأخذ فى غيره ثم رجع إلى ما كان فيه ، كقول النابغة الذبيانى فى آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر :

وَكَفْكَفْتُ مِنِّى عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا ... إِلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ وَدَامِعُ

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال :

وَلٰكِنَّ هَمًّا دُونَ ذٰلِكَ شَاغِلٌ ... مَكانَ الشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ[1]

وَعِيدُ أَبِى قَابُوسَ فى غَيْرِ كُنْهِهِ ... أَتَانِى وَدُونِى رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ

ثم وصف حاله عندما سمع ذلك فقال :

فَبِتُّ كَأَنِّى سَاوَرَتْنِى ضَئِيلَةٌ ... مِنَ الرُّقْشِ فى أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ

---

(١) الشغاف : هو غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب .

يُسَهَّدُ فى لَيْلِ التَّمام سَلِيمُهَا(١)   لِحَلْيِ النِّسَاءِ فى يَدَيْهِ قَعَاقِعُ
تَنَاذَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا   تُطَلِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ

فوصف الحية والسليم الذى شبّه به نفسه ما شاء ، ثم تخلص إلى الاعتذار الذى كان فيه فقال :

أَتَانِى - أَبَيْتَ اللَّعْنَ (٢) - أَنَّكَ لُمْتَنِى
وَتِلْكَ الَّتِى تَسْتَكُّ مِنْهَا المَسَامِعُ

ثم اطّرد ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة ...

وقد يقع من هذا النوع شىء يعترض فى وسط النَّسيب من مدح مَن يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة ، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب ، ثم يرجع إلى المدح ، كما فعل أبو تمام ، وإن أتى بمدحه الذى تمادى فيه منقطعاً ، وذلك قوله فى وسط النسيب من قصيدة له مشهورة :

ظَلَمتْكَ ظَالِمَةُ الْبَرِىءِ ظَلُومُ   وَالظُّلْمُ مِنْ ذِى قُدْرَةٍ مَذْمُومُ
زَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَتْ
مِنْهَا طُلُولٌ بِاللِّوَى وَرُسُومُ
وَالذِى هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى   أَجَلٌ وَأَنَّ أَبَا الحُسَيْنِ كَرِيمُ
مَازُلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوِدَادِ وَلاَ غَدَتْ
نَفْسِى عَلَى إِلْفٍ سِوَاكِ تَحُومُ

---

(١) السليم : هو الملدوغ ، سمى بذلك تفاؤلا بسلامته . كما قيل فى الصحراء مفازة .
(٢) تحية جاهلية عاشت حيناً ثم ماتت ، وكانت فى الأغلب مما يخاطب به الملوك ، ولو خاطبت بها اليوم واحداً من ملوك عصرك لا تهموك بقلة الذوق .

ثم قال بعد ذلك :

لِمُحَمَّدِ بْنِ الْهيْثَمِ بْنِ شَبَابَةٍ ... مَجْدٌ إلى جَنْبِ السِّمَاكِ مُقِيمُ

ويسمى هذا النوع الإلمام ، وكانت العرب لاتذهب هذا المذهب فى الخروج إلى المدح ، بل يقولون عند فراغهم من نعت الابل وذكر القفار وما هم بسبيله : دع ذا ، وعدِّ عن ذا ، ويأخذون فيما يريدون ، أو يأتون بإنّ المشددة ابتداء للكلام الذى يقصدونه ، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلاً بما قبله ، ولا منفصلاً بقوله : (دع ذا) و (عدّ عن ذا) ونحو ذلك سمى طفراً وانقطاعاً ، وكان البحترى كثيراً ما يأتى به نحو قوله :

لَوْلاَ الرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ الْهَوَى
لٰكِنّ قَلْبِى بالرّجَاءِ مُوَكَّلُ
إنَّ الرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فى سِيرَةٍ
عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا الْمُتَوَكِّلُ

فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب .

أما البوصيرى فقد آثرَ التخلص إذ قال فى محاورة العذول :

إنِّى اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فى عَذَلٍ
وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فى نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ
فَإِنَّ أَمَّارَتِى بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ
مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَلاَ أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى
ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِى غَيْرَ مُحْتَشِمِ

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّى مَا أُوَقِّرُهُ
كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِى مِنْهُ بِالْكَتَمِ

مَنْ لِى بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا
كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجُمِ

فَلَا تَرُمْ بِالْمَعَاصِى كَسْرَ شَهْوَتِهَا
إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّى شَهْوَةَ النَّهِمِ

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ
إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ

وَرَاعِهَا وَهِىَ فِى الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ
وَإِنْ هِىَ اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى فَلَا تُسِمِ

كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِى الدَّسَمِ

وَٱخْشَ ٱلدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وَٱسْتَفْرِغِ ٱلدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ ٱمْتَلَأَتْ
مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

وَخالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطانَ وَاعْصِهِمَا
وَإِنْ هُمَا مَحَّضاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

ولا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلا حَكَمًا
فأَنْتَ تعْرِفُ كيْدَ الْخصْمِ وَالْحَكَمِ

أَسْتغْفِرُ اللهَ مِنْ قوْلٍ بِلا عَمَلٍ
لقدْ نسَبْتُ بِهِ نسْلاً لِذِى عُقُمِ

أَمَرْتُكَ الْخيْرَ لٰكِنْ مَا أْتمَرْتُ بِهِ
وَمَا اسْتقمْتُ فمَا قوْلِى لكَ اسْتقِمِ

وَلا تزوّدْتُ قَبْلَ المَوْتِ نافِلةً
وَلمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَلمْ أَصُمِ

ظَلمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلامَ إِلَى
أَنِ اشْتكتْ قدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

وهذا النوع من التخلص غير مقبول ، إذ لاحظنا أنه تخلّص من النسيب إلى المدح ، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس ، ثم إلى مدح الرسول فانا نغفر له هذه الإطالة ، لأنها فى غرض من أغراضه الأساسية ، وهو الدعوة إلى تهذيب النفس ، وتطهير الوجدان .

ومن الخير أن نذكر أن البوصيرى لايفعل ذلك فى جميع قصائده ، فقد رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة فى همزيته فيقول :

كيْفَ ترْقَى رُقِيَّكَ الْأَنْبيَاءُ يَا سَمَاءً مَا طَاوَلتْها سَمَاءُ

لَمْ يُسَاوُوكَ فى عُلاكَ وَقَدْ حَـا لَ سَنًا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَـاءُ
إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّـا سِ كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ المَاءُ

وكأنما جاراه شوقى فى افتتاح همزيته فقال :

وُلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَـاءُ
الرُّوحُ وَالْمَلأُ الْمَلائِكُ حَوْلَهُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا بِهِ بُشَرَاءُ
وَالْعَرْشُ يَزْهُو وَالْحَظِيرَةُ تَزْدَهِى
وَالْمُنْتَهَى وَالسِّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ

ولكن أين ابتداء شوقى من ابتداء البوصيرى ؟ إن الفرق بينهما لبعيد ! وإن كان فى تعبير البوصيرى شىء من الجفاء ، فى حقّ الأنبياء .

وأعوذ فأذكر أنى أستملح قول البوصيرى فى رياضة النفس :

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وجمال هذا البيت يرجع إلى ما فيه من صدق الدعوة : فان النفس يضر بها الزهد ، كما يطغيها الترف ، كالجسم ترديه المسغبة ، كما تضره البطنة .

وأستجيد كذلك قوله :

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ
وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِى لَكَ اسْتَقِمِ

وحسن هذا البيت يرجع إلى سماحة الشاعر ورفقه ، وخلوص دعوته من شوائب الصلف والكبرياء ، وهذا أدب يحتاج إلى مثله أطباء النفوس .

وقد آثر البارودى أيضاً حسن التخلص إذ قال :

ليْتَ الْقطا حِينَ سَارَتْ غُدْوَةً حَمَلتْ
عَنِّى رَسَائِلَ أَشْوَاقِى إلى إضَمِ
مَرَّتْ عَلَيْنا خِمَاصًا وَهْىَ قارِبَةٌ مَرَّ الْعَوَاصِفِ لا تلْوِى عَلى إرَمِ
لا تُدْرِكُ الْعَيْنُ مِنْهَا حِينَ تلْمَحُها
إلاَّ مِثالاً كلمْحِ الْبَرْقِ فى الظُّلَمِ
كأَنَّهَا أَحْرُفٌ بَرْقِيَّةٌ نبَضتْ
بِالسِّلْكِ فانْتشرَتْ فى السَّهْلِ وَالْعَلَمِ
لا شَىْءَ يَسْبِقُها إلاَّ إذا اعْتَقَلَتْ
بَنانتِى فى مَدِيحِ المُصْطفى قَلمِى

وهذا تخلص مستملح مقبول ، ومُضِىّ الشاعر فى وصف القطاة إيثارٌ للأسلوب القديم الذى نوهنا به فى الكلمة الماضية ، ونريد أن نقرر أن هذا الأسلوب جزء من الفن الشعرى عند الجاهليين والمخضرمين ، ومن سايرهم من المحدثين ، وبيان ذلك أن الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفاً يحيله صورة شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعاً من الاستقلال ، وتكون لهذا الوصف قيمة أىّ قيمة حين يراد به تأكيد معنى من المعانى المقصودة . ومن أمثلة ذلك قول أبى صعترة البولانى :

فمَا نُطْفَةٌ مِنْ حَبِّ مُزْنٍ تَقاذَفَتْ
بِهِ جَنْبَتَا الجُودِىِّ وَاللَّيْلُ دَامِسُ (١)
فلمَّا أَقرَّتْهُ اللِّصَابُ تنفسَّتْ
شَمَالٌ بِأَعْلى مَائِهِ فهْوَ قارِسُ (٢)

(١) الجودى : الجبل . (٢) اللصاب : الشعب الصغيرة فى الجبل .

بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهُ
وَلٰكِنَّنِي فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ فَارِسُ

فان للشاعر من المبالغة فى وصف ماء المزن غرضاً خاصاً هو الاشادة بعذوبة ذلك الثغر الشهىّ المذاق ، ويماثل هذا قول عاتكة المرّيّة ، وكانت كما قال صاحب زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها :

وَمَا طَعْمُ مَاءٍ أَىَّ مَاءٍ تَقُولُهُ
تَحَدَّرَ عَنْ غُرٍّ طِوَالِ الذَّوَائِبِ

بِمُنْعَرَجٍ مِنْ بَطْنِ وَادٍ تَقَابَلَتْ
عَلَيْهِ رِيَاحُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

نَفَتْ جَرْيَةُ الْمَاءِ الْقَذَى عَنْ مُتُونِهِ
فَمَا إِنْ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَارِبِ

بِأَطْيَبَ مِمَّنْ يَقْصُرُ الطَّرْفَ دُونَهُ
تُقَى اللهِ وَٱسْتِحْيَاءُ بَعْضِ الْعَوَاقِبِ

فان لها من وصف الماء فى عذوبته وجمال موقعه وحاجة الأعراب إليه غرضاً خاصاً هو الاشادة بجمال الحياء وطيب العفاف .

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دُرَيْدٍ :

وَمَا وَجْدُ أَعْرَابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا
صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَّتِ

تَمَنَّتْ أَحَالِيبَ الرِّعَاءِ وَخَيْمَةً بِنَجْدٍ فَلَمْ يُقْدَرْ لَهَا مَا تَمَنَّتِ

إذا ذكرَتْ مَـاءَ الْعِضَـاهِ وَطِيبَـهُ
وَبَرْدَ الحَصَى مِنْ نحْوِ نجْـد أَرَنَّـتِ
بِأَوْجَـدَ مِنْ وَجْـد بِرَيَّا وَجَدْتُـهُ
غَـدَاةَ غَدَوْنـا غُـدْوَةً وَاطْمَأَنَّـتِ
فَإِنْ يَكُ هٰـذَا عَهْـد رَيَّا وَأَهْلِهَـا
فَهٰذَا الَّذى كُنَّا ظَنَنَّـا وَظَنَّـتِ

وأروع من هذا قول الأبيوردى (١) :

وَمَا أُمُّ سَاجِى الطَّـرْفِ مَالَ بِه الْكَـرَى
عَلَى عَـذَبَات الْجِـزْعِ تَحْسَبُـهُ قَلْبَا
تُرَاعِى بِإِحْـدَى مُقْلَتَيْهَـا كِنَاسَهَـا
وَتَرْمِى بِأُخْـرَى نَحْـوَهُ نَظَرًا غَـرْبَـا
فَلاَحَ لَهَـا منْ جَانبِ الرَّمْـلِ مَرْتَـعٌ
كَأَنَّ الرَّبِيـعَ الطَّلْـقَ أَلْبَسَـهُ عُصْبَـا
فَمَـالَتْ إِلَيْـه وَالحَـرِيصُ إِذَا غَـدَتْ
بِه سَوْرَةُ الأَطْمَـاعِ لَمْ يُحْمِـدِ الْعُقْـبَى
وَآنَسَهَـا المَـرْعَى الخَصِيبُ فَصَـادَفَتْ
مَدَى الْعَيْنِ فى أَرْجَـائِهِ بَلَـدًا خِصْبَـا

(١) تجد تفصيل هذه المعانى الوجدانية فى كتاب « مدامع العشاق » عند الكلام عن « الطبيعة فى أنفس الشعراء »

فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ اللُّبَانَةَ رَاجَعَتْ
طَلاَهَا فَأَلْفَتْهُ قَضَى بَعْدَهَا نَحْبَا

أُتِيحَ لَهُ عَارِى السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ
يَخُوضُ إِلَى أَوْطَارِه مَطْلَبًا صَعْبَا

فَوَلَّتْ عَلَى ذُعْرٍ وَبِالنَّفْس مَا بِهَا
مِنَ الْكَرْبِ لاَ لُقِّيتَ فِى حَادِثٍ كَرْبَا

بِأَوْجَدَ مِنِّى يَومَ عَجَّتْ رِكَابُهَا
لِبَيْنٍ فَلَمْ تَتْرُكْ لِذِى صَبْوَةٍ لُبَّا

وكان يكفى أن يشبّه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظبية يغتال رَشأها الذئب ، ولكن هذه الصورة الشعرية التى وضعها للغزالة المروّعة المُلتاعة جعلت المعنى أوقع فى النفس ، وأملك للقلب ، وأروع للوجدان .

ولننتقل بعد ذلك إلى شوقى ، وإنا لنراه صدف عن التخلص وآثر الاقتضاب ، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق إلى الحديث عما تضمر الدنيا من المبكيات ، وما تُجنُّ من ظلمات الخطوب ، وتدرج من هذا إلى الحديث عن غفلة النفس وفقرها إلى الأخلاق ، وكذلك يقول :

يَا نَفْسُ دُنْيَاكِ تُخْفِى كُلَّ مُبْكِيَةٍ
وَإِنْ بَدَا لَكِ مِنْهَا حُسْنُ مُبْتَسَمِ

فُضِّى بِتَقْوَاكِ فَاهَا كُلَّمَا ضَحِكَتْ
كَمَا يُفَضُّ أَذَى الرَّقْشَاءِ بِالثَّرَمِ

مَخْطُوبَةٌ مُنْذُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةٌ

مِنْ أَوَّلِ ٱلدَّهْرِ لَمْ تُرْمِلْ وَلَمْ تَئِمِ

يَفْنى الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا

جُرْحٌ بِآدَمَ يَبْكِى مِنْهُ فِى الْأَدَمِ

لَا تَحْفِلِى بِجَنَاهَا أَوْ جِنَايَتِهَا

الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الْمَوْتِ بِالْفَحَمِ

كَمْ نَائِمٍ لَا يَرَاهَا وَهْىَ سَاهِرَةٌ

لَوْلَا الْأَمَانِىُّ وَالْأَحْلَامُ لَمْ يَنَمِ

طَوْرًا تَمُدُّكَ فِى نُعْمَى وَعَافِيَةٍ

وَتَارَةً فِى قَرَارِ الْبُؤْسِ وَالْوَصَمِ

كَمْ ضَلَّلَتْكَ وَمَنْ تُحْجَبْ بَصِيرَتُهُ

إِنْ يَذْقَ صَابًا يَرِدْ أَوْ عَلْقَمًا يَسُمِ

يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِى رَاعَهَا وَدَهَا

مُسْوَدَّةُ الصُّحْفِ فِى مُبْيَضَّةِ اللِّمَمِ

رَكَضْتُهَا فِى مَرِيعِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا

أَخَذْتُ مِنْ حِمْيَةِ الطَّاعَاتِ لِلتُّخَمِ

هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ تَطْلُبُهَا

وَالنَّفْسُ إِنْ يَدْعُهَا دَاعِى الصِّبَا تَهِمِ

صَلاَحُ أَمْرِكَ لِلأَخْلاَقِ مَرْجِعُهُ
فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالأَخْلاَقِ تَسْتَقِمِ

وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِى خَيْرِ عَافِيَةٍ
وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِى مَرْتَعٍ وَخِمِ

تَطْغَى إِذَا مُكِّنَتْ مِنْ لَذَّةٍ وَهَوًى
طَغْىَ الْجِيَادِ إِذَا عَضَّتْ عَلَى الشُّكُمِ

إِنْ جَلَّ ذَنْبِى عَنِ الْغُفْرَانِ لِى أَمَلٌ
فِى اللهِ يَجْعَلُنِى فِى خَيْرِ مُعْتَصَمِ

أُلْقِى رَجَائِى إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ عَلَى مُفَرِّجِ الْكَرْبِ فِى الدَّارَيْنِ وَالْغُمَمِ
إِذَا خَفَضْتُ جَنَاحَ الذُّلِّ أَسْأَلُهُ عِزَّ الشَّفَاعَةِ لَمْ أَسْأَلْ سِوَى أَمَمِ
وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَبْرَةَ النَّدَمِ
لَزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الأَنْبِيَاءِ وَمَنْ يُمْسِكْ بِمِفْتَاحِ بَابِ اللهِ يَغْتَنِمِ

وهذه قطعة مختارة ، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله فى كلام البوصيرى وإن قول شوقى :

لَاتَحْفِلِى بِجَنَاهَا أَوْ جِنَايَتِهَا الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الْمَوْتِ بِالْفَحَمِ

لأشرف معنىً وأسمى خيالاً من قول البوصيرى :

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

ولك أن تلاحظ أن البوصيرى وقف موقف الناصح الأمين ، فلما وصل إلى نفسه ذكر أنه لم يُصَلِّ ولم يَصُمْ سوى الفرض ، وأنه يأسى على أن لم يتزوّدْ نافلةً قبل الموت ، وأنه لذلك ظلم سُنّةَ من أحيا الظلام حتى تورّمتْ قدماه ، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليذرف ماذرف شوقى من الدمع .

وأين شوقى من البوصيرى ؟ لقد كان البوصيرى من أئمة الصوفية ، أما شوقى فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط ، وكان يحسن أن يقول :

رَمَضَانُ وَلَّى هَاتِهَا يَا سَاقِى ... مُشْتَاقَةً تَسْعَى إِلَى مُشْتَاقِ

ومن هنا سنحت له الفرصة ليَزْفرَ تلك الزفْرة الحارّة ، ويرمى بذلك الندم الموجع الذى يذيب لفائف القلوب ، وانظر كيف يقول :

إِنْ جَلَّ ذَنْبِىَ عَنِ الْغُفْرَانِ لِى أَمَلٌ
فى ٱللّٰهِ يَجْعَلُنِى فى خَيْرِ مُعْتَصَمِ

وكان شوقى أوفر الناس إحساساً بخطر ذنبه ، وكرم ربه ، حين قال :

وإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ ... قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَبْرَةَ النَّدَمِ

« قل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » .

البحث الثالث والعشرون

المعجزات

لـنا فى المعجزات رأىٌ خاص ، لايسمح به ظرف الزمان ، لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض ، وقد يثير هذا فتنة نحن عنها أغنياء(١) ، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيرى ، وشوقى ، والبارودى من معجزات النبى عليه الصلاة والسلام ، ولنذكر قبل ذلك أن القرآن يفيض بالتذمر من إلحاح المعاندين ولجاجتهم فى طلب المعجزات ، إذ كان النبى يدعو إلى تحكيم العقل ، وكان أولئك الكفار يأبون إلا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية ، تنفر منها القلوب ، وتأباها العقول ، وتنبو عنها الأذواق ، ولننظر كيف يقول فيهم عزّ شأنه وتبارك اسمه فى سورة الإسراء :

(قُلْ لئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا . وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ

---

(١) ومع ذلك سمح الزمن وأبدينا بعض الآراء بصراحة فى كتاب « المدائح النبوية » حين حللنا بردة البوصيرى ، وحين نقدنا قصة المولد النبوى ، وقد بدأ الناس يفهمون أن الاسلام فى غنى بجماله الحق عن زخرف الأباطيل .

الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَالمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً) .

وهذه الآيات صريحة فى أن النبى لا يملك لنفسه شيئاً ؛ وأن الأمر كله لله ، وأن فى القرآن هدًى وتبصرةً لقوم يعقلون ، وأصرح من هذا قوله تعالى فى سورة العنكبوت :

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّه قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

ومعنى هذه الآيات أن معجزة النبى الباقية هى القرآن ، وفى تأييد ذلك يقول البوصيرى :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثَةٌ ... قَدِيمَةٌ صِفَةُ المَوْصُوفِ بِالْقِدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهْىَ تُخْبِرُنَا ... عَنِ المَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

وتبعه شوقى فقال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالآيَاتِ فَانْصَرَمَتْ ... وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ المَدَى جُدُدٌ ... يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعِتْقِ وَالْقِدَمِ
يَكَادُ فِى لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشَرَّفَةٍ ... يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحِمِ

ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة فى المعجزات ، وإن كان شوقى على شىء من الحرص ، ويليه البوصيرى ، أما البارودى فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل ، وقد اشترك البوصيرى والبارودى فى الحديث عن سجود الأشجار ، وسعيها إلى الرسول ، فقال البوصيرى :

جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً ... تَمْشِى إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمِ
كَأَنَّمَا سَطَّرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ ... فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الخَطِّ بِالقَلَمِ

وقال البارودى :

أَتِلْكَ أَمْ حِينَ نَادَى سَرْحَةً فَأَتَتْ ... إِلَيْهِ مَنْشُورَةَ الْأَغْصَانِ كَالجُمَمِ
حَنَتْ عَلَيْه حُنُوَّ الْأُمِّ مِنْ شَفَقٍ
وَرَفْرَفَتْ فَوْقَ ذَاكَ الحُسْنِ مِنْ رَخَمِ
جَاءَتْهُ طَوْعًا وَعَادَتْ حِينَ قَالَ لَهَا
عُودِى وَلَوْ خُلِّيَتْ لِلشَّوْقِ لَمْ تَرِمِ

وانفرد البارودى بالحديث عن شق صدر النبى وهو غلام ، فقال :

فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْعَى الْبُهْمَ طَافَ بِهِ
شَخْصَانِ مِنْ مَلَكُوتِ ٱللهِ ذِى الْعِظَمِ
فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَّا صَدْرَهُ بِيَدٍ ... رَفِيقَةٍ لَمْ يَبِتْ مِنْهَا عَلَى أَلَمِ
وَبَعْدَمَا قَضَيَا مِنْ قَلْبِهِ وَطَرًا ... تَوَلَّيَا غَسْلَهُ بِالسَّلْسَلِ الشَّبِمِ
مَا عَالَجَا قَلْبَهُ إِلَّا لِيَخْلُصَ مِنْ
شَوْبِ الْهَوَى وَيَعِى قُدْسِيَّةَ الحِكَمِ

فَيَالَهَا نِعْمَةَ للهِ خَصَّ بِهَا حَبِيبَهُ وَهْوَ طِفْلٌ غَيْرُ مُحْتَلِمِ

وشق الملائكة لصدر النبي وغسلهم إياه بالساسبيل ليس من المعجزات لأن المعجزة تكون للاقناع ، وهو لم يَدْعُ إلى ربه فى طفولته حتى يكون للاقناع مجال ، وإنما هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه الناس ، والله يختص برحمته من يشاء ، وقد مر البارودى بهذه الأسطورة مرَّ الطيف ، فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل ، ونحن نكتفى هنا بأن نقرر أنها فى حاجة إلى تحقيق ، ثم نلتفت إلى ما فيها من روعة الخيال ، فقد صوّر النبى فيها صورة رائعة ، وتمثّل فيها لطف الله به ، وإحسانه إليه ، وتكريمه إياه ، وهى صورة شعرية نحب أن نمتع بها القارىء ، ليرى كيف ابتدأ القَصَص فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام .

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« وكنت مُسْتَرْضَعاً فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا ذات يوم مُنْتَبِذٌ من أهلى فى بطن واد مع أتراب لى من الصبيان إذا أنا برهط ثلاثة معهم طشت برَهْرَهة من الذهب ملآن ثلجاً ، فأخذونى من بين أصحابى ، وانطلق أصحابى هراباً حتى انتهوا إلى شَفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط وقالوا : ما أَرَبُكُمْ من هذا الغلام ؟ فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مُسْتَرْضَع فينا ، غلام يتيم ليس له أب فما يَرُدُّ عليكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فإن كنتم لابُد قاتليه فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لايحيرون جواباً انطلقوا مسرعين إلى الحىّ يُؤْذِنُونهم ويَسْتصرِخُونهم على القوم ، قال : فعمد أحدهم فأضجعنى إلى الأرض إضجاعاً رفيقاً ثم شق بطنى ما بين مفرق صدرى إلى عانتى ، وأنا أنظر إليه ، ولم أجد لذلك مَسّاً ، ثم أخرج أحشاء بطنى فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها إلى مكانها ، ثم قام الثانى منهم فقال لصاحبه : تَنَحَّ عنه ، فنحّاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه ، فصَدَعَه ثم أخرج منه مُضْغةً سوداء فرمى بها ، ثم أمَرّ يده يَمْنَةً منه ، وكأنه يتناول شيئاً فإذا بخاتم من نور فى يده يحار الناظرون إليه فختم به قلبى فامتلأ نوراً ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه فوجدت بَرْدَ الخاتم فى قلبى دهراً ، ثم قال الثالث : تَنَحَّ عنه ، فنحّاه عنى ، فأمرّ يده على مفرق صدرى إلى مُنْتهى عانتى ، فالتأم

ذلك الشق باذن الله تعالى ، ثم أخذ بيدى فأنهضنى من مكانى إنهاضاً لطيفاً ، ثم قال للأول الذى شقّ بطنى : زِنْه بعشرين من أمّته فوزننى فرَجَحْتُهم ، ثم قال : زِنْه بمائة من أمّته فوزننى فرجَحْتُهم ، ثم قال : زِنْه بألف من أمّته فوزننى فرجَحْتُهُمْ ، ثم قال : دعْه فوالله لو وَزنْتَه بأمته لرَجَحَهُمْ . قال : ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسى ، وما بين عينيّ ، ثم قالوا : لا تُرَعْ ، فإنك لو تدرى ما يُرادُ بك من الخير لَقَرَّتْ به عيناك . قال : فبينما نحن كذلك إذ أقبل الحىُّ بحذافيرهم ، فإذا ظئرى أمام الحىّ تهتف بأعلى صوتها ، وتقول واضعيفاه ! فانكبّوا علىّ وضمّونى إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى ، وما بين عينيّ — يعنى الملائكة — وقالوا : حبذا أنت من وحيد ! وما أنت بوحيد ، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ! ثم قالت ظئرى : وايتيماه !! استُضْعفْتَ من بين أصحابك فَقُتِلْتَ لضعفك ! قال فانكبُّوا علىّ وضمونى إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى وما بين عينيّ — يعنى الملائكة — وقالوا : حبذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على الله ! لو تعلم ما يراد بك من الخير لقَرَّتْ به عيناك ! فوصل الحى إلى شفير الوادى فلما أبصرتنى أمى — وهى ظئرى — قالت : لا أراك إلا حيا بعد ! فجاءت حتى انكبّتْ علَىَّ ، ثم ضمتنى إلى صدرها ، فوالذى نفسى بيده إنى لفى حجرها قد ضمتنى إليها ، وإن يدى لفى يد بعض الملائكة ، وجعل القوم لايرونهم ، قال : فقال بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لَممٌ ، أو طائفٌ من الجن فانطلقُوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت يا هذا ما بى شىء مما تذكرون ، إن آرابى لسليمة وفؤادى صحيح ، ليست لى قَلَبْة ، فقال أبى — وهو زوج ظئرى — ألا ترون كلامه كلام فصيح ؟ إنى لأرجو أن لا يكون يابنى بأس ، فاتفقوا على أن يذهبوا بى إلى الكاهن ، فلما انصرفوا بى قصوا عليه قصتى ، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فإنه هو أعلم بأمره منكم ، فسألنى فقصصت عليه القصة ، وأمرى من أوله إلى آخره ، فوثب إلىّ وضمنى إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلونى معه ! فواللات والعُزّى لئن تركتموه وأدرك ليُبَدِّلَنَّ دينكم ، وليسفِّهَنّ عقولكم وعقول آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله ! قال : فعمدتْ ظئرى إليه فانتزعتنى من حِجْره ، وقالت : لأنت أعْتَه وأجَن ! ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك ، فإنا غير قاتلى هذا الغلام !

ثم احتملونى وأدونى إلى أهلهم وأصبحت مُفزَّعاً مما فُعلَ بى ، وأصبح أثر الشق ما بين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشِّراك(١) » :

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لنمكِّن القارىء من نقده وتمييزه ، ولنجعله على بينة من الحكم له أو عليه ، إن شاء ، أما نحن فتريبنا فيه عبارته ، إذ كانت عبارة ضعيفة لاتسمو إلى ما فى صحيح الحديث من متانة التركيب وحلاوة التعبير ، ويريبنا بنوع خاص مفتتح الحديث ، فإن طريقة القَصص التى سلكها قد تدل على أنه موضوعٌ ، وذلك قوله : « روى شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس مع النبى صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ من بنى عامر وهو مدره قومه ، يتوكأ على عصاه فمَثل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه إلى جده ، فقال : يابن عبد المطلب إنى أُنبِئْتَ أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس ، وأن الله تعالى أ سلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والخلفاء ، ألا وإنك تفوَّهْتَ بعظيم ! إنما كانت الأنبياء والخلفاء فى بيتين من بنى اسرائيل ، وأنْتَ ممن يعبد الحجارة والأوثان ، فمالك والنبوة ! ولكن لكل حق حقيقة ، فأنبئنى بحقيقة قولك ، وبُدُوِّ شأنك ! قال : فأعجب النبى بمسألته ، ثم قال : يا أخا بنى عامر ، إن لهذا الحديث الذى سألتنى عنه نبأ عظيماً ومجلساً كريماً الخ » :.

فإن القارىء يرتاب على الأقل فى صحة هذه الجملة : « إنى أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس » فإن كلمة صلى الله عليه وسلم لاتقال لمن « يزعم » أنه رسول ، وعبارة « فأنبئنى بحقيقة قولك وبُدو شأنك » . عبارة مولدة ، لا ريب فى ذلك ، وما أظن النبى يقول « إن لهذا الحديث الذى سألتنى عنه نبأ عظيماً ، ومجلساً كريماً » فإن هذا أيضاً من تعابير المولدين ، ولكل عصر أسلوب .

أكتفى بهذا فى نقد هذه الأقصوصة ، وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها إلى محكمة التعديل والتجريح ، وأنتقل إلى ما ذكروه من العجائب عند ميلاد الرسول ، كانصداع إيوان كسرى ، وخمود نار الفرس ، ونضوب بحيرة ساوة ، وما إلى ذلك من خوارق العادات .

قال البوصيرى فى البردة :

---

(١) راجع كتاب نجباء الأبناء .

أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ ... يَاحُسْنَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ
يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيهِ الْفُرْسُ أَنَّهُمُ ... قَدْأُنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنِّقَمِ

وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ
كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ

وَالنَّارُ خَامِدَةُ الْأَنْفَاسِ مِنْ أَسَفٍ
عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِى الْعَيْنِ مِنْ سَدَمِ

وَسَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا ... وَرُدَّ وَارِدُهَا بِالْغَيْظِ حِينَ ظَمِى
كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالْمَاءِ مِنْ بَلَلٍ ... حُزْنًا وَبِالْمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ
وَالْجِنُّ تَهْتِفُ وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ ... وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنًى وَمِنْ كَلِمِ
عَمُوا وَصَمُّوا فَإِعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ ... تُسْمَعْ وَبَارِقَةُ الْإِنْذَارِ لَمْ تُشَمِ
مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ ... بِأَنَّ دِينَهُمُ الْمُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ

وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِى الْأُفْقِ مِنْ شُهُبٍ
مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ صَنَمِ

حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٌ
مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

وقال فى الهمزية :

وَتَدَاعَى إِيوَانُ كِسْرَى وَلَوْلَا ... آيَةٌ مِنْكَ مَاتَدَاعَى الْبِنَاءُ
وَغَدَا كُلُّ بَيْتِ نَارٍ وَفِيهِ ... كُرْبَةٌ مِنْ خُمُودِهَا وَبَلَاءُ

وَعُيُونٌ لِلْفُرْسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا نَ لِنِيرَانِهِمْ بِهَا إِطْفَـاءُ

ويقول شوقى فى نهج البردة :

وَخَلِّ كِسْرَى وَإِيوَانًا يُدِلُّ بِهِ هَوَى، عَلَى أَثَرِ النِّيرَانِ والْأُيُمِ

ويقول فى الهمزية :

ذُعِرَتْ عُرُوشُ الظَّالِمِينَ فَزُلْزِلَتْ
وَعَلَتْ عَلَى تِيجَانِهِمْ أَصْدَاءُ

وَالنَّارُ خَاوِيَةُ الْجَوَانِبِ حَولَهُمْ خَمَدَتْ ذَوَائِبُهَا وَغَاضَ الْمَاءُ

وَالْآيُ تَتْرَى وَالْخَوَارِقُ جَمَّةٌ جِبْرِيلُ رَوَّاحٌ بِهَا غَـدَّاءُ

ويرى القارئ أن البوصيرى أكثر من شوقى إشادة بتلك الخوارق ، وشعره فيها يفيض بالحياة ، أما شوقى فقد آثر الحيطة ، وهو يتكلم عن هذه الموضوعات ، فكان شعره فيها أضعف من شعره فى سائر أغراض القصيدة ، وسنرى تحليله لفريضة الجهاد فى الكلمة الآتية :

• • •

ويمكن بعد هذا أن نحكم بان شعر البوصيرى أروع من شعر شوقى فى وصف الخوارق والمعجزات ، وأن شوقى أبعد نظراً من البوصيرى فى نقد الأخبار والآثار ، فإن انصداع الإيوان ، وخمود نار الفُرس ، ونُضوب بحيرة ساوة ، وانقضاض الشهب على الأصنام : كل هذه الحوادث فيها نظر ، وكلها فى حاجة إلى تمحيص ، ولكن أكثر الناس لايعلمون .

البحث الرابع والعشرون

وصف القرآن

لم يُعْنَ البارودى بوصف القرآن كما عُنِىَ به البوصيرى وشوقى ، أما البوصيري فقد قال :

دَعْنِى وَوَصْفِى آياتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ الْقِرَى لَيْلاً عَلَى عَلَمِ
فَالدُّرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ
فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ

وأول هذه الأبياتِ فيه شيء من السذاجة . وعبارة « دعنى ووصفى آيات له ظهرت » عبارة عاميّة . وقوله :

فَالدُّرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ

غير واضح المدلول ، لأن الدر الذى يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن ، لأنه لا يهُمُّ بنظم القرآن ، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن ، إذ لم تسبق ذلك إشارةٌ ولم يتقدمه دليل ، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضتْ للشاعر وعز عليه أن تضيع ، فقيدها فى ذلك البيت وهو فى ذاته بيت جميل ... أما قوله :

فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ

فهو بيت يُمدَح به شخص ، ولا يُقَرَّظُ به كتاب ، وقد كان الشاعر يرمى إلى

وصف القرآن بأنه دعوة إلى محاسن الشيم ، ومكارم الأخلاق ، ولكنه لم يوفّق إلى حسن الأداء ..

وقوله بعد ذلك :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثَةٌ ... قَدِيمَةٌ صِفَةُ المَوْصُوفِ بِالْقِدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهْيَ تُخْبِرُنَا ... عَنِ المَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

فيه إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحُدوثه ، وهى إشارة مبهمة لاتغنى فى دفع ولا تأييد ، والبيت الثانى غير جيد المعنى ، لأن إخبار القرآن عن عاد وعن إرم ، ليس حجة إلا عند المسلمين ، أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار ، بَعْدَ أمْن اللبْس والتزوير ...

أما قوله :

دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

فهو بيت القصيد ، إذ كان القرآن هو المعجزة الباقية ، وكان هو المرجع حين يَجِدُّ الخلاف ، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التى يعتز بها العقل ، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين ، أما نبع الماء من بين يدى الرسول ، وتظليل الغمام إياه ، وسجود الأشجار له ، وما إلى ذلك من المعجزات ، فهى مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة ، وهى مخْشيّة الضرّ ، قبل أن تكون مَرْجُوّةَ النفع ، ولكن أكثر الناس لايفقهون .

وقوله :

مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرَبٍ ... أَعْدَى الأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِيَ السَّلَمِ
رَدَّتْ بَلَاغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا ... رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الجَانِي عَنِ الحَرَمِ

كلمةُ صدق ، ويكفى أن تقرأ القرآن بحيْدةٍ ونَزاهةٍ لتلمس هذه الحقيقة ، فالقرآن كتابٌ خطرٌ رهيب ، يحمل عدوه على الإيمان به ، والخشوع لديه : ولو صَحّتْ — لا صَحّتْ — أراجيف المُلْحدين من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود .

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » .

وما أصْدقَ قَوْلَ البوصيرى فى آيات الكتاب العزيز :

لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِى مَدَدٍ
وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِى الحُسْنِ وَالْقِيَمِ
فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلَا تُسَامُ عَلَى الإِكْثَارِ بِالسَّأَمِ
قَرّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ
لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللهِ فَاعْتَصِمِ
إِنْ تَتْلُهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارِ لَظًى
أَطْفَأْتَ نَارَ لَظًى مِنْ وِرْدِهَا الشَّبِمِ
لَا تَعْجَبَنْ لِحَسُودٍ رَاحَ يُنْكِرُهَا
تَجَاهُلًا وَهُوَ عَيْنُ الحَاذِقِ الْفَهِمِ
قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال ، وهو غاية فى تقريع المكابرين ...

أما شوقى فقد قال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالآيَاتِ فَانْصَرَمَتْ
وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ المَدَى جُدُدٌ
يزِينهُنَّ جَلَالُ الْعِتقِ وَالْقِدَمِ

يَكَادُ فى لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشَرَّفَة
يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبالرَّحِمِ

وهذا الوصف على إيجازه جميل ، وكنت أوَد ألا يكتفى شوقى فى وصف القرآن بهذه الأبيات .. ، وقد انتقل إلى الإشادة بحديث النبى فقال :

يَا أَفْصَحَ النَّاطِقِينَ الضَّـادَ قَاطِبَةً
حَدِيثُكَ الشَّهْدُ عِنْدَ الذَّائِقِ الْفَهِمِ

حَليْتَ مِنْ عَطَلٍ جِيدَ الْبَيَانِ بِهِ
فى كُلِّ مُنْتَثِرٍ فى حُسْنِ مُنْتَظِمِ

بِكُلِّ قَـوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُه
تُحْيِى الْقُلُوبَ وَتُحْيِى مَيِّتَ الْهِمَمِ

وقول شوقى :

آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ المَدَى جُدُدٌ يزِينهُنَّ جَلَالُ الْعِتقِ وَالْقِدَمِ

أروع من قول البوصيرى :

فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا
وَلَا تُسَامُ عَلَى الإِكْثَارِ بِالسَّأَمِ

وقول البوصيرى :

إنْ تَتْلُهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارِ لَظَى أَطْفَأْتَ حَرَّ لَظَى مِنْ وِرْدِهَا الشَّبِمِ

فيه ضعف ، لأنه ينقل القرآن من الغرض الذى أنزل لأجله ، وهو تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول ، إلى غرض ضئيل وهو اتخاذه ورداً من أوراد الصباح أو المساء ، كما فعل المتأخرون .

وقوله :

حَلَّيْتَ مِنْ عَطَلٍ جِيدَ الْبَيَانِ بِهِ
فِى كُلِّ مُنْتَثِرٍ فِى حُسْنِ مُنْتَظِمِ

غير جيد المعنى ، وهو لايزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو زينة البيان ، وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع إلى ما فيه من الشُمول ، وجودة الوصف لاتتم إلا بتحديد الموصوف .

وصف الهيجاء

عُنِىَ العرب كثيراً بوصف الحرب ، فأفاض شعراؤهم فى الإشادة بذكر الغُزاة ، والتمدح بآثار المجاهدين ، وهذا كتاب (الحماسة) شاهدٌ عَدْلٌ على تلك النزعة الحربية التى سيطرت على نفوس العرب زمناً غير قليل ، فقد اختار أبو تمام قطعاً قليلة فى الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق ، وفعل مثل ذلك فى الفكاهات والمُلح والنسيب ، ثم ملأ كتابه بالحماسة والهجاء والمديح : وهى الفنون التى تترجم النفس العربية ، وتكشف عما فيها من مطوىّ النوازع ، ومكنون الميول ، وكذلك مُهِّدَت السبيل لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبى من المعارك ، وما اقتحم من الحروب ، وإن اختلفت مناحيهم فى وصف الهيجاء :

أما البوصيرى فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملة ولم يميز بعض الغزوات عن بعض ، وهو يتكلم عن أخبار القتال ، فوصفُه للحرب وصفٌ فَضْفاضٌ يصلح لَبوساً لكل موصوف . وانظر كيف يقول :

رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءُ بِعْثَتِهِ
كَنَبْأَةٍ أَجْفَلَتْ غُفْلاً مِنَ الْغَنَمِ

مازَالَ يَلْقَاهُمُو فى كُلِّ مُعْتَرَكٍ
حَتّى حَكَوْا بِالْقَنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمِ

وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ
أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّخَمِ

تَمْضِى اللَّيَالِى وَلَا يَدْرُونَ عِدَّتَهَا
مَالَمْ تكن مِن لَيَالِى الأَشْهُرِ الحُرُمِ

كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ
بِكُلِّ قَرْمٍ إلى لَحْمِ الْعِدَا قَرِمِ

يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ
يَرْمِى بِمَوْجٍ مِنَ الأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ

مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ للهِ مُحْتَسِبٍ
يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمِ

حَتى غَدَتْ مِلَّةُ الإِسْلَامِ وَهْىَ بِهِمْ
مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

وإنه ليحسن أن نسجل إعجابنا بقوله فى وصف المجاهدين من أصحاب الرسول :

هُمُ الْجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ
مَاذَا رَأَى مِنْهُمُو فى كُلِّ مُصْطَدَمِ

وَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أُحُدًا
فُصُولُ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الوَخَمِ

المُصْدِرِى الْبِيضِ حُمْرًا بَعْدَ مَاوَرَدَتْ
مِنْ الْعِدَا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ
وَالكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَا تَرَكَتْ
أَقْلَامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ
شَاكِى السِّلَاحِ لَهُمْ سِيمَا تُمَيِّزُهُمْ
وَالْوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيمَا مِنَ السَّلَمِ
تُهْدِى إِلَيْكَ رِيَاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُو
فَتَحْسبُ الزَّهْرَ فى الْأَكْمَامِ كُلَّ كَمِى

وقد يُسْتَضْعَف قوله :

كَأَنَّهُمْ فى ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رُبًا
مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لَامِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ
طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بأْسِهِمْ فَرَقًا
فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَهْمِ وَالْبُهَمِ

أما البارودى — جعل الله له لسانَ صدْقٍ فى الآخرين — فقد وصف الحرب وصفاً حياً صارخاً يبعث ميت العزم ، ويثير مدفون الصِّيَال ، وما ظنك بجندى سفاح نشأ فى أرض الفراعنة الذين همُّوا ببناء الصروح الشوامخ ليبلغوا أسباب السموات وليحاربوا المقتدر القهار ، وإنه لضلال أجمل من الهدى ، وغى أهدى من الرشاد !

ولننظر كيف يقول :

قَامَ النَّبِىُّ لِنَصْرِ الحَقِّ مُعْتَزِمًا   بِجَحْفَلٍ لِجُمُوعِ الشِّرْكِ مُخْتَرِمِ

تَبْدُو بِهِ الْبِيضُ وَالْقَسْطَالُ مُنْتَشِرٌ
كَالشُّهْبِ فِى اللَّيْلِ أَوْ كَالنَّارِ فِى الْفَحَمِ
لَمْعُ السُّيُوفِ وَتَصْهَالُ الْخُيُولِ بِهِ
كَالْبَرْقِ وَالرَّعْدِ فِى مُغْدَوْدِقٍ هَزِمِ
عَرَمْرَمٌ يَنْسِفُ الْأَرْضَ الْفَضَاءَ إِذَا
سَرَى بِهَا وَيَدُكُّ الْهُضْبَ مِنْ خِيَمِ
فِيهِ الْكُمَاةُ الَّتِى ذَلَّتْ لِعِزَّتِهَا مَعَاطِسٌ لَمْ تُذَلَّلْ قَبْلُ بِالْخُطُمِ
مِنْ كُلِّ مُعْتَزِمٍ بِالصَّبْرِ مُحْتَزِمٍ
لِلْقِرْنِ مُلْتَزِمٍ فِى الْبَأْسِ مُهْتَزِمِ
طَالَتْ بِهِمْ هِمَمٌ نَالُوا السِّمَاكَ بِهَا
عَنْ قُدْرَةٍ وَعُلُوُّ النَّفْسِ بِالْهِمَمِ
بِيضٌ أَسَاوِرَةٌ غُلْبٌ قَسَاوِرَةٌ
شُكْسٌ لَدَى الْحَرْبِ مِطْعَامُونَ فِى الْأَزَمِ
طَابَتْ نُفُوسُهُمُ بِالْمَوْتِ إِذْ عَلِمُوا
أَنَّ الْحَيَاةَ الَّتِى يَبْغُونَ فِى الْعَدَمِ
سَاسُوا الْجِيَادَ فَظَلَّتْ فِى أَعِنَّتِهَا
طَوْعَ الْبَنَانَةِ فِى كَرٍّ وَمُقْتَحَمِ
تَكَادُ تَفْقَهُ لَحْنَ الْقَوْلِ مِنْ أَدَبٍ وَتَسْبِقُ الْوَحْىَ وَالْإِيمَاءَ مِنْ فَهَمِ

كَأَنَّ أَذْنَابَهَا فى الْكَرِّ أَلْوِيَةٌ عَلَى سَفِينٍ لِأَمْرِ الرِّيحِ مُرْتَسِمِ

مِنْ كُلِّ مُنْجَرِدٍ يَهْوِى بِصَاحِبِهِ
بَيْنَ الْعَجَاجِ هُوِىَّ الْأَجْدَلِ اللَّحِمِ

وَالْبِيضُ تَرْجُفُ فى الْأَغْمَادِ مِنْ ظَمَإٍ
وَالسُّمْرُ تَرْعُدُ فى الْأَيْمَانِ مِنْ قَرَمِ

مِنْ كُلِّ مُطَّرِدٍ لَوْلَا عَلَائِقُهُ
لَسَابَقَ الْمَوْتَ نَحْوَ الْقِرْنِ مِنْ ضَرَمِ

كَأَنَّهُ أَرْقَمٌ فى رَأْسِهِ حُمَةٌ
يَسْتَلُّ كَيْدَ الْأَعَادِى بِابْنَةِ الرَّقَمِ

فَلَمْ يَزَلْ سَائِرًا حَتَّى أَنَافَ عَلَى
أَرْبَاضِ مَكَّةَ بِالْفُرْسَانِ وَالْبُهَمِ

وَلَفَّهُمْ بِخَمِيسٍ لَوْ يُشَدُّ عَلَى
أَرْكَانِ رَضْوَى لَأَضْحَى مَائِلَ الدِّعَمِ

فَأَقْبَلُوا يَسْأَلُونَ الصَّفْحَ حِينَ رَأَوْا
أَنَّ اللَّجَاجَةَ مَدْعَاةٌ إِلَى النَّدَمِ

رِيعُوا فَذَلُّوا ، وَلَوْ طَاشُوا الْوَقَّرَهُمْ
ضَرْبٌ يُفَرِّقُ مِنْهُمْ مَجْمَعَ اللِّمَمِ

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال ، وإنك لتعجب حين ترى البارودى يفتن

فى تصوير الحرب ، وهو يتحدث عن الغزوات غَزْوَةً غَزْوَةً ، وانظر كيف يقول مثلا فى يوم بدر :

يَومٌ تَبَسَّمَ فِيهِ الدِّينُ وَانْهَمَلَتْ
عَلَى الضَّلَالِ عُيُونُ الشِّرْكِ بِالسَّجَمِ
أَبْلَى عَلِيٌّ بِهِ خَيْرَ الْبَلَاءِ بِمَا
حَبَاهُ ذُو الْعَرْشِ مِنْ بَأْسٍ وَمِنْ هِمَمِ
وَجَالَ حَمْزَةُ بِالصَّمْصَامِ يَكْسُوهُمْ
كَسْاً يُفَرِّقُ مِنْهُمْ كُلَّ مُزْدَحَمِ
وَغَادَرَ الصَّحْبُ وَالْأَنْصَارُ جَمْعَهُمُو
وَلَيْسَ فِيهِ كَمِيٌّ غَيْرُ مُنْهَزِمِ
تَقَسَّمَتْهُمْ يَدُ الْهَيْجَاءِ عَادِلَةٌ
فَالْهَامُ لِلْبِيضِ وَالْأَبْدَانُ لِلرَّخَمِ
كَأَنَّمَا الْبِيضُ بِالْأَيْدِى صَوَالِجَةٌ
يَلْعَبْنَ فِى سَاحَةِ الْهَيْجَاءِ بِالْقِمَمِ

لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كَمِيٌّ غَيْرُ مُنْجَدِلٍ ... عَلَى الرَّغَامِ وَعُضْوٌ غَيْرُ مُنْحَطِمِ
فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ وَالحَرْبُ مُسْعَرَةٌ ... حَتَّى غَدَا جَمْعُهُمْ نَهْبًا لِمُقْتَسِمِ
قَدْ أَمْطَرَتْهُمْ سَمَاءُ الحَرْبِ صَائِبَةً ... بِالْمَشْرَفِيَّةِ وَالْمُرَّانِ كَالرُّجُمِ
فَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ زَهْوٍ وَمِنْ صَلَفٍ ... وَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ فَخْرٍ وَمِنْ شَمَمِ
جَاءُوا وَلِلشَّرِّ وَسْمٌ فِى مَعَاطِسِهِمْ ... فَأُرْغِمُوا وَالرَّدَى فِى هَذِهِ السِّيَمِ

مَنْ عَارَضَ الحَقَّ لمْ تَسْلمْ مَقَاتِلهُ ... وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلأَخْطَارِ لَمْ يَنَمِ

أما شوقى فقد وصف النبي فى الحرب وصفاً رقيقاً لا يلائم ماتقضى به الحروب من غَلَبة الغضب وشمول العُبُوس ، ولننظر كيف يقول :

الْبَدْرُ دُونَكَ فى حُسْنٍ وفِى شَرَفٍ ... وَالْبَحْرُ دُونَكَ فى خَيْرٍ وفى كَرَمِ

شُمُّ الْجِبَالِ إِذا طَاوَلْتَهَا انْخَفَضَتْ ... وَالأَنْجُمُ الزُّهْرُ مَا وَاسَمْتَهَا تَسِمِ

وَالليْثُ دُونَكَ بَأْسًا عِنْدَ وَثْبَتِهِ ... إِذَامَشَيْتَ إِلَى شَاكِى السِّلاحِ كَمِى

تَهْفُو إِلَيْكَ وَإِنْ أَدْمَيْتَ حَبَّتَهَا ... فى الْحَرْبِ أَفْئِدَةُ الأَبْطَالِ وَالْبُهَمِ

مَحَبَّةُ اللهِ أَلْقَاهَا وَهَيْبَتُهُ ... عَلَى ابْنِ آمِنَةٍ فى كُلِّ مُصْطَدَمِ

كَأَنَّ وَجْهَكَ تَحْتَ النَّقْعِ بَدْرُ دُجًى ... يُضِىءُ مُلْتَثِمًا أَوْ غَيْرَ مُلْتَثِمِ

بَدْرٌ تَطَلَّعَ فى بَدْرٍ فَغُرَّتُهُ ... كَغُرَّةِ النَّصْرِ تَجْلُو دَاجِىَ الظُّلَمِ

وهذا شعر جميل ، لكنه أرقُّ من أن يُوصَفَ به ذوو البأس وهم يقارعون الهول فى ميدان الجلاد ، ويعجبنى قوله فى وصف الغُزاة :

مَهْمَا دُعِيتَ إِلَى الْهَيْجَاءِ قُمْتَ لَهَا ... تَرْمِى بِأُسْدٍ وَيَرْمِى اللهُ بِالرُّجُمِ

عَلَى لِوائِكَ مِنْهُمْ كُلُّ مُنْتَقِمٍ ... لِلهِ مُسْتَقْتِلٍ فى اللهِ مُعْتَزِمِ

مُسَبِّحٍ لِلِقَاءِ اللهِ مُضْطَرِمٍ ... شَوْقًا عَلَى سَابِحٍ كَالْبَرْقِ مُضْطَرِمِ

لَوْ صَادَفَ الدَّهْرَ يَبْغِى نَقْلَةً فرمى ... بِعَزْمِهِ فى رِحَالِ الدَّهْرِ لَمْ يَرِمِ

بِيضٌ مَفَالِيلُ مِنْ فِعْلِ الحُرُوبِ بِهِمْ ... مِنْ أَسْيُفِ اللهِ لاَ الهِنْدِيَّةِ الخُذُمِ

كَمْ فى التُّرَابِ إِذَا فَتَّشْتَ عَنْ رَجُلٍ
مَنْ مَاتَ بِالْعَهْدِ أَوْ مَنْ مَاتَ بِالْقَسَمِ

لَوْلاَ مَوَاهِبُ فى بَعْضِ الْأَنَامِ لَمَا
تَفَاوَتَ النَّاسُ فى الْأَقْدَارِ وَالْقِيَمِ

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيرى عن السر فى مشروعية القتال ، وأشار إليها البارودى إشارة خفيفة حين قال :

ذَاقُوا الرَّدَى جُرَعًا فَاسْتَسْلَمُوا جَزَعًا
لِلصُّلْحِ وَالحَرْبُ مَرْقَاةٌ إِلَى السَّلَمِ

أما شوقى فقد أبان عن حكمة الجهاد ، وأفصح عنها إفصاحاً يُرضى المنصف ويكبح جهل المعاند الكنود ، ولننظر كيف يقول :

قَالوا غَزَوْتَ وَرُسْلُ ٱللهِ مَابُعِثُوا لِقَتْلِ نَفْسٍ وَلاَ جَاءُوا لِسَفْكِ دَمِ
جَهْلٌ وَتَضْلِيلُ أَحْلاَمٍ وَسَفْسَطَةٌ فَتَحْتَ بِالسَّيْفِ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ
لمَّا أَتَى لَكَ عَفْوًا كُلُّ ذِى حَسَبٍ تَكَفَّلَ السَّيْفُ بِالْجُهَّالِ وَالْعَمَمِ
وَالشَّرُّ إِنْ تَلْقَهُ بِالْخَيْرِ ضِقْتَ بِهِ ذَرْعًا وَإِنْ تَلْقَهُ بِالشَّرِ يَنْحَسِمِ

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية ، فقد كانت دين سلام وإخاء ، ولكنها لم تقم إلا بالسيف ، وفى هذا يقول :

سَلِ المَسِيحِيَّةَ الْغَرَّاءَ كَمْ شَرِبَتْ بِالصَّابِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْغَلِمِ

طَرِيدَةُ الشِّرْكِ يُؤْذِيهَا وَيُوسِعُهَا فى كُلِّ حِينٍ قِتَالاً سَاطِعَ الحَدَمِ
لَوْلَا حُمَاةٌ لَهَا هبُّوا لِنُصْرَتِهَا
بِالسَّيْفِ مَا انْتَفَعَتْ بِالرِّفْقِ وَالرَّحِمِ

ثم عاد إلى تأكيد فضيلة الجهاد ، فقال :

عَلَّمْتَهُمْ كُلَّ شَىْءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ حَتَّى الْقِتَالَ وَمَا فِيهِ مِنَ الذِّمَمِ
لَوْلَاهُ لَمْ نَرَ لِلدَّوْلَاتِ فى زَمَنٍ مَاطَالَ مِنْ عُمُدٍ أَوْ قَرَّ مِنْ دَعَمِ
تِلْكَ الشَّوَاهِدُ تَتْرَى كُلَّ آوِنَةٍ فى الْأَعْصُرِ الْغُرِّ لَا فِى الْأَعْصُرِ الدُّهُمِ
بِالْأَمْسِ مَالَتْ عُرُوشٌ وَاعْتَلَتْ سُرُرٌ
لَوْلَا الْقَذَائِفُ لَمْ تُثْلَمْ وَلَمْ تُصَمِ

المدنية الاسلامية

وقد انفرد شوقى بالافصاح عن جلال المدنية الاسلامية ، وتقديمها على مدنية المصريين واليونان والرومان ، وفى ذلك يقول :

دَعْ عَنْكَ رُومَا وَآتِينَا وَمَا حَوَتَا كُلُّ الْيَوَاقِيتِ فى بَغْدَادَ وَالتُّوَمِ
وَخَلِّ كِسْرَى وَإِيوَانًا يُدِلُّ بِهِ هَوًى عَلَى أَثَرِ النِّيرَانِ وَالْأَيُمِ
وَاتْرُكْ رَعَمْسِيسَ إِنَّ الْمُلْكَ مَظْهَرُهُ
فى نَهْضَةِ الْعَدْلِ لَا فى نَهْضَةِ الهَرَمِ
دَارُ الشَّرَائِعِ رُومَا كُلَّمَا ذُكِرَتْ دَارُ السَّلَامِ لَهَا أَلْقَتْ يَدَ السَّلَمِ
مَا ضَارَعَتْهَا بَيَانًا عِنْدَ مُلْتَأَمٍ وَلَا حَكَتْهَا قَضَاءً عِنْدَ مُخْتَصَمِ

وَلاَ آحْتَوَتْ فى طِرَازٍ مِنْ قَيَاصِرَهَا عَلَى رَشِيدٍ وَمَأْمُونٍ وَمُعْتَصِمِ
مِنَ الَّذِينَ إِذَا سَارَتْ كَتَائِبُهُمْ تَصَرَّفُوا بِحُدُودِ الأَرْضِ وَالتُّخُمِ
وَيَجْلِسُونَ إِلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَــةٍ فَلاَ يُدَانَوْنَ فى عَقْلٍ وَلاَ فَهَمِ
يُطَأْطِئُ الْعُلَمَــاءُ الْهَــامَ إِنْ نَبَسُـــوا
مِنْ هَيْبَةِ العِلْمِ لاَ مِنْ هَيْبَةِ الحُكُمِ

وقد مضى الشاعر فى وصف خلفاء الاسلام ، وما كان لهم من الأثر فى حياطة الدين . ولا يعجبنى من ذلك كله غير قوله :

وَآتْرُكْ رَعَمْسِيسَ إِنَّ المُلْكَ مَظْهَــــــرُهُ
فى نَهْضَــةِ الْعَدْلِ لاَ فى نَهْضَةِ الْهَــــرَمِ

فإنه من فرائد الأمثال ... ولنسجّل بعد هذه الموازنة المفصلة أن البوصيرى سما فى المدائح النبوية سمُوّا لم يُوفقْ إلى معْشَارِهِ فى سائر شعره ؛ وهذا أثرٌ لصدق العاطفة ، بخلاف صاحبيْه ، فان شعرهما فى هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ ، وصدق شوقى حين قال :

المَادِحُـــونَ وَأَرْبَـــابُ الْهَــوى تَبَــعٌ
لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَــــاءِ ذِى الْقَــدَمِ
مَدِيحُـــهُ فِيكَ حُبٌّ خَالِصٌ وَهَــوًى
وَصَادِقُ الحُــبِّ يُمْلِى صَادِقَ الْكَلِـــــمِ

البحث الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه فى المشرق وهو أبو نواس ، وكان ثانيهما شاعر زمانه فى المغرب وهو ابن دراج : « سابق حَلْبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين » كما قال أبو حيان .

وكان الواجب أن نذكر شيئاً عن أبى نواس وعصره ، ولكنا رأينا أن نحيل القارىء إلى ما كتبه فى ذلك الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء ، ونكتفى بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قَدِم على الخصيب فى مصر صادف فى مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه ، فلما فرغوا قال الخصيب : ألا تنشدنا أبا على ؟ فقال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هى بمنزلة عصا موسى تَلْقَف ما يأفكون ! قال : هات إذاً . فأنشده رائيته المشهورة :

أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُـــورُ وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكِ عَسِيرُ

فاهتز لها الخصيب ، وأمر له بجائزة سنية . وقد طار ذكر هذه القصيدة فى جميع الأمصار ، وعارضها كثير من الشعراء ، منهم أحمد بن دراج القسطلى الأندلسى – وسنبسط عنه القول – ومنهم حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقى ، فقد وازن قصيدة أبى نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وقصده بها إلى مصر كما فعل أبو نواس حين توجه بقصيدته إلى الخصيب ، وفيها يقول :

عَسَى مِنْ دِيَارِ الظَّاعِنِينَ بَشِيرُ وَمِنْ جَوْرِ أَيَّامِ الْفِرَاقِ مُجِيرُ

لَقَدْ عِيلَ صَبْرِى بَعْدَهُم وَتَكَاثَرت
هُمُومِى وَلٰكِنَّ المُحِبَّ صَبُورُ

وَكَمْ بَيْنَ أَكْنَافِ الثُّغُورِ مُتَيَّمٌ كَئِيبٌ غَزَتْهُ أَعْيُنٌ وَثُغُورُ
وَكَمْ لَيْلَةٍ بِالْمَاطِرُونِ قَطَعْتُهَا وَيَوْمٍ إِلَى المَيْطُورِ وَهْوَ مَطِيرُ
سَقَى اللهُ مِنْ سَطْرَا وَمَقْرَا مَنَازِلاً بِهَا لِلنَّدَامَى نَظْرَةٌ وَسُرُورُ
وَلاَ زَالَ ظِلُّ النَّيِّرَيْنِ فَإِنَّهُ طَوِيلٌ وَيَوْمُ المَرْءِ فِيهِ قَصِيرُ
وَيَا بَرَدَى لاَزَالَ مَاؤُكَ بَارِدًا وَمَاءُ الحَيَا مِنْ سَاحَتَيْكَ نَمِيرُ
أَبَى الْعَيْشُ إِلاَّ بَيْنَ أَكْنَافِ جِلَّقٍ وَقَدْ لاَحَ فِيهَا أَشْمُسٌ وَبُدُورُ
وَكَمْ بِحِمَى جَيْرُونَ سِرْبُ جَآذِرٍ حَبَائِلُهُنَّ المَالُ وَهْوَ نَفُورُ
وَلٰكِنْ سَأَحْوِيهِ إِذَا سِرْتُ قَاصِدًا إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الصَّلاَحُ أَمِيرُ

وعارضها محمود سامى البارودى بقصيدة جيدة نختار منها قوله :

أَلاَ فَرَعَى اللهُ الصِّبَا مَا أَبَرَّهُ وَحَيَّا شَبَابًا مَرَّ وَهْوَ نَضِيرُ
إِذِ الْعَيْشُ أَفْوَافٌ تَرِفُّ ظِلاَلُهُ عَلَيْنَا وَسَلْسَالُ الْوَفَاءِ نَمِيرُ
وَإِذْ نَحْنُ فِيمَا بَيْنَ إِخْوَانِ لَذَّةٍ عَلَى شِيَمٍ مَا إِنْ بِهِنَّ نَكِيرُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَلاَعِبٍ بِهَا اللَّهْوُ خِدنٌ وَالشَّبَابُ سَمِيرُ
فَأَلْحَاظُنَا بَيْنَ النُّفُوسِ رَسَائِلٌ وَرَيْحَانُنَا بَيْنَ الْكُؤُوسِ سَفِيرُ
عَقَدْنَا جَنَاحَىْ لَيْلِنَا بِنَهَارِنَا وَطِرْنَا مَعَ اللَّذَّاتِ حَيْثُ تَطِيرُ
وَقُلْنَا لِسَاقِينَا أَدِرْهَا فَإِنَّمَا بَقَاءُ الْفَتَى بَعْدَ الشَّبَابِ يَسِيرُ

فَطَافَ بِهَا شَمْسِيَّةً لَهَبِيَّـــةً لَهَا عِنْدَ أَلْبَابِ الرِّجَالِ ثُؤُورُ
إِذَا مَاشرِبْنَاهَا أَقَمْنَا مَكَانَنَـــا وَظَلَّتْ بِنَا الأَرْضُ الْفَضَاءُ تَدُورُ

ويعجبنا منها قوله فى وصف الحمائم الساجعة :

وَكَمْ لَيْلَةٍ أَفْنَيْتُ عُمْرَ ظَلاَمِهَا إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فِيهِ قَتِيرُ
شَغَلْتُ بِهَا قَلْبِى وَمَتَّعْتُ نَاظِرِى وَنَعَّمْتُ سَمْعِى وَالْبَنَانُ طَهُورُ
صَنَعْتُ بِهَا صُنْعَ الْكَرِيمِ بِأَهْلِهِ وَجِيرَتِهِ ، وَالْغَادِرُونَ كَثِيرُ
فَمَا رَاعَنَا إِلاَّ حَفِيفُ حَمَائِـــمٍ لَهَا بَيْنَ أَطْرَافِ الْغُصُونِ هَدِيرُ
تُجَاوِبُ أَتْرَابًا لَهَا فى خَمَائِلٍ لَهُنَّ بِهَا بَعْدَ الحَنِينِ صَفِيرُ
نَوَاعِمُ لاَ يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ ولاَ دَائِرَاتِ الدَّهْرِ كَيْفَ تَدُورُ
تَوَسَّدُ هَامَاتٌ لَهُنَّ وَسَائِـــدًا مِنَ الرِّيشِ فِيهِ طَائِلٌ وَشَكِيرُ
كَأَنَّ عَلَى أَعْطَافِهَا مِنْ حَبِيكِهَا تَمَائِمَ لَمْ تُعْقَدْ لَهُنَّ سُيُورُ
خَوَارِجُ مِنْ أَيْكٍ دَوَاخِلُ غَيْرِهِ زَهَاهُنَّ ظِلٌّ سَابِغٌ وَغَدِيـــرُ
إِذَا غَازَلَتْهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ كَأَنَّما عَلَى صَفْحَتَيْهَا سُنْدُسٌ وَحَرِيرُ
فَلَمَّا رَأَيْتُ الصُّبْحَ قَدْ رَفَّ جِيدُهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نَسْجِ الظَّلاَمِ سُتُورُ
خَرَجْتُ أَجُرُّ الذَّيْلَ تِيهًا وَإِنَّمَا يَتِيهُ الْفَتَى إِنْ عَفَّ وَهْوَ قَدِيرُ

ومن الوفاء أن ننوّه بهذه القطعة الجزلة التى وصف بها نفسه ، وهو يقول :

وَلِى شِيمَةٌ تَأْبَى الدَّنَايَا وَعَزْمَةٌ تَرُدُّ لُهَامَ الجَيْشِ وَهْوَ يَمُورُ

إِذَا سِرْتُ فَالأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ فَوْقَهَا
مَرَادٌ لِمُهْرِى وَالْمَعَاقِلُ دُورُ

فَلاَ عَجَبٌ أَنْ لمْ يَصُرْنِى مَنْزِلٌ فَلَيْسَ لِعُقْبَانِ الْهَوَاءِ وُكُورُ
هَمَامَةُ نَفسٍ لَيْسَ يَنْفِى رِكَابَها رَوَاحٌ عَلَى طُولِ المَدَى وَبُكُورُ
مَعَوَّدَةٌ أَنْ لاَ تَكُفَّ عِنَانَهَا عَنِ الْجِدِّ إلاَّ أَنْ تَتِمَّ أُمُورُ
لَهَا مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ أُذْنٌ سَمِيعَةٌ وَعَيْنٌ تَرَى مَالاَ يَرَاهُ بَصِيرُ
وَفَيْتُ بِمَا ضَنَّ الْكِرَامُ فِرَاسَةً بِأَمْرِى وَمِثْلِى بِالْوَفَاءِ جَدِيرُ

وَأَصْبَحْتُ مَحْسُودَ الجَلاَلِ كَأَنَّنِى
عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فى الزَّمَانِ أَمِيرُ

إِذَا صُلْتُ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ غُلَوَائِهِ
وَإِنْ قُلْتُ غُصَّتْ بِالْقُلُوبِ صُدُورُ

وفى هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرتْ به قصيدة أبى نواس من تقدير الشعراء ، فلنضعها فى الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن الحسن ومظانّ الابتذال .

أغراض القصيدة

الغرض الأول لهذه القصيدة هو مدح الخصيب ، وقد استتبع هذا عند الشاعر أن يتحدث قليلاً عن نفرة جارته منه ، وانصرافها عنه ، وأن يذكر ما دار بينه وبين زوجه من الحوار حين همّ بالرحيل ، وأن يصف كيف سار الشعراء إلى مصر ، وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام ورياض العراق ، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة ، فتكلم عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب وتنكيله بالمفسدين ،

ثم عادَ فتكلم عن هيبته ، وما أعد للسلم والحرب ، وماله من طيب العنصر وكرم الأخلاق ، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين :

وإنّى جَدِيرٌ إذْ بَلَغْتُكَ بِالْمُنَى ... وَأَنْتَ بِمَا أَمَّلْتُ فِيكَ جَدِيرُ
فَإِنْ تُولِنِى مِنْكَ الجَمِيلَ فَأَهْلُهُ ... وَإلاَّ فَإِنِّى عَاذِرٌ وَشَكُــورُ

ولنأخذ فى نقد القصيدة وتحليلها ، فنذكر أولاً أنه حاور جارته بقوله :

أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُــورُ ... وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكِ عَسِيرُ
وإنْ كُنْتِ لاَ خِلْمًـــا ولاَ أَنْتِ زَوْجَـــةٌ
فَلاَ بَرِحَتْ دُونِى عَلَيْكِ سُتُــورُ

وليس فى صدر البيت الأول أثر لحسن الأداء ، وعبارة « أجارة بيتينا » ثقيلة على السمع ، وهى كذلك غير واضحة المدلول ، أو هى تحتاج على الأقل إلى أن نذكر أن الشاعر قد يريد ببيتى جارته بيت السكن وبيت النسب وقد يريد غير ذلك ، ولقد أذكر — من باب الفكاهة — أنى كنت أناقش الأستاذ محمد الهيهاوى مرة فى قيمة المنفلوطى وفهمه للأدب ، فقال : كيف وقد مات ولم يفهم قول أبى نواس « أجارة بيتينا أبوك غيور » لقد كان يكسر التاء من « بيتينا » ظنا منه أن هذا اسم مكان(١) ! !

وإنك لتكاد تلمس التناقض حين تقرن البيت الأول بقوله :

وَإنْ كُنْتِ لاَ خِلْمًا وَلاَ أَنْتِ زَوْجَــــــةٌ
فَلاَ بَرِحَتْ دُونِى عَلَيْــكِ سُتُــــــــــورُ

فهو أولاً يشكو عسر ما يرجو من هذه الجارة ، وذلك يوجب أن تكون مرجع

(١) عاتبنا الأستاذ أبو بكر المنفلوطى على هذه الدعابة التى مست أخاه ولكننا لا نرى بأساً من تسجيل بعض هفوات من عرفناهم من الأدباء ، وهى مع ذلك لا تغض من المنفلوطى الكاتب ، فقد شغل الشبان فى عصره ، وكان بلا جدال من أقطاب البيان .

هـَواه ، ثم يصرح بأنها ليست زوجة ولا صديقة ، فيضطرك إلى أن تسأله : وإلامَ تقصد حين تقول « فلا برحت دونى عليك ستور » ؟ ثم يغلب عليه ضيق الصدر ، وقلق النفس ، فيقول :

وَجَاوَرْتُ قَوْمًا لاتَزَاوُرَ بَيْنَهُمْ وَلَا وَصْلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُشُورُ
فَمَا أَنَا بِالمَشْغُوفِ ضَرْبَةَ لَازِبٍ وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَىَّ قَدِيرُ

وهو بهذا يتململ من أسر فؤاده وحبس أمانيه فى تلك البقعة التى لم يقرّ لقلبه فيها قرار ، ولم تنعم عينه فيها بغير لألاء النجوم ، حين تأنس العيون بالعيون ، وتسكن القلوب إلى القلوب .. ! ثم أخذ يحدثنا عن علمه بحركات الأهواء ، وخطرات النفوس ، فقال :

وَإِنِّى لِطَرْفِ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاجِرٌ
فَقَدْ كِدْتُ لَا يَخْفَى عَلَىَّ ضَمِيرُ

والزجر هنا ليس معناه الردع ، وإنما هو من زجر الطير . وأصله أن يرمى الرجل الطائر بحصاة أو يصيح به ، فإن ولاّه فى طيرانه ميامنه تفاءل به ، وإن ولاّه مياسره تطاير منه ، ويريد أنه يقرأ ما فى الصدر بملاحظة العين ، وهذا البيت تأكيد لما قرره قبل من عنف جارته به ، وقسوتها عليه ، وإن لم تصرح بالقطيعة ، ولم تعلن الصدود ... ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد فى وصف نفسه بصدق الفراسة ، بل شبّه نظرته بنظرة العُقاب فى سكون الريح ، وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها الأزغب ، فقال :

كَمَا نَظَرَتْ وَالرِّيحُ سَاكِنَةٌ لَهَا
عُقَابٌ بِأَرْسَاغِ الْيَدَيْنِ نَدُورُ
طَوَتْ لَيْلَتَيْنِ الْقُوتَ عَنْ ذِى ضَرُورَةٍ
أُزَيْغِبَ لَمْ يَنْبُتْ عَلَيْهِ شَكِيرُ

فَأَوْفَتْ عَلَى عَلْيَاءَ حِينَ بَدَا لَهَا
مِنَ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالضَّرِيبُ يَمُورُ

تُقَلِّبُ طَرْفًا فى حِجَاجَىْ مَغَارَةٍ
مِنَ الرَّأْسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ سُرُورُ

وهذه اللفتة من أبى نواس فيها خروج على فطرته ، إذ هى تقليد صريح لأسلوب الأعراب ، ويظهر أن أبا نواس كان يُعنى فى المواقف الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة ، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين ، كما كان ينقاد لفطرته كل الانقياد وهو يتحدث عن الصهباء ، ويشيد بذكر الندامى والسقاة والمغنين ، من كل رخيم الصوت ، أو أصبح الوجه ، أو عذب الحديث ، وهو الذى يقول :

قَدْ أَسْحَبُ الزِّقَّ يَأْبَانِى وَأُكْرِهُهُ
حَتَّى لَهُ فى أَدِيمِ الْأَرْضِ أُخْدُودُ

لَا أُرْحِلُ الرَّاحَ إلا أَنْ يَكُونَ لَهَا ... حَادٍ بِمُنْتَحِلِ الْأَشْعَارِ غِرِّيدُ

فَاسْتَنْطِقِ الْعُودَ قَدْ طَالَ السُّكُوتُ بِهِ
لَنْ يَنْطِقَ اللَّهْوُ حَتى يَنْطِقَ الْعُودُ

ولنذكر بعد هذا أن أبا نواس انتقل من الحديث عن نفرة جارته ، وصدق فراسته ، إلى الحديث عن حوار زوجه ، فقال :

تَقُولُ الَّتى مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِى
عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ

أَمَا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ ... بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ

فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلَتْهَا بَوَادِرٌ ... جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرْيِهِنَّ عَبِيرُ

ذَرِينى أُكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إلَى بَلَدٍ فِيــهِ الخَصِيبُ أَمِيرُ

وهذه القطعة من الشعر المختار ، ويرجع جمالها إلى مافيها من وضوح الفكرة وسلامة التعبير ، وانظر الصدق فى قوله :

أَمَا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبُ بَلَى إنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ

ولكن الشعراء فى ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير مدح الملوك والأمراء ، وكان هذا باباً لحصر العبقرية فى ناحية واحدة هى خلق المحامد والمناقب ، لكل من جُنَّ له الدهر فظفر بأثارة من الملك أو زاد بسطة فى المال — وقوله :

ذَرِينى أُكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إلَى بَلَدٍ فِيهِ الخَصِيبُ أَمِيرُ

من الأبيات المختارة ، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من الكنايات المستملحة ، وقد قال له الخصيب حين أنشد هذا البيت : إذاً يكثر حسادها ، وتبلغ أملها ؛ وأمر له بألف دينار ، ثم قال فى مدح الخصيب :

إذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الخَصِيب رِكابُنَا
فَأَىَّ فَتًى بَعْــدَ الخَصِيب تَزُورُ

فَمَا جَازَه جُــودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ
وَلٰكِنْ يَصِيرُ الجُــودُ حَيْثُ يَصِيرُ

وليس لهذين البيتين قيمة أدبية ، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن ممدوحه خير الناس على الإطلاق ، وأن الجود لا يجوزه ، ولا يحل دونه ، وإنما يصير حيث يصير ، إلى ما هنالك من وثبات الخيال . وقد نال منه الضعف والاسفاف حين قال :

فَلَمْ تَرَ عَيْنِى سُودُدًا مِثْلَ سُودُدٍ
يَحِلُّ أَبُو نَصْرٍ بِهِ وَيَسِيرُ

ولكنه وُفق كل التوفيق حين قال :

فَتًى يَشْتَرِى حُسْنَ الثَنَاءِ بِمَالِهِ
وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

فإنه يصف الخصيب بالسعى لنيل السمعة الحسنة ، والصيت البعيد ، ويصفه مع هذا بضبط النفس ، والحذر من عاديات النوائب ، وجائرات الخطوب ، ولا تطيب الدنيا لملك أو أمير إلا إذا خطا فى حكمه وملكه خطوات الحذر الهيوب ، الذى يتوقع فى كل لحظة أن يتنكر له الدهر ، وأن تثور من حوله الأقدار ... ثم أخذ يصف بطشه بالمفسدين ، وتنكيله بالعابثين بأمن الناس ، فقال :

وَأَطْرَقَ حَيَّاتُ الْبِلَادِ لِحَيَّةٍ خَصِيبِيَّةِ التَّصْمِيمِ حِينَ تَسُورُ
سَمَوْتَ لِأَهْلِ الجَوْرِ فى حَالِ أَمْنِهِمْ
فَأَضْحَوْا وَكُلٌّ فى الْوَثَاقِ أَسِيرُ

إِذَا قَامَ غَنَّتْهُ عَلَى السّاقِ حِلْيَةٌ
لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرُ

وفى هذه الأبيات إشارة إلى أن مصر فى ذلك العهد كانت تقاسى شيئاً من الاضطراب ، وكانت لذلك طُعمةً لاستبداد الحكام وسخرية الشعراء ، وأى سُخر آلم للنفس ، وأوجع للقلب ، من قول أبى نواس فى أحد فتيان مصر وهو يرسف فى الصِّفاد :

إِذَا قَامَ غَنَّتْهُ عَلَى السّاقِ حِلْيَةٌ
لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرُ

وقد أحسن أبو نواس فى وصف الخصيب بنصح الجيب حين قال :

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى جَاهِلًا بِمَقَالَتِى فَإِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ خَبِيرُ

وَمَا زِلْتَ تُولِيهِ النَّصِيحَةَ يَافِعاً إِلى أَنْ بَدَا فِى الْعَارِضَيْنَ قَتِيرُ
إِذَا غَالَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ وَإِمَّا عَلَيْـــهِ بِالْكِفَاءِ تُشِيرُ

وهذا من أجمل ما يوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر بأسرار الملوك ، وفى هذه القصيدة قطعة أخرها الشاعر ، وكانت أولى بالتقديم ، وهى وصف رحلة الشعراء إلى الخصيب ، ونحن نسرد هذه القطعة تتميما للموضوع ، ونصرح بأنها رديئة فى العبارة ، وفى السياق . قال :

رَحَلْنَ بِنَا مِنْ عَقْرَقُوفٍ وَقَدْ بَدَا
مِنَ الصُّبْحِ مَفْتُوقُ الأَدِيمِ شَهِيرُ
فَمَا نَجَدَتْ بِالْمَاءِ حَتى رَأَيْتُهَا
مَعَ الشَّمْسِ فى عَيْنَىْ أَبَاغ تَغُور
وَغُمِّرْنَ مِنْ مَاءِ النَّقِيبِ بِشَرْبَةٍ وَقَدْ حَانَ مِنْ دِيكِ الصَّبَاحِ زَمِيرُ
وَوَافَيْنَ إِشْرَاقاً كَنَائِسَ تَدْمُرٍ وَهُنَّ إِلَى رُعْنِ المُدَخَّنِ صُورُ
يُؤَمِّمْنَ أَهْلَ الْغُوطَتَيْنِ كَأَنَّمَا لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الْغُوطَتَيْنِ ثُؤُور
وَقَاسَيْنَ لَيْلاً دُونَ بَيْسَانَ لَمْ يَكَدْ
سَنَا صُبْحِـهِ لِلنَّاظِرِينَ يُنِيرُ
وَأَصْبَحْنَ بِالجولَانِ يَرْضَخْنَ صَخْرَهُ
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْرَاحِهِنَّ شُطُورُ
وَأَصْبَحْنَ قَدْ فَوَّزْنَ مِنْ نَهْرِ فُطْرُسٍ
وَهُنَّ عَنِ الْبَيْتِ المُقَـدَّسِ زُورُ

طَوَالِبُ بِالرُّكْبَانِ غَزَّةَ هَاشِمٍ
وَفِى الْفَرَمَا مِنْ حَاجِهِنَّ شُقُورُ

واستأنف مدح الحصيب ، فقال :

وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا
عَلَى رَكْبِهَا أَنْ لَاتَزَالَ مُجِيرُ
مِنَ الْقَوْمِ بَسّامٌ كَأَنَّ جَبِينَهُ سَنَا الْفَجْرِ يَسْرِى ضَوْؤُهُ وَيُنِيرُ
زَهَا بِالْخَصِيبِ السَّيْفُ وَالرُّمْحُ فِى الْوَغَى
وَفِى السِّلْمِ يَزْهُو مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ
جَوَادٌ إِذَا الْأَيْدِى كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى
وَمِنْ دُونِ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ غَيُورُ
لَهُ سَلَفٌ فِى الْأَعْجَمِينَ كَأَنَّهُمْ
إِذَا اسْتُؤْذِنُوا يَوْمَ السَّلَامِ بُدُورُ

وسنعود إلى تحليل هذه القطعة الأخيرة حين نوازن بينها وبين ما يماثلها فى قصيدة ابن درّاج .

البحث السادس والعشرون

نفحة من الأدب الأندلسى

نقدنا فى البحث الماضى قصيدة أبى نواس فى مدح الخصيب ، ورأينا مبلغه من الصدق حين ظنها كعصا موسى تلقف ما يأفكون ، ولم يبق إلا أن نوازن بينها وبين قصيدة ابن دراج الذى أوصاه أميره بمعارضة أبى نواس ، ولكنا رأينا أن نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن أبى عامر فى أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد ، فقد كانت هناك منافسة شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب فى الأدب والفلسفة والتشريع ، وكان لأهل الأندلس كلف شديد بالظهور على أهل المشرق ، وكان لابن دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء فى مصر والشام والعراق ، وسنرى كيف بذّ أبا نواس وبرعه حين نضع قصيدته فى الميزان ، وكان من أثر ذلك التنافس أن عُقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين : فازداد قادة الفكر قوة إلى قوة ونشاطاً إلى نشاط ، وتقدم النقد تقدماً ظهرت ثمرته فيما كان يعنى به العرب إذ ذاك من العلوم والفنون .

وهذه رسالة أبى الوليد الشقندى — التى وضعها فى تفضيل بَرّ الأندلس على بر العَدوة ، والتى أثبتها المقّرِىّ طيب الله ثراه فى نفح الطيب — تدل على رغبة الأندلسيين فى الظهور على من عداهم من العالمين ، وإنى لذاكر ما جاء فيها عن الشعر والشعراء ، لأضع يد القارىء على أثر هو فى جملته ثمرة لما كان من التنافس بين قرطبة وبغداد ، ولأنشر له صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عبقرية العرب فى ذلك الفردوس المفقود (١) .

---

(١) جاء فى نفح الطيب ص ٧٧٨ ما نصه : « قال ابن سعيد ، أخبرنى والدى قال : كنت يوماً فى مجلس صاحب سبتة أبى يحيى بن أبى زكريا صهر ناصر بن عبد المؤمن فجرى بين أبى الوليد الشقندى وبين أبى يحيى=

قال الشقندى بعد كلام طويل :

وهل لكم فى الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد فى قوله :

وَلَيْلٍ بِسَدِّ النَّهرِ أُنْساً قطَعْتُهُ
بِذَاتِ سِوار مِثْلِ مُنْعَطَفِ النَّهْرِ

نَضَتْ بُرْدَهَا عَنْ غُصْنِ بَانٍ مُنَعَّمٍ
فَيَاحُسْنَ مَا انْشَقَّ الْكِمَامُ عَن الزَّهْرِ

وقوله فى أبيه :

سَمَيْذَعٌ يَهَبُ الآلافَ مُبْتَدِئاً
وَبَعْدَ ذٰلِكَ يُلْفَى وَهُوَ يَعْتَذِرُ

لَهُ يَدٌ كُلُّ جَبَّارٍ يُقَبِّلُهَا لَوْلَا نَدَاهَا لَقُلْنَا إِنَّهَا الحَجَرُ

ومثل ابنه الرضى فى قوله :

مَرُّوا بِنَا أُصُلاً مِنْ غَيْرِ مِيعَادِ
فَأَوْقَدُوا نَارَ قَلْبِي أَىَّ إِيقَادِ

لَاغَرْوَ إِنْ زَادَ فى وَجْدِى مُرُورُهُمُو
فَرُؤْيَةُ المَاءِ تُذْكِى غُلَّةَ الصَّادِى

= ابن المعلم الطنجى نزاع فى التفضيل بين البرين . فقال الشقندى : لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة ، ولاسارت عنه فضيلة ، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم . فقال الأمير أبو يحيى : أتريد أن تقول كون أهل برنا عربا وأهل بركم بربر ؟ فقال : حاش لله ! فقال الأمير والله ما أردت غير هذا فظهر فى وجهه أنه أراد ذلك ، فقال ابن المعلم : أتقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدوة ؟ فقال الأمير : الرأى عندى أن يعمل كل منكما رسالة فى تفضيل بره ، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً وأرجو إذا اخليتما لهفكركما يصدر منكما ما يحسن تخليده . ففعلا » .

وهل لكم ملك ألّف فى فنون الأدب كتاباً فى نحو مائة مجلدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بطليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب ؟ وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار فى قصيدته التى سارت أشرد من مَثَل ، وأحب إلى الاسماع من حبيب وصل ، التى منها :

أَثْمَرْتَ رُمْحَكَ مِنْ رُءُوسِ مُلُوكِهِمْ
لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا

وَصَبَغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ كُمَاتِهِمْ
لَمَّا رَأَيْتَ الحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرَا

ومثل ابن زيدون فى قصيدته التى لم يُقل – مع طولها – أرق منها فى التشبيب ، وهى التى يقول فيها (١) :

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
وَالسَعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا

سِرّانِ فِى خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا
حَتى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون فى بديهته بين يدى المعتمد بن عباد وإصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبى :

إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكَ الْعُيُونُ بِنَظْرَةٍ
أَثَابَ بِهَا مُعْيِى المَطِىِّ وَرَازِمُهْ

(١) ارجع إلى هذه القصيدة فى كتاب : « مدامع العشاق » . فقد أثبتناها كلها هناك ، وقد عارضها شوقى بنونية مطلعها :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ... نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

فارتجل :

لَئِنْ جَادَ شِعْرُ ابْنِ الحسَيْنِ فَإِنَّمَا
تُجِيدُ العَطَايَا وَاللَّهَا تَفْتَحُ اللَّهَا

تَنَبَّأَ عُجْباً بِالْقَرِيضِ وَلَوْ دَرَى بِأَنَّكَ تَرْوِى شِعْرَهُ لَتَأَلَّهَا

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذى قال فيه الثعالبى : هو بالصقع الأندلسى كالمتنبى بصقع الشام ، الذى إن مدح الملوك قال مثل قوله :

أَلَمْ تَعْلَمِى أَنْ الثَوَاءَ هُوَ التَّوَى[1]
وَأَنَّ بُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ

وَأَنَّ خَطِيرَاتِ المَهَالِكِ ضُمَّنٌ لِرَاكِبِهَا أَنَّ الجزَاءَ خَطِيرُ

تُخَوِّفُنِى طُولَ السِّفَارِ وَإِنَّهُ بِتَقْبِيلِ كَفِّ الْعَامِرِىِّ جَدِيرُ

مُجِيرُ الْهُدَى وَالدِّينِ مِنْ كُلِّ مُلْحِدٍ
وَلَيْسَ عَلَيْهِ لِلضَّلَالِ مُجِيرُ[2]

وإن ذكر الغربة عن الأوطان ، ومكابدة نوائب الزمان ، قال :

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْفِرَاقُ مَدَامِعًا بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِباً بِتَرَائِبِ

أَتَفَرُّقٌ حَتَى بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ كَمْ نَحْنُ لِلأَيَّامِ نُهْبَةُ نَاهِبِ

---

(١) التوى : الهلاك ،

(٢) اختار الشقندى قطعة كبيرة من قصيدة ابن دراج ، ولكنا اكتفينا بذكر هذه الأبيات لأننا سنعود إلى القصيدة مرة ثانية ، وقد قال الشقندى فى التعقيب على ما اختاره :

« وأنا أقسم بما حوته هذه الأبيات ، من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيد بنى حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذى ساد كل شاعر ، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم وناثر ».

وَلَئِنْ جَنَيْت عليْكِ تَرْحَةَ رَاحِلٍ
فأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةِ آئِبِ
هَلْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكِ بَدْرًا طَالِعًا
فى الأُفْقِ إلَّا مِنْ هِلَالٍ غَارِبِ

وان شبّه قال :

لِمَعَاقِلٍ مِنْ سَوْسَنٍ قَدْ شَيَّدَتْ
أَيْدِى الرَّبِيعِ بِنَاءَهَا فَوْقَ الْقُضُبْ
شُرُفَاتُهَا مِنْ فِضَّةٍ وَحُمَاتُهَا
حَوْلَ الأَمِيرِ لَهُمْ سُيُوفٌ مِنْ ذَهَبْ

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة : فاستنبط ما يسحر به السحر ، ويطيب به الزهر ، وهو أبو عمرو بن فرج فى قوله :

وَطَائِعَةِ الْوِصَالِ عَفَفْتُ عَنْهَا ... وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
بَدَتْ فى اللَّيْلِ سَافِرَةً فَبَاتَتْ ... دَيَاجِى اللَّيْلِ سَافِرَةَ الْقِنَاعِ
وَمَا مِنْ لَحْظَــةٍ إلَّا وَفِيهَا ... إلَى فِتَنِ الْقُلُوبِ لَهَا دَوَاعِى
فَمَلَّكْتُ النُّهَى جُحَّابَ شَوْقِى ... لِأَجْرِىَ بِالْعَفَافِ عَلَى طِبَاعِى
وَبِتُّ بِهَا مَبِيتَ السَّقْبِ يَظْمَا
فَيَمْنَعُهُ الْعُكَامُ مِنَ الرَّضَاعِ (١)

(١) السقب : ولد الناقة . والعكام : ما يعكم به .

كَذَاكَ الرَّوْضُ مَافِيهِ لِمِثْلِي ... سِوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
وَلَسْتُ مِنَ السَّوَائِمِ مُهْمَلَاتٍ ... فَأَتَّخِذَ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاعِي

وهل بلغ أحد من مشبهى شعرائكم أن يقول مثل قول أبى جعفر اللماى :

عَارِضٌ أَقْبَلَ فِى جُنْحِ الدُّجَى ... يَتَهَادَى كَتَهَادِى ذِى الْوَجَى
بَدَّدَتْ رِيحُ الصَّبَا لُؤْلُؤَهُ ... فَانْبَرَى يُوقِدُ عَنْهُ سُرُجَا

ومثل قول أبى حفص بن برد :

وَكَأَنَّ اللَّيْلَ حِينَ لَوَى ... ذَاهِباً وَالصُّبْحُ قَدْ لَاحَا
كِلَّةٌ سَوْدَاءُ أَحْرَقَهَا ... عَامِدٌ أَسْرَجَ مِصْبَاحَا

وهل منكم من وصف ما تحدثه الحمرة ، من الحمرة على الوجنة ، بمثل قول الشريف الطليق :

أَصْبَحَتْ شَمْسًا وَفُوهُ مَغْرِبًا ... وَيَدُ السَّاقِى الْمُحَيِّى مَشْرِقَا
وَإِذَا مَاغَرَبَتْ فِى فَمِهِ ... تَرَكَتْ فِى الْخَدِّ مِنْهُ شَفَقَا

بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان ، ويفخر على كل إنسان .

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَانَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار ، واستلبه بلطف استلاب الشمس لرضاب طلّ الأسحار ، فلطفه تلطيفاً يمتزج بالأرواح ويغنى فى الارتياح ، عن شرب الراح ، وهو ابن شهيد فى قوله :

وَلَمَّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ ... وَنَامَ وَنَامَتْ عُيُونُ الْحَرَسْ

دَنَوْتُ إِلَيْـهِ عَلَى رِقْبَـةٍ ... دُنُوَّ رَفِيقٍ دَرَى مَا الْتَمَسْ

أَدِبُّ إِلَيْهِ دَبِيبَ الْكَرَى ... وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُوَّ النَّفَسْ

أُقَبِّلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطَّلَى ... وَأَرْشُفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعَسْ

فَبِتُّ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِمًا ... إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ ثَغْرُ الْغَلَسْ

وقد تناول هذا المعنى ابن أبى ربيعة على عظم قدره وتقدمه ، فعارض الصهيل بالنهاق ، وقابل العذب بالزعاق ، فقال وياليته سكت :

وَنَفَّضْتُ عَنِّى الْعَيْنَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْـ

حُبَابِ وَرُكْنِى خِيفَةَ الْقَوْمِ أَزْوَرُ

وأنا أقسم لو زار جمل محبوبة له لكان ألطف فى الزيارة من هذا الأزور الركن ، المنفض للعيون ، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن فى قوله :

قَالَتْ لَقَدْ أَعْيَيْتَنَا حِجَّةً ... فَأْتِ إِذَا مَا هَجَعَ السَّاهِرُ

وَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسُقُوطِ النَّدَى ... لَيْلَةَ لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ

ولله در محمد بن سفر أحد شعرائنا المتأخرين عصراً ، المتقدمين قدراً ، حيث نقل السعى إلى محبوبته ، فقال — وياليته لم يزل يقول مثل هذا فبمثله ينبغى أن يتكلم ، ومثله يليق أن يدوّن :—

وَوَاعَدْتُهَا وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلنَّوَى

بِزَوْرَتِهَا شَمْسًا وَبَدْرُ الدُّجَى يَسْرِى

فَجَاءَتْ كَمَا يَمْشِى سَنَا الصُّبْحِ فِى الدُّجَى

وَطَوْرًا كَمَا مَرَّ النَّسِيمُ عَلَى النَّهْرِ

فَعَطَّرَتِ الآفَاقَ حَوْلِى فَأَشْعَرَتْ ... بِمَقْدَمِهَا وَالْعَرْفُ يُشْعِرُ بِالزَّهْرِ

فَتَابَعْتُ بِالتَّقْبِيلِ آثَارَ سَعْيِهَا
كَمَا يَتَقَصَّى قَارِئٌ أَحْرُفَ السَّطْرِ

فَبِتُّ بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ نَامَ وَالْهَوَى
تَنَبَّهَ بَيْنَ الْغُصْنِ وَالْحِقْفِ وَالْبَدْرِ

أُعَانِقُهَا طَـوْرًا وَأَلْثِمُ تَارَةً إِلَى أَنْ دَعَتْنَا لِلنَّوَى رَايَةُ الْفَجْرِ
فَفَضَّتْ عُقُودًا لِلتَّعَانُقِ بَيْنَنَا
فَيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ اتْرُكِي سَاعَةَ النَّفْرِ

وهل منكم من قُيِّد بالاحسان فأطلق لسانه بالشكر فقال – وهو ابن اللبانة :–

بِنَفْسِي وَأَهْلِي جِيرَةٌ مَا اسْتَعَنْتُهُمْ
عَلَى ٱلدَّهْـرِ إِلَّا وَانْثَنَيْتُ مُعَانَا

أَرَاشُوا جَنَاحِي ثُمَّ بَلُّوهُ بِالنَّدَى
فَلَمْ أَسْتَطِعْ مِنَ أَرْضِهِمْ طَيَرَانَا

ومَن يقول وقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده من الاحسان فقابل ذلك بقطع مدحه له، فبلغه أنه عتبه على ذلك، وهو ابن وضّاح :

هَلْ كُنْتُ إِلَّا طَائِرًا بِفِنَائِكُمْ فِي دَوْحِ مَجْـدِكُمُ أَقُومُ وَأَقْعُدُ
إِنْ تَسْلُبُونِي رِيشَكُمْ وَتُقَلِّصُوا عَنِّي ظِلَالَكُمُ فَكَيْفَ أُغَرِّدُ

وهل منكم شاعرٌ رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاح، وتشبيه الزهر بالنجوم، وتشبيه الخدود بالشقائق، فتلطف لذلك فى أن يأتى به فى منزع يصيِّر خَلَقه فى الأسماع جديداً، وكليله فى الأفكار حديداً، فأغرب أحسن إغراب، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب، وهو ابن الزقاق إذ قال :

وَأَغْيَدٍ طَافَ بِالْكُئُوسِ ضُحًى ... وَحَثَّهَا وَالصَّبَاحُ قَدْ وَضَحَا
وَالرَّوْضُ أَهْدَى لَنَا شَقَائِقَهُ ... وَآسُهُ الْعَنْبَرِىُّ قَدْ نَفَحَا
قُلْنَا وَأَيْنَ الأَقَاحُ قَالَ لَنَا ... أَوْدَعْتُهُ ثَغْرَ مَنْ سَقَى الْقَدَحَا
فَظَلَّ سَاقِى المُدَامِ يَجْحَدُ مَا ... قَالَ فَلَمَّا تَبَسَّمَ افْتَضَحَا

وقال :

أَدِيرَاهَا عَلَى الرَّوْضِ المُنَدَّى ... وَحُكْمُ الصُّبْحِ فِى الظَّلْمَاءِ مَاضِى
وَكَأْسُ الرَّاحِ تَنْظُرُ عَنْ حَبَابٍ ... يَنُوبُ لَنَا عَنِ الحَدَقِ الْمِرَاضِ
وَمَا غَرَبَتْ نُجُومُ الأُفْقِ لٰكِنْ ... نُقِلْنَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الرِّيَاضِ

وقال :

وَرِيَاضٍ مِنَ الشَّقَائِقِ أَضْحَتْ ... يَتَهَادَى بِهَا نَسِيمُ الصَّبَاحِ
زُرْتُهَا وَالْغَمَامُ يَجْلِدُ مِنْهَا ... زَهَرَاتٍ تَرُوقُ لَوْنَ الرَّاحِ
قُلْتُ مَا ذَنْبُهَا ، فَقَالَ مُجِيبًا ... سَرَقَتْ حُمْرَةَ الخُدُودِ الْمِلاَحِ

فانظر كيف زاحم بهذا الاحتيال المخترعين ، وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين

وهل منكم من برع فى أوصاف الرياض والمياه ، وما يتعلق بذلك ، فانتهى إلى غاية السباق ، وفضح كل من طمع بعده فى اللحاق ، وهو أبو إسحاق بن خفاجة القائل :

وَعَشِىٍّ أُنْسٍ أَضْجَعَتْنِى نَشْوَةٌ ... فِيهَا يُمَهِّدُ مَضْجَعِى وَيُدَمِّثُ
خَلَعَتْ عَلَىَّ بِهَا الأَرَاكَةُ ظِلَّهَا ... وَالْغُصْنُ يُصْغِى وَالْحَمَامُ يُحَدِّثُ
وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلغُرُوبِ مَرِيضَةً ... وَالرَّعْدُ يَرْقِى وَالْغَمَامَةُ تَنْفُثُ

والقائل :

لِلَّهِ نَهرٌ سَالَ فى بَطْحَاءِ — أَشْهى وُرُودًا مِنْ لَمَى الحَسْنَاءِ
مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السِّوَارِ كَأَنَّهُ — وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجَرُّ سَماءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظُنَّ قُرْصًا مُفْرَغًا — مِنْ فِضَّةٍ فى بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ
وَغَدَتْ تَحُفُّ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّها — هُدْبٌ تَحُفُّ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ
وَلَطَالَمَا عَاطَيْتُ فِيهِ مُدَامَةً — صَفْرَاءَ تَخْضِبُ أَيْدِىَ النُّدَمَاءِ
والرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْجَرَى — ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ المَاءِ

والقائل :

حُثَّ المُدَامَةَ وَالنَّسِيمُ عَلِيلُ — وَالظِّلُّ خَفَّاقُ الرِّوَاقِ ظَلِيلُ
وَالرَّوْضُ مُهْتَزُّ المَعَاطِفِ نِعْمَةً — نَشْوَانَ تَعْطِفُهُ الصَّبَا فَيَمِيلُ
رَيَّانَ فَضَّضَهُ النَّدَى ثُمَّ انْجَلَى — عَنْهُ فَذَهَّبَ صَفْحَتَيْهِ أَصِيلُ

والقائل :

أَذِنَ الْغَمَامُ بِدِيمَةٍ وَعُقَارِ — فَامْزُجْ لُجَيْنًا مِنْهُمَا بِنُضَارِ
وَارْبَعْ عَلَى حُكْمِ الرَّبِيعِ بِأَجْرَعٍ — هَزِجِ النَّدَامَى مُفْصِحِ الْأَطْيَارِ
مُتَقَسِّمِ الْأَلحَاظِ بَيْنَ مَحَاسِنٍ — مِنْ رِدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ
نَثَرَتْ بِحِجْرِ الرَّوضِ فِيهِ يَدُالصَّبَا — دُرَرَ النَّدَى وَدَرَاهِمَ الْأَنْوَارِ
وَهَفَتْ بِتَغْرِيدٍ هُنَالِكَ أَيْكَةٌ — خَفَّاقَةٌ بِمَهَبِّ رِيحِ عَرَارِ
هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرُبَّمَا — خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَاءَةَ النُّوَّارِ

والقائل :

سَقيًا لَهَا مِنْ بِطَاحِ خزٍّ ... وَدَوْحِ نَهْرٍ بِهَا مُطِلِّ
إِذْ لاَ تَرَى غَيْرَ وَجْهِ شَمْسٍ ... أَطَلَّ فِيهِ عِذَارُ طَلِّ

والقائل :

نَهْرٌ كَمَا سَالَ اللَّمَى سَلْسَالُ ... وَصَبًا بَلِيلٌ ذَيْلُهَا مِكْسَالُ
وَمَهَبُّ نَفْحَةِ رَوْضَةٍ مَطْلُولَةٍ ... فى جَانِبَيْهَا لِلنَّسِيمِ مَجَالُ
غَازَلْتُهَا وَالأُقْحُوَانَةُ مَبْسَمٌ ... وَالآسُ صُدْغٌ وَالْبَنَفْسَجُ خَالُ

والقائل :

وَسَاقٍ كَحِيلِ اللَّحْظِ فى شَأْوِ حُسْنِهِ
جِمَاحٌ وبِالصَّبْرِ الجَمِيلِ حِرَانُ
تَرَى لِلصِّبَا نَارًا بِخَدَّيْهِ لَمْ يَثُرْ ... لَهَا مِنْ سَوَادَىْ عَارِضَيْهِ دُخَانُ
سَقَاهَا وَقَدْ لاَحَ الْهِلاَلُ عَشِيَّةً ... كَمَا اعْوَجَّ فى دِرْعِ الْكَمِىِّ سِنَانُ
عُقَارًا نَمَاهَا الْكَرْمُ فَهِىَ كَرِيمَةٌ ... وَلَمْ تَزْنِ بِابْنِ الْمُزْنِ فَهِىَ حَصَانُ
وَقَدْ جَالَ مِنْ جَوْنِ الْغَمَامَةِ أَدْهَمٌ ... لَهُ الْبَرْقُ سَوْطٌ وَالسِّنَانُ عِنَانُ
وَضَمَّخَ دِرْعُ الشَّمْسِ نَحْرَ حَدِيقَةٍ ... عَلَيْهِ مِنَ الطَّلِّ السَّقِيطِ جُمَانُ
وَنَمَّتْ بِأَسْرَارِ الرِّيَاضِ خَمِيلَةٌ ... لَهَا النَّوْرُ ثَغْرٌ وَالنَّسِيمُ لِسَانُ

والقائل :

وَأَشْقَرٍ تَضْرِمُ مِنْهُ الْوَغَى ... بِشُعْلَةٍ مِنْ شُعَلِ الْبَاسِ

مِنْ جُلَّنَار نَاضِرٍ لَوْنُـــهُ ... وَأُذْنُـــهُ مِنْ وَرَقِ الآسِ
تَطْلُعُ لِلْغُرَّةِ فى شُقْــرَةٍ ... حَبَابَةٌ تَضْحَكُ فى كَاسِ

وهل منكم من يقول منادماً لنديمه ، وقد باكر روضاً بمحبوب وكأس ، فألفاه قد غطّى محاسنه ضباب ، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك ، وهو الحسن بن بسام :

أَلاَ بَادِرْ فَمَا ثَانٍ سِوَى مَـا ... عَهِدْتَ الْكَأْسُ وَالْبَدْرُ التَّمَامُ
وَلاَ تَكْسَلْ بِرُؤْيَتِهِ ضَبَابــاً ... تَغَصُّ بِهِ الحَدِيقَةُ وَالمُدَامُ
فَإِنَّ الروْضَ مُلْتَثِمٌ إِلَى أَنْ ... تُوَافِيَـــهُ فَيَنْحَطَّ اللِّثَـامِ

وهل منكم من تغزل فى غلام حائك بمثل قول الرصافى :

قَالُوا وَقَدْ أَكْثَرُوا فى حُبِّهِ عَذَلِى ... لَوْ لَمْ تَهِمْ بِمُذَالِ الْقَدْرِ مُبْتَذَلِ
فَقُلْتُ لَــوْ كَانَ أَمْــرِى فى الصَّبَــابَةِ لى
لاخْتَــرتُ ذَاكَ وَلٰكِنْ لَيْسَ ذٰلِــــكَ لى
عَلِقْتُـــهُ حَبِبِيَّ الثَّغْرِ عَاطِرَهُ ... حُلْوَاللَّمَىسَاحِرَالأَجْفَانِوَالمُقَلِ
غُزَيِّلٌ لَمْتَزَلْفى الْغَزْلِ جَائِلَـــةً ... بَنَانُهُ جَوَلاَنَ الفِكْرِ فى الْغَزَلِ
جَذْلاَن تَلْعَبُ بِالْمِحْوَاكِ أَنْمُلُهُ ... عَلَى السَّدَى لَعِبَ الأَيَّامِ بِالأَجَلِ
ضَمًّا بِكَفَّيْهِ أَوْ فَحْصًا بِأَخْمَصِهِ ... تَخَبُّطَ الظَّبِى فى أَشْرَاكِ مُحْتَبِلِ

ومثل قوله فى تغلّب مسكة الظلام على خلوق الأصيل :

وَعَشِيٍّ رَائِقٍ مَنْظَــــــرُهُ ... قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشَّمُولْ

وَكَأَنَّ الشَّمْسَ فِى أَثْنَائِـــهِ ... أَلْصَقَتْ بِالأَرْضِ خَدًّا لِلنُّزُول
وَالصَّبَا تَرْفَعُ أَذْيَالَ الـرُّبَـا ... وَمُحَيَّا الجَوِّ كَالنَّهْرِ الصَّقِيلْ
حَبَّذَا مَنْزِلُنَا مُغْتَبَقًـــا ... حَيْثُ لاَ يَطْرُقُنَا غَيْرُ الهَدِيل

وهل منكم من وصف غلاماً جميل الصورة راقصاً بمثل قول ابن خروف

وَمُنَوَّعِ الحَرَكَاتِ يَلْعَبُ بِالنُّهَى ... لَبِسَ المَحَاسِنَ عِنْدَ خَلْعِ لِبَاسِهِ
مُتَأَوِّدًا كَالْغُصْنِ وَسْطَ رِيَاضِهِ ... مُتَلاَعِبًا كَالظَّبْيِ عِنْدَ كِنَاسِهِ
بِالْعَقْلِ يَلْعَبُ مُدْبِرًا أَوْ مُقْبِلاً ... كَالدَّهْرِ يَلْعَبُ كَيْفَ شَاءَ بِنَاسِهِ
وَيَضُمُّ لِلْقَدَمَيْنِ مِنْهُ رَأْسَـهُ ... كَالسَّيْفِ ضَمَّ ذُبَابُهُ لِرِيَاسِـهِ

وهل منكم من وصف خالاً بأحسن من قول النشار :

أَلُوَّامِى عَلَى كَلَفِى بِحِبِّـى ... مَتَى مِنْ حُبِّهِ أَرْجُو سَرَاحَـا
وَبَيْنَ الخَدِّ وَالشَّفَتَيْنِ خَـالٌ ... كَزِنْجِىٍّ أَتَى رَوْضًا صَبَاحَا
تَحَيَّرَ فِى جَنَاهُ فَلَيْسَ يَدْرِى ... أَيَجْنِى الْوَرْدَ أَمْ يَجْنِى الأَقَاحَا

وهل منكم الذى اهتدى إلى معنىً فى لثم وردة الخد ، ورشف رضاب الثغر لم يهتد إليه أحد غيره ، وهو أبو الحسن بن سلام المالقى فى قوله :

لَمَّا ظَفِرْتُ بِلَيْلَةٍ مِنْ وَصْلِهِ ... وَالصَّبُّ غَيْرُ الْوَصْلِ لاَ يَشْفِيهِ
أَنْضَجْتُ وَرْدَةَ خَدِّهِ بِتَنَفُّسِى ... وَطَفِقْتُ أَرْشُفُ مَاءَهَا مِنْ فِيهِ (١)

وهل منكم أعمى قال فى ذهاب بصره ، وسواد شعره ، وهو الطليطلى :

---

(١) حذفنا هنا جملة من كلام الشقندى لم نر لها أهمية .

أَمَا ٱشْتَفَتْ مِنِّى الْأَيَّامُ فِى وَطَنِى   حَتَّى تُضَايِقَ فِيمَا عَنَّ مِنْ وَطَرِى
وَلَا قَضَتْ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا   حَتَّى تَكُرَّ عَلَى مَا طَلَّ فِى الشَّعَرِ

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولادة المروانية (١) ، ومثل زينب بنت زياد المؤدب التى تقول :

وَلَمَّا أَبَى الْوَاشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا   وَمَا لَهُمُ عِنْدِى وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارِ
وَشَنُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلَّ غَارَةٍ   وَقَلَّ حُمَاتِى عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِى
غَزَوْتُهُمُو مِنْ مُقْلَتَىَّ وَأَدْمُعِى   وَمِنْ نَفَسِى بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ

ثم قال الشقندى بعد كلام : وأنا أختم هذه القطع المتخيَّرة بقول أبى بكر ابن بقى ليكون الختام مسكاً :

عَاطَيْتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ   صَهْبَاءَ كَالْمِسْكِ الْفَتِيقِ لِنَاشِقِ
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِىِّ لِسَيْفِهِ   وَذُؤَابَتَاهُ حَمَائِلٌ فِى عَاتِقِى
حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَةُ الْكَرَى   زَحْزَحْتُهُ شَيْئًا وَكَانَ مُعَانِقِى
بَاعَدْتُهُ عَنْ أَضْلُعٍ تَشْتَاقُهُ   كَيْلَا يَنَامَ عَلَى وِسَادٍ خَافِقِ (٢)

---

(١) أنشد لها بيتين لم نر لهما قيمة .

(٢) كتب إلينا الأديب محمد بن عباس القباج أن زين شباب الأندلس صفوان بن إدريس المتوفى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة عن سن لا تتجاوز السابعة والثلاثين ، عارض أبيات الشقندى فقال :

يا حسنه والحسن بعض صفاته   والسحر مقصور على حركاته
بتنا نشعشع والعفاف رقيبنا   خمرين من غزلى ومن كلماته
ضاجعته والليل يذكى تحتنا   نارين من نفسى ومن وجناته
وضممته ضم البخيل لماله   يحنو عليه من جميع جهاته
أوثقته فى ساعدى لأنه   ظبى خشيت عليه من فلتاته
والقلب يرغب أن يصير ساعدا   ليفوز بالآمال من ضماته
حتى إذا هام الكرى بجفونه   وامتد فى عضدى طوع سناته =

وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي :

هُمُو نَظَرُوا لَوَاحِظَهَا فَهَامُوا ... وَتَشْرَبُ لُبَّ شَارِبِهَا الْمُدَامُ
يَخَافُ النَّاسُ مُقْلَتَهَا سِوَاهَا ... أَيَذْعَرُ قَلْبَ حَامِلِهِ الْحُسَامُ
سَمَا طَرْفِي إِلَيْهَا وَهْوَ بَاكٍ ... وَتَحْتَ الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ الْغَمَامُ
وَأَذْكُرُ قَدَّهَا فَأَنُوحُ وَجْدًا ... عَلَى الْأَغْصَانِ تَنْتَدِبُ الْحَمَامُ
وَأَعْقَبَ بَيْنُهَا فِي الصَّدْرِ غَمًّا ... إِذَا غَرَبَتْ ذُكَاءُ أَتَى الظَّلَامُ

وبقوله أيضاً :

لَهَا رِدْفٌ تَعَلَّقَ فِي لَطِيفٍ ... وَذَاكَ الرِّدْفُ لِي وَلَهَا ظَلُومُ
يُعَذِّبُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ ... وَيُتْعِبُهَا إِذَا هَمَّتْ تَقُومُ

* * *

تلك أيها القارىء نفحة من الأدب الأندلسى ، رأينا أن نمهد بها الدرس قصيدة ابن دراج الذى أوصاه أميره المنصور بن أبي عامر بمعارضة أبي نواس كما ذكر ابن خلكان ، وإنا لنرجو أن يكون فيما اقتطفناه تذكرة لطلاب الأدب ، وتبصرة لعشاق البيان ، فقد مضت عهود على نهضة الشعر فى مصر ولم نجد من الباحثين من قيّد ما ابتكره شعراؤنا فى العصر الحديث من المعانى الجديدة ، وما ابتدعوه من الصور الطريفة ، مع حرصهم على أن يمثل الشعر أغراض الحياة ، وأطماع العقول ، وألوان النفوس ، وأهواء القلوب .

= عزم الغرام على فى تقبيله ... فثنيت أيدى الطوع عن عزماته
وأبى عفافى أن أقبل ثغره ... والقلب مطوى على جمراته
فاعجب لملتهب الجوانح غلة ... يشكو الظما والماء فى لهواته

البحث السابع والعشرون

حياة ابن دراج

كان أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلى المتوفى سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء ، وكان بصُقع الأندلس كالمتنبى بصُقْع الشام ، كما قال صاحب اليتيمة ، وكان له ديوان شعر فى جزأين ، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان ، وكان يجيد النثر ، كما نص صاحب الذخيرة ، ولكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف به صدق ماقاله فى وصفه مؤرخو الآداب ، فقد ضاع ديوان شعره (١) ، وضاعت رسائله البليغة ، ولم يبق من آثار فضله إلا بقايا ضئيلة لاتكفى فى الابانة عن منزلته فى عالم البيان .

ولنذكر أولاً ما قاله المؤرخون فى وصفه ، ثم ننتقل إلى وصف نثره وشعره بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال .

قال ابن بسام فى الذخيرة « كان أبو عمر القسطلى فى وقته لسان الجزيرة شاعراً وأولاً حين عدّ معاصريه من شعرائها ، وآخر حامل لوائها ، وبَهْجة أرضها وسمائها وأسْوَة كُتابها وشعرائها ... ، به بُدئ ذكر الجميل وخُتم ، حلّ اسمه من الأمانى محل الأنس ، وأحد من تضاءلت الأول عن جلالة قدره ، وكانت الشام والعراق خطر ذكره ، وقد أجرى الثعالبى طرفاً من أمره ، وأغرب بلُمع من شعره ثم قال « وإنما ذكرته هنا وإن كان من شعراء ابن أبى عامر لأنه تراخت أيامه ، وأغضى عنه حمامه ، حتى أخرجته المحَن ، وسالت به تلك الفتَن » .

والقارئ يرى فى عبارة ابن بسام شيئاً من اللبس والغموض ، وهذا يرجع إلى سببين : أولهما أن كتاب الذخيرة مُنِىَ بالمسخ والتحريف ، ولا يزال إلى الآن مخطوطاً

---

(١) سيرى القارئ فى هامش مقبل أن الديوان لم يضع .

يجده الباحث فى دار الكتب المصرية ، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع ، والسجع قَيْدٌ يضطر الكاتب إلى التعثر ، فتظهر فى عباراته آثار الضعف والاضطراب .

وقال أبو حيان : « أبو عمر القسطلى سابق حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين ، كان ممن طَوَّحتْ بهم تلك الفتنة الشنعاء ، واضطرته إلى النجعة ، فاستقرى ملوك الأندلس أجمعين ، يهز كلاً بمدحهِ ، ويستعينه على نكبتهِ وليس منهم من يصغى له ، أو يحفظ ما أضيع من حقه ، وأرخص من عقله وهو يخبطهم بمقْوَلِهِ (١) فيصمّون عنه ، إلى أن أناخ بساحة المنذر بن يحيى أمير سرقسطة ، فألقى عصا سيره عند ما بوأه ، ورحب به وأوسع قراه ، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده » .

وقال ابن فضل الله ، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التى عارض بها أبا نواس :

« ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبى نواس عرف فضل قائلها على مَنْ تقدم ، وشهد له بأنه سبق وإن تأخر ، وجزم بأن الرجال معادن ، ولم يَشُكَّ أن الخواطر موارد لاتنزح ، وأن الأفكار مصابيح لاتطفأ ، وأن الأفهام مَرَاءٍ لاتتناهى صُورها ، وأن العقول سحائب لا ينفد مطرها ، وعلم أن المعانى غيرُ متناهية ، والفضائل غير متوارية ، وأن أم الليالى ولود ، وأن الفضل فى كل حين مشهود ، وأن هذا الشاعر فى قصيدته هذه التى عارض بها أبا نواس ، لم يَدَعْ له عارضاً يُسْتَمْطر ، ولا عارضةً تُذكَر . وإنه لحقيق أن ينشد :

وَإِنِّى وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانهُ   لآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ

وكذلك كانوا يرون فى ابن دراج شاعراً مفلقاً يبخل بمثله الزمان ، ولكن عدوان الحوادث على آثاره الأدبية حال بيننا وبين التثبت من صدق ما حكم به المتقدمون .

---

(١) المقول : اللسان .

شيء من نثره

يغلب السجع فى نثر ابن دراج ، ويجد فيه القارىء شيئاً من مستملَح التشبيه ، ولنذكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل :

«حاش لله أن أستَشف المسيلَ قبل جُمُومه ، وأستكره الدّرَّ قبل حُفُوله ، أو أتعامى عن سراج المعذرة ، وأغفل عن الأدب الباهر فى نَظِرَةٍ إلى ميسرة ... ولكن

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاخٍ بِذِى مَرَخٍ ... حُمْرِ الحَوَاصِلِ لاَ مَاءٌ وَلاَ شَجَرُ

مَا أَوْضَحَ الْعُذْرَ لِى لَوْ أَنَّهُمْ عَذَرُوا ... وَأَجْمَلَ الصَّبْرَ بِى لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا

لٰكِنَّهُمْ صَغُرُوا عَنْ أَزْمَةٍ كَبُرَتْ ... فَمَا اعْتِذَارِى عَمَّنْ عُذْرُهُ الصِّغَرُ

وقد قلبت لهم ظهر مجن الأمور ، وميزت بين الميسور والمعسور ، فما وجدت أحسن بدءاً ، ولا أحمد عوداً ، مما أذن الله لعباده الذين أعمرهم أرضه ، وسخّر لهم بحره وبره ، أن يمشوا فى مناكبها ويأكلوا من رزقه ، وحيث نتقلّب ففى كرملك ، وأين نأمن ففى حرَمكَ ، وحيث توحشنا دعوتك ، ولا تعدمنا نعمتك ، فمن ملكك إلى ملكك ، ومن يمينك إلى شمالك » .

وفى كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الأسلوب ، وإن كنت أرتاب فى نصوصها لما فى ذلك الكتاب من التحريف .

شيء من شعره

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد ، فليرض القارىء بما نختاره من تلك القصائد التى أثبتها صاحب اليتيمة ، أحسن الله له الجزاء ، وإنا لنستجيد قوله فى لوعة الشوق :

وَحْشِيَّةَ اللَّفْظِ هَلْ يُودَى قَتِيلُكُمُو

دَمِى مُضَاعٌ وَجَانِى ذَاكِ عَيْنَاكِ

إنِّى أَرَاكِ بِقَتْلِ النَّفْسِ حَاذِقَةً قُولِى فَدَيْتُكِ مَنْ بِالْقَتْلِ أَوْصَاكِ

مَالِى وَلِلْبَرْقِ أَسْتَسْقِيهِ مِنْ ظَمَإٍ هَيْهَاتَ لَا رِىَّ إلَّا مِنْ ثَنَايَاكِ

لَوْلَا الضُّلُوعُ لَظَلَّ الْقَلْبُ نَحْوَكُمُ

ضَعِى بِعَيْشِكِ فَوْقَ الْقَلْبِ يُمْنَاكِ

أَصْلَيْتِنِى لَوْعَةَ الْهِجْرَانِ ظَالِمَةً رُحْمَاكِ مِنْ لَوْعَةِ الْهِجْرَانِ رُحْمَاكِ

ونستجيد قوله فى وصف السفن تشق عباب المحيط :

إلَيْكَ شَحَنَّا الْفُلْكَ تَهْوِى كَأَنَّهَا

وَقَدْ ذُعِرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ غِرْبَانُ

عَلَى لُجَجٍ خُضْرٍ إذَا هَبَّتِ الصَّبَا تَرَامَى بِنَا فِيهَا ثَبِيرٌ وَثَهْلَانُ

وَإِنْ سَكَنَتْ عَنَّا الرِّيَاحُ جَرَى بِنَا

زَفِيرٌ إلَى ذِكْرِ الْأَحِبَّةِ حَنَّانُ

يَقُلْنَ وَمَوْجُ الْبَحْرِ وَالْهَمِّ وَالدُّجَى تَمُوجُ بِنَا فِيهَا عُيُونٌ وَآذَانُ

أَلَا هَلْ إلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ وَهَلْ لَنَا

سِوَى الْبَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى المَاءِ أَكْفَانُ

وَهَبْنَا رَأَيْنَا مَعْلَمَ الْأَرْضِ هَلْ لَنَا

مِنَ الْأَرْضِ مَأْوًى أَوْ مِنَ الْإِنْسِ عِرْفَانُ

هَوَتْ أُمُّهُمْ مَاذَا هَوَتْ بِرِجَالِهِمْ

إلَى نَازِحِ الْآفَاقِ سُفْنٌ وَأَظْعَانُ

كَوَاكِبُ إِلَّا أَنَّ أَفْلَاكَ سَيْرِهَا زِمَامٌ وَرَحْلٌ أَوْ شِرَاعٌ وَسُكَّانُ

وفى هذه القصيدة يقول فى شكوى الزمان ، وتوديع الأحباب :

وَإِنَّ بِلَادًا أَخْرَجَتْنِى لَعَاطِلٌ وَإِنَّ زَمَاناً خَانَ عَهْدِى لَخَوَّانُ

سَلَامٌ عَلَى الْإِخْوَانِ تَسْلِيمَ آيِسٍ

وَسَقْيًا لِدَهْرٍ كَانَ لِى فِيهِ إِخْوَانُ

فَلَا مُؤْنِسٌ إِلَّا شَهِيقٌ وَزَفْرَةٌ وَلَا مُسْعِدٌ إِلَّا دُمُوعٌ وَأَجْفَانُ

وَمَا كَانَ ذَاكَ الْبَيْنُ بَيْنَ أَحِبَّةٍ وَلٰكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

وما أوجع ما يقول :

فَيَا عَجَبًا لِلصَّبْرِ مِنَّا كَأَنَّنَا

لَهُمْ غَيْرُ مَنْ كُنَّا وَهُمْ غَيْرُ مَنْ كَانُوا

مَضَى عَيْشُهُمْ بَعْدِى وَعَيْشِى بَعْدَهُمْ

كَأَنِّىَ قَدْ خُنْتُ الْوَفَاءَ وَقَدْ خَانُوا

ومن مختار القصيد قوله :

لَكَ اللّٰهُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ كَفِيلُ

أَجَدَّ مُقَامٌ أَمْ أَجَدَّ رَحِيلُ

هُوَ الْفَتْحُ أَمَّا يَوْمُهُ فَمُعَجَّلٌ إِلَيْكَ وَأَمَّا صُنْعُهُ فَجَزِيلُ

وَآيَاتُ نَصْرٍ مَا تَزَالُ وَلَمْ تَزَلْ

بِهِنَّ عَمَايَاتُ الضَّلَالِ تَزُولُ

سُيُوفٌ تُنيرُ الحَقَّ أَنَّى انْتَضَيْتَهَا وَخَيْلٌ يَجُولُ النَّصْرُ حَيْثُ تَجُولُ
أَلَا فِى سَبِيلِ اللهِ غَزْوُكَ مَنْ غَوَى وَصَلَّ بِهِ فِى النَّاكِثِينَ سَبِيلُ
لَئِنْ صَدِئَتْ أَلْبَابُ قَوْمٍ بِمَكْرِهِمْ
فَسَيْفُ الْهُدَى فِى رَاحَتَيْكَ صَقِيلُ
وَإِنْ يَحْىَ فِيهِمْ مَكْرُ جَالُوتَ جَدِّهِمْ
فَأَحْجَارُ دَاوُدٍ لَدَيْكَ مُثُولُ
خَفِيفٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا عَدَا وَلَكِنْ عَلَى صَدْرِ الْكَمِىِّ ثَقِيلُ
وَجَرْدَاءُ لَمْ تَبْخَلْ يَدَاهَا بِغَايَةٍ وَلَا كَرُّهَا نَحْوَ الطِّعَانِ بَخِيلُ
لَهَا مِنْ خَوَافِى لَقْوَةِ الجَوِّ أَرْبَعٌ
وَكَشْحَانِ مِنْ ظَبْىِ الْفَلَا وَتَلِيلُ
وَبِيضٌ تَرَكْنَ الشِّرْكَ فِى كُلِّ مُنْتَأًى
فُلُولًا وَمَا أَزْرَى بِهِنَّ فُلُول
تَمُورُ دِمَاءُ الكُفْرِ فِى شَفَرَاتِهَا وَيَرْجِعُ عَنْهَا الطَّرْفُ وَهْوَ كَلِيلُ
وَأَسْمَرُ ظَمْآنُ الْكُعُوبِ كَأَنَّمَا بِهِنَّ إِلَى شُرْبِ الدِّمَاءِ غَلِيلُ
إِذَا مَا هَوَى لِلطَّعْنِ أَيْقَنْتَ أَنَّهُ
بِصَرْفِ الرَّدَى نَحْوَ النُّفُوسِ رَسُولُ

وفيها يقول :

كَتَائِبُ عَزَّ النَّصْرُ فِى جَنَبَاتِهَا وَكُلُّ عَزِيزٍ يَمَّمَتْهُ ذَلِيــلُ

يَسِيرُ بِهَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَائِدٌ
يَسِيرٌ عَلَيْهِ الخَطْبُ وَهْوَ جَلِيلُ

إِذَا انْشَقَّ لَيْلُ الحَرْبِ عَنْ صُبْحِ وَجْهِهِ
فَقَدْ حَانَ مِنْ يَوْمِ الضَّلاَلِ أُفُولُ

وله قصيدة عينية بديعة نوهت بها الذخيرة ، ولكنها لم تسلم من التحريف نختار منها قوله :

فَمَا تَجَاوَزْتُ قَرْنَ الذَّيْلِ مُعْتَسِفًا
إِلَّا وَقَرْنُ رَخِيمِ الدَّلِّ بَارِعُهُ

تَحِيَّتِى مِنْهُ تَقْبِيلٌ وَمُعْتَنَقٌ
يَشُدُّنِى غُلُّهُ فِيهِ وَجَامِعُهُ

لَمْ أَخْلَعِ الدِّرْعَ إِلَّا حِينَ شَقَّقَهُ
عَنْ صَفْحِ صَدْرِىَ مَاتَحْوِى مَدَارِعُهُ

وَلَا تَوَقَّيْتُ سَهْمًا مِنْ لَوَاحِظِهِ
يُذِيبُ سَيْفِى وَفِى قَلْبِى مَوَاقِعُهُ

غُصْنٌ تَجَرَّعَ أَنْدَاءَ الْغَمَامِ فَمَا يُطَوِّقُ الدَّهْرَ إِلَّا وَهْوَ جَازِعُهُ

يَمِيسُ سُكْرًا وَسُكْرُ الدَّلِّ عَاطِفُهُ
وَتَارَةً وَانْثِنَاءُ الْوَشْىِ لَاذِعُهُ

فَبِتُّ تَحْتَ رِوَاقِ اللَّيْلِ ثَانِيَهُ
وَالشَّوْقَ ثَالِثُنَا وَالْوَصْلُ رَابِعُهُ

وَالسِّحْرُ يُسْحَرُ مِنْ لَفْظٍ يُنَازِعُنِى
وَالْمِسْكُ يَعْبَقُ مِنْ كَأْسٍ أُنَازِعُهُ

رَاحًا يَمُدُّ سَنَاهَا نُورُ رَاحَتِهِ
لَوْلَا النُّهَى لَجَرَتْ فِيهَا أَصَابِعُهُ

كَأَنَّمَا ذَابَ فِيهَا وَرْدُ وَجْنَتِهِ وَشَجَّهَا رِيقُهُ الْمَعْسُولُ مَائِعُهُ

جَنَى حَيَاةٍ دَنَتْ مِنِّى مَطَاعِمُهُ
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ نَأَتْ عَنِى مَطَامِعُهُ

قَدْ أَنْهَبُ الْمِسْكَ وَالْكَافُورَ خَازِنُهُ
وَأُرْخِصُ الْوَرْدَ وَالتُّفَّاحَ بَائِعُهُ

فَيَا ظَلَامَ نُجُومِ اللَّيْلِ إِذْ حُرِمَتْ
بَدْرَ السَّمَاءِ وَفِى حِجْرِى مَضَاجِعُهُ

وَيَا حَنِينَ ظِبَاءِ الْقَفْرِ إِذْ فَقَدَتْ
غَزَالَهُنَّ وَفِى رَوْضِى مَرَاتِعُهُ

رائية ابن دراج

وأشهر قصائد ابن دراج رائيته فى مدح المنصور بن أبى عامر التى عارض بها رائية أبى نواس فى مدح الخصيب ، وقد ضن الدهر علينا أيضاً بهذه القصيدة ، فلم تبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك(١) ، وقد راجعت كل ما وصلت إليه من تاريخ

---

(١) أصبحت القصيدة كلها تحت يدنا ، وعرفنا أن الديوان لم يضع ، فهو فى مخطوطات خزانة المؤرخ الكبير النقيب مولاى عبد الرحمن بن زيدان من أمراء البيت الملكى فى المغرب ، وقد تفضل السيد محمد ابن عباس القباج ،فأرسل إلينا الرائية كاملة ، فله منا أطيب الثناء .

الأندلس ، وسألت كل من أعرف أنه شُغل بتاريخ الأدب فى تلك البلاد ، ثم لم أظفر بمطلع هذه القصيدة ، وإنما يبدءون بقوله :

أَلَمْ تَعْلَمِى أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَالتَّوَى
وَأَنَّ بُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ

ومن البعيد أن يكون هذا البيت هو المطلع ، إذ يبعد أن لا يضع الشاعر مقدمة لهذا الحوار (١) .

ولنأخذ فى الموازنة فنذكر أن قول أبى نواس :

تَقُولُ الَّتى مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِى
عَزِيزٌ عَلَيْنَـــا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ
أَمَا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِـنَى مُتَطَلَّبٌ
بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلَتْهَا بِوَادِرٌ
جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرْيِهِنَّ عَبِيرُ
دَعِينِى أُكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيــهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

هذه القطعة دون قول ابن دراج :

أَلَمْ تَعْلَمِى أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى
وَأَنَّ بُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ

---

(١) هذا هو المطلع :

دعى عزمات المستضام تســــير وتنجــد فى عرض الفــلا وتغــور
لعل بما أشجاك من لوعــة النــوى يعز ذليــــل أو يفك أســـير

وَأَنَّ خَطِيرَاتِ المَهَالِكِ ضُمَّنٌ لِرَاكِبِهَا أَنَّ الجَزَاءَ خَطِيرُ
تُخَوِّفُنِى طُولَ السِّفَارِ وَإِنَّهُ لِتَقْبِيلِ كَفِّ الْعَامِرِىِّ سَفِيرُ
ذَرِينِى أَرِدْ مَاءَ المَفَاوِزِ آجِنًا إِلَى حَيْثُ مَاءُ المَكْرُمَاتِ نَمِيرُ

وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة ، وبذ أبا نواس وَبَرّعَه ، بقوله فى توديع زوجه ووليده :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَادَعِ وَقَدْ هَفَا
بِصَبْرِىَ مِنْهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ
تُنَاشِدُنِى عَهْدَ المَوَدَّة وَالْهَوَى وَفِى المَهْدِ مَبْغُومُ النِّدَاءِ صَغِيرُ
عَيِيٌّ بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَلَحْظُهُ
بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ
تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمُهِّدَتْ لَهُ أَذْرُعٌ مَحْفُوفَةٌ وَنُحُورُ
عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِى
رَوَاحٌ لِتَدْآبِ السُّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ بِى وَهَفَتْ بِهَا
جَوَانِحُ مِنْ ذُعْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ
لَئِنْ وَدَّعَتْ مِنِى غَيُورًا فَإِنَّنِى عَلَى عَزْمَتِى مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورُ

ولا لوم على أبى نواس فى أن خلت قصيدته من مثل هذا الموقف الحزين ، إذ لم يترك ببغداد زوجا ينازعه إليها الوفاء ، ولا طفلاً تعطفه إليه نوازع الشوق ولواعج الحنين .

وأحب أن لا يفوت القارىء ترجيع هذا البيت :

تُنَاشِدُنِى عَهْدَ المَوَدَّةِ وَالْهَوَى   وَفى المَهْدِ مَبْغُومُ النِّدَاءِ صَغِيرُ

وكلمة « مبغوم النداء » كلمة مختارة بارعة المدلول ، وقوله :

عَيِىٌّ بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَلَحْظُهُ
بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ

بيت نادر المثال ، وقوله :

تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمُهِّدَتْ   لَهُ أَذْرُعٌ مَحْفُوفَةٌ وَنُحُورُ

من أرق ما صُور به الحنان ، وما أوجع ما يقول :

عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِى
رَوَاحٌ لِتَدْآبِ السُّرَى وبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ بِى وهَفَتْ بِهَا
جَوانِحُ مِنْ ذُعْرِ الفِرَاقِ تَطِيرُ

وانظر تصوير الحزم بقوله :

لَئِنْ وَدَّعَتْ مِنِّى غَيُوراً فَإِنَّنِى   عَلَى عَزْمَتِى مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورُ

وقول أبي نواس :

ولمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصرَ أَجَارَهَا
عَلَى رَكْبِهَا أَلاَّ لاتَزَالَ مُجِيرُ
مِنْ الْقَومِ بَسَّامٌ كأَنَّ جَبِينَهُ
سَنَا الْفَجْرِ يَسرى ضَوؤُهُ وَيُنِيرُ

زَهَا بالخَصِيبِ السَّيفُ والرُّمْحُ فى الْوَغَى
وفى السَّلْمِ يَزهُو مِنْبَرٌ وسَرِيرُ
جَوَادٌ إذَا الأَيْدِى كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى
وَمِنْ دُونِ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ غَيُورُ
لَهُ سَلَفٌ فى الْأَعْجَمِينَ كَأَنَّهُمْ
إِذَا اسْتُؤْذِنُوا يَوْمَ السَّلَامِ بُدُورُ

فى هذه القطعة سلاسة وجلاء ، وهى أروع من قول ابن دراج :

تَلاقَتْ عَلَيْه مِنْ تَمِيمٍ وَيَعْرُب
شُمُوسٌ تَلَالَا فى الْعُلَا وَبُدُورُ
مِنَ الْحِمْيَرِيِّينَ الَّذِينَ أَكُفُّهُمْ
سَحَائِبُ تَهْمِى بِالنَّدَى وَبُحُورُ
هُمُو صَدَّقُوا بِالْوَحْىِ حِينَ أَتَاهُمُو
وَمَا النَّاسُ إلَّا عَابِدٌ وَكَفُورُ
مَنَاقبُ يَعْيَا الْوَصْفُ عَنْ كُنْه قَدْرِهَا
وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْوَهْمُ وَهْوَ حَسِيرُ
أَلَا كُلُّ مَدْحٍ عَنْ نَدَاكَ مُقَصِّرٌ
وَكُلُّ رَجَاءٍ فى سِوَاكَ غُرُورُ

ونحن حين نقابل هذه القطعة بكلمة أبى نواس نرى التكلف ظاهراً فى أبيات ابن دراج ، وليتأمل القارىء قوله :

مَناقبُ يَعْيَا الْوَصْفُ عَنْ كُنْه قَدْرِهَا

وَيَرْجِعُ عَنهَا الْوَهْمُ وَهْوَ حَسِيرُ

فهو ظاهر الغُلُوّ ، واضح التكلف ، أما قوله :

هُمُو صَدَّقُوا بِالْوَحْى حِينَ أَتَاهُمُو

وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَابِدٌ وَكَفُورُ

فهو بيت ضعيف .

وقد وصف أبو نواس رحلته إلى مصر وصفاً لاقيمة له ، أما ابن دراج فقد أجاد الوصف حين قال :

وَلوْ شَاهَدَتْنِى وَالْهَوَاجِرُ تَلْتَظِى

عَلَىَّ وَرَقْرَاقُ السَّرَابِ يَمُورُ

أُسَلِّطُ حَرَّ الْهَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا

عَلَى حُرِّ وَجْهِى وَالْأَصِيلُ هَجِيرُ

وَأَسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ وَهْىَ لَوَافِحٌ   وَأَسْتَمْطِىءُ الرَّمْضَاءَ وَهْىَ تَفُور

وَلِلْمَوْتِ فِى عَيْنِ الْجَبَانِ تَلُّونٌ

وَلِلذُّعْرِ فى سَمْعِ الجَرِىءِ صَفِيرُ

وَلَوْ شَاهَدَتْنِى وَالسُّرَى جُلُّ عَزْمَتِى

وَجَرْسِى لِجِنَّانِ الْفَلَاةِ سَمِيرُ

وَأَعْتَسِفُ المَوْمَاةَ فِى غَسَقِ الدُّجَى

وَلِلْأُسْدِ فِى غِيلِ الْغِيَاضِ زَئِيرُ

أَميرٌ عَلَى غُـول التَّنَائِفِ مالَهُ

إِذَا رِيعَ إِلَّا المَشْرَفِىُّ وَزِيرُ

وَقَدْ خيَّلَتْ طُرْقُ المَجَرَّةِ أَنَّهَا

عَلَى مَفرِق اللَّيْل الْبَهِيمِ قَتِيرُ

وَدَارَتْ نُجُومُ الْقُطْبِ حَتى كَأَنَّهَا

كُئُوسٌ طَلًى والَى بِهِنَّ مُدِيرُ

لَقَدْ أَيْقَنَتْ أَنَّ المُنَى طَوْعُ هِمَّتِى

وَأَنِّى بِعَطْفِ الْعَـامِرِىِّ جَدِيرُ

وهذا شعرٌ جَزْلٌ رصين ، ومن المحزن أن السياق يدلنا على أن هذه القطعة الوصفية ضاع منها شىءٌ كثير (١) .

***

وقد انفرد ابن دراج بالإجادة فى وصف هيبة اللقاء حين قال :

وَلَمَّا تَوَافَوْا لِلسَّلَام وَرُفِّعَتْ

عَنِ الشَّمْسِ فى أُفْقِ الشُّرُوقِ سُتُور

وَقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ الأَسِنَّةِ دُونَهُ

صُفُوفٌ وَمِنْ بِيضِ السُّيُوفِ سُطُورُ

رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمٰنِ كَيْفَ اعْتِزَازُهَا

وَآيَاتِ صُنْعِ اللهِ كَيْفَ تُنِيرُ

---

(١) أشرت من قبل إلى أن هذه القصيدة صارت كلها تحت يدى بفضل صديقنا القباج .

وَكَيْفَ اسْتوَى بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَجْلِسٌ

وَقَامَ بِعِبْءِ الرّاسِيَاتِ سَرِيرُ

فَسَارُوا عِجَالاً وَالْقُلُوبُ خَوَافِقٌ

وَأُدْنُوا بِطَاءً وَالنَّوَاظِرُ صُورُ

يَقُولُونَ وَالْإِجْلَالُ يُخْرِسُ أَلْسُنًا

وَحَارَتْ عُيُونٌ مِنْهُمُو وَصُدُورُ

لَقَدْ حَاطَ أَعْلَامَ الْهُدَى بِكَ حَائِطٌ

وَقَدَّرَ فِيكَ الْمَكْرُمَاتِ قَدِيرُ

وهذه الصورة الشعرية تراءت للشاعر بفضل قول البحترى فى هيبة اللقاء :

وَلَمَّا قَضَوْا صَدْرَ السّلَامِ تَهَافَتُوا

عَلَى يَدِ بَسَّامٍ سَجِيَّتُهُ البَذْلُ

إِذَا شَرَعُوا فى خُطْبَةٍ قَطَعَتْهُمُو

جَلَالَةُ طَلْقِ الْوَجْهِ جَانِبُهُ سَهْلُ

إِذَا نَكَّسُوا أَبْصَارَهُمْ مِنْ مَهَابَةٍ وَمَالُوا بِلَحْظٍ خِلْتَ أَنَّهُمُو قُبْلُ

نَصَبْتَ لَهُمْ طَرْفًا حَدِيداً وَمَنْطِقاً

سَدِيداً وَرَأْيًا مِثْلَ مَا انْتُضِىَ النَّصْلُ

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَعَاطَتْ أَكُفُّهُمْ

قِرَاكَ وَلَا ضِغْنٌ لَدَيْهِمْ وَلَا ذَحْلُ

بِكَ الْتَـأَمُ الشَّعْبُ الَّذى كَانَ بَيْنَهُمْ
عَلَى حِين ِ بُعْدٍ مِنْهُ وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ

وأبيات البحترى فى هيبة اللقاء انتهبها كثير من الشعراء . وأذكر أن فقيد الشباب عبد الحليم المصرى قدم إلينا قصيدة لنشرها فى جريدة الأفكار سنة ١٩٢٠ فى مدح الملك فؤاد فوجهت نظره إلى ما انتهب من معانى البحترى ، فغضب ، ولم يصلح بيننا إلا الصديق عبد العزيز دعبيس

البحث الثامن والعشرون

بين صبري ومطران

— ١ —

نوازن في هذا البحث بين نونيتين من شعر إسماعيل صبري وخليل مطران ونرى من الخير أن نذكر طائفة من أخبار إسماعيل صبري وأشعاره ، ونبدأ فنذكر أنه ولد في ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ وتوفي في مطلع الربيع صباح ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ ، وكان من رجال القانون ، وآخر منصب تولاه هو منصب وكيل وزارة الحقانية .

كان صبري شاعراً مجيداً ، ولكنه لم يكن من المكثرين ، وقد وصل إلى أبعد حدود التفوق في المعاني الوجدانية ، واتفق له أن يغذي الغناء حينا من الزمان ، وهو صاحب الموال الذي كان يغنيه المطربون في أواخر السهرات :

الْفَجْر آهو لاَحْ قُومُوا يَا تُجَارْ النُّومُ
عَجَبْ تنَامُوا وَعَيْنِي مَا تشُوف النُّومْ
نَزَلْت بَحْر المَحَبَّةْ أَحْسِب أنَّهُ عُومْ
غَرِقْت قَالُوا جَمِيع النَّاس تسْتَاهِل
عِشْق الجَمَالْ غَنْدَرَهْ إلْيُومْ وغِيْر الْيُومْ

وهو صاحب هذا الدور :

قَدَّكْ أَمِير الأَغْصَانْ من غير مُكَابِرْ

وَوَرْد خَدَّك سُلْطَــانْ عَلَى الْأَزَاهِــــرْ
دَا الحُبّ كُلُّوا أَشْجَانْ يَا قَلْب حَـــاذِرْ
وَالصَّـدّ وَيَّا الْهِجْرَانْ جَـــزَا الْمُخَاطِـرْ

دور

يَا قَلْبِ أَدِنْتَ حَبِّيتْ وَرَجَعْتْ تِنْـــدَمْ
وَصَبَحْت تِشْكِى مَارَإيت لَكْ حَـدّ يِرْحَـــمْ
صَدَّقْت قَوْلِى وَرَإيتْ ذُلِّ الْمُتَيَّـمْ ... .
يَامَا نَصَحْتَكْ وَنَهِيتْ لَوْ كُنْت تِفْهَـــمْ

دور

أَعْرِضْ لِحُسْنَكَ أَوْرَاقْ وَاكْتُـــبْ وَدَوِّنْ
وَأَبَاتْ صَرِيعْ الْأَشْوَاقْ وَاكْتُـــبْ وَخَمِّنْ
دَا هَجْر وْصَبَابَهْ وَفِرَاقْ يَارَبِّ هَـــوِّنْ
وَارْحَمْ قُلُوب الْعُشَّاقْ دَاشِىءْ يِجَنِّـــنْ

وللقارىء أن يلاحظ أن هذا من الشعر الملْحُون ، ولا يظهر حسنه إلا عند الغناء ، وقد ظلّت هذه الأدوار على ألسنة الجماهير المصرية زمناً غير قليل ، وهى محفوظة فى ألواح(١) .

ومضى صبرى يَفْتَنُّ افتناناً شائقاً فى مغازلة الصباحة ، وهو صاحب القصيدة المأثورة « تمثال جمال » وفيها تظهر براعته فى مناغاة الحسناء :

(١) نريد بالألواح : اسطوانات الغناء .

يَالِوَاءَ الحُسْنِ أَحْزَابُ الْهَوَى	أَيْقَظُوا الْفِتْنَةَ فِى ظِلِّ اللِّوَاءْ
فَرَّقَتْهُمْ فِى الْهَوَى ثَارَاتُهُـمْ	فَاجْمَعِى الْأَمْرَ وَصُونِى الْأَبْرِيَاءْ
إِنَّ هٰذَا الحُسْنَ كَالْمَاءِ الَّذِى	فِيهِ لِلْأَنْفُسِ رِىٌّ وَشِفَـاءْ
لا تَذُودِى بَعْضَنَا عَنْ وِرْدِهِ	دُونَ بَعْضٍ وَٱعْدِلِى بَيْنَ الظِّمَاءْ
أَنْتِ يَمُّ الحُسْنِ فِيهِ ٱزْدَحَمَتْ	سُفُنُ الْآمَالِ يُزْجِيهَا الرَّجَـاءْ
يَقْذِفُ الشَّوْقُ بِهَا فِى مَائِـجٍ	بَيْنَ لُجَّيْنِ : عَنَاءٍ وَشَقَـاءْ
شِدَّةٌ تَمْضِى وَتَأْتِى شِدَّةٌ	تَقْتَفِيهَا شِدَّةٌ هَلْ مِنْ رَجَاءْ
سَاعِفِى آمَالَ أَنْضَاءِ الْهَـوَى	بِقَبُولٍ مِنْ سَجَايَاكِ رُخَـاءْ

وَتَجَـلَّىْ وَٱجْعَلِى قَـــوْمَ الهَـــوَى
تَحْـتَ عَرْشِ الشَّمْسِ بِالحُكْـــمِ سَـوَاءْ

أَقْبِلِى نَسْتَقْبِلِ الدُّنْيَا وَمَـا	ضَمِنَتْهُ مِنْ مُعِدَّاتِ الْهَنَاءْ
وَٱسْفِرِى تِلْكَ حُلًى مَا خُلِقَتْ	لِتُوَارَى بِلِثَامٍ أَوْ خِبَـاءْ
وَٱخْطِرِى بَيْنَ النَّدَامَى يَحْلِفُوا	أَنَّ رَوْضًا رَاحَ فِى النَّادِى وَجَاءْ
وَٱنْطِقِى يَنْثُرْ إِذَا حَدَّثْتِنَـا	نَاثِرُ ٱلدُّرِّ عَلَيْنَا مَانَشَـاءْ
وَٱبْسِمِى مَنْ كَانَ هٰذَا ثَغْرُهُ	يَمْلَأُ ٱلدُّنْيَا ابْتِسَامًا وَٱزْدِهَاءْ
لَا تَخَافِى شَطَطًا مِنْ أَنْفُسٍ	تَعْثُرُ الصَّبْوَةُ فِيهَا بِالْحَيَـاءْ
رَاضَتِ النَّخْوَةُ مِنْ أَخْلَاقِنَـا	وَٱرْتَضَى آدَابَنَا صِدْقُ الْوَلَاءْ

فَلَو ٱمْتَدَّتْ أَمَانِينَـا إِلَى   مَلَكٍ مَا كَدَّرَتْ ذَاكَ الصَّفَاءْ
أَنْتِ رُوحَانِيَّةٌ لاَ تَـدَّعِى   أَنَّ هٰذَا الشَّكْلَ مِنْ طِينٍ وَمَاءْ
وَٱنزِعِى عَنْ جِسْمِكِ الثَّوْبَ يَبِنْ   لِلْمَلاَ تَكْوِينُ سُكَّانِ السَّمَاءْ
وَأَرِى ٱلدُّنْيَا جَنَاحَىْ مَلَكٍ   خَلْفَ تِمْثَالٍ مَصُوغٍ مِنْ ضِيَاءْ

وهو أيضاً صاحب الأبيات الحسان :

أَبُثُّكِ مَا بِى فَإِنْ تَـرْحَمِى   رَحِمْتِ أَخَا لَوْعَةٍ مَاتَ صَبَّا
وَأَشْكُو النَّوَى مَا أَمَرَّ النَّوَى   عَلَى هَائِمٍ إِنْ دَعَا الشَّوْقُ لَبَّى
وَأَخْشَى عَلَيْكِ هُبُوبَ النَّسِيمِ   وَإِنْ هُوَ مِنْ جَانِبِ الرَّوْضِ هَبَّا
وَأَسْتَغْفِرُ اللّٰهَ مِنْ بُرْهَـةٍ   مِنَ الْعُمْرِ لَمْ تَلْقَنِى فِيكِ صَبَّا
تَعَالَىْ نُجَدِّدْ زَمَانَ الْهَنَـاءِ   وَنَنْهَبْ لَيَالِيَهُ الْغُرَّ نَهْبَـا
تَعَالَىْ أَذُقْ بِكِ طَعْمَ السَّـلاَم   وَحَسْبِى وَحَسْبُكِ مَا كَانَ حَرْبَا

وهو الذى يقول :

تُمْسِى تُذَكِّرُنَا الشَّبَابَ وَعَهْدَهُ   حَسْنَاءُ مُرْهَفَةُ الْقَوَامِ فَنَذْكُرُ
تَثِبُ الْقُلُـوبُ إِلَى الرُّؤُوسِ إِذَا بَـدَتْ
وَتُطِلُّ مِنْ حَدَقِ الْعُيُونِ وَتَنْظُـــرُ

وهذا من وثبات الخيال .

وريحانة هذا العصر أم كلثوم تغنَّى من شعره هذه الأبيات :

أَقْصِرْ فُؤَادِى فَمَا الذِّكْرى بِنَافِعَةٍ   وَلاَ بِشَافِعَةٍ فى رَدِّ مَا كَانَـا

سَلاَ الْفُؤَادُ الَّذِى شَاطَرْتَهُ زَمَنًا حَمْلَ الصَّبَابَةِ فَاخْفُقْ وحْدَكَ الآنَا

هَلاَّ أَخَذْتَ لِهٰذَا الْيَـــــــوْمِ أُهْبَتَــــــهُ

مِنْ قَبْلِ أَن تُصْبِحَ الْأَشْوَاقُ أَشْجَانَــــــا

لَهْفِى عَلَيْـــكَ قَضَيْــــتَ الْعُمْرَ مُقْتَحِمًـــا

فى الْـوَصْلِ نَارًا وَفِى الْهِجْـــرَانِ نِيرَانَـــا

وكانت داره بالمنيرة منتدى الأدباء والشعراء ، وكانت له سهرات تفيض بالنمير العذب من الأدب الرفيع ، وفى أواخر أيامه أمضه المرض ، فكانت زيارة الأدباء أحب إليه من عيادة الأطباء ، وصفه الأستاذ أنطون الجميِّل فقال : « كان فى عزلته يتطلع الى أخبار الأدب كما يتطلع القائد الجريح الى أخبار القتال » (١) .

وألهمته قسوة المرض قصيدة من الشعر الخالد الذى يصوّر آلام اليائس المحزون :

كَمْ سَاعَةَ آلَمَنِى مَسُّهَـــا وَأَزْعَجَتْنِى يَدُهَا الْقَاسِيَــهْ

فَتَّشْتُ فِيهَا جَاهِدًا لَمْ أَجِدْ هُنَيْهَةً وَاحِدَةً صَافِيَــــهْ

وَكَمْ سَقَتْنِى الْمُرَّ أُخْتٌ لَهَا فَرُحْتُ أَشْكُوهَا إِلَى التَّالِيَةْ

فَأَسْلَمَتْنِى هٰذِهِ عَنْـــوَةً لِسَاعَةٍ أُخْرَى وَبِى مَابِيَــهْ

وَيْحَكَ يَامِسْكِينُ هَلْ تَشْتَكِى جَارِحَةَ الظُّفْرِ إِلَى ضَارِيَهْ

حَاذِرْ مِنَ السَّاعَاتِ وَيْلٌ لِمَنْ يَأْمَنُ تِلْكَ الْفِئَةَ الطَّاغِيَــهْ

وَإِنْ تَجِدْ مِنْ بَيْنِهَا سَاعَـــةً جَعْبَتُهَا مِنْ غُصَصٍ خَالِيَةْ

---

(١) هذا معنى العبارة التى سمعناها من خطبة انطون الجميل ،وقد ضاق الوقت عن مراجعة الأصل ، وأخشى أن أكون لونت العبارة بعض التلوين .

فَالْهُ بِهَا لَهْوَ الحَكِيمِ الَّـــذِى | لَمْ يُنْسِهِ حَاضِرُهُ مَاضِيَـــهْ
وَٱمْرَحْ كَمَا يَمْرَحُ ذُو نَشْوَةٍ | فِى قُلَّةٍ مِنْ تَحْتِهَا الْهَاوِيَـــهْ
فَهْىَ وَإِنْ بَشَّتْ وَإِنْ دَاعَبَتْ | مُخْتَالَـــةٌ خَتَّالَةٌ عَادِيَـــهْ
عِنَاقُهَا خَنْقٌ وَتَقْبِيلُهَـــــا | كَمَا تَعَضُّ الْحَيَّةُ الْبَاغِيَـــهْ
هٰذَا هُوَ الْعَيْشُ فَقُلْ لِلَّـــذِى | تَجْرَحُهُ السَّاعَةُ وَالثَّانِيَـــهْ
يَاشَاكِىَ السَّاعَاتِ اِسْمَعْ عَسَى | تُنْجِيكَ مِنْهَا السَّاعَةُ الْقَاضِيَهْ

ولم يخل قلبه من سوء ظن بالناس ، يدل على ذلك قصيدة (الفزع الأكبر) إذ يقول :

غَاضَ مَاءُ الْحَيَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ | فَغَدَا كَالِحَ الجَوَانِبِ قَفْـرَا
وَتَفَشَّى الْعُقُوقُ فى النَّاسِ حَتَّى | كَادَ رَدُّ السَّلامِ يُحْسَبُ بِرَّا
أَوجُهٌ مِثْلَمَا نَثَرْتَ عَلَى الْأَجْدَا | ثِ وَرْدًا إِنْ هُنَّ أَبْدَيْنَ بِشْرَا
وَشِفَاهٌ يَقُلْنَ أَهْلاً وَلَوْ أَدَّيْنَ | مَافِى الحَشَا لَمَا قُلْنَ خَيْرَا
عَمْرَكَ ٱللهَ هلْ سَلاَمٌ وِدَادٍ | ذَاكَ أَمْ حَاوَلَ الْمُسَلِّمُ أَمْـرَا

وفى هذه القصيدة يقول :

تَعِبَ الْفَيْلَسُوفُ فى النَّاسِ عَصْرَا | وَتَوَلَّى السَّرَائِرَ ٱلدِّينُ عَصْرَا
وَالْوَرَى طَارِدٌ إِزَاءَ طَرِيـــــدٍ | وَعُقَابٌ يُمْسِى يُطَارِدُ صَقْرَا
وَجُيُوشٌ يَفُلُّ مِنْ بَعْضِهَا الْبَعْـ | ـضَ وَهُضْبٌ كُبْرَى تُنَاطِحُ صُغْرَى
حَاذِرِى يَاذِئَابُ صَوْلَةَ أُسْـــدٍ | مِنْكِ أَقْوَى نَابًا وَأَنْفَذَ ظُفْرَا

لَا تَنَامِي يَا أُسْدُ إِنَّ ذِئَابًا ... لَمْ تَنَمْ مِنْ رَوَابِضِ الْغِيلِ أَضْرَى
عِبَرٌ كُلُّهَا اللَّيَالِي وَلٰكِنْ ... أَيْنَ مَنْ يَفْتَحُ الْكِتَابَ وَيَقْرَا

وما أحب أن يفوتنى إثبات هذه الأبيات :

يَاسَرْحَةً بِجِوَارِ الْمَاءِ نَاضِرَةً ... سَقَاكِ دَمْعِى إِنْ لَمْ يُوفِ سَاقِيكِ
عَارٌ عَلَيْكِ وَهٰذَا الظِّلُّ مُنْتَشِرٌ ... فَتْكُ الْهَجِيرِ بِمِثْلِى فى نَوَاحِيكِ
فَمَنْ مُعِيرِى جَنَاحَىْ طَائِرٍ غَرِدٍ ... كَىْ أَقْطَعَ الْعُمْرَ شَدْوًا فى أَعَالِيكِ
فَلَا أُنَفَّرُ عَنْ أَرْضٍ غُرِسْتِ بِهَا ... وَلَا يَرِنُّ بِسَمْعِى غَيْرُ وَادِيكِ

وانما أكثرنا من الشواهد لأن شعر صبرى لم يُجْمَعْ فى ديوان ، فأحببنا أن يطلع على فرائده قراء هذا الكتاب ، وقد حاول الأدباء غير مرة أن يجمعوا شعره ثم صرفتهم الشواغل عما يريدون ، وكان صبرى نفسه قليل الاهتمام بتدوين شعره وكان يسأل عن ذلك ، فيجيب : وهبته للفناء !

— ٢ —

أما مطران فهو شاعر مبدع ، وهو من المكثرين ، وله وثبات لا ينهض بها إلا الفحول ، وشعره مدوّن نشرت منه المجموعة الأولى باسم — ديوان الخليل — وينتظر أن يُجْمَع شعره كله فى عدة أجزاء ، وقد عرفنا مطران وصحبناه ، وهو تحفة من تحف الذوق والوفاء ، وله فى النثر أسلوب مضمّخ بالنفحات الشعرية ، وهو رجل خصب الذهن ، مثقف العقل ، مرهف الإحساس . ومن خصائص مطران التلطف والترفق ، فليس له فى مصر عدوّ واحد ، على قلة ما يتفق ذلك لأهل الأدب والبيان ، وكان الناس يسمونه شاعر القطرين ، فلما مات شوقى سمّوه شاعر الأقطار العربية ، مع أنه من أزهد الناس فى الألقاب .

وقد تولى رياسة جمعية أبولّلو فى مصر بعد شوقى ، وهى جمعية شعرية أثرت أبلغ تأثير فى الشعر الحديث ، ومن أقطاب هذه الجمعية الدكتور أحمد زكى

أبو شادى والدكتور ابراهيم ناجى ، وهما من أكثر الناس تغنياً بالشعر بين أدباء هذا الجيل .

— ٣ —

نونية صبرى

فرعون وقومه :

لاَ الْقَوْمُ قَوْمِى وَلاَ الْأَعْوَانُ أَعْوَانِى
إِذَا وَنَى يَوْمَ تَحْصِيلِ الْعُلاَ وانِى
وَلَسْتُ إِنْ لَمْ تُؤَيِّدْنِى فَرَاعِنَةٌ
مِنْكُمْ بِفِرعَوْنَ عَالِى الْعَرْشِ والشَّانِ
لاَ تَقْرَبُوا النِّيلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلاً
فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسْلاَنِ
رِدُوا المَجَرَّةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ
أَوْ فَاطْلُبُوا غَيْرَهُ رِيًّا لِظَمْآنِ
وٱبْنُوا كَمَا بَنَتِ الْأَجْيَالُ قَبْلَكُمُو
لاَ تَتْرُكُوا بَعْدَكَمْ فَخْرًا لِإِنْسَانِ
أَمَرْتُكُمْ فَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمُو لاَيَثْنِ مَسْتَمِعًا عَنْ طَاعَةٍ ثَانِى
فَالْمُلْكُ أَمْرٌ وَطَاعَاتٌ تُسَابِقُهُ جَنْبًا لِجَنْبٍ إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانِ
لاَتَتْرُكُوا مُسْتَحِيلاًفِى ٱسْتِحَالَتِهِ حَتَّى يُمِيطَ لَكُمْ عَنْوَجْهِ إِمْكَانِ

* * *

مَقَالَةٌ قَدْ هَوَتْ مِنْ عَرْشِ قَائِلِهَا عَلَى مَنَاكِبِ أَبْطَالٍ وَشُجْعَانِ
مَادَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ ذُعْرٍ وَدَانَ لَهَا
مَا فِي الْمُقَطَّمِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَّانِ
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مَلأٍ فِي غَيْرِ مِصْرَ لَعُدَّتْ حُلْمَ يَقْظَانِ
لٰكِنَّ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلاً لَبَّتْ حِجَارَتُهُ فِي قَبْضَةِ الْبَانِي
وَآزَرَتْهُ جَمَاهِيرٌ تَسِيلُ بِهَا بِطَاحُ وَادٍ بِمَاضِي الْقَوْمِ مَلْآنِ
يَبْنُونَ مَا تَقِفُ الْأَجْيَالُ حَائِرَةً أَمَامَهُ بَيْنَ إِعْجَابٍ وَإِذْعَانِ
مِنْ كُلِّ مَا لَمْ يَلِدْ فِكْرٌ وَلَا فُتِحَتْ
عَلَى نَظَائِرِهِ فِي الْكَوْنِ عَيْنَانِ
وَيُشْبِهُونَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلٍ جِنًّا تَطِيرُ بِأَمْرٍ مِنْ سُلَيْمَانِ
بِرًّا بِذِي الْأَمْرِ لَا خَوْفًا وَلَا طَمَعًا لٰكِنَّهُمْ خُلِقُوا طُلَّابَ إِتْقَانِ

* * *

أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ، حَيِّ الْفَنَّ مُتَّخِذًا مِنَ الصُّخُورِ بُرُوجًا فَوْقَ كِيوَانِ
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا وَهْيَ سَاخِرَةٌ بِمَا يُضَعْضِعُ مِنْ صَرْحٍ وَإِيوَانِ
لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالنَّهَارُ سِوَى مَا يَأْخُذُ النَّمْلُ مِنْ أَرْكَانِ ثَهْلَانِ (١)
كَأَنَّهَا وَالْعَوَادِي فِي جَوَانِبِهَا صَرْعَى - بِنَاءُ شَيَاطِينٍ لِشَيْطَانِ

---

(١) ثهلان : اسم جبل .

جَاءَتْ إِلَيْهَا وُفُودُ الْأَرْضِ قَاطِبَةً ... تَسْعَى اشْتِيَاقًا إِلَى مَا خَلَّدَ الْفَانِي
فَصَغَّرَتْ كُلَّ مَوْجُودٍ ضَخَامَتُهَا ... وَغَضَّ بُنْيَانُهَا مِنْ كُلِّ بُنْيَانِ
وَعَادَ مُنْكِرُ فَضْلِ الْقَوْمِ مُعْتَرِفًا ... يُثْنِي عَلَى الْقَوْمِ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانِ
تِلْكَ الْهَيَاكِلُ فِي الْأَمْصَارِ شَاهِدَةٌ ... بِأَنَّهُمْ أَهْلُ سَبْقٍ أَهْلُ إِمْعَانِ
وَأَنَّ فِرْعَوْنَ فِي حَوْلٍ وَمَقْدِرَةٍ ... وَقَوْمَ فِرْعَوْنَ فِي الْإِقْدَامِ كُفْؤَانِ
إِذَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ شَاهِدًا حَجَرٌ ... فِي هَيْكَلٍ قَامَتِ الْأُخْرَى بِبُرْهَانِ
كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ ... أَمَامَهَا صُحُفٌ مِنْ عَالَمٍ ثَانِي
تَسْتَقْبِلُ الْعَيْنَ فِي أَثْنَائِهَا صُوَرٌ ... فَصِيحَةُ الرَّمْزِ دَارَتْ حَوْلَ جُدْرَانِ
لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتًا لَكَانَ لَهُ ... صَدًى يُرَوِّعُ صُمَّ الْإِنْسِ وَالْجَانِ

* * *

أَيْنَ الْأُلَى سَجَّلُوا فِي الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ ... وَصَغَّرُوا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطَانِ
بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُوَلٌ ... وَأُدْرِجُوا طَيَّ أَخْبَارٍ وَأَكْفَانِ
وَخَلَّفُوا بَعْدَهُمْ حَرْبًا مُخَلَّدَةً ... فِي الْكَوْنِ مَا بَيْنَ أَحْجَارٍ وَأَزْمَانِ
وَزُحْزِحُوا عَنْ بَقَايَا مَجْدِهِمْ وَسَطَا ... عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الْجَاهِلُ الْجَانِي
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الْأَسْتَارَ مُقْتَحِمًا ... جَلَالَ أَكْرَمِ آثَارٍ وَأَعْيَانِ
لَلْجَهْلُ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي جَهَالَتِهِ ... إِذَا هُمَا وُزِنَا يَوْمًا بِمِيزَانِ

نونية مطران

قال ، وقد رأى تمثال رمسيس الثانى فى الأقصر :

أَكْبِرْ بِرَمْسِيسَ مَيْتًا لَا يُلِمُّ بِهِ ... مَوْتٌ وَأَكْبِرْ بِهِ حَيًّا إِلَى الآنِ
لَوْلَا تَمَاثِيلُهُ الْأُخْرَى مُحَطَّمَةً ... مَا جَالَ فِى ظَنِّ فَانٍ أَنَّهُ فَانِى
فِى مِصْرَ عَزَّ فَرَاعِينٌ فَمَا بَلَغُوا ... بِهَا مَبَالِغَهُ مِنْ رِفْعَةِ الشَّانِ
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِى غَيْرِ مُدَّتِهِ ... مَاتَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءٍ وَعُمْرَانِ
تَخَيَّرَ الْخُطَّةَ الْمُثْلَى لَهُ وَلَهَا ... يَعْلُو فَتَعْلُو بِهِ وَالْخَفْضُ لِلشَّانِى (١)
مَا زَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُمُو ... إِلٰهَ جُنْدٍ تُحَابِيهِ وَكُهَّانِ
وَرُبَّ سَائِمَةٍ بَلْهَاءَ هَائِمَةٍ ... تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِى سِرٍّ وَإِعْلَانِ
يَسُومُهَا كُلَّ خَسْفٍ وَهْىَ صَابِرَةٌ ... لَا صَبْرَ عَقْلٍ وَلٰكِنْ صَبْرَ إِيمَانِ
إِنْ بَاتَ فِى حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصُبٍ ... يَلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الجَانِى
فَبَجَّلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمُلْكِ مُدْمِيهَا ... وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِى الْمَرْمَرِ الْقَانِى
مُخَلَّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرِفْعَتِهِ
مِنْ شُوسِ حَرْبٍ وَصُنَّاعٍ وَأَعْوَانِ (٢)
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلْيَاءِ مُضْطَجِعًا ... مِنْ مَهْدِ عِصْمَتِهَا فِى مَضْجَعِ الزَّانِى

---

(١) الشانئ : هو المبغض ، وفى القرآن « إن شانئك هو الأبتر » .

(٢) الشوس : جمع أشوس ، وهو المتكبر .

بِحَيْثُ آبَ وَكُلُّ الْفَخْرِ حِصَّتُهُ وَلَمْ يَؤُبْ غَيْرُهُ إِلاَّ بِحِرْمَانِ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُذِلَتْ
فِى مُشْتَرَى سَيِّدٍ أَرْوَاحُ عُبْدَانِ

* * *

كَلَّا وَعِزَّتِه فِيمَا طَغَى وَبَغَى
وَذَلَّ مِنْ قِبَلِ الضِّيزَى بِإِذْعَانِ
هُمُ الَّذِينَ عَلَى عُسْرٍ بِمَطْلَبِهِ
قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفِتْيَانِ
وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا
فَخَوَّلُوهُ مَدِيناً حَقَّ دَيَّانِ
فِيمَ الأُلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ
رُسُومُهُمْ مُنْذُ مَاتُوا رَهْنَ أَكْفَانِ
وَمَا لِأَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دُفِنَتْ
شُعْثاً مُنَكَّرَةً فِى رَمْسِ كِتْمَانِ
لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِى أَخْلَاقُهَا رَسَبَتْ
يَعْلُو بِأَخْلَاقِهَا تَيَّارُ طُغْيَانِ
النَّارُ أَسْوَغُ وِرْدًا فِى مَجَالِ عُلًا
مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِى أَفْيَاءِ فَيْنَانِ

أَكْرِمْ بِذِى طَمَعٍ فى جَنْبِ مَطْمَعِهِ
يَنْجُو الْأَذِلَّاءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانِ

يَهُبُّ فِيهِمْ كَإِعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ
مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانِ

بَعْضُ الطُّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لِأَوْطَانِ

فى كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا
تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لِأُحْدَانِ

كَمْ فى سَنَا الْكَوْكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلَكَةٌ
فى كُلِّ لَمْحٍ لِأَضْوَاءٍ وَأَلْوَانِ

لَمْ تَرْقَ فى حِقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيَتْ
فى عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانِ

لَمَّا رَمَتْ كُلَّ نَائِى الشَّوْطِ مُمْتَنِعٍ
بِسَابِقِينَ إِلَى الْغَايَاتِ شُجْعَانِ

أَلَا تَرَى فى بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا
بِأَوْجُهٍ بَادِيَاتِ الْبِشْرِ غُرَّانِ

وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيسُ مُقَدَّمُهُمْ
إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغِلْمَانِ

البحث التاسع والعشرون

الموازنة بين النونيتين

وإنى لأرجو القارئ أن ينظر فى هاتين القصيدتين مرة ومرة ، أو مرات قبل أن ينظر فيما نكتب ، فما نريد بالموازنة إلا تشويقه إلى المتعة بتلك الآيات الغراوات ، وأنا قد نظرت فى هاتين القصيدتين وأطلت النظر ، وعجبت كيف غفل الناس عن هاتين السُورتين من سُوَر الشعر الرفيع ، وفى الشعر قرآن وإنجيل .

تفرد صبرى بالحديث عن وصية فرعون ، أو ما سماه مقالة فرعون ، ويا لها من مقالة تصدع الصخر ، وتنبت الحماسة فى صدور الأموات ، وقد مثّل الرجل هول المجد ، وعظمة النيل ، حين قال :

لاَ تَقْرَبُوا النِّيلَ إنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلاً
فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسْلاَنِ
رِدُوا المَجَرَّةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ أَوْ فَاطْلُبُوا غَيْرَهُ رِيًّا لِظَمْآنِ

وبذلك دلّنا صبرى على أن المجد فى مصر لا يُتاح لأهل الكسل والجمود ، ولكن أى مجد ؟ إن صبرى لم يكن يتمثل المجد المزيّف الذى يرتدى أثوابه الوارثون ، لم يكن صبرى يرى المجد فيما يتمتع به العَجَزة الضعاف الذين يمرحون ويلعبون بفضل ما ترك آباؤهم وأمهاتهم من المال الموروث ، وإنما كان يتصور المجد فيما يظفر به العصاميون الذين لا يذوقون لذة العيش إلا بعرق الجبين ، أولئك هم الرجال الذين عناهم صبرى ، وبأمثالهم تزدهر الدنيا فى المشرق والمغرب ، ومن جهودهم تنبع

العلوم والآداب والفنون ، أما الهانئون الناعمون الذين يأكلون ما كسبته أيدى آبائهم وأمهاتهم فليسوا جنود فرعون ، وليسوا من أهل وادى النيل ، ولو تُركتْ أرض مصر لأولئك الذين لا يعرفون غير ألوان الطعام . وخسائس اللذات لما قام فيها أثر خالد ، ولا تذوقت طعم الفوز فى دنيا لا يظفر بنعمائها غير أقطاب الجدّ الساهر والعمل الموصول :

أنظر أيها القارئ فى هذين البيتين ، وتأمل ما أوصى به فرعون ، واسأل نفسك قبل أن تقرب الكأس : أكان رحيقها مما صنعت يدك أم كان مما سكب سواك ؟ تأمل قبل أن تذوق طعامك : أساقته إليك يدك الصنّاع أم كنت ضيفاً على مائدة غيرك ؟ وانظر فى ثيابك : أكانت خيوطها من خيوط الليل الذى أسهرت جفنيه فى العمل الشريف ، أم كانت خيوطاً مصنوعة من الرجس الذى اقترفته بالتزلف والتملق والنفاق ؟

قد تقول : إن صبرى لم يقصد إلى كل هذه المعانى . ومن يُدريك ؟ إن وصية فرعون تحتمل كل ذلك ، وشريعة الحياة نفسها تفرض على الرجل أن يكون له وجُود ذاتىٌّ تتكوّن عناصره من الكدح فى سبيل المجد ، وسبيل المعاش .

ثم ماذا ؟ ثم بيّن صبرى أساس السياسة : سياسة الملك والعمران ، حين قال على لسان فرعون :

أَمَرْتُكُمْ فَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمُو ... لَا يَثْنِ مُسْتَمِعاً عَنْ طَاعَةٍ ثَانِى

فَالْمُلْكُ أَمْرٌ وَطَاعَاتٌ تُسَابِقُهُ ... جَنْباً لِجَنْبٍ إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانِ

اسمعوا هذا : « الملك أمر وطاعات » وهل كان الملك غير ذلك ؟ هل كانت دنيا المجد إلا صورة من الأمر الرشيد والطاعة العيناء ، ولا أقول العمياء .

إن الأمر الرشيد هو صورة العقل ، والطاعة العيناء هى صورة التنفيذ ، والملوك الموفّقون طاعتهُم رشْدٌ وعصيانهم ضلال ، وكان فرعون رباً ، وكانت رعيته عبيداً ، كان ربا حكيماً ، وكانوا عبيداً مخلصين ، وقد رأيتم ما صنعت الحكمة وما صنع الإخلاص :

لقد تخيرت وصف الطاعة فجعلتها عيناء ، ولم أجعلها عمياء ، أتعرفون لماذا ؟ لأن الشاعر نفسه جعل المصريين أبطالا شجعاناً يُقْدمون فى طاعتهم إقدام الأبرار حين قال :

مَقَالَةٌ قَدْ هَوَتْ مِنْ عَرْشِ قَائِلِهَا
عَلَى مَنَاكِبِ أَبْطَالٍ وَشُجْعَانِ
مَادَتْ لَهَا الأَرْضُ مِنْ ذُعْرٍ وَدَانَ لَهَا
مَا فِى المُقَطَّمِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَّانِ
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مَلَإٍ
فِى غَيْرِ مِصْرَ لَعُدَّتْ حُلْمَ يَقْظَانِ
لٰكِنَّ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلًا
لَبَّتْ حِجَارَتُهُ فِى قَبْضَةِ الْبَانِى
وَآزَرَتْهُ جَمَاهِيرٌ تَسِيلُ بِهَا
بِطَاحُ وَادٍ بِمَاضِى الْقَوْمِ مَلْآنِ
يبْنُونَ مَا تَقِفُ الْأَجْيَالُ حَائِرَةً أَمَامَهُ بَيْنَ إِعْجَابٍ وَإِذْعَانِ
مِنْ كُلِّ مَا لَمْ يَلِدْ فِكْرٌ وَلَا فُتِحَتْ
عَلَى نَظَائِرِهِ فِى الْكَوْنِ عَيْنَانِ
وَيُشْبِهُونَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلٍ
جِنًّا تَطِيرُ بِأَمْرٍ مِنْ سُلَيْمَانِ

بِـرًّا بِذِى الْأَمْرِ لَا خَوْفاً وَلَا طَمَعاً
لٰكِنَّهُمْ خُلِقُوا طُلَّابَ إِتْقَانِ

وهذه القطعة تصوِّر انسجام الأهواء بين فرعون وقوم فرعون : فهو ربٌّ يأمر بالرشد ، وهم عباد مخلصون « لايطيعون خوفا ولا طمعا ، وإنما يقبلون على المجد لأنهم خُلِقُوا طُلاب إتقان » وفى هذا المعنى سر عظيم ، فالمجد لا ينهض به الملوك وحدهم ، وانما المجد صنيعة الأبرار بين الشعوب ، والمَلِك نفسه من روح شعبه ، هو الجذوة التى تجد فيما تمس أصول اللهب المكبوت ، ولو قام نبيٌّ بين الأموات وصرخ لما استجاب له مجيب ، وإنما يفلح المصلحون حين يتوجهون إلى نفوس خيِّرة كَمَن فيها البر كما تكمن النار فى الصخرة الصماء ، والمصريون لعهد الفراعين كانوا « طُلاَّب ، إتقان » وكانوا يعشقون التجويد فيما يصنعون ، وكانت أيديهم مفطورة على المهارة ، وأنفسهم مجبولة على الصبر الجميل ، وعزائمهم مقدودة من الصوان ، وكانت إرادة الملوك مظهراً من إرادتهم الذاتية ، فكان خضوعهم خضوع الأشراف لا خضوع العبيد . ومن ذا الذى يسمح له كرم الذوق ، وشرف العقل ، أن يحكم بأن قصر الكرنك لم يكن إلا مشيئة رجل فرد ! إن فى خرائب ذلك القصر بقايا من شواهد العبقرية تنطق بأن الذين تولوا هندسته وبناءه كانوا مأخوذين بسلطان غير سلطان الملك هو سلطان الفن وسلطان الجمال .

لقد زرت عشرات القصور فى فرنسا فوجدتها جميعاً دون قصر الكرنك ، إن قصر الكرنك وهو خرائب وأطلال لأعظم وأروع من قصر فرساى ، وطريق الأسود فى الكرنك يشهد بأن المصريين لعهد الفراعين كانوا أئمة الدنيا فى تصور الانسجام بين الجمال والجلال .

من أجل ذلك نعتب على مطران أشد العتب لأنه جعل المصريين لعهد رمسيس عبيداً مسخَّرين يؤمَرون فيأتمرون ، وماذا قال مطران ! إنه جعل رمسيس كل شئ حين قال :

مَازَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُمُو
إِلٰهَ جُنْدٍ تُحَابِيهِ وَكُهَّانِ
وَرَبَّ سَائِمَةٍ بَلْهَاءَ هَائِمَةٍ تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِى سِرٍّ وَإِعْلَانِ
يَسُومُهَا كُلَّ خَسْفٍ وَهْىَ صَابِرَةٌ
لَا صَبْرَ عَقْلٍ وَلٰكِنْ صَبْرَ إِيمَانِ
إِنْ بَاتَ فِى حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصُبٍ
يَلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الْجَانِى
فَبَجَّلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمُلْكِ مُدْمِيَهَا
وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِى الْمَرْمَرِ الْقَانِى
مُخَلَّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرِفْعَتِهِ
مِنْ شُوسِ حَرْبٍ وَصُنَّاعٍ وَأَعْوَانِ
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلْيَاءِ مُضْطَجِعاً مِنْ مَهْدِ عِصْمَتِهَا فِى مَضْجَعِ الزَّانِى
بِحَيْثُ آبَ وَكُلُّ الْفَخْرِ حِصَّتُهُ
وَلَمْ يَؤُبْ غَيْرُهُ إِلَّا بِحِرْمَانِ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُذِلَتْ
فِى مُشْتَرَى سَيِّدٍ أَرْوَاحُ عُبْدَانِ

وهذه القطعة من الشعر الرائع الرصين ، ولكن أين المنطق ؟

إن مطران يحكم بأن الرعية كانت تشقى فى سبيل رمسيس ، ويحكم بأنها كانت

على شقائها تهواه فى السر والعلانية ، ويحكم بأنه كان يسومها الخسف ،وأنها كانت تصبر صبر المؤمنين ، لا صبر العقلاء . ونحن أيها الشاعر نسألك كيف تهوى الرعية مليكها فى السر والعلانية ، وهو ظالم ! كيف تهواه وهى تعرف أنه يسومها الخسف والضيم والذل ؟ كنت تستطيع أيها الشاعر أن تتخير كلمة غير الهوى ، كنت تستطيع أن تقول إنها كانت تخضع أو كانت تطيع ، فالخضوع قد يكون عن ضعف ، والطاعة قد تكون عن عجز ، أما الهوى فلن يكون إلا عن بينة من نور القلوب .

إن مطران يصوّر الأمة بأنها كانت تعبد رمسيس ، وأنها كانت تتمثل شخصه المحبوب فى الهياكل والتماثيل، فكيف يصح أن نتصور أنها كانت ترى فيه وجه الظالم المعبود ، وهل يُعْبد الظالمون ؟ كل شىء يُقبل إلا هذا ، فالظالم لا يُعْبد إلاّ حين يتمثل فيه العابدون ملامح جذابة تجعل ظلمه حلو المذاق .. إنك لَشاعرٌ حين تقول :

فَبَجَّلَتْ تَحْتَ تَاجِ المُلْكِ مُدْمِيَهَا
وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فى المَرْمَرِ القَانى

ولكن أين المنطق ؟ إن الفراش يحترق ، وهو يغازل النور ، ولكنه يعشق النور عشقا يهوّن عليه قسوة الاحتراق ، فمن أين علمتَ أن رعية فرعون لم تكن ترى فى فرعون غير جبار غشوم ؟ لعلها عرفت فيه معانى فاتنة غابت عنك ، وقد جئت تغمزه بعد أن طمرت أمجاده رمال السنين الطوال ، وللسنين رمالٌ ، وفيها زوابع وأعاصير ، رمالٌ من النسيان ، وزوابع من العقوق .

إن تمثال رمسيس الثانى لم يصنعه صانعوه وهم غافلون عما يصنعون ، لا بدّ أن يكون لصاحب التمثال صورة مشرقة فى أنفس من تعبوا فى نحته وتذوقوا فى سبيل روعته طعم الضجر والعناء ، وللتعب طعم معسول فى أذواق من يعرفون ما يصنعون(١) .

ثم ماذا ؟ ثم يحكم مطران بأن رمسيس استبدّ بالمجد ، واستبدّ بالخلود ، فلم يعرف أحد أسماء من نحتوا التمثال .

---

(١) من ملاحظات الأستاذ محمد مسعود أن رمسيس الثانى كان اتخذ الأقصر قاعدة الملك ، ومع ذلك وجدت تماثيله فى جهات مختلفة من المدائن المصرية ، وهذا يدل على أنه كان محبوباً جداً من الأهلين .

رويدك أيها الشاعر ، ومن يدريك أن من صنعوا تمثال رمسيس لم يكن لهم فى زمانهم وجود ملحوظ ؟ وكيف غاب عنك أن تلك سُنّة طبيعية لم تنفرد بها مصر ولم تقتصر على رمسيس ؟ أين أسماء من أقاموا قصر الحمراء ؟ وأين أسماء من أقاموا القصور الشامخات فى الأقطار الفرنسية والانجليزية والجرمانية ؟ قد تذكر أسماء بعض المهندسين ، ولكن انتظر حتى يمرّ على تلك المعالم ما مرّ على تمثال رمسيس ، انتظر ألفين أو ثلاثة آلاف سنة ، ثم اسأل عن اسم نابليون نفسه ، فإن وجدت من يعرفه فعندى لك نسخة مذهبة من ديوان مطران !

إنك تقذف رمسيس بهذا البيت ، وهو من وحى شيطانك الرجيم :

مُخَالِساً ذِمَّةَ الْعَلْيَاءِ مُضْطَجِعاً ... مِنْ مَهْدِ عِصْمَتِهَا فى مَضْجَعِ الزَّانِى

فما هذا الدنَس فى التصوير ؟ وما هذا الرجْس فى التمثيل ؟

أيجوز فى ذهنك أن ينال الملوك من شعوبهم منازل الخلد بفضل الاختلاس ؟ إن الشعب الغافل لايصل إلى شىء ، وقد وصل المصريون فى عهد رمسيس إلى أشياء : كانوا لعهده من الغزاة الفاتحين ، وكانوا لعهده أقدر أهل زمانهم على البصر بالفنون ، فلك أن تتصور إلى أى غاية من غايات الفتوّة العقلية وصلت نفس ذلك الجبار العملاق. وأنت نفسك تقول :

فى مِصْرَ عَزَّ فَرَاعِينٌ فما بَلَغُوا ... بِهَا مَبَالِغَهُ مِنْ رِفْعَةِ الشَّانِ
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فى غَيْرِ مُدَّتِهِ ... مَاتَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءٍ وَعُمْرَانِ

أتراه كان يحرث الأرض بيديه ؟ أتراه كان يقيم القلاع والحصون بلا مساعد ولا معين ؟ .

إن ما تم فى مدته كان بفضل إخلاص الرعية ، وهل تخلص الرعية لجبارٍ مُسْتبد غَشُوم ؟ .

إن هناك قوانين نفسية تصل بين الحاكمين والمحكومين ، قوانين من تجاوب المشارب والأرواح ، قوانين من أنس القلوب بالقلوب ، وقرب العقول من العقول ، ولا بدّ

أن يكون رمسيس الثانى ظفر فى زمانه بقَبَسٍ من الجاذبية الروحية والعقلية استطاع به وهو فَرْدٌ أن يسوق المصريين إلى ميادين المجد فاندفعوا يتصايحون فرحين وهم ألوف الألوف .

إن الذى يزور وادى الملوك فى الأقصر ،أو يزور وادى اللوار فى فرنسا يقول « كانت هنا أمّة » قبل أن يقول « كان هنا ملك » ولكن قضت سُنّة الخلود أن يكون فى كل أرضٍ جُنْدىٌّ مجهول ، والجنود المجهولون ليسوا فى عُرف المجد بنكرات ، فكل حجر أقيمَ هو الخلود لتلك السواعد التى أقلّته من مكان إلى مكان ، وكل نقش خُلّد يحمل اسم الفنّان الذى تعب فيه ، وإن لم تشهد بذلك رسوم ولا حروف ، وسيأتى زمان تنكشف فيه الحقائق وترى القلوب ما لا ترى العيون ، وقد سبَقْنا نحن فرأينا بعين البصيرة خلود الصانعين ممثلاً فى خلود التماثيل .

من الحق أيها الشاعر أن رمسيس ظفر بالسمعة الباقية ، ولكن فى أى آذان ؟ فى آذان من يقرءون ولا يفقهون ، أما الأمة التى خلدت رمسيس فهى باقية فى ذمة الصم الخوالد من أحجار الكرنك ، على أيامه السلام .

وما هذا الظلم الذى تقترف أيها الشاعر ، وأنت تتمثل ذلك الفرعون وهو فى مضجع الداعرين ؟

أنت تقول إنه سَخَّر الشعب ، وهل تعرف كيف تُسَخَّر الشعوب ؟ لقد أضجرتك سياسة (الفرقة القومية) وهم جماعة من الممثلين يُعَدون على أصابع اليدين ، وإن زادوا فهم يُعَدون على أصابع اليدين والرجلين ، فكيف تنتظر أن يُسَخِّر رمسيس أمة كاملة ويسوقها إلى تصاريف الحرب ، وإلى تكاليف السلم ؟ أيفعل ذلك وهو يتمطّى ويتثاءب تحت أشجار الجميز ؟ أم يفعل ذلك وهو عقلٌ يُفكر ، ورأىٌ يُدبر ، ولسانٌ يُبين ؟

إن الرجل قد يعجز عن إقرار النظام فى بيته ، وفيه خمس أنفس ، والمدرس قد يعجز عن إقرار النظام فى درسه وليس تحت بصره غير عشرة تلاميذ ، فمن عسى أن يكون الملك الذى يقيم قواعد النظام فى أمة تُعَد بالملايين ، ولكل قلب شهوات ولكل رأس نزوات ، وبين الرؤساء والقواد ضغائن وحقود ! إن الملك الذى يجمع

طوائف شعبه على رأى واحد لهوَ رَجُلٌ سَحّارٌ خَلقتْ إرادته من كل قلب ، فسيطر على كل نفس ، ووضع على عصره يداً من حديد ، وكذلك كان رمسيس الذى غمزْتَهُ فى شعرك غَمزةً لا رفق فيها ولا إشفاق .

ولكن كيف اتفق لمطران أن يتحامل على رمسيس بلا سبب مبين ؟ لقد فكرت فى ذلك طويلاً ، ثم بدا لى أن أرجع إلى الظرف الذى نظم فيه هذه القصيدة العصماء ، فوجدت الدكتور محمد صبرى يذكر أن مطران كان زار أهرام سقارة ثم أرسل إلى الأستاذ محمد مسعود أبياتاً لينشرها بالمؤيد ، وأبيات مطران هى أصل ما فى النونية ، وفيها يقول عن فرعون :

شَادَ فَأَعْلَى وَبَنَى فَوَطَّدَا ... لاَ لِلْعُلاَ وَلاَ لَهُ بَلْ لِلْعِدَا

مُسْتَعْبِدًا أُمَّتَهُ فِى يَوْمِهِ ... مُسْتَعْبِدًا بَنِيهِ لِلْعَادِى غَدَا

وفيها يقول عن العمال الذين بنوا الأهرام :

إِنِّى أَرَى عَدَّ الرِّمَالِ هَاهُنَا ... خَلاَئِقاً تَكْثُرُ أَنْ تُعَدَّدَا

مُجْتَمِعِينَ أَبْحُرًا مُنْفَرِعِيـ ... ـنَ أَنْهُرًا مُنْحَدِرِينَ صُعَّدَا

صُفْرَ الْوُجُوهِ نَادِيًا جِبَاهُهُمْ
كَالْكَلإِ الْيَابِسِ يَعْلُوهُ النَّدَى

أَكُلَّ هٰذِى الأَنْفُسِ الْهَلْكَى غَدًا
تبْنِى لِفَانٍ جَدَثاً مُخَلَّدَا

وهذا من الشعر الحق ، والشاعر يتمثل نفسه واقفاً ينظر العمال وهم يبنون الأهرام ، وكانت هذه القصيدة هى الباعث الذى حدا إسماعيل صبرى على نظم نونيته الشماء .

ولكن متى زار مطران أهرام سقارة ؟ لقد اتصلت بالأستاذ مسعود تليفونيا ، وسألته متى نشر دالية مطران ، فأجاب بأنه لا يذكر بالضبط ، وإنما يعرف أنه ترك جريدة المؤيد سنة ١٩٠٦ .

ومعنى هذا أنه نظم قصيدته الأولى فى غمز الفراعين منذ ثلاثين سنة أو تزيد .

قد يسأل القارئ : وما خطر ذلك فى هذه القضية ؟

ونجيب بأن بلاد الشام كانت منذ ثلاثين سنة تغلى غيظاً وحقداً على السلطان عبد الحميد ، وكان الناس فى أكثر البلاد يرون فى صورة عبد الحميد وجه الجبار السفاح ، ولا سيما أهل الشام الذين شرّد عبد الحميد علماءهم وشعراءهم وكُتّابهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وحكم على بعضهم بالنفى وعلى بعضهم بالشنق ، الآن عرفنا من كان يعنى مطران وهو يحارب رمسيس ، إنه كان يحارب عبد الحميد وإن لم يخطر له ذلك على بال ، ومهمة النقد الأدبى هى إماطة اللثام عن المقنّع من ضمائر الرجال .

عبد الحميد هو الشخصية العاتية التى كان يحاربها مطران ، ولكنه ما كان يستطيع أن يجهر بعداوته ، لأن مصر فى ذلك الحين كانت ترى عبد الحميد خليفة المسلمين ، ولأن السياسة المصرية لم تكن ترى من الذوق أن تسمح لشاعر بأن يغاضب الخليفة علانية ويصفه بالظلم والاعتساف ، على حين يجأر الخطباء فوق المنابر بالدعاء له ، ويتنسّم الجمهور أخباره فى المساجد والأسواق :

تأمل هذا أيها القارئ لتعرف كيف صح لمطران أن يقول فى أعوان رمسيس :

هُمُ الَّذِينَ عَلَى عُسْرٍ بِمَطْلَبِهِ ... قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفِتْيَانِ

وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا

فَخَوَّلُوهُ مَدِيناً حَقَّ دَيَّانِ

فِيمَ الْأُلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ
رُسُومُهُمْ مُنْذُ بَاتُوا رَهْنَ أَكْفَانِ

وَمَا لِأَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دُفِنَتْ
شُعْثاً مُنَكَّرَةً فِى رَمْسِ كِتْمَانِ

وهذه الحال كانت حال أعوان عبد الحميد ، الرجل الداهية الذى طوّق عصره بطوقٍ من فولاذ ، واستطاع السيطرة والبطش عدداً من السنين .

ومطران فى هذه اللفتة كان ابن عصره ، ففى ذلك العهد كانت تؤسس الجمعيات السرية لمقاومة عبد الحميد ، وكان أدباء الشام يسلقون ذلك العاهل بألسنةٍ حداد .

تلك كانت نفسية مطران ، أما نفسية صبرى فكانت ملكية أكثر من الملك كان صبرى فيما أفترض على وفاق مع أعوان عبد الحميد ، أو كان على الأقل من المحايدين ، فلما رأى مطران يشتم فرعون ثارت فى رأسه العصبية المصرية ، وانطلق يقول فى تمجيد الفراعين :

أَيْنَ الأُلَى سَجَّلُوا فِى الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ
وَصَغَّرُوا كُلَّ ذِى مُلْكٍ وَسُلْطَانِ

بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُوَلٌ
وَأُدْرِجُوا طَىَّ أَخْبَارٍ وَأَكْفَانِ

وَخَلَّفُوا بَعْدَهُمْ حَرْبًا مُخَلَّدَةً فِى الْكَوْنِ مَابَيْنَ أَحْجَارٍ وَأَزْمَانِ

فالمعارضة بين صبرى ومطران لم تكن معارضة بين رجلين ، وإنما كانت معارضة بين حزبين ، والشعر الذى نقرؤه ونتغنى به لايمثل عواطف فردية فى أغلب الأحيان ، وإنما يصور نزعات اجتماعية يهمس بها الشاعر أو يصيح .

ومطران قد يقرأ هذا الفصل ويعجب ، لأنه لا يبعد أن تكون نفسه خلَتْ خُلُوًّا ظاهرياً من المعنى الذى عرضناه ، ولكن الناقد الذى يتخذ علم النفس وسيلةً لدرس سرائر الرجال لا يَصْعُب عليه أن يرى وجه الحق فيما نقول :

— ٦ —

على أن مطران لم يفته أن يتمنى للمصريين استعباداً مثل استعباد رمسيس ، استعباداً ترتفع به هاماتهم فى الدنيا فيقفون مواقف الرجال .

ولننظر كيف يقول :

لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِى أَخْلَاقُهَا رَسَبَتْ
يَعْلُو بِأَخْلَاقِهَا تَيَّارُ طُغْيَانِ
النَّارُ أَسْوَغُ وِرْدًا فِى مَجَالِ عُلًا
مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِى أَفْيَاءِ فِينَانِ
أَكْرِمْ بِذِى طَمَعٍ فِى جَنْبِ مَطْمَعِهِ
يَنْجُو الْأَذِلَّاءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانِ
يَهُبُّ فِيهِمْ كَإِعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ
مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانِ
بَعْضُ الطُّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لِأَوْطَانِ
فِى كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا
تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لِأُحْدَانِ

كَمْ فى سَنَا الْكَوْكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلِكَةٌ
فى كُلِّ لَمْحٍ لِأَضْـوَاءٍ وَأَلْـوَانِ
لَمْ تَرْقَ فى حِقْبَةٍ مِصْرُ كَمَا رَقِيَتْ
فى عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَـارٍ وَبُلْدَانِ
لَمَّا رَمَتْ كُلَّ نَائى الشَّوْطِ مُمْتَنِعٍ
بِسَـابِقِينَ إِلَى الْغَايَاتِ شُجْعَانِ
أَلَا تَرَى فى بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا
بِأَوْجُـهٍ بَادِيَاتِ الْبِشْـرِ غُرَّانِ
وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيسُ مُقَدَّمُهُمْ
إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَـاقٍ وَغِـلْمَانِ

هذا هو الشعر فى منطق الحكماء ، الآن يتمنى مطران لو أتيح للبلاد الهوامد أن تظفر بطاغية ينقلها من حياة الخمول إلى حياة الإقدام ، الآن يرى النار أرفق بالشعوب من العيش الوادع فى ظلال الترف واللين ، الآن يُرَحِّبُ بطمع الطامعين الذين ينجو بهم الأذلاء من الخسف والخسران فَيَنْتَقِلُونَ من خفض العيش إلى ميادين القتال ، الآن يرى من سُنَنِ المجد أن تَفْنَى الجموع فى سبيل الأفراد ، ويرى بعين الشاعر أن سَنَا الكوكب الوهاج يهلك ما يشاء من الأضواء والألوان ، الآن يرى أن رمسيس الثانى رفع قومه بين الناس ، وجعل وطنه فوق الأوطان ، الآن يقرأ ما نقش على الصروح ليرى كيف كان البشر يفيض من أوجه الجنود وهم يعودون إلى الوطن ظافرين .

فما معنى ذلك ؟ أيكون معناه أن مطران وقع فى تناقض ؟

لا ! لم يقع فى تناقض ، وإنما عرض صورتين مختلفتين : الصورة الأولى فى معايب الاستبداد ، والصورة الثانية فى محاسن الاستبداد ، ولكل حقيقة وجهان : أحدهما دميم ، والآخر جميل .

وبذلك نرى مطران انتهى إلى الغاية التى وثب إليها صبرى ، ولكنه لم يصل إلى تلك الغاية إلا بعد جَوْلَةٍ شعرية عرض فيها لتقبيح الظلم والتنكيل بالظالمين ، وشعر مطران فى طعن الاستبداد له وجه مقبول ، هو وَثْبَةٌ شَعْبِيَّةٌ تجول بالصدور فى كل أرض ، وفى كل جيل .

فلنسجل الآن أن مطران تفرد فى نونيته بهذه المحاولة العقلية ، وهى عرض جانبين من الرأى فى قصيدة واحدة ، وهو نوع من التحليل لا يجيده من الشعراء إلا الأقلون .

ولنذكر أن بيت القصيد فى نونية مطران هو قوله وقد راعته العظمة فى تمثال رمسيس :

لَوْلَا تَمَاثِيلُهُ الْأُخْرَى مُحَطَّمَةً　　　مَا جَالَ فى ظَنِّ فَانٍ أَنَّهُ فَانِ

وما أحب أن تضيع الفرصة بدون أن أوجِّه أنظار الرجال فى مصر إلى ذلك التمثال ، وليتهم يفكرون فى نقله من الأقصر لِيُنْصب فى ميدان باب الحديد ، أليس من العجيب أن ينقل الفرنسيون من الأقصر مسلة مصرية لينصبوها فى ميدان الكُونْكُورْد فتوحى إلى شعرائهم آيات الشعر الرفيع ، ونعجز نحن عن نقل تمثال رمسيس لِيُنْصَب فى ميدان باب الحديد فيكون شاهداً على ماضى مصر فى إعزاز العَظَمَةِ مخلّدةً بروائع الفن الجميل :

— ٧ —

نظم صبرى قصيدته ليرد على مطران فكان لا بدّ له من وقفة يشرح بها ما فى الأهرام من جلال :

أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ حَيِّ الْفَنَّ مُتَّخِذًا

مِنَ الصُّخُورِ بُرُوجاً فَوْقَ كِيوَانِ

قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا وَهْيَ سَاخِرَةٌ

بِمَا يُضَعْضِعُ مِنْ صَرْحٍ وَإِيوَانِ

لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالنَّهَارُ سِوَى

مَا يَأْخُذُ النَّمْلُ مِنْ أَرْكَانِ ثَهْلَانِ

أرأيتم كيف لا يأخذ الليل والنهار من أركان الأهرام إلاّ بمقدار ما يأخذ النمل من أركان الجبال ! لقد تمرّد ملوك على الأهرام ليهدموها فلم تخدش معاولهم غير الطلاء .

وما هذا البيت :

كَأَنَّهَا – وَالْعَوَادِي فِي جَوَانِبِهَا

صَرْعَى – بِنَاءُ شَيَاطِينٍ لِشَيْطَانِ .

ما هذا البيت ! من القليل أن نقول إنه بيت القصيد ، فإن جملة « والعوادى فى جوانبها صرعى » من أروع وثبات الخيال ، وما أجدر هذا البيت بأن ينقش على الأهرام ليكون صفحة جديدة فى سِفْر الفنون .

ثم ماذا يا صبرى ؟ ماذا تقول فى أحجار الأهرام ؟ أتقول :

كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ أَمَامَهَا صُحُفٌ مِنْ عَالَمٍ ثَانِي

تَسْتَقْبِلُ الْعَيْنَ فِى أَثْنَائِهَا صُوَرٌ

فَصِيحَةُ الرَّمْزِ دَارَتْ حَوْلَ جُدْرَانِ

لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتاً لَكَانَ لَهُ
صَدًى يُرَوِّعُ صُمَّ الإِنْسِ وَالجَانِ

ما هذا الشعر أيها الناس ؟ هذا هو السحر الحلال الذى سمعنا باسمه فى أخبار الأولين .

* * *

أما بعد : فإنى أكاد أحكم بأن الشاعر اسماعيل صبرى هو الذى سنّ مذاهب القول فى وصف آثار الفراعين للشاعر أحمد شوقى ، أليست ضادية شوقى مما نُظمَ بعد نونية صبرى ؟

إن كان فيما أحكم به شىء من الحق فإسماعيل صبرى إمام أهل هذا العصر فى الإشادة بآثار الفراعين :

وليس المجال فى هذا الحديث بمتسع لدرس ضادية شوقى فى قصر أنس الوجود ، فليرجع إليها القارئ فى الجزء الثانى من الشوقيات ، وليتذكر أن قول شوقى :

رُبَّ سِرٍّ بِجَانِبَيْكَ مُذَالٍ كَانَ حَتَّى عَلَى الْفَرَاعِينِ غَمْضَا

إنما أخذ من قول صبرى :

وَزُحْزِحُوا عَنْ بَقَايَا مَجْدِهِمْ وَسَطَا
عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الجَاهِلُ الجَانِى
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الأَسْتَارَ مُقْتَحِماً
جَلَالَ أَكْرَمِ آثَارٍ وَأَعْيَانِ
لَلْجَهْلُ أَرْجَحُ مِنْهُ فِى جَهَالَتِه إِذَا هُمَا وُزِنَا يَوْماً بِمِيزَانِ

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء » .

البحث الثلاثون

بين البارودي وأبي نواس

نحن أمام قصيدتين تعدّان من ذخائر البيان : قصيدة أبي نواس في مدح الأمين وقصيدة البارودي في الترحم على صباه .

أما قصيدة أبي نواس فهي الميمية التي فتحت له قلب الأمين بفضل وساطة الفضل ابن الربيع ، وكان الأمين قد عرف أبا نواس في حياة أبيه الرشيد ، فلما سمع منه الميمية وصله بألف دينار وأمره بملازمة القصر ، فظل في رعايته إلى أن صنعت الأقدار ما صنعت يوم قضت بالنصر للمأمون .

لانعرف بالضبط متى نظم أبو نواس قصيدته ، ولكن من المرجح أنه قالها في أول خلافة الأمين أي في سنة ١٩٣ هـ . وأبو نواس ولد سنة ١٤١ فيكون عمره حين نظم الميمية اثنتين وخمسين سنة أو تزيد .

وإنما اهتممنا بهذا التاريخ لنعرف أن أبا نواس كان يجدّ كل الجد في التحسر على ملاعب الشباب ، ولم يكن في تحزنه من المتكلفين ، واثنتان وخمسون سنة تهدّ عزم الرجل الصلب إذا اتفق له ما اتفق لأبي نواس من قضاء الشباب بين عواصف الكئوس ، وزوابع الدسائس والنمائم ، وأعاصير الجد العاثر والزمن الكنود .

كان أبو نواس يسخر من الشعراء الذين يبكون الديار ويقفون على الأطلال ، كان يسخر من هؤلاء في صباه يوم كان في الكئوس والرياحين والوجوه الصباح ما يشغله عن بكاء الرسوم الهوامد والدمن العافيات . فلما فعلت الاثنتان والخمسون فعلها الأثيم في شبابه وفي قواه ، تلفت فرأى الديار مما يستحق البكاء ... والله يعلم أي حسرة كانت تسحق قلب هذا الرجل وهو يقول :

يا دارُ ما فَعَلَتْ بكِ الأيّامُ   لَمْ تبْقَ فيكِ بَشاشَةٌ تُسْتامُ

عَرَمَ الزَّمانُ على الذين عَهِدْتُهُمْ   بكِ قاطنينَ وللزَّمانِ عُرامُ (١)

أيّامَ لا أغْشَى لأهْلِكِ مَنْزِلًا   إلّا مُراقَبَةً عَلَيَّ ظَلامُ (٢)

وأبو نواس فى هذه الأبيات يقاسى لوعتين : لوعة الوجد على الدار التى ذهبت ببشاشتها الأيام ، ولوعة الوجد على الرفاق المساميح الذين أجلتهم عن دار الهوى أحداث الزمان ، والشاعر يحدثنا أنه لم يكن يغشى تلك الدار إلا فى ظلمات الليل أيام كان يتذوق حياة الطيش والجنون ، فلا يخطو خطوة إلا لديه رقيب من التهم والظنون ، وتلك حياة يراها الشاعر أرق من النجوى ، وأطيب من شهىّ العتاب .

ثم انظروا هذه الصورة ، صورة الفتك ، فى هذا البيت :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغُواةِ بِدَلْوِهِمْ   وَأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أَسامُوا

تأملوا هذه الصورة البدوية التى أخذت ألوانها من حياة الأعراب ، ثم انظروا كيف جمعت أطراف المغامرات الجنونية ، مغامرات اللهو والشباب .

وانظروا بعد ذلك كيف وصف خاتمة المطاف حين قال :

وبَلَغْتُ ما بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبابِه   فَإذا عُصارَةُ كُلِّ ذاكَ أَثامُ

الله أكبر ، هذا هو الشعر ، وذلك هو الشاعر أبو نواس !

* * *

قصيدة أبى نواس عدتها عشرون بيتاً ، وقصيدة البارودى عدتها أربعون بيتاً ،

---

(١) العرام : الشدة والعنف .

(٢) جملة (على ظلام) جملة حالية .

ولكن هذه الأبيات الخمسة ، أو هذه الفاتحة فى السُورة النُّواسية هى التى هاجت البارودى ، وأذكت لوعته، وأضرمت شجاه ، فقال :

ذَهَبَ الصِّبَا وَتَوَلَّتِ الْأَيَّامُ　　فَعَلَى الصِّبَا وَعَلَى الزَّمَانِ سَلَامُ
تَاللهِ أَنْسَى مَا حَيِيتُ عُهُودَهُ　　ولِكُلِّ عَهْدٍ فى الْكِرَامِ ذِمَامُ

وهذه النفثة أقل حرارة من نفثة أبى نواس ، وأكاد أحكم بأن البارودى كان يتكلف بعض التكلف ، فإن نفثته لم تكن نفثة ملتاع ، وإنما كانت نزوة شاعر مفتون بالوصف ، ومفتون بأخلاق الماجدين ، فقد اندفع يحدث عن رفاقه فى أيام صباه فلم يجعلهم من الفتيان المجانين الذين كان يعرف أمثالهم أبو نواس ، وإنما جعلهم من أقطاب الدولة الذين يجلسون إلى مائدة السلاف وفيهم شمائل الأبطال :

ومعنى ذلك أن ندمان البارودى لم يكونوا من المغامرين الذين تعصف برءوسهم الصهباء فلا يدرون ما يفعلون ، على نحو ما كان ندمان أبى نواس ، وإنما كانوا من الأجواد المغاوير الذين لا يعرفون الحانات ، وإنما يعاقرون الكأس فى القصور ، وتظل قلوبهم موصولة الأواصر بمعانى البأس ، ومعانى الجود :

فالبارودى وهو يصف رفاق الصهباء لا يخلص فى الشوق إلى أيام صباه؛ وإنما يتمدح ويتمجّد ، وتلك حال من يعقل ، لا حال من ذهب الوجد بقلبه الملتاع .

وانظروا كيف يقول :

إِذْ نَحْنُ فى عَيْشٍ تَرِفُّ ظِلَالُهُ　　وَلَنَا بِمُعْتَرَكِ الْهَوَى آثَامُ
تَجْرِى عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَجَالِسٍ
فِيهَا السَّلَامُ تَعَانُقٌ وَلِزَامُ
فِى فِتْيَةٍ فَاضَ النَّعِيمُ عَلَيْهِمُو　　وَنَمَاهُمُ التَّبْجِيلُ وَالْإِعْظَامُ

ذَهَبَتْ بِهِمْ شِيَمُ المُلُوكِ فَلَيْسَ فِى
تَلْعَابِهِمْ هَذَرٌ وَلاَ إِبْرَامُ

لا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ آدابِ الْهَوَى ... سُمْحُ النُّفُوسِ عَلَى الْبَلاءِ كِرَامُ
مِنْ كُلِّ أَبْلَجَ يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ ... كَالْبَدْرِ حَلَّى صَفْحَتَيْهِ غَمَامُ
سَهْلُ الخَلِيقَةِ لاَيَسوءُ جَلِيسَهُ ... بَيْنَ المَقَامَةِ وَاضِحٌ بَسَّامُ
مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... مَوْلًى لَهُمْ فِى ٱلدَّارِ وَهْوَ هُمَامُ
تَرْنُو الْعُيُونُ إِلَيْهِ فِى أَفْعَالِهِ ... وَتَسِيرُ تَحْتَ لِوَائِهِ الْأَقْوَامُ
فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالرُّءُوسُ خَوَاضِعٌ ... وَإِذَا تَنَاهَضَ فَالصُّفُوفُ قِيَامُ
نَلْهُو وَنَلْعَبُ بَيْنَ خُضْرِ حَدَائِقٍ ... لَيْسَتْ بِغَيْرِ خُيُولِنَا تُسْتَامُ

حَتَّى ٱنْتَبَهْنَا بَعْدَ أَن ذَهَبَ الصِّبَا
إِنَّ اللَّذَاذَةَ وَالصِّبَا أَحْلاَمُ

وهذا الشعر فى غاية من الجودة إذا نظرنا إلى طرافة معناه ، فهؤلاء الندمان العابثون هم رجال أعمال ، وليسوا فتيان غواية ، هم أقطاب الحرب ، وأعلام السلم ، ولهم مع ذلك آثام فى معترك الهوى ، وللإثم ألوان : هناك إثم الأطفال ، وهناك آثام الأبطال ، وما أبعد الفرق بين الآثام النواسية والآثام البارودية ، ولست بهذا أحكم بأن آثام البارودى أضخم من آثام أبى نواس . هيهات ، وإنما أحكم بأن آثام البارودى يغمرها التجمل والتعقل والافتعال . وأمثال هذه الآثام لاترجع صورها إلى القلب إلا موصولة بأطياف المجد المفقود ومن أجل ذلك قلت : ان الشاعر لم يخلص الشوق إلى غفلات الصبا ونزوات الشباب ، ومن أجل ذلك أيضاً نراه يتكلف الحكمة إذ يقول :

لا تَحْسَبَنَّ الْعَيْشَ دَامَ لِمُتْرَفٍ ... هَيْهَاتَ لَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ دَوَامُ
تَأْتِي الشُّهُورُ وَتَنْتَهِي سَاعَاتُهَا ... لَمْعَ السَّرَابِ وَتَنْقَضِي الْأَعْوَامُ
وَالنَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَارِدٌ ... أَوْ صَادِرٌ تَجْرِي بِهِ الْأَيَّامُ
لَا طَائِرٌ يَنْجُو وَلَا ذُو مِخْلَبٍ ... يَبْقَى وَعَاقِبَةُ الْحَيَاةِ حِمَامُ

* * *

كانت قصيدة أبى نواس فى مدح الأمين ، وكذلك منعه الأدب من الحديث عن الصهباء وهو شاعر الصهباء ، أما البارودى فقد قصر قصيدته على شجون قلبه وهموم دنياه ، فرأيناه يندفع فى وصف الخمر فيقول :

فَادْفَعْ هُمُومَ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا اعْتَرَتْ ... بِالْكَأْسِ فَهْيَ عَلَى الْهُمُومِ حُسَامُ
فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِى أَلْوَانِهِ ... إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْجَامُ
مِنْ خَمْرَةٍ تَذَرُ الْكَبِيرَ إِذَا انْتَشَى ... بَعْدَ اشْتِعَالِ الشَّيْبِ وَهْوَ غُلَامُ
لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا فَغَادَرَ جِسْمَهَا ... شَبَحًا تَهَافَتُ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
حَمْرَاءُ دَارَ بِهَا الْحَبَابُ فَصُوِّرَتْ ... فَلَكًا تَحُفُّ سَمَاءَهُ الْأَوْهَامُ
لَا تَسْتَقِيمُ الْعَيْنُ فِى لَمَعَانِهَا ... وَتَزِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا الْأَقْدَامُ
تَعْشُو الرِّكَابُ فَإِنْ تَبَلَّجَ كَأْسُهَا ... سَارُوا وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَقَامُوا

حُبِسَتْ بِأَكْلَفَ لَمْ يَصِلْ بِفِنَائِهِ
نُورٌ وَلَمْ يَبْرَحْ عَلَيْهِ ظَلَامُ

حَتَّى إِذَا اصْطَفَقَتْ وطَارَ فِدَامُهَا ... وَثَبَتْ فَلَمْ تَثْبُتْ لَهَا الْأَجْسَامُ

وَقَدَتْ حَمِيَّتُهَا فَلَوْلاَ مَزْجُهَا ... بِالْمَاءِ بَعْدَ المَاءِ شَبَّ ضِرَامُ

تَسِمُ الْعُيُونَ بِنُورِهَا لٰكِنَّهَا ... بَرْدٌ عَلَى شُرَّابِهَا وَسَلَامُ

فَاصْقُلْ بِهَا صَدَأَ الْهُمُومِ وَلاَ تَكُنْ
غِرًّا تَطِيشُ بِلُبِّهِ الْآلَامُ

وهذا شعر جميل ، ولكن ما رأيكم فيمن يحدثكم أن البارودى قال هذه الأبيات وهو تَعبان ؟ إن هذه الخمرية ينقصها الروح ، هى نظم منسجم مسبوك ، ولكنها كالكأس التى قُتلت بالماء فلم يبق منها غير الشعاع الخامد الذى لا يقدر على نقل العقل من مكان إلى مكان .

أيرانا القارئ نتحامل على البارودى ؟ وكيف ، وقد قرأنا أبياته هذه مرة ومرة ، فلم تعصف بالنفس نوازع الفتك ، ولم تطف بالرأس غاشيات الضلال .

إن خمرية البارودى هذه لن تهوى بأحد إلى الجحيم ،ولن يسأل عنها يوم الحساب ، أما خمريات أبى نواس فقد صيّرت قبره سعيراً لا يخمد له أوار ، وسيكون يوم الدين جبلا يتفجر بالبراكين .

* * *

قلت لكم : إن البارودى نظم قصيدته وهو تعبان ، ومن آيات ذلك أنه عاد إلى تكلف الحكمة ، فقال :

يَهْوَى الْفَتَى طُولَ الحَيَاةِ وَإِنَّهَا ... دَاءٌ لَهُ لَوْ يَسْتَبِينُ عُقَامُ

فَاطْمَحْ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى مِنْ أُمَّةٍ
خَلَدَتْ وَهَلْ لِابْنِ السَّبِيلِ مُقَامُ
هٰذِى المَدَائِنُ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا
بَعْدَ النِّظَامِ وَهٰذِهِ الْأَهْرَامُ
لَا شَىْءَ يَخْلُدُ غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَةً فِى الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الْأَحْلَامُ
وَلَقَدْ تَبَيَّنْتُ الْأُمُورَ بِغَيْرِهَا وَأَتَى عَلَىَّ النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ
فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرُّكٌ وَإِذَا الْخُمُو
دُ تَلَهُّبٌ وَإِذَا السُّكُوتُ كَلَامُ
وَإِذَا الحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ مَنِيَّةٌ تَحْيَا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهْىَ رِمَامُ
هٰذَا يَحُلُّ وَذَاكَ يَرْحَلُ كَارِهًا عَنْهَا فَصُلْحٌ تَارَةً وَخِصَامُ
فَالنُّورُ لَوْ بَيَّنْتَ أَمْرَكَ ظُلْمَةٌ وَالْبَدْءُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ خِتَامُ

وهذا شعر رجل تعبان ، واليأس نفسه يحتاج فى تصويره إلى قوة ، وكأنّ البارودى ضعف فلم يستطع أن ينال من الدنيا ما نال منها أبو العتاهية حين قال :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمُو يَصِيرُ إِلَى تَبَابِ

* * *

هذا ولم نعرض لبقية قصيدة أبى نواس ، لأنها فى المديح ، ولأن البارودى وقف فى المعارضة عند وصف الخمر وبكاء الشباب ، على أنه لا مانع من الإشارة إلى أن البارودى حين وصف رفاقه برجاحة الأحلام وهم يشربون أطاف بقول أبى نواس فى مدح الأمين :

مَلِكٌ أَغَرُّ إِذَا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ لَمْ يَعْدُكَ التَّبْجِيلُ وَالْإِعْظَامُ

ولابأس من توجيه القارى إلى العذوبة البادية فى قول أبى نواس :

وَإذَا المَطِىُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِىءَ الحَصَا
فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَــةٌ وَذِمَامُ
رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرٍ قَمَرٌ تَقَطَّعُ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ
لَا يَعْتَرِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامُ
سَبْطُ الْبَنَانِ إِذَا احْتَبَى بِنِجَادِهِ
فَرَعَ الجَمَاجِمَ وَالسِّمَاطُ قِيَامُ
مَلِكٌ إِذَا اعْتَبَرَ الْأُمُورَ مَضَى بِهِ
رَأْىٌ يَفُلُّ السَّيْفَ وَهْوَ حُسَامُ

ويكاد هذا الشعر يذهب بقالة السوء التى دنّس بها أنصار المأمون أخبار الأمين .

البحث الحادى والثلاثون

بين البارودى وأبى فراس

فى كل لغة شعراء وكُتاب وخطباء يخلقون أجواء (١) من الفكر والعبقرية فيزيدون فى عمر لغتهم ويصلون بينها وبين القلوب والعقول ، فتزداد تأصلاً وقوةً وحيوية ، فاللغة الفرنسية مَدينة فى حياتها لأمثال هوجو وميسيه ولامرتين ، واللغة الانجليزية مدينة لأمثال بيرون وشلى وشكسبير ، واللغة الألمانية مدينة لأمثال شلر وجوت ، والناس متفقون على أن اللغة الايطالية مدينة لدانتى أثقل الدين .

ولغة العرب مدينة لجماعة من الشعراء والمفكرين منهم أبو فراس صاحب الروميات ، أبو فراس الذى وصف الضعف الانسانى أجمل وصف ، وشرحه أحسن شرح ، ومثّله أصدق تمثيل .

أبو فراس ضحية الكبرياء ، كبرياء الحب والمجد ، أبو فراس الوتَر الحنّان الذى خلّد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين ، أبو فراس الذى أبكى كل عين ، وأحزن كل قلب ، وشغل كل بال ، أبو فراس الأسد الذى استعذب الدمع بعد الزئير ، وعلمته الليالى كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجال .

كن كيف شئت من قوة القلب ثم اقرأ روميات أبى فراس فستعرف أن القوة الانسانية فى حاجة إلى من يبكيها حين تزول ، وليت القلم يطاوعنى لأشرح بعض ما أريد، وأنا أريد أن أقول : إن عنفوان الرجال من كنوز الحياة ، ولكنها كنوز معرّضة للتزييف حين يعروها الخمود ، العنفوان فى الرجل الشجاع هو أنضر من الصباحة فى الوجه

(١) الجو يجمع على جواء بكسر الجيم ، وهى اللفظة التى آثرناها فى كتاب النثر الفنى . ولكنا آثرنا هنا أن نجمعها على أجواء.

الجميل ، والصباحة تجد من يبكيها حين تزول ، أما العنفوان حين يخمد فلا يجد من يشيعه بطيف من الرثاء .

وما قرأت روميات أبى فراس إلا تمثلت زوال الجبال ، تمثلت عُنْفُوان الفارس الفاتك الذى قضت الأقدار بأن يمسى وهو فى ظلمات من ذلة الأسر ، وهزيمة القلب وانْصهار الروح .

لا تذكروا آلام المتنبىّ ، ولا أشجان المعرّى ، ولا وجد ابن زيدون ، كل أولئك أحمالهم خفاف بجانب ما حمل أبو فراس ، وما ظنكم بقائد عظيم يذله الأسر حتى يعود طفلا يتوجع من جراحه ويشكو لأمه فيقول :

مُصَابِى جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَلِيلُ ... وَظَنِّى بِأَنَّ اللهَ سَوْفَ يُدِيلُ
جِرَاحٌ تَحَامَاهَا الْأُسَاةُ مَخَافَةً ... وَسُقْمَانِ بَادٍ مِنْهُمَا وَدَخِيلُ
وَأَسْرٌ أُقَاسِيهِ وَلَيْلٌ نُجُومُهُ ... أَرَى كُلَّ شَىْءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ
تَطُولُ بِىَ السَّاعَاتُ وَهْىَ قَصِيرَةٌ
وَفِى كُلِّ دَهْرٍ لَايَسُرُّكَ طُولُ
تَنَاسَانِىَ الْأَصْحَابُ إِلَّا عِصَابَةً
سَتَلْحَقُ بِالْأُخْرَى غَدًا وَتَحُولُ
وَإِنَّ الَّذِى يَبْقَى عَلَى الْعَهْدِ مِنْهُمُو
وَإِنْ كَثُرَتْ دَعْوَاهُمُو لَقَلِيلُ
أُقَلِّبُ طَرْفِى لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبٍ
يَمِيلُ مَعَ النَّعْمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ

وَصِرْنَا نَرَى أَنَّ الْمُتَارِكَ مُحْسِنٌ
وَأَنَّ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ وَصُـــولُ

أَكُلُّ زَمَانٍ أَنْكَدٌ غَيْرُ مُنْصِفٍ وَكُلُّ زَمَانٍ بِالْكِرَامِ بَخِيلُ

فَيَا حَسْرَتِي مَنْ لِي بِخِلٍّ مُوَافِقٍ
أَقُولُ بِشَجْوِي تَـارَةً وَيَقُولُ

وَإِنَّ وَرَاءَ السِّتْرِ أُمًّا بُكَاؤُهَا عَلَيَّ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ طَوِيلُ

فَيَا أُمَّنَا لَا تُخْطِئِ الْأَجْرَ إِنَّهُ عَلَى قَدَرِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلُ

تَـأَسَّيْ كَفَـاكِ اللهُ مَا تَحْذَرِينَهُ
فَقَدْ غَالَ هٰذَا الدَّهْرَ قَبْلَكِ غُولُ

لَقِيتُ نُجُومَ اللَّيْلِ وَهْيَ صَوَارِمٌ
وَخُضْتُ سَوَادَ اللَّيْلِ وَهْوَ يَهُولُ

وَلَمْ أَرْعَ لِلنَّفْسِ الْكَرِيمَةِ خُلَّةً
عَشِيَّةَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيَّ خَلِيلُ

وَلٰكِنْ لَقِيتُ الْمَوْتَ حَتَّى تَرَكْتُهَا
وَفِيهَا وَفِي حَـدِّ الْحُسَامِ فُلُولُ

أترون كيف صحَّ للفارس المغوار أن يبكى كما يبكى الطفل ؟ إن التوجع لآلام الأمهات شريعة إنسانية لا يعرفها أبطال الحروب إلا يوم ينهزمون أوْ يُؤسرون ، وكذلك قضت الدنيا على أبى فراس أن ينهزم وأن يُؤسر ، وقضت عليه أن ينتظر

من يَفْديه فلا يظفر بالفداء ، قضت عليه الدنيا أن يعانى آلام الجروح فلا يسعفه طبيب ، ولا يواسيه رفيق ، قضت عليه الدنيا أن يتمثل أمه باكيةً مُلْتاعَةً لايرْقأ لهَا دمْع ، ولا يَهْدأ لها فؤاد ، ويا ويل من تَضْعُف نفسه فيرق لأحزان الأمهات !

على أن أبا فراس كان يتجلد أحياناً فى أسره فلا يزيدنا ذلك التجلد إلا علما بما وصل إليه من فقد الصبر وانعدام العزاء ، كان يتجلد فيستطيع أن يَقْرَعَ سيف الدولة بمثل هذا العتاب :

أَمَا لِجَمِيلٍ عِنْدَكُنَّ ثَوَابُ   وَلَا لِمسيءٍ عِنْدَكُنَّ مَتَابُ
لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِى هَوَاهُ خَرِيدَةٌ   وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضِى عَلَيْهِ كَعَابُ
وَلٰكِنَّنِى وَالحَمْدُ لله حَازِمٌ   أَعِزُّ إِذَا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ
وَلَا تَمْلِكُ الحَسْنَاءُ قَلْبِىَ كُلَّهُ   وَإِنْ مَلَّكَتْهَا رَوْقَةٌ وَشَبابُ (١)
إِذَا الخِلُّ لَمْ يَهْجُرْكَ إِلَّا مَلَالَةً   فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الفِرَاقَ عِتَابُ
إِذَا لَمْ أَجِدْ فى بَلْدَةٍ مَا أُرِيدُهُ   فَعِنْدِى لِأُخْرَى عَزْمَةٌ وَرِكَابُ
فَلَيْسَ فِرَاقٌ مَا ٱسْتَطَعْتُ فَإِنْ يَكُنْ   فِرَاقٌ عَلَى حَالٍ فَلَيْسَ إِيَابُ
صَبُورٌ وَلَوْ لَمْ تَبْقَ مِنِّى بَقِيَّةٌ   قَئُولٌ وَلَوْ أَنَّ السُّيُوفَ جَوَابُ
وَقُورٌ وَأَهْوَالُ الزَّمَانِ تَنُوشُنِى   وَلِلْمَوْتِ حَوْلِى جَيْئَةٌ وَذَهَابُ

---

(١) الروقة والروق : أول الشباب . ويقال أيضاً مضى ريق الشباب .

وأَلْحَظُ أَحْــوَالَ الزَّمَانِ بِمُقْلَةٍ
بِهَا الصِّدْقُ صِدْقٌ وَالْكِذَابُ كِذَابُ
بِمَنْ يَثِقُ الإِنْسَانُ فِيمَا يَنُوبُهُ
وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صِحَابُ
وَقَدْ صَارَ هٰذَا النَّاسُ إِلَّا أَقَلَّهُمْ ذِئَاباً عَلَى أَجْسَادِهِنَّ ثِيَابُ
تَغَابَيْتُ عَنْ قَوْمِي فَظَنُّوا غَبَاوَتِي
بِمَفْرِقِ أَغْبَانَا حَصًــا وَتُرَابُ
وَلَوْ عَرَفُونِي حَقَّ مَعْرِفَتِي بِهِمْ إِذًا عَلِمُوا أَنِّي شَهِدْتُ وَغَابُوا
وَمَا كُلُّ فَعَّالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ
وَلَا كُلُّ قَوَّالٍ لَدَىَّ يُجَابُ
وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي
كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ
إِلَى اللهِ أَشْــكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلٍ تَحَكَّمُ فِي آسَادِهِنَّ كِلَابُ
تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعٌ
لَدَىَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ
وَلَا شُدَّ لِي سَرْجٌ عَلَى ظَهْرِ سَابِحٍ
وَلَا ضُرِبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ قِبَابُ

وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللِّقَاءِ قَوَاطِعٌ وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الحُرُوبِ حِرَابُ

سَتَذْكُرُ أَيَّامِي نُمَيْرُ بنُ عَامِرٍ وَكَعْبٌ عَلَى عَادَاتِهَا وَكِلَابُ

أَنَا الجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمُو
وَلَا دُونَ مَالِي فِي الحَوَادِثِ بَابُ

وَلَا أَطْلُبُ الْعَوْرَاءَ مِنْهُمْ أُصِيبُهَا
وَلَا عَوْرَتِي لِلطَّالِبِينَ تُصَابُ

وَأَسْطُو وَحُبِّي ثَابِتٌ فِي قُلُوبِهِمْ
وَأَحْلُمُ عَنْ جُهَّالِهِمْ وَأُهَابُ

بَنِي عَمِّنَا لَا تَتْرُكُوا الحَرْبَ إِنَّنَا
شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الهَوَانِ صِلَابُ

بَنِي عَمِّنَا مَا يَصْنَعُ السَّيْفُ بَيْنَنَا
إِذَا فُلَّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَذُبَابُ

بَنِي عَمِّنَا نَحْنُ السَّوَاعِدُ وَالظُّبَا
وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ ضِرَابُ

وَإِنَّ رِجَالاً مَا ابْنُهُمْ كَابْنِ أُخْتِهِمْ
حَرِيُّونَ أَنْ يُقْضَى لَهُ وَيُهَابُ

فَعَنْ أَيِّ عُذْرٍ إِنْ دُعُوا وَدُعِيتُمُو
أَبَيْتُمْ بَنِي أَعْمَامِنَا وَأَجَابُوا

وَمَا أَدَّعِى مَا يَعْلمُ اللهُ غَـيْرَهُ رِحَابُ عَلِىٍّ لِلْعُفَاةِ رِحَابُ
وَأَفْعَالُهُ بِالرَّاغِبِين كَرِيمَةٌ وَأَمْـوَالُهُ لِلطَّالِبِين نِهَابُ
وَلٰكِنْ نَبَا مِنْـهُ بِكَفِّى صَارِمٌ
وَأَظْلَمَ فِى عَيْنَىَّ مِنْهُ شِهَاب
وَأَبْطَأَ عَنِّى وَالمَنَايَا سَرِيعَةٌ وَلِلْمَوْتِ ظُفْرٌ قدْأَظَلَّ وَنَابُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وُدٌّ قَرِيبٌ نُعُدُّهُ وَلَا نَسَبٌ دُونَ الرِّجَالِ قُرَاب
فَأَحْوَطُ لِلإِسْلَامِ أَنْلَا يُضِيعَنِى
وَلِى عَنْهُ فِيـهِ حَوْطَةٌ وَمَثَابُ
وَلٰكِنَّنِى رَاضٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ لِنَعْلَمَ أَىُّ الخُلَّتَيْنِ سَرَابُ
وَمَازِلتُ أَرْضَى بِالقَلِيل مَحَبَّةً
لَدَيْهِ وَمَا دُونَ الكَثِيرِ حِجَابُ
وَأَطْلُبُ إِبْقَاءً عَلَى الوُدِّ أَرْضَهُ وَذِكْرِى مُنى فِى غَيْرِهِوَطِلَابُ
كَذَاكَ الوِدَادُ المَحْضُلَايُرْتَجَى لَهُ
ثَوَابٌ وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابُ
وَقَدْ كُنْتُ أَرْضَى الهَجْرَوَالشَّمْلُجَامِعٌ
وَفِى كلِّ يَوْمٍ لُقْيَـةٌ وَخِطَابُ
فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكُ قَيْصَرٍ
وَلِلْبَحْرِ حَوْلِى زَخْـرَةٌ وَعُبَابُ

أَمِنْ بَعْدِ ذُلِّ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ
أُثَابُ بِمُرِّ الْعَتْبِ حِينَ أُثَابُ

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

وإنما نقلنا هذه القصيدة على طولها لنمكن القارئ من التعرف إلى روح أبي فراس : فذلك رجل أسير ضعضعه اليأس ، ولكنه لايزال مشغول البال بمكايد الأحزاب ، وهو يتكلم كلام الطليق ، لا كلام الأسير ، ويعتب على هذا وذاك عتب من يملك الضر والنفع ، والعقاب والثواب ، ويسمو إلى أبعد آفاق الرجولة حين يقول :

تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعٌ
لَدَيَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ

وَلَا شُدَّ لِي سَرْجٌ عَلَى ظَهْرِ سَابِحٍ
وَلَا ضُرِبَتْ لِي بِالعَرَاءِ قِبَابُ

وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللِّقَاءِ قَوَاطِعٌ
وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الحُرُوبِ حِرَابُ

وأقسى مايعانى الرجل أن يمسى لا يملك الضر ، ولا يملك النفع ، وغايات الفتوّة أن يكون الرجل نفاعاً ضرّاراً يخشاه العدو ويرجوه الصديق ، وشكاية أبي فراس في قصيدته هذه شكاية رجال ، أما شكايته في القصيدة الماضية فشكاية أطفال ، ومعاذ الأدب أن نتجنى عليه ، فنحن لانعرف كيف كان يعامل الأسرى في بلاد الروم ، ولا نعرف كيف كان يرى الدنيا وهو أسير ، ولا نعرف ما قُوبل به أسره في بلاط

سيف الدولة ، فقد يكون أسره قوبل بالشماتة من بعض الأمراء ، وذلك إنْ وقع شيءٌ منه كافٍ لأن ينقل الرجل من الصبر إلى الجزع ، ويحوّله إلى إنسان لا يعرف غير الندم على ما قدّم فى الحرب من حسن البلاء .

قلت : إن الشاعر يتكلم فى هذه القصيدة كلام الطليق . ألم نر كيف ابتدأها بالنسيب ؟ ألم نر كيف دعا إلى مواصلة الحرب ؟ ألم نر كيف يتمدح بأنه يتجاهل أقوال القادحين فيقول :

وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِى
كَمَا طَنَّ فِى لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ

ولنتذكر أن كل شعره فى الأسر لم يكن إلا حديث النفس إلى النفس ، فمن المسْتَبْعَد جداً أن نتصور أن الرجل كان يراسل قومه من يوم إلى يوم ، أو من أسبوع إلى أسبوع ، فالدنيا فى ذلك العصر لم تكن تسمح بأن يكون للأسرى بريد ، وهل سمحت الدنيا فى هذا العصر بأن يكون للأسرى بريد حتّى تسمح لأبى فراس بأن يعاتب سيف الدولة ويخاشن أنصاره بمثل ما رأينا فى هذا القصيد ؟

إن الصلة بين القصيدتين الماضيتين ليست بعيدة ، فالأولى توجعٌ ، والثانية تجلد ، وليس بين التوجع والتجلد إلا فرق ضئيل .

والشاعر فى القصيدتين غير متكلّف ، وإنما هو يمثّل ما يمر بالنفس الإنسانية من صورٍ وأطياف ، والنفس الإنسانية فيها قوة وضعف ، وفيها جبروت واستخذاء ، والشاعر الحق هو الذى لا يكذب على الطبع : وإنما يبتهج ويبتئس ، ويقسو ويلين ، وَفقاً لبسمات العيش أو نكد الزمان .

قد يقول معترض : وكيف صح لأبى فراس أن ينظم أشعار الحماسة وهو فى القَيْد ؟

ونجيب بأن الليث المأسور فى حديقة الحيوان يتمثل أحداث الغابة فى كل حين .

والنفس تجترُّ ماضى النعيم فى أيام الحرمان ، وصُوَر النعيم السالف هى القَبَس الذى يبدد غياهب البؤس ، ويمحق ظلمات البأساء .

وكيف نحتاج إلى شرح هذه النزعة النفسية وعندنا البارودى ، البارودى رجل السيف ، الذى لم يصوّر أيام الحرب والفتوة إلا بعد أن ألقته الحوادث منفيا فى جزيرة سيلان .

إن إحساس البارودى بمجده الحق لم يتم له إلا بعد أن نزعت عنه الحوادث شارات المجد ، وكل إنسان حساس لا يدرك ما كان عليه من قوة وفتوة ونعمة إلا بعد أن تسطو عليه الخطوب ، وتريه الدنيا كيف تُصَوِّح الأزهار ، وكيف تجف الأنهار ، وكيف تذبل الرياحين .

إن إحساس أبى فراس والبارودى بعظمة المجد بعد الهزيمة هو إحساس طبيعىٌ مألوف ، فقد رأينا ورأى الناس أن المرء لا يتمدح بماضيه إلا حين يصبح حاضره لا يكبت العدوّ ولا يسر الصديق .

ومن عجيب التشابه بين البارودى وأبى فراس أنهما ظلّا فى أيام المحنة واليأس يتذكران الأحباب ويشكوان سفَه الواشين ، وقد مرّ شاهد من شعر أبى فراس ، فلنذكر بجانب ذلك قول البارودى :

رُدُّوا عَلَىَّ الصِّبَا مِنْ عَصْرِىَ الخَالِى
وَهَلْ يَعُودُ سَوَادُ اللِّمَّةِ الْبَالِى

مَاضٍ مِنَ الْعَيْش مَالاحَتْ مَخَايِلُهُ
فِى صَفْحَةِ الْفِكْرِ إلا هَاجَ بَلْبَالِى

سَلَتْ قُلُوبٌ فَقَرَّتْ فِى مَضَاجِعِهَا
بَعْدَ الحَنِين وَقَلْبِى لَيْسَ بِالسَّالِى

لَمْ يَدْرِ مَنْ بَاتَ مَسْرُورًا بِلَذَّته
أَنِّى بِنَارِ الأَسَى مِنْ هَجْرِهِ صَالِ

يَا غَاضِبِينَ عَلَيْنَا هل إِلَى عِدَةٍ بِالْوَصْلِ يَوْمٌ أُنَاغى فيه إِقْبَالِى

غِبْتُمْ فَأَظْلَمَ يَوْمى بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ
وَسَاءَ صُنْعُ اللَّيَالِى بَعْدَ إِجْمَالِ

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِى مِنْكُمْ عَلَى ثِقَةٍ
حَتَّى مُنِيتُ بِمَا لَمْ يَجْرِ فِى بَالِى

لَمْ أَجْنِ فِى الحُبِّ ذَنْبًا أَسْتَحِقُّ بِه
عَتْبًا وَلٰكِنَّهَا تَحْرِيفُ أَقْوَالِ

وَمَنْ أَطَاعَ رُوَاةَ السُّوءِ نَفَّرَهُ عَنِ الصَّدِيقِ سَمَاعُ الْقِيلِ والْقَالِ

أَدْهَى الْمَصَائِبِ غَدْرٌ قَبْلَهُ ثِقَةٌ
وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ صَدٌّ بَعْدَ إِقْبَالِ

فماذا ترون فى هذه الأبيات ؟ إن البارودى يصنع كما يصنع أبو فراس ، هو يتكلم كلام الطليق ، هو يرجو ألا يسمع أحبابه كلام الواشين والمرجفين ولم يكن فى دنيا النفى ما يتسع لوشاية ولا إرجاف .

تلك نزوات نفسية ، هى نزوات الطائر المحبوس فى القفص ، وهو مع ذلك يتوثب من ركن إلى ركن كأنه من ملوك الهواء .

وإنما توغلت فى هذه المسالك لأدلّ القارىء على أسرار التناقض فيما يقرأ للبارودى ، وما يقرأ لأبى فراس . هما شاعران يشتركان فى كثير من النوازع ، ويشتركان فى كثير من الصفات ، وبليّة النفى والأسر بلية واحدة وإن اختلفت الصور والظروف .

والتشابه بين الحياتين والمصيرين عند البارودى وأبى فراس يجعل الموازنة بين

الرائيتين فرصة لاتتاح فى كل حين ، فكلا الشاعرين يتغزل ، وكلاهما يذكر ماضيه فى الحرب ، وأنفاسهما فى هذين البابين أنفاس حرارٌ لايدرك وَقْدَها إلا من ذاق الأسر والنفى ، وقد ذقنا الأسر مرتين (١) ، أما النفى فعرفناه فى صورة جديدة هى الغربة الروحية والغربة العقلية ، وإلى الله نشكو ما نعانى من قسوة الاغتراب فى هذا الزمان .

(١) كان المؤلف من الذين اعتقلتهم السلطة العسكرية البريطانية ، وكان اسمه مقيداً فى أسرى الحرب وكانت الثورة المصرية حقاً شعلة من الحرب ، وكانت خليقة بأن ترهب انجلترا وتزعجها لو دامت بضع سنين .

البحث الثانى والثلاثون

الموازنة بين الرائيتين

— ١ —

ونشرع فى الموازنة بين الرائيتين فنقول :

يظهر أن البارودى لم يحتفل بقصيدته على نحو ما احتفل أبو فراس ، فقصيدة البارودى خمسة وعشرون بيتا ، وقصيدة أبى فراس جاوزت الأربعين .

قد يقال : وما قيمة الكمية ؟ ونجيب بأن البارودى حين عارض ميميّة أبى نواس نظر فرآها عشرين بيتا ، فجعل قصيدته أربعين ، وذلك من شارات الاهتمام والاحتفال

والنسيب فى قصيدة أبى فراس عشرون بيتا ، وهو فى قصيدة البارودى أحد عشر بيتا .

ومن الفوارق بين الشاعرين أن أبا فراس اقتضب فانتقل فجأة من النسيب إلى الفخر ، أما البارودى فترفق فى التخلص حين قال :

وَكَفْكَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شُئُونَهُ
عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ

حَيَاءً وَكِبْرًا أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحَتْ
بِهِ صَبْوَةٌ أَوْ فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الْهَجْرُ

وَإِنِّى امْرُؤٌ لَوْلاَ الْعَوَائِقُ أَذْعَنَتْ
لِسُلْطَانِهِ الْبَدْوُ الْمُغِيرَةُ وَالْحَضْرُ

مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ
لَهَا فِى حَوَاشِى كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجْرُ

وابتدأ أبو فراس قصيدته بحوار بينه وبين رفيق موهوم عاب عليه التجلد فقال :

أَرَاكَ عَصِىَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ
أَمَا لِلْهَوَى نَهْىٌ عَلَيْكَ وَلاَ أَمْرُ

بَلَي ، أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِىَ لَوْعَةٌ
وَلٰكِنَّ مِثْلِى لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرٌّ

وهذان البيتان غاية فى وصف أقدار الرجال ، فإن الرجل لا يعاب عليه الحب ، وإنما يعاب عليه أن يصير أحبابه مضغة الأفواه ، ثم جعل الشكوى بينه وبين الليل ، فقال :

إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِى بَسَطْتُ يَدَ الْهَوَى
وَأَذْلَلْتُ دَمْعًا مِنْ خَلاَئِقِهِ الْكِبْرُ

تَكَادُ تُضِىءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِى
إِذَا هِىَ أَذْكَتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْهَجْرُ

وقد عارض البارودى مطلع أبى فراس فجعل أمره فى الحب أخطر من أن يُدارَى

بالكتمان ، وتمثل نفسه مُحباً جامحاً لا يصدّه تهيّب ، ولا يردعه إشفاق ، وكذلك قال :

طَرِبْتُ وَعَادتْنى المَخِيلَةُ وَالسُّكْرُ
وَأَصْبَحْتُ لَايُلْوِى بِشِيمَتِىَ الزَّجْرُ
كَأَنِّى مَخْمُورٌ سَرَتْ بِلِسَانِهِ مُعَتَّقَةٌ مِمَّا يَضِنُّ بِهَا التَّجْرُ
صَرِيعُ هَوًى يُلْوِى بِىَ الشَّوْقُ كُلَّمَا
تَلأْلَأَ بَرْقٌ أَوْ سَرَتْ دِيمَةٌ غَزْرُ
إِذَا مَالَ مِيزَانُ النَّهَارِ رَأَيْتَنِى عَلَى حَسَرَاتٍ لَايُقَاوِمُهَا صَبْرُ

فالبارودى لم يصنع صنيع أبى فراس الذى حدثنا أنه عرف كيف يكتم أسرار الحب ، وأنه لا يشكو بثّه إلاّ إلى ظلمات الليل ، وإنما سلك البارودى مسلكاً آخر ، حين جعل هواه فوق التجلد وفوق الكتمان ، وحين أعلن أن ما به أخطر من السحر وأخطر من الجنون ، وحين أعلن العجز عن مقاومة الحب ، لأن الحب فى رقته ولُطْف مَداخله لا يُرد بالسيوف وبالرماح ، وهى كل ما يملك ذلك الفارس الذى كانت مواقعه مما يشيب ناصية الزمان :

يَقُولُ أُنَاسٌ إِنَّهُ السِّحْرُ ضَلَّةً وَمَاهِىَ إِلَّا نَظْرَةٌ دُونَهَا السِّحْرُ
فَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسُ أَمْرِى وَلَيْسَ لِى
وَلَالِامْرِئٍ فِى الحُبِّ نَهْىٌ وَلَاأَمْرُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ دِفَاعُهُ
لَأَلْوَتْ بِهِ الْبِيضُ المَبَاتِيرُ وَالسُّمْرُ
وَلٰكِنَّهُ الحُبُّ الَّذِى لَوْ تَعَلَّقَتْ
شَرَارَتُهُ بِالجَمْرِ لَاحْتَرَقَ الجَمْرُ

وهذا من أصدق ما قال المحبون ، فلا يعلم أحد إلى اليوم كيف تستطيع العيون النواعس أن تفعل بالرجال مالا تفعل الصهْباء ، لا يعلم أحد كيف يتفق للرجل أن يَذِلّ ويَخْضع في ميدان الحب ، لا يعلم أحد كيف يستطيع الخد الأسيل– وهو أرق من الورد – أن ينال من قلب الرجل ما لا ينال السيف الصقيل .

لقد يخطر ببال الخليّين أن الشعراء يبالغون حين يرون الحب أعنف من الجمر ، وأفتك من الخمر ، وأقتل من الداء العُضال ، ولكن الذى مارس دنْيا الصباحة ، وعرف ما فيها من مهالك ومعاطب ، لا يزال يعجب من هذه المصاير المحزنة : مصاير الرجال الذين يعيشون بعزائم من الصخر وقلوب من الهواء .

لقد كان البارودى ولا ريب من أقوياء الرجال ، ولكنه مع ذلك عاش فى الحب عيش الأطفال ، وأخذ يحمل قلبه الجريح من أرض إلى أرض ، وظل يهذى بأحلام « حُلوان » هذيان المحموم ، فلم تفارقه لوعته فى سفر ولا حضر ، ولم يرحمه جواه فى شدة ولا رخاء ، ومن أجل ذلك نراه يحس بلواه كل الإحساس وهو يقول :

وَلٰكِنَّهُ الحُبُّ الَّذِى لَوْ تَعَلَّقَتْ
شَرَارَتُهُ بِالجَمْرِ لَأَحْتَرقَ الجَمْرُ

وللقارىء أن يتأمل هذه الصورة الشعرية ، له أن يتصور كيف تتعلق شرارة الحب بالجمر فيحترق الجمر ، فالجمر يحرق ولكنه حين يمسه الحب يحترق ، وتلك من وثبات الخيال .

وقد عز على البارودى أن يكون أقل جَلَداً من أبى فراس وأن يصبح حديث الشامتين ، وكذلك استدرك فقال :

عَلَى أَنَّنِى كَاتَمْتُ صَدْرِىَ حُرْقَةً
مِنَ الْوَجْدِ لَايَقْوَى عَلَى مَسِّهَا صَدْرُ
وَكَفْكَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شؤُونَهُ
عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ

حَيَاءً وَكِبْرًا أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحَتْ

بِهِ صَبْوَةٌ أَوْ فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الْهَجْرُ

ونحن نحمد الله تعالت أسماؤه على أن لطف بعباده فعصم هذا الشاعر من الضعف وأسبغ عليه نعمة الصبر الجميل ، ولولا لطف الله لغرق الناس فى « بحر » من الدموع وهى ملحٌ أجاج .

لقد أعجبنى من البارودى أن يُغْرِب فى الوهم ، فيقول :

وَكَفْكَفْتُ دَمْعاً لَوْ أَسَلْتُ شُئُونَهُ

عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ

وعبارة « ما شك امرؤ » عبارة طريفة لأنها تدل على أن الشاعر يفطن إلى أنه مقبل على أكاذيب ، والكاذب فى حاجة إلى القسم وإلى التأكيد .

وكنا نود لو اعتذرنا عنه ، ولكنّ هذا الغُلُوَّ المكشوف لم يُوَشَّ بصورة شعرية على نحو ما وشى البيت البكْر الذى جعل به الجمر وَقوداً لنار الحب ، والدنيا كلها وَقُودٌ لتلك النار التى يعذب الله بها من يشاء من عباده الشعراء .

— ٢ —

لم يمض البارودى فى حديث هواه ، أما أبو فراس فقدم صوراً من التشبيب ، عاتب حبيبته فقال :

مُعَلِّلَتِى بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ

إِذَا مِتُّ ظَمْآناً فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ

وهذا البيت عرض له شوقى فى مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات فرآه من صُوَر الأثرة وفضل عليه قول أبى العلاء :

فَلَا هَطَلَتْ عَلَيَّ وَلَا بِأَرْضِى سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ الْبِلَادَا

ونحن نرى أبا فراس أصدق من أبى العلاء ، فإن الأثرة من مظاهر الحيوية ،

والشاعر الحىّ لا يفكر إلاّ فى نفسه ، لأن الحياة تفرض الاستبداد ، ونظرة أبى العلاء فيها كرم ولكنها تمثل الضعف ، والأثرة هى سر كل شىء ، فالشجرة العظيمة لم تعظم إلا بفضل ما استبدت فى مص الأرض واستنشاق الهواء وهى لا تعظم إلا بعد أن تقتل ما حولها من شجر ونبات ، والرجل العظيم لا يعظم إلا بفضل ما يُغير على معاصريه ، فهو لا يظهر إلا بعد أن يُخْمل الألوف والملايين ، والشمس لم تعظم إلا منذ استطاعت أن تكسف بضيائها جميع الكواكب فلا ترى العين غيرها فى كبد السماء ، وكان القمر أقل عظمة من الشمس لأنك ترى بجانبه نجوما يخطئها العدّ فتحكم بأنه عجز عن الاستبداد بملك السماء ، وقد يتفق أحيانا أن نرى القمر نهاراً ، ولكن كيف نراه ؟ نراه فى صورة التابع الذليل ، وهو لم يظهر إلا بفضل ما أفاءت عليه الشمس ، ولو كفّتْ برّها عنه لعاش وهو مجهول .

فقول أبى فراس :

إِذَا مِتُّ ظمآناً فلا نَزَلَ الْقَطْرُ

من الكلمات القوية التى لاتصدر إلاّ عن رجل يحمل قلب الملوك ، أما كرم أبى العلاء فهو كرم العاجز الذى لا يتصرف فى شىء ، وإنما يبذل عطايا الوهم بلا حساب ، والأنس بنعيم الناس لا يكون إلا ممن يملك الإفضال على الناس ، أما الذى يسره أن يجود المطر جميع الوهاد والنجاد فهو يُسر بما لا يبذل ، والسرور بما لاتبذل سرور الضعفاء .

وقد فرح ناس بملاحظة شوقى فراحوا يعيدونها فى كل مجتمع ، وهم لا يفقهون !

ومضى أبو فراس فأمتعنا بهذين البيتين :

بَدَوْتُ وَأَهْلِي حَاضِرُونَ لِأَنَّنِى
أَرَى أَنَّ دَارًا لَسْتِ مِنْ أَهْلِهَا قَفْرُ

وَحَارَبْتُ قَوْمِى فِى هَوَاكِ وَإِنَّهُمْ
وَإِيَّاىَ لَوْلَا حُبُّكِ المَاءُ وَالخَمْرُ

وهذا شعر بديع حقا ، وإن كان البيت الأول مأخوذاً من قول جميل :

أَبِيتُ مَعَ الْهُلَّاكِ ضَيْفاً لِأَهْلِهَا

وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ذَوُو فَضْلِ

وكان البيت الثانى أخذ برفق من قول جميل فى كلمة ثانية :

كَأَنْ لَمْ نُحَارِبْ يَا بُثَيْنَ لَوَ انَّهَا

تَكَشَّفُ غَمَّاهَا وَأَنْتِ صَدِيقُ

ولننص على أن البيت الأول عند أبى فراس أروع من بيت جميل ، أما البيت الثانى من شعر جميل فهو أقوى وأعمق من البيت الثانى من شعر أبى فراس .

ثم انظروا هذا البيت :

وَفَيْتُ وَفِى بَعْضِ الْوَفَاءِ مَذَلَّةٌ لِإِنْسَانَةٍ فِى الْحَىِّ شِيمَتُهَا الْغَدْرُ

انظروا هذا البيت وتأملوه ، فعبارة « وفى بعض الوفاء مذلة » تصور ما يلقى الرجل فى الحب ، والوفاء فى الحب ذلة يقبل عليها الرجال وهم كارهون ، والرجل لا يحب إلا وهو مخبول ، ولو كان يملك من أمره شيئاً لعرف أن نعيم الحب نعيم صغير بالإضافة إلى ما يُذال فيه من عز النفوس .

وهذا البيت :

وَقُورٌ وَرَيْعَانُ الصِّبَا يَسْتَفِزُّهَا فَتَأْرَنُ أَحْيَانًا كَمَا يَأْرَنُ الْمُهْرُ

هذا بيت نادر ، وهو قليل الأمثال عند من يفهم دقائق البيان ، ولك أن تتذكر وقار العقيلة المليحة التى تحيا برزانة الجبال ، ثم يستفزها الصبا فتجنح إلى التعقب والتغضب ، ولبعض الملاح غضبات كلها سحر وفتُون ، وهى أملح فى العين وأندى على القلب من بسمات الرضا ونغمات الحنين .

وانظروا هذا الحوار الطريف :

تُسَائِلُنِى مَنْ أَنْتَ وهِىَ عَلِيمَةٌ وَهَلْ بِفَتَىً مِثْلِى عَلَى حَالِهِ نُكْرُ

فَقُلْتُ كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَى

قَتِيلُكِ ، قَالَتْ : أَيُّهُمْ ؟ فَهُمُو كُثْرُ

فَقُلْتُ لَهَا لَوْ شِئْتِ لَمْ تَتَعَنَّتِى وَلَمْ تَسْأَلِى عَنِّى وَعِنْدَكِ بِى خُبْرُ

وَلاَ كَانَ لِلأَحْزَانِ عِنْدِىَ مَسْلَكٌ

إِلَى الْقَلْبِ لٰكِنَّ الْهَوَى لِلْبِلاَ جِسْرُ

فَأَيْقَنْتُ أَنْ لاَعِزَّ بَعْدِى لِعَاشِقٍ وَأَنَّ يَدِى مِمَّا عَلِقْتُ بِهِ صِفْرُ

فَقَالَتْ لَقَدْ أَزْرى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا

فَقُلْتُ مَعَاذَ ٱللهِ بَلْ أَنْتِ لاَ ٱلدَّهْرُ

وهذا أيضاً شعر ، ولكن أى شعر ! إنه من أقوى لَفَحات الصبابة ، وأطيب نَفَحَاتِ الوجدان ، والدنيا هكذا تصنع بالرجال ، فذلك الفارس الذى فتك بمن فتك من الأبطال ، وهدم ما هدّم من الحصون ، هذا الجبل يقف خاشعاً ذليلاً أمام إنسانة تقول : من أنت ؟ فيقول : عاشق ! فتقول : ولكن من أنت فى العشاق ؟ فيقول فى ذلة المهزوم : أنت تعلمين !

ومن كانت هذه الإنسانة التى عناها أبو فراس ؟

ولكن ما قيمة هذا السؤال ؟ أكان من الحتم أن يكون لمثلها شأن حتى تكوى مثله على الجمر المشبوب ؟ إن من أعجب تصاريف القَدر أن لا ينبت الحسن المرموق إلا فى المراتع التى لا يُنْصب حول حماها حصن ، ولا يرفرف فوقها لواء .

إن أبا فراس لا يكذب فى مثل هذا التحرق ، ولكن من كان يحب ! كان يحب إنسانة هى اليوم فى ضمير شعره ، لا فى ضمير صدره ، إنسانة أنطقته بهذه اللوعة الخالدة ، ثم اندرجت فى أكفان الفناء .

ثم انظروا هذا المصير المحزن ، مصير كل عاشق خبله الهوى فضاع :

وَقَلَّبْتُ أَمْــرِى لاَ أَرَى لِىَ رَاحَــةً
إِذَا الْبَيْنُ أَنْسَــانِى أَلَجَّ بِىَ الْهَجْـــرُ
فَعُدْتُ إِلَى حُكْمِ الــزَّمَـــانِ وَحُكْمِهَا
لَـهَا ٱلذَّنْـــبُ لا تُجْزَى بِهِ وَلِىَ الْعُذْرُ

هذا مَصير كل عاشق : لغيره أن يُذنِب وعليه أن يعتذر . والعشق ذاته خروجٌ على المنطق ، منطق الحياة التى تسمو بصاحبها إلى الترفع عن كل دنية ، إلا أن يُثبت البحث أن الحب أسلوبٌ من الظفَر بمكنونات الجمال ، وأن مدامع العشاق هى فى عالم المعقول كالمخْلَب والناب فى عالم المحسوس ، فالأسد يفترس ، والعاشق يفترس ، وإن اختلفت وسائل الافتراس .

نحن إذَنْ نبكى لنُخَدِّرالفرَيسة ، وعلى ذلك يكون الدمع فى عين العاشق كالسم فى ناب الثعبان ! ! أترونى كشفت سرَّ المهنة ؟ لا تُراعُوا أيها العشاق فلأهل الجمال غفلة هى أعجب الغفلات ، هم يرون الشرَك وَيتجاهلون ، لحكمة يعلمها من يصل القلوب بالقلوب ، وينقل الظبّاء طائعةً إلى مرابض الأسود .

وكأن أبا فراس لحظ هذه النظرة الفلسفية حين قال :

كَأَنِّى أُنَادِى دُونَ مَيْثَاءَ ظَبْيَةً عَلَى شَرَفٍ ظَمْيَاءَ جِلْيَتُهَا الذُّعْرُ
تَجَفَّلُ حِينًا ثُمَّ تَدْنُو كَأَنَّمَــا تُنَادِى طَلاً بِالْجَرِى أَعْجَزَهُ الحُضْرُ

وهو خيال بدوىّ أطاف به كثير من الشعراء ، والمليحة هكذا خُلقَتْ تأمن وتخاف ، وبين الخوف والأمن يكون جحيم الهجر ونعيم الوصال .

— ٣ —

ننتقل إلى الموازنة بين الشاعرين فى الفخر فنقول :

يُحِسُّ البارودى أن أيامه انتهت ، أيام المجد الحربى ، فيَزفر :

وَإِنِّى امْرُؤٌ لَوْلاَ الْعَوَائِقُ أَذْعَنَتْ لِسُلْطَانِهِ الْبَدْوُ الْمُغِيرَةُ وَالْحَضْرُ

وعبارة « لولا العوائق » فيها تحفُّظ معقول : لأنه كانَ فى القيْدِ ، أما أبو فراس فيشمخ :

وَإِنِّى لَنَزَّالٌ بِكُلِّ مَخُوفَــــةٍ كَثِيرٌ إِلَى نُزَّالِهَا النَظَرُ الشَّزْرُ

وحال الشاعرين مختلف ، فالبارودى كان انهزم وانهزمت أمته فاحتل الانجليز بلاده ونفوه إلى جزيرة نائية لا يُرْجى له منها معَاد ، فهو خَليقٌ بأن يراعى ذلك فى فخره . أما أبو فراس فكان لابن عمه ولقومه دولة وكان لهم جيش ، وكان ينتظر أن يُفك من الأسر ، وفى ذلك ما يفسح أمام نفسه مجال القوة فيزهَى ويختال ، ويتمجد فيقول :

وَإِنِّى لَجَرَّارٌ لِكُلِّ كَتِيبَــــةٍ مُعَوَّدَةٍ أَنْ لاَ يُخِلَّ بِهَا النَّصْرُ
فَأَصْـــدَى إِلَى أَنْ تَرْتَـــوِى الْبِيضُ وَالْقَنَا
وَأَسْغَــبُ حَتَّى يَشْبَعَ الذِّئْبُ وَالنَّسْـــــرُ

وهذا نهاية الفخر ، والخيال هنا بارع ، فالفارس يظل صديان حتى ترتوى الرماح والسيوف ، ويظل جوعان حتى تشبع النسور والذئاب من لحوم الأعداء .

وأبو فراس لايذكر غير نفسه ، أما البارودى فيجعل مجده من مجد قومه :

مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ لَهَا فى حَوَاشِى كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجْرُ
إِذَا اسْتَـــلَّ مِنْهُـمْ سَيِّـــدٌ غَـرْبَ سَيْفِـهِ
تَفَزَّعَتِ الْأَفْــلاَكُ وَالْتَفَـتَ الدَّهْـــــرُ

والبيت الثانى وثبة هائلة من وثبات الخيال ، ولا يخلو البيت الأول من حُسْنٍ مَرْمُوق .

ونحن نفهم لماذا سكت أبو فراس عن التمدح بقومه ، فقد بُح صوته وهو

يستنجد بهم ليفْدوه فلم يلتفتوا إليه ، أما البارودى فلم تكن له بقيّةٌ من مجدٍ غير آبائه الذين وصفهم بالجود والبأس فقال :

لَهُمْ عُمُدٌ مَرْفُوعَةٌ وَمَعَاقِلٌ ... وَأَلْوِيَةٌ حُمْرٌ وَأَفْنِيَةٌ خُضْرُ
وَنَارٌ لَهَا فِى كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ ... لِمُدَّرِعِ الظَّلْمَاءِ أَلْسِنَةٌ حُمْرُ
تَمُدُّ يَدًا نَحْوَ السَّمَاءِ خَضِيبَةً ... تُصَافِحُهَا الشِّعْرَى وَيَلْثَمُهَا الْغَفْرُ
وَخَيْلٌ يَرُجُّ الخَافِقَيْنِ صَهِيلُهَا ... نَزَائِعُ مَعْقُودٌ بِأَعْرَافِهَا النَّصْرُ
مُعَوَّدَةٌ قَطْعَ الْفَيَافِى كَأَنَّهَا ... خُدَارِيَةٌ فَتْخَاءُ لَيْسَ لَهَا وَكْرُ (١)

والجود في هذه الأبيات وضع فى أخيلة بدوية ، فإقامة النار لهداية السارين لايعرفها القاهريون ، وقوم البارودى الذين يتمدح بهم كانوا سادة مصر من المماليك ، وكان للبارودى فيما يقال أجداد من المماليك ، وكان هذا النسب الصحيح أو المصنوع يغريه بالفتك ، ويحبب إليه الصيّال .

وعبارة : « وخَيْلٌ يَرُجُّ الخافقين صَهيلُها » عبارة قوية جدا ، وهى لاتقلُّ جمالاً عن تلفت الدهر وتفزع الأفلاك .

والبارودى يجعل خيل قومه « مُعوَّدَةً قَطْعَ الفيافى » وهو تعبير طريف فهى ليست من الخيل المدللَّة التى تحيا فى نعيم المرابض وتُمْسحُ أعْرافها مسح التلطف والترفق ، على نحو ما يقع فى مرابض الوادعين الذين يقتنون الخيل للزينة لا للحرب .

والبارودى كان يئس من كل شىء ، يئس من نفسه لأن الذين نَفَوْه كانوا مُنْتَصرين ، ولأن قومه انهزموا هزيمة انتهت بتجريدهم من السيوف ، والقوم الذين أعنيهم أنا هُم المصريون ، أما القوم الذين تحدث عنهم البارودى فهم أسلافه القدماء ، وهؤلاء لم تبق منهم بقية ، ولذلك بكاهم فقال :

أَقَامُوا زَمَانًا ثُمَّ بَدَّدَ شَمْلَهُمْ ... أَخُو فَتَكَاتٍ بِالْكِرَامِ ٱسْمُهُ ٱلدَّهْرُ

(١) الخدارية بالضم : العقاب ، والفتخاء من العقبان : اللينة الجناح .

فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ آثَارِ نِعْمَةٍ تَضُوعُ بِرَيَّاهَا الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
وَقَدْ تَنْطِقُ الآثَارُ وهْىَ صَوامِتٌ وَيُثْنِى بِرَيَّاهُ عَلَى الْوَابِلِ الزَّهْرُ
لَعَمْرُكَ مَاحَىٌّ وَإِنْ طَالَ سَيْرُهُ يُعَدُّ طَلِيقًا وَالْمَنُونُ لَهُ أَسْرُ
وَمَا هٰذِهِ الْأَيَّامُ إِلاَّ مَنَـازِلٌ يَحُلُّ بِهَا سَفْرٌ وَيَتْرُكُهَا سَفْرُ
فَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَرْءَ فِيهَا بِخَالِدٍ وَلٰكِنَّهُ يَسْعَى وَغَايَتُهُ الْعُمْرُ

ونهاية هذا الشوط ختمت بضعف ، لأن الشاعر كان من اليائسين .

أما أبو فراس فقد انفسح أمامه مجال القول ، فتحدث عن أدب الحرب فقال :

وَلاَ أُصْبِحُ الْحَىَّ الْغَيُورَ بِغَارَةٍ أَوِ الْجَيْشَ مَالَمْ تَأْتِهِ قَبْلِىَ النُّذْرُ

ومن أشرف آداب الحرب أن تُسْبَق بالنذير فلا يكون فيها تَبْيِيتٌ ولا اغتيال وبلغ غاية الفخر حين قال :

وَيَا رُبَّ دَارٍ لَمْ تَخَفْنِى مَنِيعَةٍ طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَاوَالْفَجْرُ

وكلمة « لمْ تَخَفْنى » وكلمة « مَنيعَةٍ » من الكلمات الأصيلة فى هذا البيت ، وعبارة :

« طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا والْفَجْرُ »

فيها رَشَاقَةٌ وفيها خيال .

ولم يفت أبا فراس أن يتمجد بأدب النفس ، وأن يذكر أنه كان يعفو ويصفح حين تتقدم حسناء فتشفع لقومها عند ذلك المُغير البَطّاش :

وَسَاحِبَةِ الْأَذْيَالِ نَحْوِى لَقِيتُهَا فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِى اللِّقَاءِ وَلاَ وَعْرُ

وَهَبْتُ لَهَا مَاحَازَهُ الجَيْشُ كُلَّهُ   وَرُحْتُ وَلمْ يُكْشَفْ لأَبْيَاتِها سِتْرُ
وَلاَ رَاحَ يُطْغِينِى بِأَثْوَابِهِ الْغِنَى   وَلاَبَاتَ يَثْنِينِى عَنِ الْكَرَمِ الْفَقْرُ
وَمَا حَاجَتِى فى المَالِ أَبْغِى وُفُورَهُ
إِذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِى فَلاَ وَفَرَ الْوَفْرُ

وهذا استطراد إلى محاسن نفسيّة يتمدح بها كرام الرجال .

وانتقل أبو فراس إلى الحديث عن أسره فقال :

أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِى بِعُزْلٍ لَدَى الْوَغَى
وَلاَ فَرَسِى مُهْرٌ وَلاَ رَبُّهُ غِمْرُ
وَلٰكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى ٱمْرِىءٍ
فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلاَ بَحْرُ

والكلام عن القضاء والقدر هو العلالة الباقية التى يفزع إليها الأبطال المنهزمون ، والقَدَر له فى الأدب الشرقى مكان ، فنراه عند العرب ونراه عند الهنود ، وفى كتاب كليلة ودمنة فقرات كثيرة عن القَدَر وتصريفه لشئون الناس ، وما نحب أن نفعل كما يفعل كتاب الغرب فنقول إن هذا دليل على ضعف النفس الشرقية ، هيهات ، فالناس فى الشرق والغرب ضعفاء ، وإن فتنهم النصر فى بعض الأحيان ، والإنسان حيوانٌ لئيم فهو لايَذكُر القَدَرَ إلا حين يُغْلَب ، وهو عند العافية يتسامى إلى منزلة الإله المعبود .

وما أخطر ما يلقى الرجل فى مآزق الكَرْب والضيم ، حين يُخَيَّر فى الحرب بين بليتين : بلية الفرار ، وبلية الهلاك ، وقد صوّر هذا أبو فراس أصدق تصوير حين قال :

وَقَالَ أُصَيْحَابِى الْفِرَارُ أَوِ الرَّدَى   فَقُلْتُ هُمَا أَمْرَانِ أَحْلاَهُمَا مُرُّ

وَلٰكِنَّنِى أَمْضِى لِمَا لاَ يَعِيبُنِى
وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَسْرُ

وما رأيت كلمة صغرت بحق كما صغرت فى هذا الموطن كلمة « أصيحاب » فان لم يكن الوزن هو الذى قضى بذلك فأبو فراس إذنْ من أبصر الشعراء بصياغة الكلام .

وتلفت أبو فراس فرأى آسريه يمنُّون عليه بأن لم يخلعوا ثيابه كما يصنعون بالأسرى ، ولعلهم لاحظوا أنه أمير ، وأن الأمراء لهم فى الأسر مَقَامٌ ملحوظ ، فقَرَعَهُمْ بهذين البيتين :

يَمُنُّونَ أَنْ خَلَّوْا ثِيَابِى وَإِنَّمَا
عَلَىَّ ثِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمُو حُمْرُ
وَقَائِمُ سَيْفٍ فِيهِمُو دُونَ نَصْلِهِ
وَأَعْقَابُ رُمْحٍ فِيهِمُو حُطِّمَ الصَّدْرُ

ويكاد هذا الشعر يفصح عن الوقت الذى قيل فيه هذا القصيد ، وأغلب الظن أنه قاله فى الأسبوع الأول من الأسر ، وإن كان فى بقية القصيد ما يشعر بالعتب على قومه إذ قال :

سَيَذْكُرُنِى قَوْمِى إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ
وَفِى اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ
وَلَوْ سَدَّ غَيْرِى مَا سَدَدْتُ اكْتَفَوْا بِهِ
وَمَا كَانَ يَغْلُو التِّبْرُ لَوْ نَفَقَ الصُّفْرُ

فإن فى هذين البيتين دلالةً على أنهم أبطئوا فى افتدائه ، وكانوا من الآثمين ، ثم قال :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لاَ تَوَسُّطَ بَيْنَنَا
لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوِ الْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فى المَعَالِى نُفُوسُنَا
وَمَنْ يَخْطُبِ الحَسْنَاءَ لاَ يُغْلِهِ المَهْرُ
أَعَزُّ بَنِى الدُّنْيَا وَأَعْلاَ بَنِى الْعُلاَ
وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التُّرابِ وَلاَ فَخْرُ

وفى هذه الأبيات رجعة إلى قومه الذين تجاهلهم فى صدر القصيد .

— ٤ —

أما بعد ؛ فقد سارت قصيدة أبى فراس فى كل أرض ، وتَغَنَّى بها الناس فى جميع البلاد العربية ، وما فيها من التشبيب حفظ فى لوحة من ألواح الغناء سجلتها شركة أوديون للآنسة أم كلثوم ، وكلمة :

« لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِيْنَ أَوِ الْقَبْرُ »

يحفظها كل أديب .... والبيت :

تَهُونُ عَلَيْنَا فى المَعَالِى نُفُوسُنَا ... وَمَنْ يَخْطُبِ الْحَسْنَاءَ لَا يُغْلِهِ المهْر

كُتِبَ ألف مرة ومرة فى دفاتر الإنشاء .

أما قصيدة البارودى فقد نُسيتْ مع الأسف الموجع ، ولم يُحْفَظْ منها غير هذا البيت :

إِذَا ٱسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيِّدٌ غَرْبَ سَيْفِهِ
تَفَزَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَالْتَفَتَ الدَّهْرُ

وكذلك نُكِبَ البارودى مرتين : نُكِبَ حين نُفِىَ ولم يَرْجِعْه قومه بقوة السيف ، ونُكِبَ حين نسي الناس شعره فى منفاه .

وأكاد أحكم بأن البارودى كان فى الحرب أفتك من أبى فراس ، والحرب بين الجيش المصرى ومن ساوره من الجيوش كانت أخطر من الحروب التى اشترك فيها أبو فراس .

ولكن البارودى لظروف كثيرة فقد الحظين معاً ، فلم ينتصرْ سيفه ، ولم يسرْ شعره ، والدنيا حظوظ ، وإلاّ فكيف انخفضت هامة البارودى وكان عزمه يَدُكّ الجبال .

أيها البارودى العظيم !

لست أتكلف الغضب لك ، والإشفاق عليك ، أنت عَبْقَرِيّةٌ أضاعها المصريون وأضاعها الزمان ، ولكن لا تأس ، ولا تحزن ، فلست أول من أضاعهم المصريون وأضاعهم الزمان !

البحث الثالث والثلاثون

بين أبى نواس وعبد الباقى إبراهيم

ملاعب الكرة فى الشعر العربى

— ١ —

ملاعب الكرة فيها لطف وجاذبية ، وفيها سحرٌ وفتون ، ومع ذلك لم يتكلم عنها الشعراء إلا قليلاً ، ولعل من أسباب تقصير الشعراء فى هذا الباب أنهم كانوا فى أغلب الأحوال لا يشاركون الشباب فى ألعاب يأباها أدب الكهول ، والشاعر يظل فتىّ القلب والروح ، ولكنه يتوقّر كثيراً فلا يشارك الشباب فى ألعاب تنشأ أول ما تنشأ بين الأطفال .

ولست أعرف ما صنع شعراء الانجليز فى وصف ملاعب الكرة ، وهم من أمهر اللاعبين ، ولكنى أعرف جيداً أن شعراء العصر الحاضر فى مصر لم يُعْنَوْا بوصف ملاعب الكرة على نحو ما عُنُوا بوصف المراقص مع أن لعب الكرة أحفل بالمعانى الحيوية ، وهو أقدر من الرقص على العبث بأخيلة الشعراء .

ويمكن الحكم بأن اللعب تغلب عليه الصبغة الجدية بخلاف الرقص ، ولكن أيكون الجدُّ مما يقضى على قرائح الشعراء بالركود ؟ إن الجد فى اللعب له معانٍ تخلب الألباب ، وهو خليق بأن يحوّل الشعراء إلى شياطين ، فلنعرف ذلك ولننتظر من شعراء مصر أن يُسجِّلوا فى أشعارهم روعات الحفلات السنوية التى تقام بالجزيرة ، والتى ينبض فيها دم الشباب بأشرف الحيوات وهم يتقابلون صفين فى ميدان الحرب العاتية التى تنتهى دائماً بالسلام والصفاء .

وما أنسَ لا أنسَ ملعب الكرة فى رحاب الجامعة المصرية ، وقد أقيم فى قصر الزعفران فى شتاء سنة ١٩٢٦ ، وكانت المباراة يومئذ بين طلبة الجامعة المصرية وبين فريق من فتيان الأمريكان زاروا مصر فى ذلك الحين ، وكان الزعيم سعد زغلول يشهد ذلك الاحتفال . ثم مَسّه البرد فانتقل إلى مكتب مدير الجامعة ووضعت المدفأة بين قدميه ، ولبث ينتظر أخبار المباراة ، وانتصر يومئذ الشبان المصريون على الشبان الأمريكان ، ولكنهم تطامنوا فى النهاية عامدين ليُمكنوا الصقُور الأمريكية من الظفر المصنوع .

فى ذلك اليوم كنت أتمنى أن يتقدم شاعر فيصف ذلك الملعب الجذاب ، ولكن أين الشعراء ؟ إن ملاعب الكرة تقام فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهى لحظة يقضيها شعراؤنا فوق الوسائد بعد غداء العدس والفول ، وليس فى مصر شاعر يتخذ قوته من الحب والنسيم .

مالى ولهذا ؟ أنا لا أكتب هذا الفصل لأفْصل فى قضية الشعراء ، فلنتركهم للحياة تؤدب منهم من تشاء ، وتنسى من تشاء ، ولننتقل إلى وصف ملعب الكرة فى قصيدة أبى نواس ، وقصيدة عبد الباقى إبراهيم .

— ٢ —

حدّث حمزة الأصفهانى أن أبا نُوَاس خرج يوما مع العباس بن موسى الهادى إلى « عيساناباذ » فوجد فى الميدان زهير بن المسيب والصقر بن مالك الخزاعى يلعبان بالصوالجة فدخل مع القوم فصاروا حزبين فغلبهم ، ثم أكل معهم وشرب ، فلما طرب قال هذه الأرجوزة :

قَدْ أَشْهَدُ اللَّهْوَ بِفِتْيَانٍ غُرَرْ ... مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ سَادَاتِ الْبَشَرْ
وَمِنْ بَنِى قَحْطَانَ وَالحَىّ مُضَرْ
مِنْ كُلِّ مَأْلُوفٍ كَرِيمِ المُعْتَصَرْ (١)
زَيَّنَ حُسْنَ وَجْهِهِ طِيبُ الخَبَرْ ... عَلَى جِيَادٍ كَتَمَاثِيلِ الصُّوَرْ

(١) كريم المعتصر : جواد عند السؤال .

مِنْ كُلِّ طِرْفٍ أَعْوَجِيٍّ قَدْ ضَمَرْ (١)

لَمْ يَكْوِهِ الْبَيْطَارُ مِنْ دَاءِ الحَمَرْ (٢)

جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرْ … كَأَنَّمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبَرْ

أَوْ سُمِّرَ الْفَارِسُ فِيهَا فَانْسَمَرْ … بَيْنَ رِيَاضٍ مِثْلِ مَوْشِيِّ الْحِبَرْ

مُكَلَّلَاتٍ بِبَهَارٍ وَزَهَرْ … فَانْتَدَبُوا فِي يَوْمِ قُرٍّ وَخَصَرْ

إِذْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي غِبِّ مَطَرْ … صَوَالِجًا يَصْبُو إِلَيْهَا مَنْ نَظَرْ

مَحْنِيَّةً أَطْرَافُهَا فِيهَا زَوَرْ (٣) … قَدَّرَهَا شَابِرُهَا لَمَّا شَبَرْ

فَلَمْ يَعِبْ طُولٌ وَلَا شَانَ قِصَرْ … وَقَدْ تَنَادَوْا فَتَرَامَوْا بِالْأُكَرْ (٤)

مُدْمَجَةَ الْأَرْكَانِ مُدْمَاةَ الطُّرَرْ … شَدَّدَ صِفْقَيْ مَتْنِهَا حَشْوُ الشَّعَرْ (٥)

أَحْكَمَهَا صَانِعُهَا لَمَّا فَطَرْ … أَلْطَفَ بِالْإِشْفَاءِ خَرْزًا إِذْ دَسَرْ (٦)

فَلَيْسَ لِلْإِشْفَاءِ بِالْجِلْدِ أَثَرْ … يُحْسَبْنَ تُفَّاحًا تَدَلَّى فِي شَجَرْ

حَتَّى إِذَا مَا أَعْلَقَ الْقَوْمَ الْخَطَرْ … وَوَكَّلُوا بِالْبَزِّ مِقْدَامًا ذَكَرْ (٧)

مُجَرَّبًا يَوْمَ الرِّهَانِ الْمُحْتَضَرْ … فَضَّلَهُ حِذْقٌ وَضَرْبٌ مُشْتَهَرْ

---

(١) الأعوجى : نسبة إلى أعوج ، فرس كان لبنى هلال تنسب إليه الأعوجيات .

(٢) الحمر – بفتحتين – داء يعترى الدواب من كثرة أكل الشعير فتنتن أفواهها .

(٣) الزور بالتحريك : الميل .

(٤) الأكر جمع أكرة ، وهى لغة فى الكرة .

(٥) الصفقان : مثنى صفق وهو الجانب .

(٦) الإشفاء – بالمد للضرورة – مثقب يخرز به الجلد ودسر : أدخل الإشفى فى الجلد ، وفطر : شق .

(٧) البز : الغلبة والقهر .

فَلَمْ يَجُزْ مِنْهُمْ وَلَا الْعَيْنِ فَتَرْ   وَاسْتَقْدَمَ الْقَوْمَ رَئِيسٌ ذُو خَطَرْ
بِكُرَةٍ دَحَا بِهَا ثُمَّ زَجَـــرْ   فَانْحَدَرَتْ كَالنَّجْمِ وَلَّى فَانْكَدَرْ
رَفْعًـا وَوَضْعًـا أَيَّمَـا ذَاكَ اسْتَقَـرْ
تُدْفَـعُ بِالضَّـرْبِ إِذَا الضَّـرْبُ اسْتَمَـرّْ
تَدَافُعَ النَّبْلِ بِإِزْعَاجِ الْوَتَرْ   فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا ذَا وَقَرْ
إِذَا أَجَـادَ الضَّـرْبَ فَـدَّى وَنَعَـرْ
وَعَطْعَطَ الْمَـرْءُ الَّذِي يَـرْجُو الظَّفَـرْ (١)
وَاكْتَأَبَتْ نَفْسُ الَّـذِي خَافَ الْغِيَـرْ
وَأَيْقَنُـوا أَنْ قَـدْ عَلَاهُمْ وَقَهَـرْ
حَتَّى يَفُوزَ بِالرِّهَانِ مَنْ قَمَرْ   يُسَاءُ هٰذَاكَ وَهٰذَاكَ يُسَـرّْ
« كَذٰلِكَ الدَّهْرُ وَتَصْرِيفُ الْقَدَرْ »

وهذه أرجوزة رشيقة نحب أن يتأملها القارىء ليدرك ما فيها من خفة الحركة ودقة التصوير ، وعيساناباذ محلة كانت بشرقيّ بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدى ، و « ناباذ » كلمة فارسية معناها العمارة ، وهذه المحلة خلدها أبو نواس فى هذا الرجز الطريف .

— ٣ —

أما عبد الباقى إبراهيم فقال قصيدته فى وصف مباراة كرة القدم بين تلاميذ مدرسة محرم بك ، وتلاميذ مدرسة رأس التين بمدينة الاسكندرية ، مدينة الملاعب فى الصيف وغير الصيف .

---

(١) عطعط : صاح .

وإليكم أرجوزته

أَذْكُرُ يَوْمًا أَعْلَنَ السُّرُورَا ... مَتَّعْتُ فِيهِ الْعَيْنَ وَالضَّمِيرَا

يَوْمَ الخَمِيسِ الضَّاحِكَ النَّضِيرَا ... لاَ بَارِدَ الجَوِّ وَلاَ مَطِيرَا

صَحِبْتُ فِيهِ مَعْشَرًا مَبْرُورًا ... طَوَوْا عَلَى حُبِّ الْعُلاَ صُدُورَا

حَتَّى أَتَيْنَا مَعْهَدًا مَشْهُورَا ... يَفِيضُ لِلشَّعْبِ هُدًى وَنُورَا

حَيْثُ شَهِدْنَا لَعِبًا مَشْكُورَا ... فِيهِ الصُّقُورُ بَارَتِ الصُّقُورَا

أَبْنَاءُ (رَأْسِ التِّينِ) كَانُوا سُورَا ... أَمَامَ جَيْشٍ جَاءَهُمْ مُغِيرَا

جَيْشَانِ مَا طَلاَّ دَمًا طَهُورَا ... وَلاَ تَرَى مِنْ بَيْنِهِمْ مَوْتُورَا

قَدْ نَظَّمُوا صُفُوفَهُمْ سُطُورَا ... بَعْضٌ لِبَعْضٍ قَدْ غَدَا ظَهِيرَا

وَنَمَّرُوا ثِيَابَهُمْ تَنْمِيرَا ... مِنَ الْعَدُوِّ مَيَّزَ النَّصِيرَا

تَسَاجَلُوهَا كُرَةً فَرُورَا ... تَصْدِفُ عَنْ وَجْهِ الثَّرَى نُفُورَا

فَمَرَّةً تَخْتَرِقُ الأَثِيرَا ... قُنْبَلَةً تُهَدِّمُ الْقُصُورَا

وَمَرَّةً تُصَادِمُ النُّسُورَا ... تَزْفِرُ فِى مَطَارِهَا زَفِيرَا

تَرْمِى بِهَا الرِّجْلُ الْمَدَى الْقَصِيرَا ... يَرْجِعُ طَرْفِى دُونَهُ حَسِيرَا

وَإِنْ يُرِدْهَا الرَّأْسُ أَنْ تَطِيرَا ... سَمَتْ كَمِنْطَادٍ بَدَا صَغِيرَا

لاَ تَلْمَسُ الْكَفُّ لَهَا شَكِيرَا ... شَرِيعَةٌ تَجْعَلُهُ مَحْظُورَا

وَأَشْعَلُوا وَطِيسَهَا سَعِيرَا ... وَزَأَرَتْ أَصْوَاتُهُمْ زَئِيرَا

فَذَا تَرَاهُ أَسَدًا هَصُورَا وَذَا تَرَاهُ بَازِيًا حَذُورَا
وَمِنْهُمُ مَنْ قَدْ هَوَى مَكْسُورَا يَنْدُبُ فِيهِمْ حَظَّهُ الْعَثُورَا
ظَلُّوا عَلَى هٰذَا مَدًى قَصِيرَا تَسَاجَلُوا أَثْنَاءَهُ السُّرُورَا
فَمَا ٱشْتَكَوْا عِيًّا وَلَا فُتُورَا وَلَمْ تَرَى فِى لِعْبِهِمْ مَنْكُورَا
حَتَّى إِذَا مَا سَمِعُوا صَفِيرَا (قَدْ كُمْ) أَطَاعُوا الحَكَمَ الخَبِيرَا
وَٱنْصَرَفُوا تَحْسَبُهُمْ مَنْثُورَا مِنَ الْأَقَاحِ ضَاحَكَ المَنْثُورَا
ثُمَّ ٱجْتَمَعْنَا نُكْمِلُ الحُبُورَا حَوْلَ خِوَانٍ يَشْرَحُ الصُّدُورَا
أَفَاضَتِ الْحَلْوَى عَلَيْهِ النُّورَا وَأَغْرَتِ الْأَعْيُنَ وَالثُّغُورَا

وهذا أيضاً رَجَزٌ طريف ، ولكن انظروا قليلاً فى الموازنة بين القصيدتين .

— ٤ —

ولنذكر فى بداية هذه الموازنة أن أبا نواس هو دائماً أبو نواس ، وبالرغم من الطرافة البادية فى قصيدة عبد الباقى فإن قصيدة أبى نواس أرشق وأبدع وأظرف ، وكيف لا تكون كذلك وقد قالها بعد لعب ختم بكؤوس الصهباء ، على حين ختمت حفلة رأس التين بفناجين الشاى !

وربما كان من أسباب تفوّق أبى نواس أنه اشترك فى اللعب ثم فاز ، أما عبد الباقى فكان من المتفرجين ، وحماسة اللاعب أقوى وأعنف من حماسة المتفرج ، يضاف إلى هذا أن الذين تلاعبوا فى ملعب رأس التين كانوا من التلاميذ ، على حين كان الذين تلاعبوا فى عيساناباذ من الفتيان الميامين أمراء بنى العباس .

وألفاظ أبى نواس كلها مُتَخَيَّرَةٌ ، أما ألفاظ عبد الباقى ففيها القوى والضعيف

يقول أبو نواس :

قَدْ أَشْهَدُ اللَّهْوَ بِفِتْيَانٍ غُـرَرْ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ سَادَاتِ الْبَشَرْ

ويقول عبد الباقى :

صَحِبْتُ فِيهِ مَعْشَرًا مَبْـرُورَا طَوَوْا عَلَى حُبِّ الْعُلاَ صُدُورَا

ولكم أن تنظروا الفرق بين « الفتيان الغرر » فى كلام أبى نواس ، و « المعشر المبرور » فى كلام عبد الباقى ، ولكن لا بأس فأبو نواس يصف اللاعبين ، أما عبد الباقى فيصف جماعة من الأساتذة قوّس الدهر ظهورهم فمشوا إلى الملعب متثاقلين.

والمشهد مختلف بعض الاختلاف ، فأصحاب أبى نواس يلعبون وهم فوق ظهور الجياد ، أما أصحاب عبد الباقى فيلعبون فوق ظهر الأرض ، ومن أجل ذلك تفردت قصيدة أبى نواس بهذه الشطرات فى وصف ثبات اللاعبين على ظهور الخيل .

« جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَـرْ »

« كَأَنَّمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالإِبَـــرْ »

« أَوْ سُمِّرَ الْفَارِسُ فِيهَا فَانْسَمَـرْ »

وكذلك تفرد أبو نواس بوصف الجياد ، وليس لذلك فى ملعب رأس التين مجال ، ولم نكن نعرف لماذا شغل عبد الباقى نفسه بوصف الجوّ فذكر أنه لم يكن بارداً ولا مطيرا ، مع أن الحفلات السنوية للألعاب تقام فى مطلع الربيع ، وليس فى مصر برد ولا مطر ، والآن نرجح أن هذه اللفتة وردت إلى ذهنه من قول أبى نواس :

« فَانْتَدَبُوا فى يَوْمِ . قُرٍّ وَخَصَـرْ »

« إِذْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ فِى غِبِّ مَطَرْ »

وتفرد أبو نواس بوصف الكرة ،وكيف تأنق فيها الصانع فلم يبن فى جلدها أثر للخرز حتى بدت كالتفاح تدلى من الشجر ، وهو وصف حِسّىٌّ ولكنه جميل لدلالته على قوة الكرة وصلاحيتها للكرّ فى الفضاء ، ولم يتحدث عبد الباقى عن شىء

من ذلك ، لأن الكرة فى عصرنا لم تعد شيئاً غريباً يوصف بالملاسة ومتانة الأركان .

ووصف أبو نواس حركة الكرة بهذه الشطرات :

« فَانْحَدَرَتْ كَالنَّجْمِ وَلَّى فَانْكَدَرْ »
« رَفْعًا وَوَضْعاً أَيُّمَا ذَاكَ اسْتَقَرّْ »
« تُدْفَعُ بِالضَّرْبِ إِذَا الضَّرْبُ ٱسْتَمَرّْ »
« تَدَافُعَ النَّبْـلِ بِإِزْعَاجِ الْوَتَرْ »

وأكاد أحكم بأن أبيات عبد الباقى فى هذا المعنى أبرع إذ يقول :

تَسَاجَلُوهَا كُرَةً فَـــرُورَا تَصْدِفُ عَنْ وَجْهِ الثَّرَى نُفُورَا
فَمَرَّةً تَخْـتَرِقُ الأثِـيرَا قُنْبُـلَةً تُهَدِّمُ الْقُصُورَا
وَمَرَّةً تُصَـادِمُ النُّسُورَا تَزْفِرُ فى مَطَـارِهَا زَفِيرَا
تَرْمِى بِهَا الرِّجْلُ المَدَى الْقَصِـيرَا
يَرْجِـعُ طَرْفِى دُونَهُ حَسِـيرَا
وَإِنْ يُرِدْهَا االرَّأْسُ أَنْ تَطِيرَا سَمَتْ كَمِنْطَـادٍ بَدَا صَغِيرَا

واشترك الشاعران فى وصف حسْرة المنهزمين ، وفى هذا قصَّرَ عبد الباقى فلم يزد على أن يقول :

وَمِنْهُمُ مَنْ قَدْ هَوَى مَكْسُورَا
يَنْدُبُ فِيهِمْ حَظَّهُ الْعَثُورَا

أما أبو نواس فقد ساق ذلك مَسَاق الحكمة الباقية فقال :

« وَا كَبْتَـأبَتْ نَفْسُ الَّذِى خَافَ الْغِيَرْ »

« يُسَاءُ هٰـذَاكَ وَهٰـذَاكَ يُسَرّْ »

« كَذٰلِكَ الدَّهْرُ وَتَصْرِيفُ الْقَدَرْ »

ومثّل أبو نواس جذل الفائزين تمثيلاً طريفاً إذ قال يصف طيش اللاعبين :

« فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا ذَا وَقَرْ »

« إِذَا أَجَادَ الضَّرْبَ فَدَّى وَنَعَرْ »

أما عبد الباقى فقد سما بلاعبيه إلى أفق الجدّ حين قال :

وَأَشْعَلُوا وَطِيسَهَا سَعِيرَا — وَزَأَرَتْ أَصْوَاتُهُمْ زَئِيرَا

فَذَا تَرَاهُ أَسَدًا هَصُورَا — وَذَا تَرَاهُ بَازِيًا حَذُورَا

وتفرّد عبد الباقى بالإشارة إلى ثياب الملعب إذ قال :

وَنَمَّرُوا ثِيَابَهُمْ تَنْمِيرَا — مِنَ الْعَدُوِّ مَيَّزَ النَّصِيرَا

وتفرد كذلك بالحديث عن خاتمة اللعب حين قال :

وَانْصَرَفُوا تَحْسَبُهُمْ مَنْثُورَا — مِنَ الْأَقَاحِ ضَاحَكَ الْمَنْثُورَا

ثُمَّ اجْتَمَعْنَا نُكْمِلُ الْحُبُورَا — حَوْلَ خِوَانٍ يَشْرَحُ الصُّدُورَا

أَفَاضَتِ الْحَلْوَى عَلَيْهِ النُّورَا — وَأَغْرَتِ الْأَعْيُنَ وَالثُّغُورَا

والذى يحكم بين اللاعبين هو فى لغة هذا العصر ، وفى أرجوزة عبد الباقى ، اسمه » الحَكَم » وفى أرجوزة أبى نُواس اسمه « الرئيس » .

وتفرد أبو نواس بوصف الصوالج ولم يكن لها فى ملعب رأس التين مكان .
وتفرد عبد الباقى بالحديث عن صفاء القلوب فى صدور اللاعبين حين قال :

أَبْنَاءُ رَأْسِ التِّينِ كَانُوا سُورَا

أَمَامَ جَيْشٍ جَاءَهُمْ مُغِيـرَا

جَيْشَانِ مَا طَلَّا دَمًا طَهُـورَا وَلَا تَرَى مِنْ بَيْنِهِمْ مَوْتُورَا

ومن غريب ما اتفق للشاعرين أن اشتركا فى إشباع فعل مجزوم ، فقال أبو نواس :

« فَلَمْ تَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا ذَا وَقَرْ »

وقال عبد الباقى :

« وَلَمْ تَرَى فى لِعْبِهِمْ مَنْكُورَا »

ولم أفهم كلمة « الضمير » فى قول عبد الباقى :

« مَتَّعْتُ فِيـهِ الْعَيْنَ وَالضَّـمِيرَا »

ولعله يريد القلب .

تلك وجوه من المفاضلة بين قصيدتين فى ملعب الكرة ، وقد بقيتْ أشياء تمس اللغة ، وتمس الأسلوب ، ولكنها لا تخفى على المتأدبين من ذوى الألباب .

البحث الرابع والثلاثون

بين شوقى وابن زيدون

— ١ —

نحن مقبلون فى هذا البحث على وادٍ ظَليل من أودية البيان : مقبلون على الموازنة بين نونية شوقى ، ونونية ابن زيدون ، مقبلون على مصافحة شاعرين من أهل العبقرية ، ومراجعة قصيدتين شغلت احداهما الناس تسعة قرون ، وشغفت الثانية ألوف القلوب .

وابن زيدون صاحب النونية،شخصية تمتاز بميزة ظاهرة ، فهو رجل خلقته الدسائس فى الحب والملك ، ولا يمكن أن نعرف فضل الشر إلا إذا تمثلنا مصير ابن زيدون ، فالدسائس من ألوان الشر الوضيع ، ولا يعتصم بالدسائس إلاّ الضعاف العَجَزة من صغار الناس ، ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير فى أكثر الأحيان ، فلولا الدسائس فى الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون ، ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التى تَسْطَعُ من أدبه الرفيع .

ومن عجائب مايقع فى الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية منْ نصيب مَنْ أصيبوا بالحرمان فى دنيا الحب والمجد ، فالرجل حين يُحرَمُ تتفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرةً أدبية تعوض عليه ماضاع من نعيم الراحة الروحية والدنيوية ، والمجد الأدبى متاعٌ ليس بالقليل ، وهو جدير بأن يوضع فى الميزان ولا يَغُضّ من قيمة هذه الغنيمة ما نعرف ويعرف الناس من أن العبقريين لا يُحسُّون أثرهذا العوَض ، ولا يرضون عن زمانهم ، وإن بلغت شهرتهم آفاق السماء ، هذا لا يغض من قيمة تلك الغنيمة ، فقد يظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أنساً مكنوناً بظفرها فى عالم الفكر والبيان .

وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة فابتلته ببليتين لايبتلى بهما رجل كريم إلاّ عرف كيف يكون العز والذل ، والشهد والعلقم ، والنعيم والجحيم .

أما البلية الأولى فهى الحب ، وأما البلية الثانية فهى المجد ، وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق .

ولا يهمنا فى هذا المقام أن نشير إلى منزلة ابن زيدون الوزير ، وإنما يهمنا أن نشير إلى منزلة ابن زيدون العاشق ، فالوزارة منصب غادر يتنقل من يد إلى يد ، كما يتنقل القرش المثقوب من جيب إلى جيب ، أما الحب فنفحة روحانية لايَعْبَقُ طيبُها إلاّ فى كرام القلوب .

الحب هو الذى فجّر العبقرية فى صَدر ابن زيدون ، ولكن أىّ حب ؟ لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة خطيرة تجمع بين الحسن والذكاء .

والحسن منحة إلهية يزفها الله إلى من يشاء ، وهو خَليقٌ بأن يصنع ما يصنع فيُعزُّ ويُذِلُّ ، ويَرْفعُ ويَضع ، ويُكْرم ويُهين ، ولكن الحسْن وحده لا يأسر القلوب ، وإنما يُسَيْطر ويستطيل حين يجد رفيقاً من خفة الروح ومن لُطْف الذكاء .

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة الشمائل ولطْف الوجدان ، وهذا النوع نادر الوجود ، والمرأة حين تمْنَحُ الجمال والذكاء تحارب بسيفين مرهفين ، وتحوِّل الدنيا إلى مآتم وأفراح ، والشاعر الذى يحب امرأة جميلة ذكية يصبح إحساسه كالوَقُود الذى يُقَدَّم إلى النار ، ومن قلب العاشق الحسّاس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنيا الشعر الجميل .

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زيدون ؟

إن لم تعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة ، وهو يتشوق إلى تلك المحبوبة التى ملكت قلبه ، واستأثرت بنُهاه :

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحَيِّينى
إذْ لَا كِتَابَ يُوَافِينى فَيُحْيِينى

قَدْ مِتُّ إلَّا ذِمَاءً فِىّ يُمْسِكُهُ أَنَّ الْفُؤادَ بِلُقْيَاهُمْ يُرَجِّينِى

مَا سَرَّحَ ٱلدَّمْعَ مِنْ عَيْنِى وَأَطْلَقَهُ
إِلَّا ٱعْتِيَادُ أَسًى فِى الْقَلْبِ مَسْجُونِ
صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِى بِالْبُعْدِ أَمْرَضَنِى
بِالْقُرْبِ يَوْمًا يُدَاوِينِى فَيَشْفِينِى
كَيْفَ ٱصْطِبَارِى وَفِى كَانُونَ فَارَقَنِى
قَلْبِى وَهَا نَحْنُ فِى أَعْقَابِ تَشْرِينِ
شَخْصٌ يُذَكِّرُنِى فَاهُ وَغُرَّتَهُ   شَمْسُ النَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرَّيَاحِينِ
لَئِنْ عَطِشْتُ إِلَى ذٰلِكَ الرُّضَابِ لَكَمْ
قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسَقِّينِى فَيُرْوِينِى
وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِى نَوْحُ بَاكِيَةٍ
فَكَمْ أَرَاهُ يُغَنِّينِى فَيُشْجِينِى
وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَضْنَتْنِى الْهُمُومُ لَقَدْ
عَهِدْتُهُ وَهُوَ يُدْنِينِى فَيُسْلِينِى
أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِى نَأْيُهُ فَلَكَمْ
حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينِ
يَا حُسْنَ إِشْرَاقِ سَاعَاتِ الدُّنُوِّ بَدَتْ
كَوَاكِبًا فِى لَيَالِى بُعْدِهِ الْجُونِ
وَاللهِ مَافَارَقُونِى بِاخْتِيَارِهِمُ   وَإِنَّمَا الدَّهْرُ بِالْمَكْرُوهِ يَرْمِينِى

وَمَا تبدّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمُ   إذًا تَبَدّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِى

أَفْدِى الحَبِيبَ الَّذِى لَوْ كَانَ مُقْتَدِرًا
لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالأَهْلِينَ يَفْدِينى

ولنسارع فنذكر أن هذه المحبوبة هى ولاّدة بنت المستكفى التى يقول فيها ابن خاقان :

« كانت من الأدب والظرف، وتَتْيِيمِ المسْمَع والطَّرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب » .

كانت ولاّدة فاتنة الجمال ، وكانت أديبة تنظم الشعر البارع ، وتدرك أسرار الكلام البليغ . والشاعر الذى يهوى فتاة أديبة ينعم مرتين ، ينعم بالحب ، وينعم بالشعر ، والشعر لا يقوى وينضج إلا إذا عرف المحب أنه يوجّه أنغامه إلى أذنٍ تسمع وقلْبٍ يذوق .

وإليكم هذا القصيد فى خطاب تلكم الأديبة الحسناء :

إِنِّى ذَكَرْتُكِ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقَا
وَالأُفْقُ طَلْقٌ ، وَمَرْءَى الأَرْضِ قَدْ رَاقَا

وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِى أَصَائِلِهِ
كَأَنَّهُ رَقَّ لِى فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا

وَالرَّوْضُ عَن مَائِهِ الْفِضِّىِّ مُبْتَسِمٌ
كَمَا شَقَقْتِ عَنِ اللَّبَّاتِ أَطْوَاقَا

يَوْمٌ كَأَيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ
بِتْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَّاقَا

نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ
جَالَ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا

كَأَنَّ أَعْيُنَهُ إِذْ عَايَنَتْ أَرَقِى
بَكَتْ لِمَا بِى فَجَالَ ٱلدَّمْعُ رَقْرَاقَا

وَرْدٌ تَأَلَّق فِى ضَاحِى مَنَابِتِـــهِ
فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِى الْعَيْنِ إِشْرَاقَا

سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ
وَسْنَانُ نَبَّهَ مِنْهُ الصُّبْح أَحْدَاقَا

كُلٌّ يَهِيجُ لَنَا ذِكْرَى تَشَوُّقِنَـــا
إِلَيْكِ لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا

لَا سَكَّنَ اللهُ قَلْبًا عَنَّ ذِكْرُكُمُ
فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ خَفَّاقَا

لَوْ شَاءَ حَمْلِى نَسِيمُ الصُّبْحِ حِينَ سَرَى
وَافَاكُمُ بِفَــتًى أَضْــــنَاهُ مَا لَاقَى

لَوْكَانَ وَفَّى الْمُنَى فِى جَمْعِنَا بِكُمُ
لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقَا

* * *

كَانَ التَّجَارِى بِمَحْضِ الْوُدِّ مِنْ زَمَنٍ
مَيْدَانَ أُنْسٍ جَرَيْنَا فِيـــهِ أَطْــلَاقَا

فَالآنَ أَحْمَدَ مَا كُنَّـــا لِعَهْدِكُمُ سَـــلَوْتُمُ وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا

— ٢ —

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون ، وإنما أردنا أن نمهد لتلك النونية البديعة التى نفحنا بها ذلك الغرام الطريف .

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء فى جميع البلاد العربية ، وهى فى الشعر العربى تذكر بليالى ميسّيه فى الشعر الفرنسى ، فكما أن الفرنسيين جميعاً يعرفون ليالى ميسيه ، فالعرب يعرفون جميعاً نونية ابن زيدون ، فإن كان فى القراء من يجهل هذه القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته ، فإنه لا يليق بشاب مثقف أن يجهل نونية ابن زيدون التى سارت مسير الأمثال .

وقد يكون فى القراء من يقول : إنها قصيدة فى الحب ، وما هو الحب ؟

والمجال لايتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذى لا يعرف غير قلوب الفحول من الرجال ، وإنما نشير إلى أن رواية الأدب الحق الذى يصدر عن صدق المشاعر والقلوب ، هى فى ذاتها متعة ذوقية لا يَصْدِفُ عنها إلا الغافلون .

وإلى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء (١) :

أَضْحَى التَّنَائى بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا

وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

أَلَّا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحَنَا

حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا

---

(١) رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة لأنها فى غرض واحد لا يظهر جماله . إلا وهى مؤلفة الشمل ولا كذلك نونية شوقى ، فانها مختلفة الأغراض ، وستكشف الموازنة عن تنقل شوقى من فن إلى فن ونفاذه من مسلك إلى مسلك .

مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسِينَا بِانْتِزَاحِهِمُ
حُزْناً مَعَ الدَّهْر لَا يَبْلَى وَيُبْلِينَـا

أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِى مَا زَالَ يُضْحِكُنَا
أُنْسًا بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا

غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوْا
بِأَنْ نَغَصَّ فقَالَ ٱلدَّهْـرُ آمِينَـا

فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا
وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَـا

وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا
فَاليَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا

* * *

يَالَيْتَ شِعْرِى وَلَمْ نُعْتِبْ أَعَادِيَكُمْ
هَلْ نَالَ حَظًّا مِنْ الْعُتْبَى أَعَادِينَا

لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الوَفَاءَ لَكُمْ
رَأْيًا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَـيْرَهُ دِينَا

مَا حَقُّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِى حَسَدٍ
بِنَا وَلَا أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًـا فِينَا

كُنَّا نرَى اليَأْسَ تُسْلِينَا عَوَارِضُهُ
وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا

بِنْتُمْ وَبِنَّا فَمَا ابْتَلَّتْ جوَانِحُنَا
شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَآقِينَا

نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائِرُنَا
يَقْضِي عَلَيْنَا الأَسَى لَوْلَا تَأَسِّينَا

حَالَتْ لِفَقْدِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ
سُودًا وَكَانتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا

إِذْ جَانِبُ العَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَأَلُّفِنَا
وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صافٍ مِنْ تَصَافينَا

وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الوَصْلِ دَانِيَةً
قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَاشِينَا

لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا
كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رَيَاحِينَا

لا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا
إِذْ طَالَمَا غَيَّرَ الْيَأْسُ الْمُحِبِّينَا

وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أَرْوَاحُنَا بَدَلًا
مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

يَا سَارِىَ الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرَ فَاسْقِ بِهِ
مَنْ كَانَ صِرفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا
وَأَسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَّى تَذَكُّرُنَا
إِلْفًا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَـــا
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَـا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيَّى كَانَ يُحْيِينَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً
مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَـا

* * *

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللهَ أَنْشَأَهُ مِسْكاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ لْوَرَى طِينَا
أَوْ صَاغَهُ وَرِقاً مَحْضًا وَتَوّجَـــهُ
مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَـــةً تُومُ الْعُقُودِ وَأَدْمَتْهُ الْبُرَى لِينَا
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْرًا فِى أَكِلَّتِهِ
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَـــا
كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِى صَحْنِ وَجْنَتِهِ
زُهْرُ الكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزْيِينَا

مَاضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا
وَفِى المَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَــــا

* * *

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَــا
وَرْدًا جَلَاهُ الصِّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَــا
وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَــا بِزَهْرَتِهَا مُنًى ضُرُوبًا وَلَذَّاتٍ أَفَانِينَــا
وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ فِى وشْىِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
لَسْنَا نُسَمِّيكِ إِجْلَالاً وَتَكْرِمَةً فَقَدْرُكِ المُعْتَلِى عَنْ ذَاكِ يُغْنِينَا
إِذَا انفَــرَدْتِ وَمَا شُــــــورِكْتِ فِى صِفَةٍ
فَحَسْبُنَــا الْوَصْفُ إِيضَاحًا وَتَبْيِينَــــــــا

* * *

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسَلْسَلِهَا وَالْكَوْثَرِ الْعَذْبِ زَقُّومًا وَغِسْلِينَا
كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
سِرَّانِ فِى خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا
لَا غَرْوَ فِى أَنْ ذَكَرْنَا الحُــبَّ حِينَ نَهَــتْ
عَنْــهُ النُّهَى وَتَرَكْنَــا الصَّبْرَ نَاسِينَــــــا

إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوَرًا
مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِه شِرْبًا وَإِنْ كَانَ يرْوِينَا فَيُظْمِينا
لَمْ نَجْفُ أُفقَ جمالٍ أَنْتِ كَوكَبُهُ سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثَب لٰكِنْ عَدَتْنَا عَلَى كُرْه عَوَادِينَا
نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُثَّتْ مُشَعْشَعَة فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَّانَا مُغَنِّينَا
لَا أَكْؤُس الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا
سِيمَا ارْتِيَاحٍ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا
دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَادُمْنَا مُحَافِظَةً فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا
فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلاً مِنْكِ يَحْبِسُنَا
وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيبًا عَنْكِ يَثْنِينَا
وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ عُلْوِ مَطْلَعِهِ
بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا
أَبْلِي وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا
وَفِي الجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتِ بِهِ بِيضَ الْأَيَادِي الَّتِي مَازِلْتِ تُولِينَا

تلكم هي النونية التي شغلت الناس تسعة قرون .

ومن الظلم للحق أن نحكم بأن ابن زيدون وقف هواه على تلك الحسناء هيهات

فلن يمكن أن يكون لمثله هوًى واحد ، وكيف وهو رجل طامح القلب ، مُرْهَف الإحساس .

ولكن التاريخ لم يتحدث إلا عن تلك المليحة الحسناء ، ولو أنه دوّن جميع ما طاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عمن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيات :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَـــكْ ذَائِعٌ مِن سِرِّهِ مَا ٱسْتَوْدَعَـــكْ
يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِى تِلْكَ الخُطَى إذْ شَيَّعَكْ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنًـــا رَحِمَ ٱللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَـــكْ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِى فَلَكَـــمْ بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكْ

البحث الخامس والثلاثون

الموازنة بين القصيدتين

— ١ —

عرفنا ابن زيدون العاشق الذى يحسن التحدث عن مآسى القلوب ، ويكاد يعرف أسرار النفوس ، فماذا نقول عن شوقى ؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر فى فصول هذا الكتاب ، ونخشى أن يتحيّف حُقُوق منْ عرضنا لهم من الشعراء ، ولكن كيف نستكثر القول فى شوقى ، وقد بذّ ابن زيدون ؟ إن نونية شوقى أعجوبة من الأعاجيب ، وقد أرسلها من الأندلس فى أعقاب الحرب العالمية فضجّ لها شعراء مصر وأجابه إسماعيل صبرى ، وحافظ إبراهيم ، وعبد الحليم المصرى ، ولكنهم عجزوا جميعاً عن الجرى فى ميدانه ، ولم يُؤثَر لهم فى معارضته شىء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء .

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان ، وكانت الأبيات السبعة التى تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يَعِبْها ما وشيَتْ به من الزخرف ، ولكن أين هى من بداية شوقى حين خاطب الطائر الحزين فى وادى الطلح بضاحية اشبيلية ؟ لقد تمثل الطائر شبيها به فى لوعته وجواه فاندفع يقول :

يَا نَائِحَ الطَّلْحِ أَشْبَاهٌ عَوَادِينَا ... نَشْجَى لِوَادِيكَ أَمْ نَأْسَى لِوَادِينَا

مَاذَا تَقُصُّ عَلَيْنَـــا غَيْرَ أَنَّ يَـــدًا ... قَصَّتْ جَنَاحكَ جَالَتْ فِى حَوَاشِينَـــا

رَمَى بِنَا الْبَيْنُ أَيْكًا غَيْرَ سَامِرِنَا   أَخَا الْغَرِيبِ وظِلاًّ غَيْرَ نَادِينَا

كُلٌّ رَمَتْهُ النَّوى ، رِيشَ الْفِرَاقُ لَنَا

سَهْمًا ، وَسُلَّ عَلَيْكَ الْبَيْنُ سِكِّينَا

إِذَا دَعَا الشَّوْقُ لَمْ نَبْرَحْ بِمُنْصَدِعٍ

مِنَ الْجَنَاحَيْنِ عَيٍّ لاَ يُلَبِّينَا

فَإِنْ يَكُ الْجِنْسُ يَا ٱبْنَ الطَّلْحِ فَرَّقَنَا

إِنَّ الْمَصَائِبَ يَجْمَعْنَ الْمُصَابِينَا

لَمْ تَأْلُ مَاءَكَ تَحْنَانًا وَلاَ ظَمأً   وَلاَ ٱدِّكَارًا وَلاَشَجْوًا أَفَانِينَا

تَجُرُّ مِنْ فَنَنٍ ذَيْلاً إِلَى فَنَنٍ   وَتَسْحَبُ ٱلذَّيْلَ تَرْتَادُ الْمُوَاسِينَا

أُسَاةُ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ   فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالنُّطْسِ الْمُدَاوِينَا

والشاعر فى هذه الأبيات حيران ، يجعل الطائر فى حالين : حال المغترب وحال المقيم ، فما تدرى أيبكى من الغربة أم ينوح من فقد الأليف ، ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال :

تَجُرُّ مِنْ فَنَنٍ ذَيْلاً إِلَى فَنَنٍ   وتَسْحَبُ ٱلذَّيْلَ تَرْتَادُ المواسِينَا

وهى حال نشهدها فى الطائر المحزون ، فقد نرى الطائر يتنقل على غير هُدًى من أيْكٍ إلى أيْكٍ ، فنعرف أنه يبحث عمن يواسيه ، ولكن أين من يواسى الطائر الحزين ؟ إن شوقى نفسه أخطأ حين قال :

أُسَاةُ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ

فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالنُّطْسِ الْمُدَاوِينَا

فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه ، وإنما يجد من يذبحه ويشويه ، والناس ألأم من أن يَتطبَّوا لطائر جريح !

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء ، أما شوقى فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر ، فقال :

وَاهًا لَنَا نَازِحَىْ أَيْكٍ بِأَنْدَلُسٍ ... وَإِنْ حَلَلْنَا رَفِيفًا مِنْ رَوَابِينَا
رَسْمٌ وَقَفْنَا عَلَى رَسْمِ الْوَفَاءِ لَه ... نَجِيشُ بِالدَّمْعِ وَالْإِجْلَالُ يَثْنِينَا
لِفِتْيَةٍ لَاتَنَالُ الْأَرْضُ أَدْمُعَهُمْ ... وَلَا مَفَارِقَهُمْ إِلَّا مُصَلِّينَا
لَوْلَمْ يَسُودُوا بِدِينٍ فِيهِ مَنْبَهَةٌ ... لِلنَّاسِ كَانَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُهُمْ دِينَا
لَمْ نَسْرِ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ ... كَالْخَمْرِ مِنْ بَابِلٍ سَارَتْ لِدَارِينَا
لَمَّا نَبَا الْخُلْدُ نَابَتْ عَنْهُ نُسْخَتُه ... تَمَاثُلَ الْوَرْدِ خِيرِيًّا وَنَسْرِينَا
نَسْقِى ثَرَاهُمْ ثَنَاءً كُلَّمَا نُثِرَتْ ... دُمُوعُنَا نُظِمَتْ مِنْهَا مَرَاثِينَا
كَادَتْ عُيُونُ قَوَافِينَا تُحَرِّكُهُ ... وَكِدْنَ يُوقِظْنَ فِي التُّرْبِ السَّلَاطِينَا

وللقارئ أن يتأمل الحسن فى هذه الأبيات ، فالشاعر يغلبه الدمع ، وهو يتذكر ملوك الأندلس ، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء ، لأنه فى ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود ، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله ، وذلك من أبعد الغايات فى الثناء .

ويأبى شوقى إلا أن يحرص على المعانى الشعرية ، فهو فى الأندلس لايسرى من حرم إلا إلى حرم ، ولكن كيف ؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين ! وقدسية الخمر لاتجوز فى غير مذاهب الشعراء .

ثم قال فى الحنين إلى وطن النيل :

لٰكِنَّ مِصْرَ وإنْ أَغْضَتْ عَلَى مِقَةٍ عَيْنٌ مِنَ الْخُلْدِ بِالْكَافُورِ تَسْقِينَا
عَلَى جَوَانِبِهَا رَفَّتْ تَمَائِمُنَا وَحَوْلَ حَافَاتِهَا قَامَتْ رَوَاقِينَا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال :

أَحَبُّ بِلَادِ ٱللهِ مَابَيْنَ مَنْعِجٍ إِلَيَّ وَسَلْمَى لَوْ يَصُوبُ سَحَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا نِيطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِى وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِسْمِى تُرَابُهَا

والبكْر هو قول شوقى :

مَلَاعِبٌ مَرِحَتْ فِيهَا مَآرِبُنَـــا وَأَرْبُعٌ أَنِسَتْ فِيهَا أَمَانِينَا

وإنما كان هذا معنى بكْرًا لما فيه من طرافة الخيال ، أرأيتم كيف تمرح المآرب ، وكيف تأنس الأمانىّ ؟

لقد رأيت شوقى أول ما رأيته سنة ١٩٢١ ، وكان دعانى للغداء عنده بالمطرية مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشى ، وسعيد عبده ، وأحمد علام ، فعجبت يومئذ لذلك المبْسم الساحر ،وسألت نفسى : كيف كان ذلك الملاك فى صِباه !

إن حنين شوقى إلى مصر حنينٌ عميق ، وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد فى مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون ، ودنيا شوقى لم تكن مثل دنيا الناس فى هذا الزمان ، كانت الدنيا فى شباب شوقى تفيض بالبشْر والإيناس ، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مُضمَّخَةً بالسحر والفتُون ، وكان للجمال قُدسيّة ، وكان للصبا سُلطان ، وكانت خطوب الزمن لا تهدّ النفوس كما تفعل فى هذه الأيام .

ومن البكر أيضاً قول شوقى :

بِنَّا فَلَمْ نَخْلُ مِنْ رَوْحٍ يُرَاوِحُنَا مِنْ بِرِّ مِصْرَ وَرَيحَانٍ يُغَادِينَا
كَأُمِّ مُوسَى عَلَى اسْمِ اللهِ تَكْفُلُنَا وَبِاسْمِهِ ذَهَبَتْ فِى الْيَمِّ تُلْقِينَا

يريد أن يقول: إن مصر لم تُلْقه في يَمّ النّفي إلا خوفا عليه من كيد فرعون، فرعون القرن العشرين المستر جون بول!

— ٢ —

تذكرون قول ابن زيدون:

يَا سَارِيَ الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرَ فَاسْقِ بِـــــهِ
مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَـوَى وَالْـوُدِّ يَسْقِينَـا
وَاسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَّى تَذَكُّرُنَا إِلْفًا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَا

وهذا شعر جميل، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فقال:

يَـا سَــارِيَ الْبَرْقِ يَـرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا
بَعْـد الْهُدُوءِ وَيَهْمِي عَنْ مَآقِينَــــا
لَمَّا تَرَقْرَقَ فِي دَمْعِ السَّمَاءِ دَمًا هَاجَ الْبُكَا فَخَضَبْنَا الْأَرْضَ بَاكِينَا
اللَّيْلُ يَشْهَدُ لَمْ نَهْتِكْ دَيَاجِيَهُ عَلَى نِيَامٍ وَلَمْ نَهْتِفْ بِسَالِينَا
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرَنَا إِلاَّ عَلَى قَدَمٍ قِيَامَ لَيْلِ الْهَوَى لِلْعَهْدِ رَاعِينَا
كَزَفْرَةٍ فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ حَائِرَةٍ مِمَّا نُرَدِّدُ فِيهِ حِينَ يَضْوِينَـا
بِاللهِ إِنْ جُبْتَ ظَلْمَاءَ الْعُبَابِ عَلَى نَجَائِبِ النُّورِ مَحْدُوًّا (بِجَرِّينَا)
تَرُدُّ عَنْكَ يَدَاهُ كُلَّ عَادِيَــةٍ إِنْسًا يَعِثْنَ فَسَادًا أَوْ شَيَاطِينَا
حَتَّى حَوَتْكَ سَمَاءُ النِّيلِ عَالِيَةً عَلَى الْغُيُوثِ وَإِنْ كَانَتْ مَيَامِينَا
وَأَحْرَزَتْكَ شُفُوفُ اللاَّزَوَرْدِ عَلَى وَشْيِ الزَّبَرْجَدِ مِنْ أَفْوَافِ وَادِينَا

وَحَازَكَ الرِّيفُ أَرْجَاءً مُؤَرَّجَةً رَبَتْ خَمَائِلَ وَاهْتَزَّتْ بَسَاتِينَا
فَقِفْ إِلَى النِّيلِ وَاهْتِفْ فِى خَمَائِلِهِ وَانْزِلْ كَمَا نَزَلَ الطَّلُّ الرَّيَاحِينَا
وَآسِ مَابَاتَ يَذْوِى مِنْ مَنَازِلِنَا بِالْحَادِثَاتِ وَيَضْوَى مِنْ مَغَانِينَا

انظروا . ابن زيدون يسأل البرق أن يسقى القصر ، وشوقى يسأل البرق أن يأسو المنازل الذاوية ، والمغانى الضاوية ، والمعنيان مقتربان ، ولكن شوقى أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق ، وانحداره من أرض إلى أرض ، وأعطى صوراً من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعراً وَدَّع دنياه حين وَدعَ النيل .

وقال ابن زيدون :

وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا

عارضه شوقى فقال :

وَيَا مُعَطَّرَةَ الْوَادِى سَرَتْ سَحَرًا فَطَابَ كُلُّ طَرُوحٍ مِنْ مَرَامِينَا
ذَكِيَّةَ الذَّيْلِ لَوْ خِلْنَا غِلَالَتَهَا قَمِيصَ يُوسُفَ لَمْ نُحْسَبْ مُغَالِينَا
جَشِمْتِ شَوْكَ السُّرَى حَتَّى أَتَيْتِ لَنَا
بِالْوَرْدِ كُتْبًا وَبِالرَّيَّا عَنَاوِينَا
فَلَوْ جَزَيْنَاكِ بِالْأَرْوَاحِ غَالِيَةً
عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا
هَلْ مِنْ ذُيُولِكِ مِسْكِىٌّ نُحَمِّلُهُ غَرَائِبَ الشَّوْقِ وَشْيًا مِنْ أَمَالِينَا

إِلَى الَّذِينَ وَجَدْنَا وُدَّ غَيْرِهِمُو دُنْيَا وَوُدَّهُمُ الصَّافِى هُوَ الدِّينَا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال : « يَانسيمَ الصبَا » ، وهو تعبير ورد فى مئات القصائد ، أما شوقى فراح يَفْتن افتنَاناً يدلّ على قوة الشاعرية ، وبراعة الخيال ، فوصف النسمة بأنها معطرة الوادى ، وأنها سارت فى السحر فطاب بمسْرَاها كُل مَرْمىً سَحيقٍ ، وأنها ذكيّة الذيْلِ كأنها قميص يوسف ، وأنها جَشمتْ شوك السرى حتى أتت بالورد مُجسماً فى رسائل ، وأتت بالرَّيا مُمثلَةً فى عناوين ، وشكر لها النُعْمى فقال :

فَلَوْ جَزَيْنَاكِ بِالْأَرْوَاحِ غَالِيَةً
عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا

وابن زيدون يقول « بَلّغْ تحيّتَنَا » وهى عبارة جافيّة ، لأنها وردت فى صورة الأمر ، أما شوقى فيترفق ، ويقول :

هَلْ مِنْ ذُيُولِكِ مِسْكِيٌّ نُحَمِّلُهُ غَرَائِبَ الشَّوْقِ وَشْيًا مِنْ أَمَالِينَا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحيّة ، وشوقى يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا ، أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو فى صفاء الدين .

ولا ننكر أن بعض أخيلة شوقى مقتبس من ابن زيدون ، فقول شوقى :

يَا سَارِىَ الْبَرْقِ يَرْمِى عَنْ جَوَانِحِنَا
بَعْدَ الْهُدُوءِ وَيَهْمِى عَنْ مَآقِينَا

اختُلسَ برِفْقٍ وَحِذْقٍ من قول ابن زيدون :

بِنْتُمْ وَبِنَّا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَآقِينَا

والمعنى الذى عرضه ابن زيدون فى ثلاثة أبيات بسطه شوقى فى ثمانية عشر بيتاً ،

وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون ، فكان لا بدّ له من تَوْشية بارعة تُعَفّى على النظرة الفطْرية فى أبيات ابن زيدون . ولابن زيدون فضل السبق ، ولشوقى فضل البراعة فى تلوين الصور الشعرية ، وهو فضل ليس بالقليل .

— ٣ —

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأنس فقال :

حَالَتْ لِفَقْدِكُمُو أَيَّامُنَا فَغَدَتْ ... سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَأَلُّفِنَا ... وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً ... قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا
لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا ... كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رَيَاحِينَا

وهذا شعر صافى الديباجة ، رائع المعانى ، ولكن انظروا كيف عارضه شوقى فجمع بين الأسى والفخر حين قال :

سَقْيًا لِعَهْدٍ كَأَكْنَافِ الرُّبَا رِفَةً(١) ... أَنَّى ذَهَبْنَا وَأَعْطَافِ الصِّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بِنَا غَيْنَاءُ زَاهِيَةٌ ... تَرِفُّ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رَيَاحِينَا
الوَصْلُ صَافِيَةٌ والْعَيْشُ نَاغِيَةٌ ... والسَّعْدُ حَاشِيَةٌ وَالدَّهْرُ مَاشِينَا
وَالشَّمْسُ تَخْتَالُ فى الْعِقْيَانِ تَحْسَبُهَا ... بَلْقِيسَ تَرْفُلُ فى وَشْيِ الْيَمَانِينَا
وَالنِّيلُ يُقْبِلُ كَالدُّنْيَا إِذَا احْتَفَلَتْ ... لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا

(١) الرفة : النضرة .

والسَّعْدُ لَوْ دَامَ وَالدُنْيَا لَوِ اطَّرَدَتْ
وَالسَّيْلِ لَوْ عَفَّ وَالْمِقْدَارِ لَوْ دِينَا

أَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى رَدَّهَا ذَهَبًا
مَاءً لَمَسْنَا بِهِ الإِكْسِيرَ أَوْ طِينَا

أَعْدَاهُ مِنْ يُمْنِهِ (التَّابُوتُ) وَارْتَسَمَتْ
عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَنْوَارُ مِنْ سِينَا

لَهُ مَبَالِغُ مَافى الخُلْقِ مِنْ كَرَمٍ   عَهْدُ الْكِرَامِ وَمِيثَاقُ الْوَفِيِّينا
لَمْ يَجْرِ لِلدَّهْرِ إِعْذَارٌ وَلَا عُرُسٌ   إِلَّا بِأَيَّامِنَا أَوْ فى لَيَالِينَا [1]

وَلَا حَوى السَّعْدُ أَطْغَى فى أَعِنَّتِهِ
مِنَّا جِيَادًا وَلَا أَرْخَى مَيَادِينَا

نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا
وَلَمْ يَهُن بِيَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا

وَلَا يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلَا خُلُقٌ
إِذَا تَلَوّنَ كَالْحِرْبَاءِ شَانِينَا

والقارىء حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدرى أيهما أجود ، لأن ابن زيدون على قصرِ نَفَسه فى هذا الشوطِ بلغ غاية الرشاقة حين قال :

---

(١) الاعذار : طعام يتخذ لأيام السرور

وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الْأُنْسِ دَانِيَةً
قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَاشِينَا

وبلغ غاية الدقّة حين قال :

إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَأَلُّفِنَا
وَمَوْرِدُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

والدقة فى هذا البيت تؤخذ من صدْق التعليل ، فالعيش لم تتسع جوانبه إلاّ بفضل التألف ، تألف القلبيَن ، واللهو لم يصف مورده إلا بفضل التصافى تصافى الحبيبين ، والدنيا لا كَدر فيها ولا صفاء ، وإنما تصفو حين تصفو النفوس ، وتقسو حين تقسو القلوب ، فالزهر الذى يبسم لك لا يبسم لك وحدك ، وإنما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صَفَتْ لك ، وقد يراه غيرك فى ابتسامة صورة من صور العبوس ، والنهر الذى تنظر إليه فى الليالى المقمرة فتراه عاشقاً يغازل القمر ويتلقى دعابته فى حنان ، هذا النهر لايتمثل لك كذلك إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلبٍ مَرِح وحسٍ طروبٍ ، وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب .

ويروقنا قول شوقى :

سَقْيًا لِعَهْدٍ كَأَكْنَافِ الرُّبَا رِفَةً
أَنَّى ذَهَبْنَا وَأَعْطَافِ الصِّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بِنَا غَيْنَاءُ زَاهِيَةٌ تَرِفُّ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رَيَاحِينَا
الْوَصْلُ صَافِيَةٌ ، وَالْعَيْشُ نَاغِيَةٌ
وَالسَّعْدُ حَاشِيَةٌ ، وَالدَّهْرُ مَاشِينَا
وَالنِّيلُ يُقْبِلُ كَالدُّنْيَا إِذَا احْتَفَلَتْ
لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا

يروقنا هذا الشعر ، لأن الشاعر جعل عهده فى نضرة الزهر الذى يتفتح فى أكناف الربوات ، ولأنه رأى اللين فى أيام الأنس شبيهاً باللين فى أعطاف الصبا ، وأعطاف الصبا جوهرٌ نبيل لا يعرف طيب لينها إلاّ شاعرٌ أمكَنته من أعطاف الصبا سَوْرَةَ الصبوَات ، ويروقنا أيضاً لطرافة هذا الخيال :

«تَرِفُّ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رَيَاحِينَا»

ورفيف الأوقات معنىً يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن فى أرجُوحَةِ اللهو الجَمُوح .

ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل ، وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل ، ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك :

« لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلمُصَافِينَا »

ولكن هذه الطرافة فى أخيلة شوقى لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شىء حين قال :

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا
وَرْدًا جَلاَهُ الصِّبَا غَضًّاوَنَسْرِينَا
وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِهَا
مُنىً ضُرُوباً وَلَذَّاتٍ أَفَانِينَا
وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ
فِى وَشْىِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون ؟ أترون العذوبة فى الهتاف بالروضة التى « طَالَمَا أجْنَتْ لَوَاحِظَنَا وَرْداً جَلاَه الصبَا » تأملوا عبارة « أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا » وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق ، والشاعر لاينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة ، وإنما تهجم الروضة عليه

فتعلمه كيف يهصر الأفنان ، وكيف يجنى القطوف . وعبارة « جَلاَهُ الصبا » ما رأيكم فيما تحويه من سحرٍ أخاذٍ ؟ ثم ماهذا التعبير الطريف :

« مُنًى ضُرُوباً وَلَذَّاتٍ أَفَانِينَا »

أتعرفون كيف يكون للمُنى ألوانٌ وللذاتِ أفانين ؟ إن هذا خيال شاعر غَرِق مَرةً فى كوثر الوصال .

وانظروا هذا البيت :

وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ
فِى وَشْىِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا

أتُحسُّون قوة هذا المعنى ؟ ألا يُريكم الخيال صورة فتىً منعم يسحب ذيل النعيم ؟ إن ابن زيدون فى هذه الأبيات أقوى من شوقى فى التحسرِ على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود .

— ٤ —

واشترك شوقى وابن زيدون فى التفجع والحنين ، أما ابن زيدون فيقول :

يَا جَنَّةَ الخُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسَلْسَلِهَا
وَالْكَوْثَرِ الْعَذْبِ زَقُّومًا وَغِسْلِينَا
كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
وَالدَّهْرُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
سِرَّانِ فِى خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا
حَتى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا

لَاغَرْوَ أَنَّا ذَكَرْنَا الحُبَّ حِينَ نَهَتْ
عَنْهُ النُّهَى وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوَراً
مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
امَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
شِرْبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا
لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْكَبُهُ
سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاكِ عَنْ كَثَبٍ
لٰكِنْ عَدَتْنَا عَلَى كُرْهٍ عَوَادِينَا

والشاعر فى هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف ، ويرى نفسه انتقل من كوثر الخُلْد إلى الزقُّوم والغسْلين ، ويرى ورْد الهوى القديم شرْباً لا يَعْدلُه شرْب ، وإن كان يرويه فيظميه . ونعيم الوصلِ يُرهف الحس فيزيد القلب ظمأ إلى ظمأ والتياعاً إلى التياع . وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا صدود ، وإنما أكرهته العوادى .

ويروقنا هذا التعبير المُونق :

« لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْكَبُهُ »

فكأن الدنيا كانت لعهده أفُقاً من المفاتن ، وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفُق المطلول بأنداء الفتُون .

هذا جَزَعٌ من صنُع الدهر صرخ به ابن زيدون ، وعارضه شوقى فقال يصف قسوة الليل وقسوة الفراق :

وَنَابِغِيٍّ كَأَنَّ الحَشْرَ آخِرُهُ تُمِيتُنَا فِيهِ ذِكْرَاكُمْ وَتُحْيِينَا

نَطْوِى دُجَاهُ بِجُرْحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو
يَكَادُ فِي غَلَسِ الأَسْحَارِ يَطْوِينَا

إِذَا رَسَا النَّجْمُ لَمْ تَرْقَأْ مَحَاجِرُنَا
حَتى يَزُولَ وَلَمْ تَهْدَأْ تَرَاقِينَا

بِتْنَا نُقَاسِي الدَّوَاهِي مِنْ كَوَاكِبِهِ
حَتى قَعَدْنَا بِهَا حَسْرَى تُقَاسِينَا

يَبْدُو النَّهَارُ فَيُخْفِيهِ تَجَلُّدُنَا
لِلشَّامِتِينَ وَيَأْسُوهُ تَأَسِّينَا

وهذا من الشعر الرفيع ، ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف ، وإلا فكيف نصل إلى بيان الفتنة فى هذا البيت :

نَطْوِى دُجَاهُ بِجُرْحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو
يَكَادُ فِي غَلَسِ الأَسْحَارِ يَطْوِينَا

أترون كيف يُطوَى الدجَى بالجرح ؟ أترون كيف تكون الجراح أعظم من ظلمات الليل ؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسى الشاعر بطء الكواكب ، ثم ينظر فيراها ابتُلِيَتْ به فباتت تقاسيه ، وهى حسرى لواغب ؟ والشاعر قد يَعْظُم سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساه .

وكان الشعراء الأقدمون يرون النهار يبلد الأشجان بفضل ما فيه من الشواغل ، أما شوقى فيرى أشجانه لا تهدأ نهاراً إلا بفضل التأسى والتجلد للشامتين .

بقى النظر فيما تفرد به الشاعران .

ونحن نرى ابن زيدون تفرد بهذين البيتين فى خطاب حبيبته التى أقصاه عنها الزمان :

نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً
فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَّانَا مُغَنِّينَا

لَا أَكْؤُسُ الرَّاحِ تُبْدِى مِنْ شَمَائِلِنَا
سِيمَا ارْتِيَاحٍ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا

وهذا من أدق المعانى النفسية ، فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافية ، ويبعثان الوجد الدفين ، وللشوق فى أمثال هذه اللحظات لذعات أعنف من الخمر المشبوب ، وأين الخمر بجانب ما يثور فى القلب عند الشراب والسماع ؟ إن هذه لحظات تكشف المُقنَّعَ من سرائر النفوس ، وتصنع ما تصنع الحمَّى العاتية حين تُنْطق المحموم بأسماء لم يهذ بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين .

وقول ابن زيدون :

وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ عُلْوِ مَطْلَعِهِ
بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا

هو أصل المعنى الذى ساقه شوقى فى السينية :

وَطَنِى لَوْ شُغِلْتُ بِالخُلْدِ عَنْهُ
نَازَعَتْنِى إِلَيْهِ فِى الْخُلْدِ نَفْسِى

وهو أخذٌ رَفيقٌ لا يُحاسَب على مثله الشعراء .

وتفرد شوقى بالفخر ، الفخر بنفسه وبأمجاد النيل ، فقال :

لَمْ يَجْرِ الدَّهْرُ إعْذَارٌ وَلاَ عُرُسٌ

إلَّا بِأَيَّامِنَا أَوْ فِى لَيَالِينَا

وَلاَ حَوَى السَّعْدُ أَطْغَى فِى أَعِنَّتِهِ

مِنَّا جِيَادًا وَلاَ أَرْخَى مَيَادِينَا

نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا

وَلَمْ يَهُنْ بِيَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا

وَلاَ يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلاَ خُلُقٌ إِذَا تَلَوَّنَ كَالْحِرْبَاءِ شَانِينَا

لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسُ مِيدَانًا وَلاَ صَعِدَتْ

فِى مُلْكِهَا الضَّخْمِ عَرْشاً مِثْلَ وَادِينَا

أَلَمْ تُؤَلِّهْ عَلَى حَافَاتِهِ وَرَأَتْ عَلَيْهِ أَبْنَاءَهَا الْغُرَّ الْمَيَامِينَا

إِنْ غَازَلَتْ شَاطِئَيْهِ فِى الضُّحَى لَبِسَا

خَمَائِلَ السُّنْدُسِ الْمَوْشِيَّةِ الْغِينَا (١)

وَبَاتَ كُلُّ مُجَاجِ الْوَادِ مِنْ شَجَرٍ

لَوَافِظَ الْقَزِّ بِالْخِيطَانِ تَرْمِينَا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع ، وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس ؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف !

وشوقى لم يَعْنِ إلا نفسه حين قال :

---

(١) الغين : جمع أغين ، وهو الأخضر ، والمؤنث غيناء .

نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا
وَلَمْ يَهُنْ بِيَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا

وقد صدق ، فقد قامت فى وجه الرجل أحداث تهد الجبال ، وانتاشه الخصوم أسوأ انتياش ، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته يصعب هدمه ، وإن تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد الهادمين .

وتفرّد شوقى بالحديث عن الأهرام فقال :

وَهٰذِهِ الْأَرْضُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جبَلِ
قَبلَ الْقَيَاصِرِ دِنَّاهَا فَرَاعِينَا

وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانٍ عَلَى حَجَر
فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا

كَأَنَّ أَهْرَامَ مِصْرٍ حَائِطٌ نَهَضَتْ
بِهِ يَدُ الدَّهْرِ لَابُنْيَانُ بَانِينَا

إِيوَانُهُ الْفَخْمُ مِنْ عُلْيَا مَقَاصِرِهِ
يُفْنِى الْمُلُوكَ وَلَا يُبْقِى الْأَوَاوِينَا (١)

كَأَنَّهَا وَرِمَالًا حَوْلَهَا الْتَطَمَتْ سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أَسَاطِينَا

كَأَنَّهَا تَحْتَ لَأْلَاءِ الضُّحَى ذَهَباً
كُنُوزُ فِرْعَوْنَ غَطَّيْنَ الْمَوَازِينَا

وللقارئ أن يتأمل هذه الأبيات ، له أن يتأمل قوة الفخر فى هذا البيت :

---

(١) الأواوين : جمع إيوان .

وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانٍ عَلَى حَجَرٍ

فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا

وله أن يعجب من روعة الخيال فى هذا البيت :

كَأَنَّ أَهْرَامَ مِصْرٍ حَائِطٌ نَهَضَتْ

بِهِ يَدُ ٱلدَّهْرِ لَابُنْيَانُ بَانِينَا

وله أن يتأمل دقة التشبيه فى هذا البيت

كَأَنَّهَا وَرِمَالًا حَوْلَهَا الْتَطَمَتْ

سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أَسَاطِينَا

ذلك شوقى ، وتلك آياته البينات

— ٦ —

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنسانى ، وتفرد شوقى بوصف الجمال الطبيعى ، أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هى تحفة فى الصور الإنسانية ، وأعطى شوقى مفاتن النيل صورةً هى غُرةٌ فى الصور الطبيعية ، أما صورة النيل فقد رآها القارىء من قبل ، وأما محبوبة ابن زيدون فقد صوّرها بهذه الأبيات :

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللهَ أَنْشَأَهُ مِسْكاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا

أَوْصَاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً وَتَوَّجَهُ مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إِبْدَاعاًوَتَحْسِينَا

إِذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَةً تُومُ الْعُقُودِ وَآدَتْهُ الْبُرَى لِينَا

كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْراًفِى أَكِلَّتِهِ

بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا

كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِى صَحْنِ وَجْنَتِهِ
زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيذاً وَتَزْيِينَا

مَاضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا
وَفِى الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصباحة . وفى الحسْن ألُوفٌ من الأفانين يعرفها الراسخون فى علْم الجمال ، فالجمال المنَعّم غير الجمال المحروم ، والزهر النضير الذى يُضاحك الشمس فى حديقة غنّاء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنْسىّ الذى يتفتح وهو مهجور فى رَبْوَةٍ قاصية لا يعرفها غير الذئاب . إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف ، ولكلّ لون من ألوان الجمال وحْىٌ خاص . وجوهر الشعر يتبع جوهر الجمال ، وهل يمكن أن يكون ما يوحيه الجمال المُحتجب شبيهاً بما يوحيه الجمال المباح ؟ إن الطبيعة قد يبدو لها أحياناً أن تُكايدَ الناس فتُنْشىء من الحسن فى حىّ بولاق ما تخبط به الناعمين فى حىّ القصر العالى(١) . ولكنها لا تفلح ، فالجمال الذى ينبت فى البيئات السُوقية يظل سوقىَّ الشمائل والنوازع ، أما الجمال الذى يتفتح فى البيئات المنَعّمة فيظل ملْحوظَ المشارب والميول .

فمعشوقة ابن زيدون ربيبة مُلْك ، ورَبيبة الملك تألف السيطرة منذ أيام المهد ، ويظل دلالُها طول الحياة دلالاً سماوياً يأخذ فَيْضه من قوة الطبع ، لا من لؤم التمنع ، وينزل رضاها على القلب نزول الطل على الريحان . وابن زيدون يتمثل محبوبته خُلقتْ من المسك ، ويرى الناس ما عداها خُلقُوا من طين ، وكلمة (طين) وقعت قبيحة فى شعر ابن زيدون ، إلاّ أن يكون أراد الإشارة إلى بعض الناس ، والمرء حين يغضب يرى الناس خُلقوا من طين ، وإن كان الطين أشرف من بعض مَن نرى من المخلوقات ، والطين تُرْبةٌ يحيا بها الزهر ويتغذى منها الشوك ، وفوقه تتخطر الظباء ، وعليه تزحف الأفاعى والصِّلال .

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال :

---

(١) القصر العالى : حى بالقاهرة يشارف النيل ، ويسميه السخفاء « جاردن سيتى » .

إِذَا تَأَوَّدَ آدَتْـهُ رَفَاهِيَةً تُومُ الْعُقُودِ وَأَدْمَتْهُ الْبُرَى لِينَا

والجمال الذى تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال غَضٌّ رقيق يشبه فى رقته نواظر العيون ، ولفائف القلوب ، وهذا الجمال منثور فى المدائن نثر الزهر واللؤلؤ ، ولولا وجوده فى هذه الدنيا لما عرف شاعر قيمة النعمة العظيمة ، نعمة البصر والحس والذوق ، لولا الجمال المنعم المَصُون الذى لا يطمع فى تَفَيُّؤ ظلاله غَبِىٌّ ولا لئيم لأقْفَرَتِ الدنيا منَ الشعْرِ وَخَلَتْ من الأنفاس العطرة أنفاس الشُعراء ، لولاَ الجمال المنعم المصون الذى لا يطمع فى تَفَيُّؤ ظلاله غبى ولا لئيم لمااسْتطاب شاعرٌ سَهَرَ الليل ، وألم الجفون ، وهل يُعنى القلب فى سبيل الجمال المبتذل الذى ترنو إليه جميع العيون ؟ إن الجمال المُبتذل شبيه بالكوكب المتهالك الذى لا تألم من النظر إليه عَيْنٌ رَمْداء ، أما الجمال المنعم المصون فشبيهٌ بالشمس لا يقوى على النظر إليه إلا الفحول من الشعراء ، والأقطاب من الكُتَّاب ، هو الجمال الفرد ، ولا يصاوله إلا الرجل الفرد ، وإن كان يتواضع فيقول :

مَاضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفاً

وَفى المَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

هذا تَوَاضعٌ ، فإن جوهر الحب فى قَلْبِ الشاعر أنفَس من جوهر الحسن فى وَجْهِ الجميل ، وهل تُعَرْبد معانى الصباحة فى الوجه المليح كما تُعَرْبد عرائس الشعر فى قلب الشاعر الذى يلقى الأنوار والظلمات وحوله جَيْشٌ من الهوى المتمرد والوجد المشبوب ؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس ، ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحدٌ جمال الصبح المشرق ، ولا تنبه مخلوق إلى لمْح الكواكب ولألاء النجوم ، ولا تلفت باحث إلى شعر ابن زيدون ، وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون .

— ٧ —

ثم ماذا ؟ بقى أن نَشْرَبَ صُبابة الكأس من نونية شوقى ، وكل صبابة فى الكأس صاب ، بقى أن نتوجع لبلواه وهو يتشوّق إلى مصر فيقول :

أَرْضُ الْأُبُوَّةِ وَالْمِيـــلَادِ طَيِّبَهَا   مَرُّ الصِّبَا فى ذُيُولٍ مِنْ تَصَابِينَا
كَانَتْ مُحَجَّلَةً فِيهَا مَوَاقِفُنَا   غُرًّا مُسَلْسَلَةَ الْمَجْرَى قَوَافِينَا

فَآبَ مِنْ كُرَةِ الْأَيَّام لَاعِبُنَا
وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَام لَاهِينَا

وَلَمْ نَدَعْ لِلَّيَالِى صَافِيًا فَدَعَتْ
(بِأَنْ نَغَصّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا)

لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخُضْنَا الجَوَّ صَاعِقَةً
وَالْبَرَّ نَارَ وَغًى وَالْبَحْرَ غِسْلِينَا

سَعْيًا إِلَى مِصْرَ نَقْضِى حَقَّ ذَاكِرِنَا
فِيهَا إِذَا نَسِىَ الْوَافِى وَبَاكِينَـــا

أرأيتم هذا الشعر ؟ أرأيتم الخيال فى هذا البيت :

فَآبَ مِنْ كُرَةِ الْأَيَّام لَاعِبُنَا   وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَام لَاهِينَا

أرأيتم صورة الهول المقتحم فى هذا البيت :

لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخُضْنَا الجَوَّ صَاعِقَةً
وَالْبَرَّ نَارَ وَغًى وَالْبَحْرَ غِسْلِينَا

ثم ماذا ؟ بقى ختام القصيدة ، وهى أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمى يرحمها الله ، وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه فى حلوان :

كَنْزٌ بِحُلْوَانَ عِنْدَ اللهِ نَطْلُبُهُ   خَيْرُ الْوَدَائِعِ مِنْ خَيْرِ الْمُؤَدِّينَا
لَوْ غَابَ كُلُّ عَزِيزٍ عَنْهُ غَيْبَتَنَا
لَمْ يَأْتِهِ الشَّــوْقُ إلَّا مِنْ نَوَاحِينَا
إذَا حَمَلْنَا لِمِصْرَ أَوْ لَهُ شَجَنًا
لَمْ نَدْرِ أَىّ هَوَى الْأُمَّيْنِ شَاجِينَا

طيّب الله ثراك أيها الشاعر، ورحم والِدَىَّ ووالديك، فالدعاء فى أعقاب شعرك كالدعاء فى أعقاب الصلوات .

البحث
السادس
والثلاثون

معارضات أبى نواس

نعقد هذا الفصل للنظر فى معارضات أبى نواس ، ونريد بهذه المعارضات ما وقع له من المناقضات مع معاصريه ، وما أبدع الشعراء من بعد فى معارضة قصائده المشهورات ، وهذا وذاك يدلان أبلغ الدلالة على سيطرة العبقرية النواسية على أخيلة الشعراء .

ومن الكلام الجيد فى تقويم المعارضات الشعرية ما قاله الدكتور أحمد زكى أبو شادى فى الجزء الثانى من مجلة (أدبى) :

« ليس تعمد معارضة الشعر من الفن الصحيح فى شىء ، بل هو محض صناعة ، والشعر قبل كل شىء عاطفة فكرية عميقة الجذور ، لا بهرج سطحى زائف ، وقد نقرأ عن بعض الشعراء الممتازين أنه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة ، ولكن الحقيقة أنه تأثر بموسيقاه أو بموضوع القصيدة ، فأثار ذلك نفسه الشاعرة ، مثال ذلك معارضات البارودى للشعراء المتقدمين ، ومعارضة كيتس لسبنسر ، وقد كانت تلك المعارضة أول تجربة شعرية لكيتس ، فإن تلك المعارضات هى نتيجة الإعجاب بالآثار السابقة ، وأثر وحيها فى النفس » .

ومعنى هذا الكلام أن الشاعر الموهوب لايتصنع القول حين يعارض شاعراً ، وإنما تتفجر المعانى من نبع القلب ، وهذا كلام عرفنا صحته حين وازنا بين المعارضات ، فمن العسير أن نتصور الشاعر مستعبَداً لمن يعارضه ، وإن تأثر خطواته فى الوزن والقافية والموضوع ، والمعارضة فى صميمها هى تلاقى روحين ، وائتلاف قلبين ، أو اصطدام نفسين ، واقتتال عبقريتين .

فمن المعارضات التى وقعت بائتلاف الذوق والقلب ما وقع بين أبى نواس والخرّاز ، فإن أبا نواس لما قال :

يَا رِيمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا ... أَكْتُبُ شَوْقِى إِلَى الَّذِى ظَلَمَا
مَنْ صَارَ لَايَعْرِفُ الْوِصَالَ وَقَدْ ... زَادَ فُؤَادِى فِى حُبِّهِ وَنَمَا
غَضْبَانَ قَدْ عَزَّنى هَوَاهُ وَلَوْ ... يُسْأَلُ مِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلِمَا
فَلَيْسَ يَنْفَكُّ مِنْهُ عَاشِقُهُ ... فِى جَمْعِ عُذْرٍ مِنْ غَيْرِ مَا اجْتَرَمَا
لَوْ نَظَرَتْ عَيْنُهُ إِلَى حَجَرٍ ... وَلَّدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا
أَظَلُّ يَقْظَانَ فِى تَذَكُّرِهِ ... حَتى إِذَا نِمْتُ كَانَ لِى حُلُمَا

لما قال أبو نواس هذه الأبيات عارضه الخرّاز ، فقال :

إِنْ بَاحَ قَلْبِى فَطَالَمَا كَتَما ... مَا بَاحَ حَتى جَفَاهُ مَنْ ظَلَمَا
وَكَيْفَ يَقْوَى عَلَى الجَفَاءِ فَتًى ... قَدْ مَاتَ أَوْ كَادَ أَوْ أَرَاهُ وَمَا
أَشُكُّ أَنَّ الهَوَى سَيَقْتُلُنِى ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَلَا يُرِيقُ دَمَا
كَيْفَ احْتِيَالِى لِشَادِنٍ غَنِجٍ ... أَصْبَحَ بَعْدَ الْوِصَالِ قَدْ صَرَمَا
مَا قُلْتُ لَمَّا عَلَا الصُّدُودُ بِهِ ... يَا رِيمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا
لٰكِنْ سَفَحْتُ الدُّمُوعَ مِنْ حَزَنٍ ... لَمَّا تَمَادَى الصُّدُودُ ثُمَّ نَمَا
إِنَّ الرَّسُولَ الَّذِى أَتَاكَ بِمَا ... أَتَاكَ عَنِّى قَدْ حَرَّفَ الْكَلِمَا

وأبيات أبي نُواس من الشعر الكريم ، وهى من المطمع الممتنع ، وفيها ومضات من السحر المبين ، وأىّ غزل أرق وأظرف من هذا البيت الذى يعد من أدق ماقيل فى تلوّن الملاح :

غَضْبَانَ قَدْ عَزَّنِى هَواهُ وَلَوْ يُسْأَلُ مِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلِمَا

وقوله فى فتك العيون :

لَوْ نَظَرَتْ عَيْنُهُ إلَى حَجَرٍ وَلَّدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا

وقوله فى أخذ الهوى بأحلام المحب :

أَظَلُّ يَقْظَانَ فِى تَذَكُّرِهِ حَتى إذَا نِمْتُ كَانَ لِى حُلُمَا

أما أبيات الخرّاز فهى من الشعر المقبول ، وليست من الشعر الجيد ، وقد ربط فيها بعض المعانى ببعض على طريقة لم تألفها الأذواق العربية ، ولولا أنها قيلت فى معارضة أبي نواس لما نقلها راوية ، ولا حفظها كتاب ؟

ومن المعارضة التى جرت مجرى المطارحة ما وقع بين أبي نواس وبين العباس ابن الأحنف ، وكان بين هذين الشاعرين مودة قوية أساسها تبادل الثقة والإعجاب . والحق أن أبا نواس والعباس كانا يقبسان من شعلة واحدة ، فقد جمع بينهما الغزل والظرف ، وصفاء الروح ، بالرغم من اختلاف المذهبين ، فقد كان أبو نواس متلونا فى الحب يتنقل من فن إلى فن ، على حين كان ابن الأحنف قد وقف قلبه على هوى واحد ، هو محبوبته « فوز » التى خلد اسمها على الزمان .

حدث حمزة الأصفهانى قال : اجتمع أبو نواس مع العباس بن الأحنف فى مجلس فقام عباس لحاجة ، فسئل أبو نواس عن رأيه فيه وفى شعره فقال : هو أرق من الوهم ، وأنفذ من الفهم ، وأمضى من السهم ، ثم عاد عباس وقام أبو نواس كذلك فسئل عنه عباس ، وعن رأيه فيه وفى شعره ، فقال : إنه لأقر للعين من وصل بعد هجر ، ووفاء بعد عذر ، وإنجاز وعد بعد يأس . فلما صارا إلى النبيذ أعلم كل واحد منهما قول الآخر فيه ، فقال أبو نواس :

إِذَا ٱرْتَدْتَ فَتى الْكَاسِ   فَلَا تَعْــدِلْ بِعَبَّاسِ

فقال العباس :

إِذَا نَازَعْتَ صَفْوَ الْكَاسِ يَوْمًا   أَخَا ثِقَــةٍ فَمِثْلَ أَبِي نُواسِ
فَتًى يَشْتَدُّ حَبْلُ الْوُدِّ مِنْــهُ   إِذَا مَا خُــلَّةٌ رَثَّتْ لِنَاسِ

فتناول أبو نواس قدحاً وقال :

أَبَا الْفَضْلِ ٱشْرَبَنْ ذَا الْكَا   سَ إِنِّى شَــارِبُ كَاسِى

فقال العباس :

نَعَمْ يَا أَوْحَــدَ النَّــاسِ   عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَدْ حَفَّ لَنَا الْمَجْلِـ   ـسُ بالنَّسْرِين وَالْآسِ

فقال العباس :

وَإِخْــوَانٍ بَهَــالِيلٍ   سَــرَاةٍ سَــادَةِ النَّاسِ

فقال أبو نواس :

وَخَــوْدٍ لَذَّةِ الْمَسْمُو   عِ مِثْلِ الْغُصُنِ الْكَاسِى

فقال العباس :

وَقَدْ أَلْبَسَهَا الرَّحْمٰــــــنُ مِنْ أَحْسَنِ إِلْبَاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَــدْ زِينَتْ بِإِكْلِيلٍ   يَوَاقِيتِ عَلَى الرَّاسِ

فقال العباس :

فَلَا تَحْبِسْ أَخِي كَأْسًا ... فَإِنِّي غَيْرُ حَبَّاسِ

قال الأصفهاني : فكان مانسى من معارضتهما أكثر مما حفظ .

ويذكرنا بهذه المطارحة ما وقع بين إسماعيل صبرى ، وخليل مطران ، فقد مشى يوماً صبرى باشا بأحد شوارع القاهرة ، فرأى مطران يشرب الصهباء على قارعة الطريق ، فقال صبرى باشا : يا مطران ، لا يليق بمثلك أن يشرب تحت أبصار الناس ، فابتدره مطران ، وقال :

وَهَلْ يَضِيرُ الْمَجْدَ أَنْ أَشْرَبَا ... وَأَجْعَلَ الْحَانَةَ لِي مَلْعَبَا

فطرب صبرى باشا ، وقال :

وأَنْ يرَانِى كُلُّ مَنْ مَرَّ بِى ... وَسْطَ الدَّيَاجِى حَامِلًا كَوْكَبَا

كذلك حدثنا الأستاذ إبراهيم الدباغ ، فلما لقيت الشاعر مطران سألته عن القصة ، فقال : كان يقع لنا من ذلك شيء كثير ، أما أنتم ياشعراء هذا العصر ، فقد بددت الشواغل أحلامكم ، ولم يبق لكم من روعة المطارحة نصيب .. وقد صدق مطران !

واتفق يوماً أن لقى مسلم بن الوليد رسولا لأبى نواس يحمل رقعة إلى عنان ، وفيها هذه الأبيات :

لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى سِرِّى وَسِرِّكُمُو

غَيْرِى وَغَيْرَكِ أَوْطَىَّ الْقَرَاطِيسِ

أَوْ طَيْرَ فَيْرُوذَجٍ (١) إِنِّى سَأَبْعَثُهُ ... قَدْ كَانَ صَاحِبَ تَأْلِيفٍ وَتَدْسِيسِ

وَكَانَ هَمَّ سُلَيْمَانٌ لِيَذْبَحَهُ ... لَوْلَا قِيَادَتُهُ فِى أَمْرِ بَلْقِيسِ

فأخذ مسلم الرقعة من الرسول وخرقها فانصرف الرسول إلى أبى نواس فأخبره بما صنع مسلم برقعته ، فقال أبو نواس :

(١) هو الهدهد بالفارسية .

لَمْ يَقْوَ عِنْدِى عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِى
إلاَّ فَتَى قَلْبُهُ مِنْ صَخْرَةٍ قَاسِى

إنَّ القَرَاطِيسَ فِى قَلْبِى بِمَنْزِلَةٍ كَمَوضِعِ السَّمْعِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ

لَوْلاَ الْقَرَاطِيسُ مَاتَ العَاشِقُونَ مَعًا
هٰذَا بِغَمٍّ وَهٰذَاكُمْ بِوَسْوَاسِ

فَلَيْتَ أَنَّ إمَامَ النَّاسِ سَلَّطَنِى فَلَمْ أَدَعْ خَارِقًا فِيهِمْ لِقِرْطَاسِ

حَتَّى أُصَبِّحَهُ مِنْ حَيْثُ مَأْمَنُهُ
كَأْسًا مِنَ المَوْتِ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ حَاسِى

مَا أَعْجَبَ الخَارِقَ الْقِرْطَاسَ أَقْرَأَهُ
يَأْسًا فَحَرَّقَهُ مِنْ حَيْرَةِ الْيَاسِ

مَاذَا عَلَيْكَ إِذَا أَحْبَبْتَ كَاتِبَهُ مَا كَانَ فِى بَطْنِهِ يَا أَحْمَقَ النَّاسِ

أَلَيْسَ قَدْ مَشَقَتْ فِيهِ أَنَامِلُهُ وَجَازَ أَقْلاَمُهُ فِيهَا بِأَنْفَاسِ

وبلغت هذه الأبيات مسلماً فعارضه فقال :

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِ
كَمْ مَرَّ مِثْلُكَ فِى ٱلدُّنْيَا عَلَى رَاسِى

الْحَزْمُ تَخْرِيقُهُ إنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ
وَإنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

فَشُقَّ قِرْطَاسَ مَنْ تَهْوَى صِيَانَتَهُ فَرُبَّ مُفْتَضِحٍ فِى خَطِّ قِرْطَاسِ

إِذَا أَتَاكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَتَـــهُ فَاجْعَلْ كَرَامَتَهُ فِى بَطْنِ أَرْمَاسِ
وَشُقَّ قِرْطَاسَ مَــنْ تَهْــوَى وَكُنْ فَطِنًــــا
كَمْ ضُيِّعَ السِّرُّ فِى حِفْظٍ لِقِـــــرْطَاسِ

فأجابه أبو نواس :

مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى تَخْــــرِيقِ قِرْطَــاسِى
هَلْ كَانَ عِنْــدَكَ فِى الْقِرْطَاسِ مِنْ بَــاسِ
سَبَبْــتَ كَاتِبَــــــهُ مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ
هَــلْ كَــانَ فِيهِ سِــوَى شَكْــوَى إِلَى نَاسِى
كَتَبْتُ أَشْكُـــو بَلِيَّـــاتِى فَسَاءَكُمُـــو
مَا يَـــذْكُرُ النَّاسُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى النَّـــاسِ

وهذه المعارضة تبدو تافهة لمن ينظر فيها وهو خالى الذهن من ألوان الحياة لذلك العهد ، ولكن الذين سايروا تطور التقاليد الأدبية يرون مسألة الرسائل الغرامية كانت يوماً من المشكلات ، حتى صح لمثل أبى محمد بن حزم أن يعقد لها فصلاً فى طوق الحمامة ، ولو كانت هذه المسألة من التوافه لما اهتم بها ذلك الإمام الجليل .

والحق أن تاريخ الأدب عرضة للطمس إذا حكمنا فيه ذوق الناس فى هذا العصر ، فأهل هذا الزمن يتصنعون الوقار ، ويتكلفون الاحتشام ، وتبدو منهم بدوات تنقلهم إلى عوالم لا تعرف المجون مع أن حياتهم فى صميمها ملوثة بعيب أشنع من المجون ، وهو الرياء .

ولكن مهلاً . من الذى يحكم بأن من العبث أن يكون للرسائل الغرامية أدب يحرص عليه مثل مسلم بن الوليد ؟ ألسنا نرى فى أيامنا هذه كيف تقدم الرسائل الغرامية إلى المحاكم لتكون من أقوى الأسانيد ، وتثبت بها حقوق تصل أحياناً إلى المواريث ؟

إن النفس الإنسانية ستظل مجهولة ما لم تكشف عنها الصغائر فى حيوات الناس ، وأكثر من ترون من العظماء . هم أطفال فى عالم الحب ، وقد تكون تلك الطفولة هى أساس العظمة عند من يفقهون .

ألم تر كيف كان فيكتور هوجو يتكلف الحب ليعرف بعض ما يجهل من أسرار القلوب ؟

ألم تر كيف كان جوته يتكلف الحب ليعرف المستور من خلائق النساء ؟

ليس العلم كل العلم أن ترعى فى بيتك طائفة من الحشرات لتعرف كيف تصح ، وكيف تمرض ، وكيف تحس ، وكيف تعقل ، وكيف تحيا ، وكيف تموت . ليس هذا كل العلم ، وإن ضاعت فيه أعمار وبددت فى سبيله أموال ، وأنشئت من أجله معاهد وكليات . للعلم ميادين أعلى وأشرف ، هى ميادين السرائر والقلوب ، وهى ميادين لايعرفها غير الشعراء .

البحث السابع والثلاثون

بين أبى نواس وابن المعتز والخليع

كان من حظ أبى نواس أن يسيطر على أهل عصره ، وأن يتخطى زمانه فيسيطر على أخيلة الشعراء من جيل إلى جيل ، وكان أهم ما اشتهر به وصف الصهباء ، وإنما برع فى هذا الفن لأنه نشأ فى العراق ، والعراق منذ الزمن القديم قطر مرح طروب ، استطاع أن يكون ملتقى الروحين العظيمين : روح العرب وروح الفرس ، ولو نشأ أبو نواس فى بلد مثل مصر لما استطاع أن يظفر بكل هذه الشهرة الأدبية : لأن مصر لم تكن من الأقطار ذوات الخطر فى صنع الخمر ، ولم يكن أهلها يوماً من كبار الشاربين ، وإن زعموا أنها تفردت بشراب « المريوتيك » الذى أسكرت به كيلوباترة من أسكرت من عشاقها الابطال .

ولم يكن لمصر شأن يذكر فى زراعة الأعناب ، لأن جوّها لا يصلح كثيراً لصنوف العنب الجيد الذى يحمل أهلها على الاهتمام بصناعة الخمر ، على نحو ما يتفق ذلك فى بعض الأقطار الشرقية والغربية ، ومن أجل هذا ظل المصريون أجيالاً طوالاً وهم لا يعرفون من الخمر إلا صنوفا رديئة يحتفظ بها جماعة من الأقباط توارثوها عن أجدادهم ، فكانوا شرّ ورثة لأقبح ميراث !

ولا كذلك العراق ، فقد عرف الخمر منذ عهد الأشوريين والكلدانيين وظل يفتّن فى تقطيرها أظرف افتنان . وقصائد ابن الرومى فى وصف العنب تدل على أن العراقيين كانوا ينظرون إلى العنب نظرة تقديس ، لأنهم كانوا يتمثلون فيه ما يضمر من أسرار الصهباء .

وحرمان مصر من جيد الخمر يشرح جانباً مهماً من حياتها العقلية ، فقد نبغت

مصر نبوغاً عظيماً فى التأليف ، وكانت هى القطر الإسلامى الوحيد الذى أنتج أعظم المؤلفات فى الأدب واللغة والتاريخ والتشريع ، وإنما كان الأمر كذلك لأن « الصحو » من أقوى الشواهد على سلامة العقل ، أما الأقطار العربية التى عرفت الخمر ، فكانت لها ميادين غير التأليف ، كان لها الشعر والخيال ، على نحو ما نرى فى الأندلس ، والشام ، والعراق .

وهذا الحكم لا نريد به التعميم ، فمن التعسف أن نقول إن الشعر انعدم فى مصر ، أو إن التأليف انعدم فى غير مصر ، لا ، وإنما نحكم بأن الخصائص الأساسية تختلف هنا وهناك ، فالمصريون يعيشون فى بلد محافظ على التقاليد منذ خلق ، فلم يكن فيهم فاجر ، ولا زنديق ، على نحو ما توثب الفجور واستطارت الزندقة فى بلد مثل العراق .

والشاهد أمامى واضح صريح : هو هذه الهمزيات الثلاث لابن المعتز والخليع ، وأبى نواس ، ففى هذه القصائد أخيلة يجهلها المصريون .

وإليكم الحديث .

وصف أبو نواس الخمر فقال :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ
وَدَاوِنِى بِالَّتِى كَانَتْ هِىَ الدَّاءُ

وعارضه الخليع فقال :

بُدِّلْتَ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالآءِ[1]
وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الْإِبْلِ وَالشَّاءِ

وعارضه ابن المعتز فقال :

أَمْكَنْتُ عَاذِلَتِى مِنْ صَمْتِ أَبَّاءِ   مَازَادَهُ النَّهْىُ شَيْئًا غَيْرَ إِغْرَاءِ

والشاهد هنا هو المشكلة التى أثارتها الهمزية النواسية ، فأغلب الظن أن أبا نواس

(١) الآء : ثمر شجر ، واحدته آءة . قال الفيروزابادى : وأوت الأديم دبغته به ، والأصل : أوت فهو مؤء ، والأصل مأووء .

لو خاطب بها أهل مصر لخاطبهم بما لا يفهمون ، ولكنه خاطب أهل العراق فخاطب قوماً يعرفون من الخمر ما يعرفون .

كانت همزية أبى نواس من المشاكل العراقية ، وكانت الموازنة بينها وبين همزية ابن الضحاك مما يشغل الناس ، ومضى الحديث إلى مكة ، مكة المكرمة التى شرعت للعالم بغض الصهباء ، نعم فى مكة وجدوا فقيها يفصل بين همزية ابن الضحاك ، وهمزية أبى نواس .

انظروا فى هذا ، واسألوا أنفسكم : أيمكن نقل الحديث من مكة المكرمة إلى الأزهر الشريف ؟

هيهات ، هيهات !

وإنما جاز فى مكة مالم يجز فى مصر ، لأن مصر كما حدثتكم لا تعرف الخمر ، وإن كان الخواجة خرالمبو فتح فيها عشرات الحانات .

مصر فضولية فى شرب الشمول ، ومن الخير أن تقف حيث أقامها الله ، فلا تقول : هات وهاك !

لاتحسبونى أمزح ، فالمصرى لا ينقع غلته غير الماء القراح ، وقد ترونه فى مجالس السلاف يصرخ فجأة فى طلب كوب من الماء ، والطبيعة الأصلية تميز خصائص الشعوب .

ما هذا ؟ أتصدقون أننى أهرب من الهمزيات الثلاث ، لأنى لا أجد من الحماسة لنقدها بعض ما وجد أدباء العراق .

ولنواجه الموضوع فنقول :

همزية أبى نواس لا تزيد على عشرة أبيات ، ولكنها تحدثنا عن أمور جوهرية فى حياة العراق ، تحدثنا أوّلا عن قيمة الخمر فى العلاج ، وهى عادة عراقية ، وجدت من قبل عند العرب فى الجاهلية ، فقد رووا أن الأعشى قال :

وَكَاسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ ... وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وكان الأعشى شاعراً فاجراً عرف الخمر والنساء . ومشت به شهواته إلى الحدود الفارسية فنقل من تقاليد الفرس ما شاء .

فجاء أبو نواس وأفصح عن عادات قومه أبرع إفصاح حين قال :

دَعْ عنكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وبين الأعشى وأبي نواس تفلسف مجنون بني عامر فقال :

تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى مِنَ الْهَوَى
كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ

والتداوي بالخمر يراه أهل مصر من المشكلات ، وله فتوى في العدد الأخير من مجلة الأزهر ختمها المفتي بعبارة « والله أعلم » كأن الله لم يهد خلقه إلى بعض أسرار الصهباء .

وتحدثنا الهمزية ثانياً عن عادة اجتماعية كان لها خطر في بغداد ، وتلك العادة هي إلباس الجواري ملابس الغلمان ، والظاهر أن الفتنة في عالم الجمال لم يكن يراها البغداديون المترفون إلا في تلك الثياب ، فكانت الجارية لا تملح إلا مذكرة ، ولهذه النزعة المقلوبة بقايا في أدب أهل الشرق والغرب فقد حدثنا الأستاذ لطفي جمعة في رواية (عائدة) التي نشرها في (البلاغ) أن محبوبته في السويس لبست ثياب الفتى فبدت له جميلة جداً ، واندفع يقبلها بعنف حتى أدمى خديها بالتقبيل .

وقد رأينا بأعيننا بعض الفتيات في أوربا يلبسن ملابس الفتيان ، فإن لم يكن هذا بدعاً حديث العهد ، فهو إذن بقية من عبث أهل بغداد القدماء الذين أطغاهم الغنى والملك .

وهذا بيت أبي نواس :

مِنْ كَفِّ ذَاتِ حِرٍ فِي زِيِّ ذِي ذَكَرٍ
لَهَا مُحِبَّانِ لُوطِيٌّ وَزَنَّاءُ

والدعارة واضحة فى هذا البيت ، ولكن ناقل الكفر ليس بكافر ، وناقل الفسق ليس بفاسق .

وتحدثنا الهمزية ثالثاً بأن فسقة بغداد كانت عندهم نزعة صوفية ترمى إلى الاعتماد على عفو الله ، ومن الصوفية من يرى من الإثم أن تتخوّف من الذنوب : لأن التخوف من الذنب يشعر بأنك تعتد بالأعمال ، والاعتداد بالأعمال ينافى أدب الأبرار ، وذلك ما عناه الفاجر أبو نواس حين قال :

لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأً حَرِجًا
فَإِنَّ حَظْرَكَهُ بِالدِّينِ إِزْرَاءُ

تلك هى الأمور التى أفصح بها أبو نواس عن بعض الأحوال الاجتماعية فى بغداد ، فلم يبق إلا النص على ما فى قصيدته من المعانى الشعرية :

ونبادر فنذكر أن النقاد القدماء أجمعوا على سبقه بهذا البيت :

صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا ... لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

أما نحن فنستجيد قوله فى الراح :

فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيقِ صَافِيَةً ... كَأَنَّمَا أَخْذُهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
جَفَتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَائِمُهَا ... لَطَافَةً وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا ... حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وهذه الأبيات فى غاية من الجودة ، وللقارىء أن يتأمل هذه الشطرة :

« كَأَنَّمَا أَخْذُهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ »

فهى كلمة شاعر مبدع يتمثل الصور الشعرية تمثل الشاعر الفنان .

وفى البيتين الآخرين تنزيه للخمر عن ملابسة الماء ، ورجعها إلى التوافق مع عنصر أشرف هو عنصر النور ، وهذا معنى لا يلتئم إلا مع خمر الفردوس .

أما قوله :

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لهُمْ ... فَمَا يُصِيبُهُمُو إلا بِمَا شَاءُوا

فهو صورة لجماعة من الندمان الفتيان الذين مكنهم الغنى والشباب من ناصية الزمان ، وأبو نواس الفاجر يرى أعداء الراح من الجاهلين ، ويقول :

فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِى فى الْعِلْمِ فَلْسَفَةً
حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

وهى سخرية لم يوجه مثلها إلى أهل التقى والعفاف .

• • •

تلك همزية أبى نواس ، فماذا قال الخليع الحسين بن الضحاك ؟

لقد بدأ فسخر من العرب الذين يقنعون بألبان الإبل والشاء بين أشواك البادية ، فقال :

بُدِّلْتَ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالآءِ ... وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الإِبْلِ وَالشَّاءِ
مَابَيْنَ بَطْنِ ثَبِيرٍ إِنْ حَلَلْتَ بِهَا ... إِلَى الْفَرَادِيسِ إِلاَّ شَوْبُ أَقْذَاءِ
فَعَدِّ هَمَّكَ عَنْ جِلْفٍ تُمَارِسُهُ ... جِلْفٍ تَلَفَّعَ طِمْرًا بَيْنَ أَحْنَاءِ

والسخرية من العرب ومعايش العرب نزعة شعوبية كان لها فى ذلك العهد مجال ، فكان أبو نواس وندماؤه من شياطين بغداد لا يملون القدح فى شمائل الأعراب ، وكانت السخرية من الأزهار البدوية والأشواك البدوية هى الفاتحة والخاتمة لكل قصيد ، وكذلك صح للخليع أن ينقل نديمه إلى حياة الحضارة فيقول :

فَفِى غَدٍ لَكَ مِنْ زَهْرَاءَ صَافِيَةٍ ... بِطَيْرِ نَابَاذَ مَاءٌ لَيْسَ كَالْمَاءِ
مِمَّا تَخَيَّرَ أُولاَهَا وَأَوْدَعَهَا ... ربُّ الخَوَرْنَقِ فى جَوْفَاءِ مَيْثَاءِ
رَاحَ الْفُرَاتُ عَلَيْهَا فى جَدَاوِلِهِ ... وَبَاكَرَتْهَا سَحَابَاتٌ بِأَنْوَاءِ

وقد أطال الخليع فى قصيدته اطالة مملة تمللنا نحن المصريين ، ولكنها تمتع أمثال العراقيين . فقد وصف تنقل الراح من عهد إلى عهد ، وسره أن تدفن فى الأرض ، وأن تمر عليها أزمان وهى سر مكنون ، فلننس مالا نعرف من تلك العهود ، ولننتقل إلى عهدها الأخير بعد أن رأت نور الوجود :

فُضَّتْ خَوَاتِمُهَا فى نَعْتِ وَاصِفِهَا
عَنْ مِثْلِ رَقْرَقَةٍ فى جَفْنِ مَرْهَاءِ[1]
لَمْ يَبْقَ مِنْ شَخْصِهَا إلاَّ تَوَهُّمُهُ
فَالشَّىْءُ مِنْهَا إذَا ٱسْتَثْبَتَّ كَاللَّاءِ[2]

تُمَازِجُ الرُّوحَ فى أَخْفَى مَدَاخِلِهِ — كَمَا تَمَازَجُ أَنْوَارٌ بِأَضْوَاءِ
لاَ يُدْرِكُ الْحِسُّ مِنْهَا حِينَ تَبعَثُهَا
إلاَّ التَّنَسُّمَ أَوْ لَدْغًا بِأَحْشَاءِ
يَحْكِى تَطَوُّقَهَا بِالْكَأْسِ مِنْ ذَهَبٍ
طَوْقًا أَطَافَتْ بِهِ وَاوَاتُ عَشْرَاءِ
ثُمَّ اسْتَحَالَ لَهَا دُرٌّ فَعَرَّشَهُ
حَتَّى اسْتَقَلَّ لَهَا عَرْشٌ عَلَى الْمَاءِ
عَرْشٌ بِلاَ طُنُبٍ مِنْ فَوْقِهِ زَبَدٌ
قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَةٍ فِى حُسْنِ لأْلاَءِ

---

(١) المرهاء ، هى التى ابيضت حماليق عينيها .
(٢) اللاء هنا السراب .

لَا يَسْتَطِيعُ سَنَا نُورٍ لَهَا نَظَرًا
حَتَّى تَعُودَ لَهُ لَحَظَاتُ حَوْلَاءِ
كَأَنَّ تَأْلِيفَ مَاحَاكَ الْمِزَاجُ لَهَا
سَلْخٌ تُحَلِّلُهُ عَنْ ظَهْرِ رَقْشَاءِ
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْهَا فِي تَصَرُّفِهَا
مِنْ كَفِّ مُخْتَلِجِ الْأَعْطَافِ وَضَّاءِ

هذه الأبيات تخيرناها تخيراً ، ولو عرضنا هذه القصيدة كاملة لبدت فيها أشياء لايفهمها أهل هذا الجيل .

* * *

ونحن لا نستسيغ اليوم وصف الخمر بأنها بدت « مثل رقرقة فى جفن مرهاء » ولا يسرنا أن يكون الحبب ألّف فوقها صورة تشبه ظهر الحية الرقشاء ، ولكننا نستظرف وصف الراح بأنها تمازج الروح فى أدنى مداخله ممازجة الأنوار للأضواء ، ولعل هذه الصورة هى أجمل ما فى قصيدة الخليع .

ولا ننس النص على أن الخليع ختم قصيدته بغمز العرب فقال :

هَذَا النَّعِيمُ ولا عَيْشٌ تَكُونُ بِهِ   هِنْدٌ بِرَابِيَةٍ مِنْ بَعْدِ أَسْمَاءِ(١)

فكانت الفاتحة والخاتمة من النزوات الشعوبية .

* * *

بقى ابن المعتز ، فماذا قال :

إن ابن المعتز جرى فى همزيته مجرى الفتك فانطلق يحدث عن صبواته حديث الغوىّ المفتون ، ويقول :

---

(١) أسماء : اسم امرأة أصلها « وسماء » من الوسامة وهى الحسن الثابت . قلبت الواو همزة فوزنها فعلاء .

أَمْكَنْتُ عَاذِلَتِى مِنْ صَمْتِ أَبَّاءِ ... مَازَادَهُ النَّهْىُ شَيْئًا غَيْرَ إِغْرَاءِ
أَيْنَ التَّوَرُّعُ مِنْ قَلْبٍ يَهِيمُ إِلَى ... حَانَاتِ قُطْرُبُّلٍ بِالْعُودِ وَالنَّاءِ (١)
وَصَوْتِ فَتَّانَةِ التَّغْرِيدِ نَاظِرَةٍ ... بِعَيْنِ ظَبْيٍ يُرِيدُ النَّوْمَ حَوْرَاءِ
جَرَّتْ ذُيُولَ الثِّيَابِ الْبِيضِ حِينَ مَشَتْ ... كَالشَّمْسِ مُسْبِلَةً أَذْيَالَ لَأْلَاءِ
وَقَرْعِ نَاقُوسِ دَيْرِىٍّ عَلَى شَرَفٍ ... مُسَبِّحٍ فِى سَوَادِ اللَّيْلِ دَعَّاءِ (٢)
وَكَأْسِ حِيرِيَّةٍ شَكَّتْ بِمِبْزَلِهَا ... أَحْشَاءَ مُشْعَرَةٍ بِالْقَارِ جَوْفَاءِ

والبيت الأول مولد من صدر قصيدة أبى نواس ، والبيت الثالث بيت عذب والمعنى فيه قديم ، ولكنه ورد فى معرض طريف ، أما البيت الرابع فهو تحفة لأنه جعل محبوبته فى الثياب البيض كالشمس تسبل أذيال اللألاء ، وفى البيت الخامس حنين إلى النواقيس ، ولكن أى حنين ؟ أهو حنين الخاشعين ؟ هيهات ، إنه حنين الفجرة الذين كانوا يتخذون الديرة ملاعب صبابة ومجالس سلاف .

ثم مضى يذكر أعمار الخمر فقال :

جَاءَتْ بِهَا حُفُلُ الْأَثْمَارِ يَانِعَةٌ ... بِطَيْرِنَابَاذَ أَوْ كُوثَى وَسُورَاءِ (٣)
تَرْفُو الظِّلَالَ بِأَغْصَانٍ مُهَدَّلَةٍ ... سُودِ الْعَنَاقِيدِ فِى خَضْرَاءَ لَفَّاءِ
أَجْرَى الْفُرَاتُ إِلَيْهَا مِنْ سَلَاسِلِهِ ... نَهْرًا تَمَشَّى عَلَى جَرْعَاءَ مَيْثَاءِ (٤)
وَطَافَ يَكْلَؤُهَا مِنْ كُلِّ قَاطِفَةٍ ... رَاعٍ بِعَيْنٍ وَقَلْبٍ غَيْرِ نَسَّاءِ
مُوَكَّلٌ بِالْمَسَاحِى فِى جَدَاوِلِهَا ... حَتَّى يَدُلَّ عَلَيْهَا حَيَّةَ الْمَاءِ (٥)

---

(١) الناء هو الناى .
(٢) دعاء : كثير الدعاء .
(٣) كل هذه أسماء أماكن .
(٤) الجرعاء : الرملة الطيبة المنبت . والميثاء اللينة .
(٥) المساحى : الأراضى المهيأة للزرع .

فَآبَ فى آبَ يَجْنِيهَا لِعَاصِرِهَا كَأَنَّ كَفَّيْهِ قَدْ عُلَّتْ بِحِنَّاءِ
فَظَلَّ يَرْكُضُ فِيهَا كُلُّ ذِى أَشَرٍ قَاسٍ عَلَى كَبِدِ الْعُنْقُودِ وَطَّاءِ
ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ وَعَيْنُ الشَّمْسِ تَلْفَحُهَا
فِى بَطْنِ مَخْتُومَةٍ بِالطِّينِ كَلْفَاءِ
حَتَّى إِذَا بَرَدَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ لَهَا وَبَلَّهَا سَحَرٌ مِنْهُ بِأَنْدَاءِ
صَبَّ الْخَرِيفُ عَلَيْهَا مَاءَ غَادِيَةٍ أَقَامَهَا فَوْقَ طِينٍ بَعْدَ رَمْضَاءِ
تِلْكَ الَّتِى إِنْ تُصَادِفْ قَلْبَ ذِى حَزَنٍ
تُجْزِلْ عَطِيَّتَهُ مِنْ كُلِّ سَرَّاءِ
يَسْقِيكَهَا خَنِثُ الْأَلْحَاظِ ذُو هَيَفٍ
كَأَنَّ أَجْفَانَهُ أَفْرَقْنَ مِنْ دَاءِ

وجملة القول ان هؤلاء الشعراء ركضوا فى ميدان واحد فوصفوا الخمر والسقاة وصفاً يختلف بعض الاختلاف ، وكان أقصرهم نفساً أبو نواس ، ولكنه كان أعرفهم بأسرار الصهباء .

والقصيدة الوحشية هى قصيدة الخليع فقد أكثر فيها من التعمل والافتعال ، فظلت سجينة لا يعرفها من الناس غير أهل العراق ، وقد وقع ابن المعتز فى بعض ما وقع فيه الخليع ، فأخذ يؤرخ الخمر يوم كان لها تاريخ ، فأصبحت قصيدته غريبة فى زمن تكتهل فيه الصهباء وهى بنت يوم واحد لأن أهل هذا الزمن عرفوا من العناصر مالم يعرف الأقدمون واستطاع آثمهم أن يكوى الصهباء فيردها ناراً تأكل الهشيم من أحلام الرجال .

أما أبو نواس فقد وقف عند المعانى الفطرية التى يعرفها الناس فى جميع البلاد ، وكذلك ظلت قصيدته موصولة الأواصر بأرباب الأذواق . وأجود الشعر ما استطاع مداعبة القلوب فى كل أرض وفى كل جيل .

البحث الثامن والثلاثون

أقطاب الموازنين

— ١ —

رأى القارىء طائفة من الآراء فى نقد الشعر والموازنة بين الشعراء ، وهى آراء ذاتية لمؤلف هذا الكتاب .

فمن الخير أن نضيف إلى هذه الطبعة فصلا نبيّن به فضل من سبقونا إلى الموازنة بين الشعراء ، وأظهر أولئك الباحثين رجلان : أحدهما من رجال القرن الرابع ، وثانيهما من رجال القرن الرابع عشر .

أما الأول فهو أبو الحسن الآمدى صاحب كتاب « الموازنة بين الطائيين : أبى تمام والبحترى » وهو باحث عظيم فصّلت الكلام عليه تفصيلاً فى الجزء الثانى من كتاب « النثر الفنى (١) » فليرجع إليه القارىء إن شاء ، فمن تبديد الوقت أن أعيد هنا ما فصلته هناك .

وأما الثانى فهو أستاذى ، وصاحب الفضل علىّ : المغفور له الشيخ محمد المهدى بك ، وكان أديباً نادر المثال ، ولكن لم ينشر له شىء ، وقد فصّلت آراءه الأدبية فى الجزء الأول من كتاب « البدائع (٢) » ولكن بقى مجالٌ للقول فى ذلك الباحث الجليل ، فإنى لم أكتب عنه فى « البدائع » إلا الصور الرائعة من أسلوبه فى الدرس ، ومذهبه فى الحياة الاجتماعية ، وهنا أستطيع أن أبين كيف كان يوازن بين الشعراء ، وأستطيع أن أنشر إحدى موازناته فى هذا الكتاب ، لأن آثاره مع الأسف لن تنشر أبداً ، ولن يفرغ تلاميذه من شواغل دنياهم حتى يقدموا لذكراه ما يجب من الوفاء .

---

(١) انظر الصفحات ٨٢-٩٣ .   (٢) انظر الطبعة الثانية ج ١ ص ١-١٨ .

كان الشيخ المهدى يوازن فى دروسه بين الكتاب والخطباء والشعراء ، وكان يوازن بين العصور الأدبية .

أما موازناته بين الشعراء فكانت كثيرة جدا وأظهرها الموازنة بين زهير والأعشى (١)

وأما موازناته بين الخطباء فأذكر منها قوله فى الموازنة بين قس بن ساعدة وأكثم ابن صيفى ، وهو يقول : « الموازنة بينهما من جهات » :

الجهة الأولى : الموضوع ، ونرى أن موضوع قس لا يكاد يتخطى الموعظة بالموت ، وتوجيه الناس إلى توحيد الله ، ونبذ ماهم عليه من عبادة الأصنام وأما أكثم فإنه يزيد عن هذا نصح قومه فى مسائل الدنيا ، ونصح ذريته ، وتوجيههم إلى طرق الخير مفصلة .

الجهة الثانية : العبارة ، والفرق فيهما بينهما ظاهر ، فإن عبارة قس عبارة البديهة ، وإن كانت مسجوعة ، فهى العبارة الصالحة للدهماء ، وهى بمقام الخطبة أليق : لسهولتها ، ووضوح معناها ، وأخذ بعضها بحجز بعض فى طريق المقصد الذى يريده ، وهى تكاد تكون مغسولة من الأمثال والحكم .

وأما عبارة أكثم فهى عبارة منتقاة يكثر فيها المجاز والكناية والأمثال والحكم ، فهى مجموعة مختارات جيدة تكاد تكون عديمة النظير ؛فهى أشبه بكلام الحكماء ، ولا غرو فقد كان أكثم حكيماً محكماً عالماً بالأنساب ،وقد أثر عنه ما قال فى آخر حياته وهو خلاصة تجاربه ، فعبارته فى نظر عشاق المعانى والبلاغة والإيجاز أعلى ، وعبارة قس فى نظر الخطباء وأهل الدعوة أليق وأبلغ . وإن شئت قلت : عبارة قس أخطب ، وعبارة أكثم أحكم .

الجهة الثالثة : المعانى — والفرق بينهما جَلِىٌّ أيضاً ، فإن معانى قس عامة قليلة ، نظرية ، ليس فيها توليد ، ولا كذلك معانى أكثم : فإنك تجدها كثيرة مفصلة فى ضروب عدة ، وكلاهما يكرر المعنى ويرادف ، وهذا شأن الخطباء : إذا أرادوا تَثْبيتَ ما يدعون إليه .

---

(١) عندى صورة من هذه الموازنة .

الجهة الرابعة : حال الخطيبين — فإن قسا كان يخطب للعرب كافةً وهو راكبٌ جملَه ، ويشير بيده وبالمخصرة ، ويفصل الكلام بـ (أما بعد) ويتقلب فى البلاد لهذا ، حتى طار ذكره ، واشتهر فى الخافقَين قدره ؛ وكان من أمره أن ذكره النبى صلى الله عليه وسلم ، وقرظه .

وأما الثانى فقد كان يخطب قومه ، ويتحرى العقلاء منهم ، ويقول « لاتحضرونى سفيهاً » ولم يؤثَر عنه ما أثر عن قس فى موقفه ولباسه ، واستعداده — فيما أعلم — من هذه الجهة أعرق فى الخطابة .

الجهة الخامسة : أن قساً كان يقول الأشعار من روح خطبته سهلةً متقبّلةً لتُحفظ إذا لم يحْفظ الكلام ، وكان أكثم يستعين بالأمثال لجمالها وقصرها ، وبالرائع من الحكمة كذلك ، ولا يخفى أن الشعر البين السهل إنما هو للدهماء ، وهو أليق بمقام الخطابة ، وأن الأمثال الحكيمة التى تحتاج إلى رويّة فى فهمها إنما هى للخاصة ، وهى لا تفيد إلا فى الخطب الخاصة ، وعلى هذا يكون قسٌ أخطب ، وأكثم أحكم ، وكذلك لم تكن هنالك غرابة فى شهرة قس بالخطابة ، مع أن كلام أكثم فيها أبلغ فى نظرا لحكماء ، ومَن يتعشقون الجزل الموجز الدقيق المعنى ، الرصين المبنى .

ثم أشار الأستاذ رحمه الله إلى أنه كان يود أن يقارن بين الكلام المشترك ولكنه لم يجد من الشواهد ما يروى الغلة ، فاكتفى بالحكم بأن الأول كان يتكلم عن سجية ، وأن الثانى كان يتفنن ويدقق ويحكم ، وكذلك كان لكل منهما منزع وطريق .

— ٣ —

وأما موازناته بين العصور الأدبية فهى كثيرة جدا ، وليس تحت يدى الآن إلا كلمة قصيرة عن بيان حال الشعر فى زمن البعثة ، والخلافة الراشدة . قال :

إذ أردنا أن نتعرف حال الشعر فى صدر الإسلام وجب علينا أن نلمح ما كان له من المكانة قبل ذلك ، ثم نكشف عن مكانته الثانية ، لتتجلى صورتاه فى المكانتين ، ويعرف شأنه فى الزمانين ، فنقول :

كان الشعر فى الجاهلية يسير مع السيف فى الدفاع عن الأعراض والأحساب

والذود عن البَيْضة ، فكما يغير الفارس برمحه وحسامه ، يُغير الشاعر بقافيته وإنشاده ، فإذا فت السيف فى الأعضاء ، فتّ الشعر فى القلوب ، وإذا أصاب النّبال بنبله الحسوم ، أصاب الشاعر بكلماته النفوس بتخذيل الأعداء ، وتحميس الأولياء ، فإذا نظرنا إليه بعد الإسلام من هذه الجهة وجدناه ماثلا فيها لم يتزحزح عنها .

فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليلة وهو فى بعض أسفاره : أين حسان بن ثابت؟ فقال حسان : لَبيْك يا رسول الله وسَعْديك . قال أحْدُ فجعل يُنشد ويُصْغى إليه ، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من نشيده ، فقال عليه الصلاة والسلام : لهذا أشدّ عليهم من وقع النبْل .

وقد كان حسان ينافح عنه ، ويشجع قومه ، ويخذل عدوه .

وقد بلغ من أمر حسان أن بنى له النبى صلى الله عليه وسلم منبراً فى مسجده ينشد عليه الشعر .

وكذلك القول فى عبد الله بن رَوَاحَة الذى شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها إلا الفتح ، ومات فى غزوة مؤتة ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يرتجز ببعض رجزه فى تلك الغزوة ، وهو قوله حينما أصيبتْ إصبعه :

هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِى سَبِيلِ ٱللهِ مَا لَقِيتِ
يَا نَفْسُ إِلاَّ تُقْتَلِى تَمُوتِى هٰذِى حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْصَلِيتِ
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ لَقِيتِ إِنْ تَفْعَلِى فِعْلَهُمَا هُدِيتِ (١)

وكذلك الشأن فى كعب بن مالك الأنصارى الذى كان يعارض ابن الزِّبَعْرَى من شعراء المشركين ، ويدافع مدافعة من ملأ قلبه اليقين ، ومنه قوله فى قصيد طويل ذكره ابن هشام فى سيرته فى يوم الخندق :

وَمَوَاعِظٍ مِنْ رَبِّنَا نَهْدى بِهَا بِلِسَانِ أَزْهَرَ طَيِّبِ الْأَثْوَابِ

---

(١) يريد صاحبيه اللذين استشهدا قبله ، وهما : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب .

عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا ... مِنْ بَعْدِ مَاعُرِضَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ
حِكَمًا يَرَاهَا الْمُجْرِمُونَ بِزَعْمِهِمْ ... حَرَجًا وَيَفْهَمُهَا أُولُو الْأَلْبَابِ
جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الْغَلَّابِ

مراده بسخينة قريش ، لأنها كانت تأكلها ، وهى حساء من دقيق ، والأمثلة من هذا النوع مستفيضة .

فإذ نظرنا اليه من ناحية أنه كان يجاز عليه فى الجاهلية وجدناه فى صدر الإسلام كذلك بيد أن كثيراً من الشعراء رغبوا عن الجوائز إلى ثواب الله ، وكثر فى كلامهم ذكر الجنة وما أعدّ الله لعباده من النعيم المقيم ، فأما الجوائز فى الإسلام فقد بدأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه أعطى كعب بن زهير بردته حينما جاءه تائباً بعد أن هجاه وأنشد بين يديه فى مسجده قصيدته التى مطلعها :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِى الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

يقول فيها بعد أن تغزل ما شاء فى سعاد على عادة الشعر الجاهلى يذكر حيرته من ذنبه وانصراف الأخلاء عنه وتأميله العفو :

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ آمُلُهُ ... لَا أُلْهِيَنَّكَ إِنِّى عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِى لَا أَبَالَكُمُ ... فَكُلُّ مَاقَدَّرَ الرَّحْمٰنُ مَفْعُولُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ أَوْعَدَنِى ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ مَأْمُولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الَّذِى أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ ... قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذَنِّى بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ ... أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِىَّ الْأَقَاوِيلُ

وكذلك حبا قُرة بْن هُبيرة وكساه بُرديْن وحمله على فرس بعد أن أسلم وهو من الشعراء ، فقال يذكر ذلك فى قصيد طويل ويمدحه :

حَبَاهَا رَسُولُ ٱللهِ إِذْ نَزَلَتْ بِهِ   وَأَمْكَنَهَا مِنْ نَائِلٍ غَيْرِ مُفْنَدِ
فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوقَ رَحْلِهَا   أَبَرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْحَالِ قَبْلَ ٱبْتِذَالِهِ   وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِحِ الْمُتَجَرِّدِ[1]

فإن قال قائل إن هذا العطاء للتألف لا للشعر ، قلنا له : ومن التألف أن يعطى الشاعر لشعره وهو ما نريد فى مقالنا هذا .

وإن نظرنا إليه فى الجاهلية فوجدناهم يكبرونه ويرفعون درجته عن المنثور ، ويبالغون فى إعظام شأنه إلى حد أن ينسبوه إلى الجن ، وإن كثيراً منه فى نظرهم من فوق القدرة الإنسانية لما وجدوه فيه من هز أنفسهم إلى الكرم ، والدلالة على محاسن الشيم ، وذكر الأيام والمشاهد والمفاخر فى أسلوب ساحر ، إلى غير ذلك ، فإنا نجده فى الإسلام لم ينزل كثيراً عن هذه المنزلة ، ولم يغض منه أن النبى صلى الله عليه وسلم ما عُلم الشعر وما ينبغى له إلا بمقدار ما تقضى أميته من الكتابة ، فكما لا يقول قائل بفضيلة الأمية للناس لأن الرسول كان أمياً لا يقول قائل بفضيلة الجهالة فى الشعر لأن الرسول لم يعلمه ، ولهذا أكثر الحض على تعلمه واستماعه وروايته على شريطة أن يكون فى الحث على فضيلة ، أو ذم رذيلة ، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى يقول له :

« مُرْ مَنْ قبلك بتعَلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق ، وصواب الرأى ، ومعرفة الأنساب » .

ولقد كانت عائشة رضى الله عنها كثيرة الرواية للشعر ، وكان مما ترويه جميع شعر لبيد .

وقد روى الحسن بن رشيق القيروانى أن أعرابيا وقف على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، فقال إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك ، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال علىّ : خطّ حاجتك فى الأرض ، فإنى أرى النصر عليك . فكتب

(١) هو الحصان .

الأعرابي على الأرض إني فقير ، فقال عليّ : يا قنبر ،ادفع له حلّتي الفلانية ، فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كَسَوْتَنى حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنُهَا
فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَلاَ

إِنَّ الثَّنَاءَ لَيُحْيِي ذِكْرَ صَاحِبِهِ .
كَالْغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلاَ

لاَ تَزْهَدِ ٱلدَّهْرَ فى عُرْفٍ بَدَأْتَ بِهِ
فَكُلُّ عَبْدٍ سَيُجْزَى بِالَّذِى فَعَلاَ

فقال عليّ يا قنبر : أعطه خمسين ديناراً ، أما الحلة فلمسألتك ، وأما الدنانير فلأدبك .

فأنت تراه أعطاه لأدبه كما قال بعد أن أعطاه لفقره لما وجده فى شعره من شكر النعمة ، وتمحيض النصيحة ، والترغيب فى الآجل .

هذا وقد قال الشعر ورواه آل البيت النبوى الكريم .

وليس من بنى عبد المطلب رجالاً ونساء مَنْ لم يقل الشعر حاشا رسول الله ، وناهيك بالعباس فقد كان شاعراً مجيداً وله شعر مأثور معدود فى الطبقة العالية ، من ذلك قوله يوم حنين :

أَلاَ هَلْ أَتَى عِرْسِى مَكَرِّى وَمَوْقفى
بِوَادى حُنَيْنٍ وَالْأَسِنَّةُ تُشْرَعُ

وَقَولى إِذَا مَا النَّفْسُ جَاشَت لَهَا قَدى
وَهَامٌ تَدَهْدَى وَالسَّوَاعِدُ تُقْطَعُ

وَكَيْــفَ رَدَدْتَ الْخَيْـــلَ وَهْىَ مُغيــرَةٌ
بِزَوْرَاءَ تُعْطِى بِالْيَدَيْنِ وَتَمْنَــــــــعُ(١)

وكذلك كان الخلفاء الراشدون والجلة من الصحابة والتابعين .

وكانوا يتغنون به ولهم فى ذلك أخبار طويلة ، فمن ذلك ما رواه السائب ابن يزيد : بينا نحن مع عبد الرحمن بن عوف فى طريق إذ قال لرباح بن المغترف غنّنا ، فقال له عمر بن الخطاب : فإن كنت آخذاً فعليك بشعر ضرار بن الخطاب (وضرار هذا من أجلاء الصحابة فارس مغوار ، وشاعر مفلق مقدم على ابن الزبعرى فهو أشعر قريش) ومن شعره :

يَا نَبِىَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَاحَىْ ... رَى قُرَيْشٍ وَلَاتَ حِينَ لَجَاءِ
حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ سَعَةُ الْأَرْ ... ضِ وَعَادَاهُمُ إِلٰهُ السَّمَاءِ
وَٱلْتَقَتْ حَلْقَتَا الْبِطَانِ(٢) عَلَى الْقَو ... مِ وَنُودُوا بِالصَّيْلَمِ الصَّلْعَاءِ(٣)
إِنَّ سَعْدًا يُرِيدُ قَاصِمَةَ الظَّهْ ... رِ بِأَهْلِ الْحَجُونِ وَالْبَطْحَاءِ
فَانْهَنيه فَإِنَّهُ أَسَدُ الْأُسْ ... دِ لَدَى الْغَابِ وَالِغٌ فِى ٱلدِّمَاءِ
إِنَّهُ مُطْرِقٌ يُرِيدُ لَنَا الْأَمْ ... رَ سُكُوتًا كَالْحَيَّةِ الصَّمَّاءِ(٤)

وقد كان ضرار قالها يوم فتح مكة يسترحم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وأراد بسعد سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى ، وقد كانت راية رسول الله يوم الفتح بيده . فإن نظرنا إليه من جهة أنه يستشفع به فى حقن الدماء ، فقد كان الأمر فى الإسلام على ما كان عليه فى الجاهلية كما رأيت فى هذا الحديث .

---

(١) لعلها تعطى السهام ، وتمنع العدو .
(٢) البطان : حزام يجعل تحت بطن البعير وهو مثل فى بلوغ الأمر شدته .
(٣) أى الداهية الشديدة . (٤) أى التى لا تقبل الرقية .

وإن كان من جهة الاستغاثة والنجدة فكذلك وهو فى الإسلام أشد أثراً منه فى الجاهلية لما داخله من المعّطفات الدينية .

فقد روى سعيد بن المسيب أن عمرو بن سليم الخزاعى وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت خزاعة حلفاء له فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حى من خزاعة يقال لهم بنو كعب فقتلوا فيهم ، وأخذوا أموالهم فاستنجد بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنشده بين يديه :

يَا رَبِّ إِنِّى نَاشِدٌ مُحَمَّـــدَا حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا (١)

نَحْنُ وَلَدْنَاهُمْ فَكَانُوا وَلَـــدَا ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا

إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِـدَا وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّـدَا

وَنَصَبُوا لِى فِيكَ دَاءً رَصَدَا وَبَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّـــدَا

وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّـــدَا وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا

وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَـــدَدَا فَانْصُرْ هَدَاكَ ٱللَّهُ نَصْرًا أَبَدَا

وَٱدْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَـدَدَا فِيهِمْ رَسُولُ ٱللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا

إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا (٢) فِى فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِى مُزْبِدَا

فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج بمن معه لنصرهم .

فإذا نظرنا إليه من ناحية ثلم الأعراض والفخر بما لا يحل كالخمر والميسر ، فإن الإسلام أثر فى الشعر من هذه الجهة أثراً صالحاً ، فقد كان الرسول وأصحابه يعاقبون الهجّائين عقاباً صارماً حتى إنهم أهدروا دم ناس من الشعراء كانوا يصدون عن سبيل الله ، ويظاهرون أعداءهم عليهم ، فأما غيرهم فقد كان عقابهم التعزير بالحبس ونحوه كما فعل عمر بالحطيئة حتى كثرت أشعاره فى الاسترحام والتوبة ، وكان من استرحامه قوله :

---

(١) الأتلد : صفة للحلف ، ومعناه القديم . (٢) تربد : تغير .

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاخٍ بِذِى مَرَخٍ زُغْبِ الحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ
أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا عُمَرُ

ولهذا كان الشعر فى صدر الإسلام أنزه منه قبله ، وإن لم يسلم من عيوب الجاهلية سلامة تامة .

فأما النظر من حيث جودة السبك ، وغزارة المعنى ، وتشخيصه ، فهو فى صدر الإسلام أعلى منه قبله على الجملة إذا نظرت فى مجموع ما ورد فى العصرين ، لأن العصر الثانى غزر معناه بالكتاب والسنة ، وما وصل إلى الأمة من آثار الأمم الأخرى ، ومال كثير من الشعراء إلى وضوح المقصد خصو منهم الشعراء العشاق ، وشعراء الحكم والأمثال . فأما من جهة المتانة ، وصفاء العربية ، فإن الجاهلية ما زالوا أصحاب هذين .

وأما من حيث الموضوعات فهى فى الإسلام أوسع منها فى الجاهلية خصوصاً الموضوعات الدينية . هذا ولا يفوتنا أن نبين أن ناساً تنسكوا وزهدوا فى الشعر ، وزهدوا فيه الناس ، أخذا بظاهر ما جاء فى الكتاب العزيز من قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون) وبما ورد من الأخبار فى ذم الشعر ، ولم يفطنوا إلى أن هذا محمول على الشعر الضار كالهجو والغزل فيما لا يباح ، وكاثارة الأحقاد به وغير ذلك مما لا يجوز أن يُؤدى لا بنثر ولا بنظم ، وقد تغالى بعضهم حتى ظن أن رواية الشعر فى رمضان تنقض الوضوء ، فكان ابن عباس وابن سيرين ينهيان الناس عن ذلك ، وقد قيل لسعيد بن المسيب إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر ، فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً ، ولكن هذه الحالة لم تلبث أن زالت فى عصر بنى أمية .

وملخص الفوارق :

أن الجائزة عليه فى الإسلام دونها فى الجاهلية .

أن درجته فى الإسلام دون درجته فى الجاهلية لأن الكتاب زاحمه .

أنه فى الإسلام أنزه منه فى الجاهلية .

انه فى الاسلام أعلى من جهة غزارة المادة ، وتشخيص المعنى .

« « أوسع موضوعاً .

« « دون الجاهلية فى المتانة .

« « دون الجاهلية فى صفاء العربية .

أن الرغبة فيه فى صدر الإسلام دونها فى الجاهلية .

فأما من جهة النجدة به فهو فى الإسلام أظهر .

وهذه الفروق كلها فروق متقاربة لا يكاد يميزها إلا كثير الاطلاع المتذوق لكلام العرب .

* * *

هذا وقد لاحظت أن أكثر تلاميذ الشيخ المهدى أولعوا بالموازنات الشعرية فقد نشر الأستاذ الشيخ عباس الجمل بحثاً فى الموازنة بين أبى تمام وشوقى ، وهى نزعة وصلت إليه من ذلك الباحث العظيم . والأستاذ الشيخ عباس الجمل من أظهر تلاميذ المهدى ، ومن الذين يستظهرون أكثر نوادره الأدبية ، وقد حضرته منذ أشهر وهو يلقى محاضرة فى جمعية الاقتصاد السياسى فرأيت إشاراته ونبراته صورة جديدة من الشيخ المهدى ، وإن لم يفطن لذلك . والأستاذ العظيم هو الذى يطبع تلاميذه بطابعه فيكونون خلفاءه فى عالم الفكر والبيان .

فهرس

الفهرس المفصل

(١) الفهرس المفصل : هى الـكلمة التى اخترناها ترجمة لكلمة « Index détaillé » .

الصفحة الموضـوع

الصفحة الموضـوع